
رواية
بئر
الأفاعي
هالة سامي
عصير
الكتب

بئر الأفاعي



الكتـــــاب : بئر الأفاعي

المـــؤلــــف : هالة سامي

تنسيق داخلي : سندس فخري

الطبعة الأولـى : يناير 2020

رقم الإيـــداع : 2019/28106

I . S . B . N : 978-977-992-075-7

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com



هالة سامي



إهداء

إلى من استقبلهم الظلام عندما فتحوا أعينهم، إلى من حاولوا الصراخ فدوت صرختهم مكتومة لم تجد طريقها للخروج، إلى من ناديناهم صباحًا ومساءً ولم يسمعونا، إلى من شعروا بالنهاية، بلحظة توقّف القلب فاستسلموا وقد اكتفوا بما رأوه، إلى الروح الطاهرة التي اغتالها الشر فأراحها الله من البقاء في الحياة، إلى من واراهم الثرى بعد أن وارتهم الآلام وعاشوا النهاية وحدهم، إلى أولئك الذين تمنوا أن يتذكرهم أحد بعد وفاتهم، إلى أولئك الذين عاشوا بصمت وماتوا بصمت مدوٍ ربما لم نلقاكم ولكننا سنتذكركم.

هالة سامي

أحداث الرواية غير حقيقية وإن تخللتها إحدى الوقائع فهذا من سوء حظي وسوء حظ العالم.

لن تنضج حتى يُهدم أمام عينيك كل ما كُنت تؤمن به

أحمد خالد توفيق

الفصل الأول
العودة

١٤ يناير ١٩٩٨

رائحة الدخان التي ملأت أنفه مصحوبة برائحةٍ عطنةٍ لهواءٍ مكتوم، كان يجاهد لأن يحافظ على رباطة جأشه، يحاول أن يستبدل أذنيه مكان عينيه المُغطاة بغطاء أسود لا يُظهر شيئًا، وصلت لأسماعه أنفاس الرجلين المجاورين له مُمسكين بذراعيه، جامدين كحائط، لا شيء يشغل تفكيرهما في هذا اللحظة إلا ترقّب وصول رئيسهم، ارتعش جسده للحظات وهو يسمع أحد الأبواب تُفتح ليتأهب جسد الرجلين بجانبه، تتبّع صوت تحرّك كرسي ليتوقف الصوت أمامه وهو يلمح أحدهم يزيح من على عينيه الغطاء، رمش بعينيه للحظات حتى يعتاد على نور الغرفة التي لم يستطع تأملها لتتجمّد نظراته على الرجل الذي يقبع على الكرسي أمامه على بعد مسافة ليست ببعيدة وهو ينظر له بجمود وجسده القوي العريض لرجل في منتصف الأربعين من عمره، تغطيه بدلة سوداء أنيقة من ماركة برادا المشهورة، واضعًا رجله فوق الأخرى ويدخن سيجاره بهدوء، ابتلع ريقه وقد بدأ الذعر يتسرّب لجسده بأكمله.

تكلم الرجل أخيرًا بعد لحظات من الصمت، كادت أن تصيبه بأزمة قلبية: «إذا اختفاء حمولة تساوي الكثير سيُثير الشكوك في النهاية».

قاطعه مُسرعًا: «سيدي أقسم لك هي من...» حركة بسيطة من رأس الرجل ليقترب أحد حُراسه في لحظة ليلكم وجه الرجل المُقيد بقوة تسبّبت في سيل خط من الدماء بجانب فمه قاطعًا حديثه.

أخذ الرئيس نفسًا من سيجاره وهو ينفثه باتجاهه ويتحدث ببرود: «لم أسمح لك بالحديث بعد».

شعر بأنفاسه تتسارع وصدره يعلو ويهبط بسرعة، دليلا على ذعره الذي غلب ألمه من اللكمة، بينما أكمل الرئيس مُتلذذًا بحالته: «في عالمي الذي أنا سيده عقوبة الخيانة هي الموت، ولكن الموت البطيء الذي أستمتع بمشاهدته»

ارتجف جسده من الرعب وارتعشت شفتاه وهو يجاهد لكي لا ينهار الآن في هذه اللحظة وهو يستشعر بخبرته من أسلوب سيده أن هناك أمرًا ما، ربما يكون طوق نجاة له، ولم يخب ظنه حيث أكمل سيده: «هل تعلم ما الذي يمنعني عن قضاء الليلة بمشاهدتك تموت ببطء؟! أنت أصبحت مديونًا لي الآن، وأنا لا أتنازل عن رد أحدهم دينه لي، أعلم أنك لم تكن معها وحدك ولكنني لا أهتم بمن رافقك، فهم الآن في طريقهم للموت وما زال حسابي معها لم ينته، بينما أرغب في الاستفادة بك قبل أن تلقى حتفك، ومن يعلم إن حققت لي ما أريده، ربما وقتها أعفو عنك».

شعر بأمل ضئيل في طريقه للظهور، فهتف: «أوامرك سيدي سأفعل كل ما تأمرني به، اطلب أي شيء وسأقدمه لك»

ساد الصمت للحظات والرجل ينظر له بقوة، ولمحة من القسوة المُكللة بالانتصار تُضيء عينيه، ليجيبه مُتسليًا: «حان وقت العودة لأرضك لترد دينك»



القاهرة

٢٢ يونيو ٢٠١٦

«جاهزة أم لا أنا قادم أينما كنتِ»

تكاد تشعر بنبضات قلبها المُضطرب وهي تخرج من مكانها، انزوت في أحد الأركان وأخفت جسدها الضئيل بغطاء سميك كريه الرائحة

:«مهما أجدتِ الاختباء سأجدكِ في النهاية » .

ارتجف جسدها بأكمله وهي تستمع للصوت الأكثر بُغضًا لأذنيها، بينما دمعات يتيمة تسللت من عينيها بصمت.

«اخفِ آثار أقدامكِ، ابقِ في مكانكِ وتوقفي عن التنفس!»

شهقت برعب وهي تلمحه يرفع الغطاء عن وجهها بقوة وينظر لها بنظراته الكريهة، انهمرت دموعها بقوة، وخيط من الماء الدافئ يسيل من بين قدميها ويصل في سكون للأرض وهي تسمعه يقول: «وجدتكِ أخيرًا».

انتفضت من على سريرها بفزع، وهي تلوّح بسكّينها التي جذبتها من أسفل الوسادة، وتحارب ذرات الهواء، كأنها شنت الحرب ضدها، لحظات وهي تلهث وعيناها المُتسعتان برعب تفحص الغرفة وسكونها حتى، ونور الأباجورة بجوارها يسرب ضوءا خفيفا استجمعت نفسها لتتذكر أين هي.

أخذت تهدئ من أنفاسها وحبات عرق تتسلل من أعلى جبينها لتصل لعنقها، ألقت بسكّينها على السرير بقوة واعتدلت في نومتها لتجلس على طرف السرير، رفعت كفيها المُرتعشتين تتخلل خصل شعرها الأسود الغجري المعقود في ربطة مُتراخية وقد هربت منها بعض الخصل، أغمضت عينيها وهي تهمس بصوت مسموع لروحها:

«أنتِ بعيدة عنه أنتِ تخطيته كان هذا في الماضي، هو ليس بقادرٍ على إيذائكِ بعد الآن أنتِ قوية بجراحكِ، بآلامكِ التي سببّها لكِ، يجب أن تتماسكي، ما زلتِ في بداية الحرب، تذكري جيدًا من يهمكِ أمرهم رحمة، ليلى وسهيلة».

سكنت للحظات ثم فتحت عينيها التي ظهر بها بريق ناري كأشجار الزيتون المُشتعلة، خفت في الثانية التالية لتتحول عينيها للوح جليدي شفاف لا يعكس ما يخفيه، نظرت للساعة بجوارها لتجدها السادسة صباحًا لتهمس بشرود: «ها هو يوم المواجهة».



شمال سيناء، محافظة العريش، منزل ممدوح العزامي

طرقات مُترددة على الباب جذبت انتباهها، لتأذن للطارق بالدخول، وهي تدرك هويته أو بالأدق هويتها.

دخلت فتاة رقيقة الملامح ذات شعر أشقر يشبه خيوط العسل، يحمل قصةً صبيانية، في بداية عامها الثامن عشر، بهدوئها المُعتاد، وتحدثت بجمودها الذي تتصف به مع الجميع، ما عدا غُفران العزيزة، قالت ليلى: «جيد أنكِ استيقظتِ أخيرًا».

نظرت لها رحمة بشرود وهي تجيبها: «لقد سهرت بالأمس».

«أعلم» كلمة وحيدة جعلت رحمة تنتقض بداخلها وهي تهمس لنفسها: «إلى أي مدى تعلمين ليلى؟!»

أسبلت رحمة أهدابها، وهي تدير ظهرها، لتدّعي ترتيب سريرها، فساد الصمت للحظات، حتى بادرت بالحديث : «يبدو أن هناك شيئًا تريدين قوله»، أجابتها ليلى بجمود: «غُفران قادمة اليوم.. اتصلت أمس على هاتف المنزل وتحدّثتُ معها».

التفتت رحمة وردت بدهشة: «اليوم! ألم تقل إنها ستأتي في نهاية الشهر حتى تنهي عملها.. هل سألَت عني؟!»، لمحت ليلى بتدقيق شحوب ملامح رحمة وهي تلقي بسؤالها الأخير فأجابتها: «نعم، وأخبرتها أنكِ لستِ بالمنزل»، ابتلعت رحمة ريقها وجاهدت لتخفي توترها عن ليلى: «سأتصل بها بعد قليل».

التفتت رحمة وهي ترتجف داخليًا وتدعو الله أن تتوقف ليلى عن التدقيق بها كما تفعل، فأعصابها على وشك الانهيار بعد أحداث الأيام السابقة.

أغمضت رحمة عينيها تمنع دمعة هاربة منها، وهي تهمس داخلها: «أيام أم سنين يا رحمة!»، فاجأها صوت ليلى القريب من أذنها وهي تقف خلفها وتهمس: «إلى أين سترحلين؟ لقد سمعته صباحًا وهو يتحدّث عنكِ مع أحد رجال عبده الجن».

التفتت رحمة برعب، لتتراجع خطوتين للخلف، وقد فقدت السيطرة على التحكم في ملامح وجهها، ليشوبه الفزع، فهتفت من دون وعي: «رجال عبده الجن! سيُرحّلني!»

مدت ليلى كفيها ومسكت ذراع رحمة بقوة وهي تهتف بغضب مكتوم: «ما الذي يحدث لكِ؟! أخبريني الآن لمَ يريد رحيلكِ؟! إلى ماذا تسعيان معًا؟! هل سيسعى لإصلاح ما أفسده بكِ؟! هل سيخفي آثار ما اقترفه من آثامٍ بروحكِ؟!».

لم يشفع شحوب وجهها بشيء أمام غضب ليلى، التي نفضت ذراع رحمة بقوة من بين يديها، وكأنها شيء قذر تخشى لمسه، لكن أليست كذلك؟!

نظرت لها ليلى باشمئزاز واضح، وهي تهتف أمام وجهها :« «لن تتحركِ من هنا حتى تأتي غُفران وتدرك فداحة ما وصلتِ له، وإن أصررتِ على الرحيل سأقف أنا بوجهكِ رحمة، حتى لو اضطررت لقتالكِ».

ابتعدت ليلى عنها بقوة وهي تنظر لها بغضب، ثم تحركت لتخرج من الغرفة قبل أن تتهور وتصفعها بقوة، ثم تجذبها لحضنها وتعنّفها لما فعلته بنفسها، بينما جلست رحمة على طرف سريرها وهي تحيط بجسدها الذي ينتفض بأكمله وأفكارها تعصف بعقلها، وهي تعي معرفة ليلى بالحقيقة الكاملة التي حاولت جاهدة إخفاءها، أغمضت عينيها وهي تتساءل: هل اليوم هو النهاية؟!



القاهرة في منزل بأحد الأحياء البسيطة

اقبلي يا فتاة النار

دلفت غُفران للغرفة وهي تسمع نداء السيدة العجوز، ابتسامة صغيرة زيّنت وجهها وهي تنظر للمرأة التي تنظر لعينيها مباشرة، وابتسامة رضا تزين ثغرها، تشير بيديها للكرسي المجاور لها في دعوة لغُفران للجلوس، جلست غُفران بهدوء غريب عليها يصيبها دائمًا في حضرة تلك المرأة:«كيف تدركين أنها أنا قبل أن آتي؟!» ازدادت ابتسامة العجوز وهي تجيبها بحب:«قلب الأم يا ابنتي».

جمدت ملامح وجه غُفران، وساد الصمت للحظات، قطعه صوت العجوز الحنون: «أنتِ ابنة لي حتى ولو لم يحملكِ رحمي، فلا تنزعجي يا فتاة النار».

«أنا لم أنزعج، فقط غير مُعتادة على...» صمتت غُفران لتكمل العجوز كلامها: «غير مُعتادة على المشاعر الجميلة»، ابتسمت غُفران بتهكّم وهي تجيبها: «بل على الحب، دعينا من كل هذا الكلام.. كيف هي صحتك؟ هل تحافظين على أدويتك؟»

ابتسمت العجوز لها بتفهّم وهي تدرك تهرّبها من الحديث: «وهل هناك مهرب منها!؟ إن لم أحافظ هاجمتني الآلام يا ابنتي.. وأنا لم أعد أقوى على تحمّلها».

التفتت غُفران لها باهتمام وهي تسألها: «ممَ تشتكين؟ ما الذي يؤلمك؟!» ضحكت العجوز وهي تجيبها: «هل تمارسين وظيفتك عليّ يا فتاة النار؟!» تأففت غُفران باصطناع وهي تنهض من مكانها لتقترب من الكرسي المتحرك الذي تمكث فيه العجوز وتبدأ في فحصها من دون تردد.

مرت دقائق وهي تقيس نبضها وتفحص عينيها وجسدها، وهي تتحدث بهدوء: «أين سعاد؟ لم أجدها حين طرقت الباب، واضطررت لاستخدام المفتاح الاحتياطي أسفل الزرع المجاور للباب».

أجابتها: «تشتري بعض احتياجات المنزل من السوق، أخبرتني أنها لن تتأخر».

«حسنًا، دعينا ننهي فحصكِ، ولكن لنجلسكِ على السرير أولا».

ساعدتها غُفران حتى جعلتها تستلقي على السرير، وجسد العجوز الضئيل لم يشكل عائقًا مع قدرة غُفران، ومرت دقائق حتى أنهت فحصها وعدّلت من وضعيتها حتى تجعلها مريحة لها.

«والآن اجلسي يا فتاة النار وأخرجي ما تكتمينه بجوفكِ ويجعل كمًا هائلًا من الطاقة السلبية يفوح منكِ».

«كيف يمكنك معرفة كل هذا وأنت...» صمتت غُفران لتكمل العجوز وهي ما زالت على ابتسامتها: «وأنا ضريرة! من معرفتي الوثيقة بكِ أدرك أنكِ تصمتين

عن البوح بها مراعاة لمشاعري، وأنتِ لا تعلمين أن أول خطوات علاج المرض الاعتراف به».

نظرت غُفران بجمود لملامح العجوز البشوش، ولعينيها الخاليتين من لمعة الحياة بهما، وهي تجيبها: «لماذا أشعر بأن المغزى من كلامكِ هو الحديث عني؟!»

«أخبريني ما تتهربين من قوله ويُصيبك بالهم».

صمتت غُفران للحظات، ثم أجابتها: «أنا عائدة للبلد، اليوم سأواجهه بما أملك، إما أجد الإثبات الأخير وأعود به أو لا أعود نهائيًا حتى أنهيه بنفسي»، خفتت ابتسامة العجوز، ولمحة قلق ظهرت على وجهها: «هل حان الوقت؟!»

أجابتها بنعم، لتتنهد العجوز وهي تجيبها: «لا أعلم ما أقوله لك يا ابنتي سوى الدعاء، فليحفظك الله أنتِ وإخوتكِ، فأي حديث آخر لن يثنيكِ عن قراركِ، ويبدو من صوتكِ أنكِ جئتي لتخبريني بما تنويه لا لأمنعكِ من فعله»، أجابتها غُفران: «لا شيء سيمنعني من فعل ما نويته يا أم عمران».

اتسعت ابتسامة العجوز وهي تجيبها: «تجيدين اللعب يا فتاة النار، ها أنت تصيبي قلبي بالقلق في لحظة لتسعديه في اللحظة التالية وأنت تناديني بالغالي».

لم تعقب غُفران بشيء على كلامها، لتقول بعد لحظات: «سأترك لسعاد رقم هاتف ممرضة أثق بها، إن احتجتِ لشيء ستتصل بها على الفور لتأتي، وسأكتب لكِ جميع الأدوية التي تأخذينها حتى تحضرها سعاد إن أنهيتها»، لتسألها العجوز: «هل سيطول الأمر؟!»، لم تجبها غُفران بشيء لتسألها العجوز: «أتعلمين لمَ أناديك دومًا بفتاة النار؟!».

أكملت العجوز من دون انتظار جوابها: «أنتِ كتلة من النار قادرة على تدفئة جميع من حولكِ بحنانها المدفون تحت ألسنة النيران، نيران غضبكِ يا ابنتي كبركان كامن، غضبك الذي يمنعكِ من إدراك مقدار المسافة التي تتقلّص حتى تشتعل النيران من حولك فتؤذي القريب قبل البعيد، احذري يا ابنتي من أن يمنعكِ الغضب من رؤية القريب قبل أن تحرقي البعيد».

لم تلمح العجوز ببصرها الآلام التي ارتسمت على وجه غُفران، لكن ببصيرتها وصمت غُفران أدركت أنها أوصلت لها رسالتها كما تريد.



عصرًا بمنزل ممدوح العزامي

وقفت أمام المنزل الضخم تنظر إليه بملامح ساكنة تخفي الكثير من الانفعالات، الكثير من الخوف، الكثير من الغضب أنساها إجهاد السفر، أخذت تتأمل واجهة المنزل وما يحيطه من صحراء قاحلة، وارتفاع الجبال المحيطة به يجعله يبدو كبيت أشباح مخيف في منطقة مقفرة من السكان، ولكن أليس هذا الغرض منه؟! ألا يكون هناك أي سكان في المحيط، لكي لا يتسنى لهم سماع الصراخ، سماع البكاء! أسوار المنزل البعيدة تبدو لها كأسوار تحيط بالجحيم، كان يلحق بالمنزل ذي الثلاثة طوابق حظيرة ضخمة يُرعى فيها الأغنام والماشية والعديد من الدواجن، فكان هذا دخل أسرة المنزل أو بالأدق الدخل الذي تعرفه العائلات القريبة وباقي سُكّان البلد.

سُكّان البلد الذين لا يعلمون شيئًا عن عائلة العزامي سوى أنها عائلة من ضمن العائلات التي ليس لها جذور عريقة بالمنطقة، عائلة انتقلت للسكن بالعريش منذ ثمانية عشر عاما، وحصل رب الأسرة على مكانته بين شيوخ القبائل وأعيان القرية من دون جهد يُذكر وفي وقت قصير، عائلة اشتهرت بأنها مُورّد أساسي للثروة الحيوانية في القرية، حيث تمد سُكّانها وبعض سُكّان القرى المُجاورة بما يملأ حظيرة منزلها، هذا وإن كان ما يملأ الحظيرة أكثر من مجرد أغنام وماشية ودواجن! عائلة تتكون من أب وأم وأربع أخوات (غفران، رحمة التي تصغرها بسنة، والتوءمين ليلى وسهيلة اللتين تصغرانها بعشر سنوات) وابنتا العم (خلود وسمر) أو هكذا أصبحتا وسنهما الكبيرة قليلا لا تساعد على أن تكونا أخوات لهن، فهذا قد يكشف الخدعة الكبيرة.

تنهدت غُفران بتعب وهي تفكر كيف لمكان واحد أن يحمل كل تلك الآثام؟! كيف بواجهة نظيفة تخدع الناس وتحوي الكثير من الفساد، الكثير من الشر دون أن يعرف أحد عنه.

لفت انتباهها باب المزرعة وهو يُفتح لتقابلها صغيرتها، ابتسمت عيناها وهي تنظر للصغيرة التي كبرت، لم تستطع قصة الشعر الصبيانية والملابس الرجالية أن تخفي نضجها، أن تبعد عنها عيون ذلك ال...

ابتلعت ريقها ونظرات ليلى الفرحة تُطمئنها أن الوغد لم يستطع الوصول إليها، وأنه استجاب لتهديدها، اقتربت بهدوء للبوابة لتلمح ارتباكا طفيفا في ملامح ليلى وارتجاف جسدها للحظة، أدركت أن سببه ذلك الذي ظهر خلفها بضخامة جسده وطوله الفارع وبعض الشيب قد تسلّل لشعيراته، فتخدع من يراه بأنها تزيده هيبة بينما لم تر هي فيه سوى النفور والاشمئزاز، قشعريرة سرت بأوصالها وهي ترى اتساع عينيه القاتمتين وهو يبتسم لها ابتسامته الكريهة، كم مر من الوقت عن آخر مرة رأت فيها تلك الملامح وتلك الابتسامة البغيضة! نقلت نظراتها سريعًا لليلي لعلَّها تجد اجابة عن مخاوفها، فلم تمنحها ليلى شيئًا وهي تسبل أهدابها وتضع نفسها في تلك القوقعة التي تخفي بها مشاعرها عمن حولها، تلك القوقعة التي تعلّموها جميعًا منذ صغرهم لكي لا يُظهروا مشاعرهم لأي أحد..:«لا مشاعر إذا ستُنجين من الموت».

وصل لأسماعها نفس الصوت الكريه الذي تبغضه أكثر من أي شيء، نفس الصوت الذي حلمت به صباحًا وهو يفتح أبواب ذكريات الجحيم على روحها: «لا نرى تلهّف صغيرتنا ليلى الشديد لشيء إلا إذا كان له علاقة بغُفران العزيزة، لهفتها الصباحية وترقّبها لحدوث شيء وهي تنظر كل فترة والأخرى لبوابة المزرعة جعلني أتيقّن بقدوم عزيزتنا غُفران، عودًا حميدًا طبيبتنا، مهما طال غيابكِ ومهما ابتعدتِ تحنّين دومًا لجذوركِ».

تجاهلته غُفران كعادتها وهي تقترب من ليلى وتجذبها لأحضانها تحت نظراته المُشتعلة، فلم تحد بعينيها عنه وهي تهمس بشيء لليلى، التي رفعت ذراعها تتشبّث بسترة غُفران، كأنها تتلمّس فيها الأمان، لحظات وهما على نفس الوضع بينما نظرات ممدوح تنتقل بحرية على منحنيات جسدها.

اقشعر جسدها وهي تبعد ليلى عنها بهدوء لتلمس وجنتيها بحنان، وتهز رأسها لها بإشارة لتدلف للداخل، فاستجابت لها ليلى وهي تدرك جيدًا أسبابها.

أسبلت غُفران أهدابها وهي ترى ممدوح على وقفته المائلة، مُستندًا على البوابة يتابع بعينيه مرور ليلى بجواره، حتى دخلت للمنزل ليتحدث بسخريته المُعتادة: «ألن تمنحي والدكِ عناقًا هو الآخر؟!»

رفعت غُفران عينيها لتنظر له ببرود تام، لا يبدو عليها التأثر بما قاله، لتتحدث بهدوء: «رجال عبده الجن في المنطقة!»، اعتدل ممدوح في مكانه وابتسامته تتسع بينما يقترب ليقف أمامها ويتحدث بطريقته الكسولة: «تلميذتي لم تُنسِها معيشة القاهرة وأهلها بما تعلّمته على يدي».

لم ترمش بعينيها وهي تكمل حديثها: «من الهدوء المُحيط بالمزرعة، لا أتوقع وجود ضيوف هنا لذا أنت إما ستُرحّل شيء أو ».

اختفت ابتسامته ليحل محلها جمود ملامحه الغليظة التي كانت تخيفها من قبل، وما عادت تفعل وهو يجيبها: «أظن أنه يجب عليكِ الراحة أولا قبل الخوض في أمور ليست بالأهمية التي تمنحيها لها، خمس ساعات أو أكثر من القاهرة للعريش ليست بهينة، حتمًا جسدكِ الجميل هذا في حاجة لراحة».

اقتربت غُفران الخطوة التي تفصلها عنه وهي تهمس بجمود أمام وجهه: «احذر من أن تكون الأمور بالأهمية التي أظنها، فأنا ما زلت على قسمي الذي هددّتك به منذ سنوات».

حانت منه ابتسامة جانبية أظهرت سنته الذهبية، وهو يجيبها بينما أنفاسه الكريهة تلفّح وجهها: «ادخلي لتطمئني على أفراد عائلتكِ، فأنت غائبة منذ سنتين! سنتين تحملان الكثير والكثير من الأحداث».

لم تحد بعينيها عن عينه وهي تنظر إليه بثبات بينما رجفة أصابت قلبها وهي تتساءل: هل يعي الأحداث التي مرت هنا أم الأحداث التي مرت هناك بالقاهرة؟!



مركز قسم العريش، مكتب اللواء فريد الكيلاني

«هل قابلتها؟!» سؤال خرج من اللواء فريد وهو جالس على مكتبه وهو ينظر بهدوء للرجل الذي يقف أمامه، ورفيقه في المهام منذ أن تم نقله من العاصمة ليكون هنا معه بأوامر عُليا، النقيب سمير أيوب، فأجابه: «نعم سيدي جعلنا الأمر يبدو بروتينية ونحن نطلب منها أن تنزل هي وكل النساء بالسيارة، وأخذنا بطاقاتهن الشخصية وأجرينا تفتيشًا لأغراضهن، ثم أخذناها هي وامرأة أخرى لنقطة التفتيش حتى أستطيع أن أنفرد بالحديث معها من دون أن يشك بها من يراقبونها»

هز اللواء فريد رأسه وهو يسأل بشرود: «إذا هل أخبرتك شيئًا؟!» أجابه: «نعم، رجال عبده الجن في المنطقة، هي لمحت مجموعة من رجاله في أماكن مُتفرّقة على الطريق، هي أبدت قلقها لأنها علمت باتصالها الصباحي بالمنزل أنه ليس هناك أي ضيوف هناك لذا..»

قاطعه اللواء بقلق: «هو سيُرحّل أحد سُكّان المنزل اليوم» هز سمير رأسه وهو يقول: «نعم، وهذا ما يقلقها» سأله اللواء: «حسنًا، ماذا عن رجلنا؟!» أجابه: «وصل بعدها بقليل، وقد علم أن عملية البيع ستتم على حدودنا» سأل اللواء بتوتر: «الحدود!» أجاب عن تساؤله: «حدودنا مع اسرائيل سيدي، رجالنا في قسم شرطة الشيخ زويد أكدوا علينا وجود حركات عشوائية لبعض رجال عبده في المنطقة هناك، وهم في وضع تأهب في حالة حدوث شيء»

نهض اللواء فريد من مكانه وهو يتناول هاتفه: «حسنا، أريد رجالًا مُتخفين في أماكن متفرقة طول الطريق بيننا وبينهم، وأريد أن أقابل رجلنا في أقرب وقت، آه.. سمير أنا أريد الأمر أن يتم في سرية تامة، أنت تعلم عيونه هنا في كل مكان، وأريد رجلًا على مقربة من المنزل يتابعها كظلها إن خرجت، أنا يجب أن أتصل بالعاصمة حتمًا لديهم معلومات لنا»



ليلًا بمنزل ممدوح العزامي

دلفت للمطبخ تبحث عن ماء تروي به عطشها، وهي تحاول جاهدة لملمة شتات روحها، فهي تعي جيدًا أن نظرة واحدة من غُفران لحالتها وستدرك كل ما حدث، لذا يجب أن تُرتّب أفكارها جيدًا.

تجمّدت مكانها وهي ترى غُفران تستند على أحد الكراسي وتنظر لها بتركيز، ساد الصمت للحظات وغُفران تتابع جيدًا ردود أفعال رحمة لرؤيتها وشحوب وجهها، تحدّثت بهدوء: «أصررت على السهر قليلا حتى يتسنى لي الفرصة لأقابل أختي التي تتهرّب من رؤيتي طوال اليوم بالنوم، ولم تُكلّف نفسها استقبالي بعد غياب»، تنهدت رحمة بخفوت وهي تهدئ من ضربات قلبها المُرتجف، هي بأمان طالما غُفران هنا، هذا هو الأكيد، ثم بهدوء اقتربت من غُفران وألقت بجسدها في أحضانها، أغمضت عينيها وهي تحاول أن تبحث عن دفء اشتاقت له فلم تُخيّب غُفران ظنها وهي ترفع ذراعيها وتحاوطها هي الأخرى، طُرفت عيناها بالدموع، دومًا غُفران تستطيع لمس روحها بسهولة.

همست بهدوء: «عودًا حميدًا حبيبتي».

ربتت غُفران على ظهرها بحنان لا يظهر إلا لها ولإخوتهان وبعد دقائق كانتا في وقفتهما المُعتادة أعلى سطح المنزل، تستندان على سور السطح، بينما الظلام يحيط بهما من كل جانب، أدارت غُفران رأسها لرحمة التي تقف بجوارها تتابع شرود عينيها وهي تنظر للقمر الذي يبدد وحشة هذا الظلام، وبادرت بالحديث: «ألن تخبريني ما يشغل عقلكِ هكذا؟!».

بدت رحمة بعيدة في هذا الوقت وهي تجيبها بشرود: «لقد أتيتِ بحقيبة صغيرة»، تمعّنت غُفران في النظر إليها، وهي تعي ما وراء عبارتها، بينما أكملت رحمة: «سترحلين مُجددًا أليس كذلك؟!»، لم تبعد غُفران عينيها عنها وهي تجيبها بخفوت من دون التطرّق لما تخفيه عنها: «يجب أن أفعل هناك أمور عالقة بالقاهرة».

تنهدت رحمة وهي تجيبها بحزن: «سنة أخرى»، هزت غُفران رأسها بالنفي، وهي تجيبها: «لا فقط بضعة أسابيع إن لم أصل لما أريده، صدقيني رحمة إن الأمر هام».

لمحت غُفران اضطراب تنفّس رحمة وارتعاش جسدها وهي تقول بصوت مخنوق: «لن أستطيع، وهي لن تستطيع الصمود لبضعة أشهر أخرى بدون أحد معها»، شعرت غُفران بحالة رحمة غير الطبيعية، فأدارتها لتكون أمامها وهي تنظر لعينيها بتركيز، وهي تهتف بشك: «ما الشيء الذي لن تستطيعي الصمود أمامه، ومن التي تتحدثين عنها؟! ما الذي يحدث معكِ؟!»

لمحت غُفران دموع رحمة تتساقط بوهن، فاشتعلت عيناها بنيران الغضب، والقلق أصاب أعماق قلبها فهدرت بها :«ما كل هذا الوهن الذي أصابكِ؟! أخبريني ماذا حدث؟»

أبعدت رحمة ذراعيها عنها وهي تبتعد وتعطيها ظهرها، بينما تمسح دموعها بتعب، ثم لحظات وهي تُهدّئ حالها وأجابتها: «لم يعد الأمر مُهمًا، لا تشغلي عقلكِ واستمتعي بعطلتك، ثم ارحلي مجددًا وأنا سأتصرّف».

منعتها غُفران من النزول لأسفل، ووقفت أمامها تهتف بها بغضب :: «توقفي عن هذا الدور المُقزز، أنتِ لستِ بهذا الضعف ماذا حدث في غيابي؟!»

شعرت رحمة بالإرهاق وبأعصابها قد فلتت من مهجعها، فهتفت بغضب وهي تدفع غُفران بكفيها في صدرها، لتتراجع غُفران خطوة للخلف مصدومة من ردة فعلها: «بل أنا ضعيفة، أنا مُتعبة، وما حدث في غيابكِ لا دخل لكِ به، فلا تدَّعي الاهتمام وأنتِ لا يشغلكِ سوى مُستقبلكِ، لم تعودي تهتمين كالسابق، فلا تدَّعي الاهتمام الآن، لقد وجدتِ في القاهرة نجدتكِ ونسيتِ أمرنا».

بهت وجه غُفران وهي ترى رحمة في حالة غريبة لأول مرة، وكلماتها تصفع وجهها بقسوة، فتحدّثت بصدمة: «أنا يا رحمة لا يشغلني سوى مستقبلي، هل هذا ما تقتنعين به نفسكِ حتى لا تخبريني بما أصابكِ، وحدكِ تعلمين لما أنا بالقاهرة ولما

ذهبت هناك منذ البداية، وحدكِ تعلمين لما اخترت أنا الابتعاد عن هنا بدلا من أن أكون بجواركم أحميكم من أي شر».

أغمضت رحمة عينيها بوجع وهي تهمس بصوت مسموع: «ليتكِ بقيتِ، ليتكِ ما رحلتِ، ها أنتِ هنا الآن بعد عامين وإلى ماذا وصلتِ؟! لا شيء على الإطلاق بينما عليّ أنا أن أبقى هنا بجواره، تحت قدميه وأدَّعي أن الأمور على ما يرام وأبتسم لكِ وأنا أودعكِ لما لا تقتنعين بأن لا مهرب لما نحن فيه، بأننا سنحيا ونموت هنا في هذا الجحيم وبأن خروجنا منه سيكون فقط إلى جحيم آخر لا يقل عنه سوءًا».

اقتربت غُفران منها وهي تتحدث بحماس: «لقد وصلت، لقد وصلت رحمة، عودتي اليوم فقط لإنهاء العديد من الأمور، أنا على بعد خطوة من إنهاء كافة الأمور لن نظل هنا للأبد، لن ننتقل لجحيم آخر أقسم لكِ»

نظرت رحمة لغُفران بين دموعها وهي تهمس لها: «لا قيمة لقسمكِ الآن غُفران، على الأقل بالنسبة لي، فأنا أصبحت في الجحيم بالفعل ولا مخرج آخر لي منه»

رمشت غُفران بعينيها للحظات وهي تشعر بالقلق يعصف بها فتحدّثت بارتباك: «ما الذي تقصدينه؟!» .

«آه.. أنتما هنا ونحن نبحث عنكما في الأسفل».

التفتت غُفران للصوت ذي البحة الذي قاطعهما، بينما أدارت رحمة وجهها تمسح دموعها حتى لا يلمحها أحد، في محاولة منها لإيقاف انهيارها.

نظرت غُفران بجمود لتلك المرأة التي تقف أمام باب السطح تنظر لها بعيون شابهت عينيها باضطراب تحاول أن تُخفيه، بينما لمحت غُفران شحوب وجهها وجسدها الذي فقد الكثير من الوزن فأصبحت بحجم طفلة في السادسة عشرة من عمرها، لكن خصل شعرها التي تحمل صبغة تخفي بها شيبها كشفت عن عمرها الخامس والأربعين. قطعت المرأة الصمت وهي تتحدث بخفوت لغُفران: «عودٌ حميدٌ يا ابنتي، لم أركِ عند عودتكِ، فأنا كنت نائمة».

ارتعاشة جسدها التي أخفتها ببراعة وهي تشعر بالاشمئزاز لسماع كلمة ابنتي من فمها، بينما نظرت رحمة لها باستغراب، فلأول مرة تنادي والدتهما إحداهن بابنتي، أو حتى تُبرّر أين كانت وماذا تفعل.

ملامح غُفران الجامدة لم تعطِ لها أي إجابة، فتنهدت وهي تنظر لرحمة وتقول بصيغة الأمر المُعتادة: «انزلي رحمة، ممدوح يريد التحدّث إليكِ» .

لمحت غُفران بطرف عينيها ارتعاشة جسد رحمة وهي تجيبها بنعم، فكادت أن تتحرك، حتى مسكت غُفران ذراعها ونظرت لها بقوة وهي تقول :؛ «كلامنا لم ينته، سأتبعكِ بعد أن أنهي حديثي مع السيدة سميرة» .

لمحة ألم مرت في عين رحمة، لتسبل أهدابها عن غُفران وهي تهز رأسها من دون قول شيء، لتتركها غُفران وتتبعها بعينيها وهي تصل لباب السطح وتنزل للأسفل.

رفعت عينيها تنظر لتلك المرأة التي ازداد شحوب وجهها وهي تنظر لغُفران بترقّب، فتحدثت غُفران وابتسامة تهكّم تزين ثغرها: «كيف حالكِ سيدة سميرة؟! أتمنى ألا تكوني بخير!» .

رمشت سميرة بعينيها وهي تعي جملتها بينما أجابتها ببرود: «احذري مما تتمنينه يا غُفران، فليس لكِ أحد غيري» ضحكت غُفران بسخرية وهي تقترب من السيدة التي حظيت بلقب والدة لها ولإخوتها: «غروركِ ليس له حد حقًا، هل أنتِ واثقة بأن ليس لي غيركِ؟» ، أجابتها سميرة بغضب مكتوم: «أنا والدتكِ شئتِ أم أبيتِ، لا تستطيعين تغيير ذلك».

أجابتها غُفران ببرود: «ليتني أستطيع، أخبريني يا سيدة سميرة كيف حال صحتكِ؟! هل تشعرين ببعض الإرهاق؟!، ربما ينزف أنفكِ باستمرار أو ربما تأتيكِ حُمى كل فترة وأخرى، ومن يعلم ربما مجهودكِ لم يعد كالسابق، فلم يعد بإمكانكِ جلد أحد بالسياط، بينما كدمات غريبة تظهر على جسدكِ دون سبب» .

ازداد شحوب وجه سميرة وهي تستمع لكلمات غُفران التي لم تكن مجرد تساؤلات بل كانت حقائق تقرّها عليها، تحدّثت بارتباك: «كيف كيف عرفتِ كل هذا؟! ما الذي فعلته لي؟!» .

أنهت سؤالها الأخير وهي تقبض على مُقدمة سترة غُفران وتجذبها بما استطاعت من قوة لتتسع ابتسامة غُفران وهي تنظر لها وتجيبها ببرود: «ليس أنا من فعلت بل عدالة السماء، فيبدو أن القدر يختم الشر بالشر ولا يرضى أن تنعمي بموت هادئ، يسرّني أن أخبركِ أنكِ مُصابة بـ: «لوكيميا» أو بالأدق مراعاة لجهلكِ ما يسمى سرطان الدم».

انتفضت سميرة مُبتعدة عن غُفران وهي تهز رأسها بلا، رافضة أن تُصدّق ما تسمعه أذناها لتهتف: «أنتِ كاذبة، لا أنا لست مُصابة بشيء، أنا لن أموت».

احتل الجمود ملامح غُفران وهي تنظر لها بخواء: «أنا لا أكذب يا سيدة سميرة، كان على أحدهم أن يعلم الحقيقة، حقيقة ما يحدث في تلك الحياة التي نحياها في هذا الجحيم، الحقيقة التي أعيها وحدي ولكن صغر سني لم يؤكدها لي وقتها، كان يجب أن أتأكد لأطلب من ليلى من شهرين أن تحصل على عينة من دمكِ وأنتِ نائمة لأتأكد إن كنتِ والدتي أم لا، إن كنتِ والدتهن أم لا، لأدرك أن الكذبة الوحيدة التي لم أرغب بها يومًا كانت حقيقة لي، عكسهم حقيقة بغيضة، أدفع عمري كله ولا أحياها لحظة، ولكن كما قلتِ لا أستطيع تغييرها، لأتفاجأ بطبيبة التحاليل تخبرني بأن العينة التي طلبت فحص حمض نووي لها تحمل صاحبتها مرض سرطان الدم، نظرًا لزيادة غير طبيعية لعدد خلايا الدم البيضاء في دمكِ، وكانوا مُتيقنين بنسبة كبيرة، لذا يجب أن تقوم صاحبتها بالتحاليل اللازمة لتتأكد، ولكن من مظهركِ أمامي أستطيع أن أؤكد أن النسبة مئة بالمئة»، هزت سميرة رأسها وهي تسمع ما ألقته عليها غُفران وهي تشد شعرها بقوة وتهمس بتكرار: «لا، لا يمكن»، شعرت بالدوار للحظة لتسند جسدها على الحائط خلفها، وتنظر بشحوب لغُفران وهي تقول بضعف: «هل سأموت يا غُفران؟!» .

رمشت غُفران بعينيها للحظات وقد بُوغتت بسؤالها الذي ألقته بكل الضعف الذي بداخلها ولم تلمحه غُفران يومًا طوال حياتها الثمانية والعشرين، هي كانت تعدّ نفسها بقوة لهذه اللحظة لتلقي عليها الخبر بكل برود وجمود، مُوكدة لنفسها أنها لن تتأثر، لن يؤلمها قلبها، ولن تهتم، فتلك التي أمامها ليست والدتها، هي فقط المرأة التي سكنت في رحمها لتسعة أشهر، لكن أن تسألها بكل هذا الضعف إن كانت

ستموت قد زلزل الأرض التي سعت طوال كل تلك السنوات في تثبيتها تحت قدميها بكل مشاعر الكره والغضب.

قاطع أفكارها نحيب سميرة وهي تقترب من غُفران وتمسك بكفي يديها وتتحدّث بتوسّل: «أرجوكِ افعلي أي شيء، أنا لا أريد أن أموت، أنتِ طبيبة، أخبريني بالدواء وسأحضره أو سأطلب من ممدوح أن يبحث بين الدفعة القادمة على أحد مُناسب تستطيعي أن تحصلي منه على النخاع وتمنحينه لي، أليس العلاج الأفضل أن تزرعي لي نخاعًا؟ لقد سمعت أحد الذين تعاملنا معهم وكان يبحث عن نخاع لابنته، إن الأمر كله في نخاع يكون مناسبًا لفصيلة دمي أليس كذلك؟!» .

طارت كل الذرات التي لسعت قلبها بألم منذ قليل لتنقلب لرياح غضب هادر وهي تسمع كلماتها الأخيرة لتنظر لها باشمئزاز واضح، لتجيبها ببرود: «لديكِ حلول لكل شيء أليس كذلك؟! بعد تسعة وعشرين عامًا تتوسليني لأنقذ حياتكِ، بينما لم تفعلي شيئًا سوى تدمير حياتي وحياتهن؟».

نظرت سميرة لها بصدمة لتبتعد عنها وقد أصابتها الصدمة بهستيرية ضحك تحول لغضب بعد لحظات وهي تهدر فيها، بينما جسدها ينتفض بخوف مما أدركته عن حالتها: «أي حياة التي دمرتها، لقد أنقذتكِ يا غبية، لقد جعلتكِ تحيين حياة ما كنتِ لتعيشينها لو تركتكِ منذ ثمانية عشر عاما، ما كنتِ لتصبحي طبيبة وما كنتِ حتى لتتمكني من الصمود في ذلك الكهف أو ربما صرتِ جارية لأحدهم أو مصدرا جيدا للأعضاء، لقد قدمت لكِ خدمة العمر وأنا أحضركِ معي مُرغمة، وهكذا تردين دينك بأن تأتي بكل برود تخبريني عن مرضي وتتلفّظين بكل تلك الترهات، أنا لا أطلب غُفران أنا آمركِ ويجب عليكِ التنفيذ، سأتحدّث مع ممدوح ليعطي هذا الأمر الأهمية القصوى وأنتِ لن تخرجي من هذا المنزل حتى تعالجيني.. انتهى الأمر».

دفعتها سميرة وتحركت لباب السطح ليوقفها صوت غُفران الذي وصل لأسماعها غريبا ضعيفا! جعلها تلتفت لها باستغراب لتراها تنظر لها بتيهٍ أول مرة تلمحه عليها لتسمعها وهي تقول: «أخبريني سيدة سميرة هل أحضرتني معكِ هنا

لهذا المنزل ولم تتركيني أتعفن في ذلك الكهف الذي ولدت فيه لأنني ابنتكِ أم لأنه سيكون لي فائدة في المستقبل لكِ؟!» .

أخذت سميرة نفسًا طويلًا تُحاول به السيطرة على أعصابها، لتُجيبها ببرودها الذي تعاملت به دومًا مع الجميع: «أخبرتكِ أنني كنت مُرغمة وأنا أحضركِ، فماذا يعنيه هذا لكِ؟!» لتقترب سميرة منها وتقف على بعد خطوة منها وتهتف بكرهٍ أظهر قبح روحها وارتعاشة جسدها الخائن أوضح إرهاقها: «هل تريدين سماعها؟! حسنًا سأخبركِ بها.. أنا لم أرغب يومًا بأن تكوني معي، ولم أكن لأشعر بذرة ندم واحدة لو تركتكِ هناك»، حركت سميرة رأسها جانبها وهي تنظر لغُفران بنظرات حملت كل مشاعر البغض، وهي تكمل: «هل أخبركِ بالأهم؟! أنا لم أرغب بكِ ابنة، كنت على خطوة من إجهاضكِ لولا ممدوح الذي أعلم الآن بعد ما قلته أنكِ متأكدة أنه ليس بوالدكِ الحقيقي لا أنتِ ولا باقي البنات، لولاه لكنتِ الآن ميتة لا وجود لكِ حتى، فهو كان لديه مخططات ولحسن حظكِ أنها نجحت، فتحمّلت هذا الحمل البغيض من أجل هدفٍ أسمى نجحنا أنا وهو في الوصول إليه، رغم أنكِ كنتِ السبب في العقاب الذي نلته لأعود لمصر مجددًا وتعبي وإرهاقي لم يساعداني لأهتم بكل تفاصيل العملية، إلا أنكِ كنتِ السبب في نجاح خطتنا، أما عن والدكِ الحقيقي فستبقين طوال عمركِ المُتبقي جاهلة بمن يكون، أتعلمين لماذا؟! لأنني لا أتذكر من يكون؟! فأنتِ كُنتِ نتاج علاقة دامت ليوم أو ربما لساعة لا أتذكر جيدًا، بذرة من علاقة فاسدة».

لتتعالى ضحكات سميرة وقد فقدت السيطرة على مشاعرها وهي تنظر لها بجنون، لتتركها وتتحرك تجاه الباب لتلتفت رأسها وهي تقول: «استعدي جيدًا لتُنقذي والدتكِ، فهذا ردكِ للدين الذي يحيط بعنقكِ الجميل هذا، واحذري يا غُفران من الغدر، فإن لم تفعلي ما أردته منكِ ستشهد عيناكِ التي سُحبت منهما الحياة الآن موت أخواتكِ الغاليات وأنتِ تدركين جيدًا ما أستطيع فعله».

ساد الصمت للحظات تحوّلت لدقائق، وغُفران جامدة في مكانها تنظر للفراغ الذي خلّفته سميرة وراءها، قطرة من الماء سقطت على كف يديها لتنظر لها باستغراب، فرفعت يديها تمسح على وجنتيها لتجد قطرة تسقط وراءها الأخرى،

لتدرك أنها تبكي، أدموعها هذه بسبب ذلك الألم القاسي الذي يحتل قلبها الآن ويقتلها مع كل نفس تخرجه؟! هل حقًا تبكي قسوة والدتها؟! أغمضت عينيها بألم وهي ترفع قبضتها تضرب بها صدرها بقوة مكان قلبها لعلّ الألم يخبو، وهي تهمس: «توقف عن الألم توقف»، رفعت قبضتها الأخرى وهي تمسح دموعها بقسوة، وقد فقدت قدرتها على التحكم بها لتنهمر دموعها بغزارة، لتشهق غُفران وهي تشعر بقطرات أخرى تتساقط فوق رأسها لتفتح عينيها وترفع رأسها للأعلى لترى مطر السماء قد بدأ في التساقط بهدوء، مطر جاء في غير موسمه لينهمر بعدها بقوة لتغمض عينيها مجددًا والقطرات تمتزج مع دموعها وهي تسمح لروحها أن تتطهر بمطر السماء لعلّه ربما يمحو كل تلك الآلام.



خوفنا هو ما يُجبرنا على جعل من اللاشيء شيئًا بغيضًا

الفصل الثاني
حياة وموت

طرقت باب المكتب بارتجاف لتسمع صوته يأذن لها بالدخول، دلفت للغرفة لتلمحه يتحدث في هاتفه وهو جالس على الأريكة التي تحتل مكانًا كبيرًا بالغرفة، لمحته وهو ينقل نظراته على انحناءات جسدها وابتسامة ترتسم على وجهه فأحاطت جسدها بذراعيها، وهي تشيح بأنظارها عنه لتسمعه ينهي المكالمة وينظر لها بتركيز، ساد الصمت للحظات قبل أن يقطعه قائلًا: «هل استمتعتِ بوقتكِ مع غُفران العزيزة؟!»، ارتعش جسدها ولم تجبه بشيء، ليكمل: «أرى من هيئتكِ أنكِ لم تستطيعي البوح بما حدث، آه رحمة كم أنت فاسدة صغيرة» أجابته بغضب: «أنا لم أخبرها بشيء، لأنها إن عرفت فلن تتردد من غرز سكينها في عنقك»، نهض من مكانه وهو يضحك قائلا: «آه لا تخبريني أنكِ قلقة على نمرتي، ستجعليني هكذا أغير المُخطط الذي رسمته لكِ بدءًا من اليوم»، رفعت أنظارها له لتلمحه يقف على مقربة منها يلمس شعرها بأنامله، لتسأله باضطراب: «أي مخطط؟!» رفع حاجبه الأيمن وهو يقول: «عدم نفيكِ قلقكِ عليّ يثيرني يا نمرتي»، جذبها له بقوة وهو يحيط بذراعه جسدها لتنتفض بقوة بين يديه وهي تحاول باستماتة أن تتحرّر من أحضانه لتهتف بغضب: «لا تعطِ لنفسك قيمة قلقي على غُفران ومستقبلها الذي سينتهي إن قتلتك.. ابتعد عني».

أرجع رأسه للخلف وهو يضحك بقوة ليعود لينظر إليها وهو يضمها له أكثر: «آه يا نمرتي كم سأشتاق لتلك الأظافر التي تنهشين بها كل من يقترب منكِ، ولكني متأكد أن من سيحصل عليكِ سيتلذذ بها وستكوني دُميته المفضلة»، توقفت عن قتاله وهي تسمع جملته الأخيرة لترتعش شفتاها وهي تنظر له بعيون دامعة ليرفع أصابعه ويمسح دموعها التي تساقطت وهو يقول هامسًا: «ستكونين له أكثر من

دُمية كما كنتِ لي وأكثر»، هزت رأسها بلا وهي تنهار بالبكاء هامسة بتوسّل: «لا أرجوك، لا»، نظر لشفتيها ليكمل بجنون وهو يقول :: «لا نمرتي لا تتوسل لأحد، لقد وقع الاختيار عليكِ يا عزيزتي، فهم يريدون بضاعة مُستعملة أو امرأة صغيرة لم يلمسها أحد بعد».

شهقت برعب وهي تعي ما يلمّح له بكلامه عن ليلى، منذ قليل كانت تفكر في قتاله حتى لا يُرحلّها لمكان آخر بعيد عن ليلى، وقد أدركت من غُفران أنها لن تكون هنا لوقت كاف، والآن سترحل، ستوافق أن يرسلها لأي مكان حماية لـ ليلى لتقول: «لا، ليلى لا، أًرجوك»، ابتسم لها وهو يقول بسخرية: «لم أظن أن تلك المشاعر التي بينكن ستفيدنا يومًا ما، كم كنت أبغض ما تفعله غُفران من زرع الحب بينكن، ولكن الآن عليّ أن أشكرها»، ابتعد عنها وهو يتجه للمكتب ليخرج بعض الأوراق لتحيط بجسدها المُرتعش وهي تقول بهمس ضائع: «لا تخبر غُفران أرجوك بأي شيء»، وضع الأوراق التي بيديه في حقيبة صغيرة، وهو يكمل حديثه مُتجاهلًا طلبها، الغبية لا تعلم أن غُفران ستكون في نومتها الهادئة بعد تناولها المنوم في طعام العشاء،: «الليلة سيكون تحرّكنا، استعدي عزيزتي، لا داعي لأي حقائب، فهم يريدونكِ فقط» .



مقر الأمن الوطني

طرقات على باب مكتبه تبعها دخول أحد رجاله: «سامي الأبنوبي» أولاه اهتمامه وهو يلمح على وجهه ملامح أخبار جديدة عاجلة، بادره بالحديث: «أخبرني».

أجابه سامي: «الأمر سيتم الليلة سيدي»، نهض اللواء حسين ثروت من مكانه وهو يجذب سترته ليرتديها على عجال، بينما يتحدّث: «اجتماع سري عاجل لرجالنا سامي، وأريد اتصالا مُباشرا في العريش وأريد عينًا وأذنًا هناك خطوة بخطوة، أجرِ اتصالا آمنا باللواء فريد وأوصلني به على الفور، أريد أن أعرف مخططه وبلغ سكرتير مدير الأمن برغبتي في لقائه في موضوع ذي أهمية قصوى».

بعد منتصف الليل بمنزل ممدوح عزامي

وصلت لأسماعها أصوات مكتومة في الخارج، عقدت حاجبيها باستغراب وهي تنظر للساعة التي تشير عقاربها للثانية صباحًا، نهضت من على سريرها وهي تقترب من النافذة بهدوء لتلمح عربة سوداء رباعية الدفع يقف أمامها رجلان يبدو من هيئتهما الإجرامية أنهما ليسا من المنطقة لتتأكد من ظنونها وهي تراهما يلتفتان لباب المنزل الذي فُتح، لتدقق النظر لتتسع عيناها في اللحظة التالية بصدمة وهي ترى ممدوح يتحدث مع أحد الرجلين وبجواره رحمة، بينما تقف خلفهما سميرة وهي تهمس بشيء لرحمة وابتسامتها الشيطانية على وجهها، بينما ازداد شحوب وجه رحمة قبل أن تركب السيارة في الخلف ويجاورها ممدوح.

لا تعلم كيف تحركت مُسرعة من غرفتها محاولة عدم إيقاظ ليلى في السرير المجاور لها، حملت بكفها سكّينها تخفيها في أحد جيوب معطفها الذي ارتدته وهي تنزل من على الدرج لتتجمد مكانها، وهي ترى سميرة واقفة أمام باب المنزل ويجاورها سمر، وفي يدي كل منهما سلاح. تحدثت سمر بسخرية: «كان يجب أن أدرك أنكِ لن تتناولي أي شيء قدمناه لكِ».

أجابتها غُفران بجمود وعينيها لا تفارق عين سميرة: «أنا لن أجازف بتناول شيء دسستم فيه أي شيء، فحتما وجود رجال عبده الجن ليس بصدفة، لا تريدونني مُستيقظة، خاصة وقد تفاجأتم بعودتي اليوم، إلى أين أخذ رحمة؟!» ابتسمت سمر بسخرية وهي تجيبها بينما لا تعي لحرب النظرات بين غُفران وسميرة: «لمَ لا تصعدي لغرفتكِ ولا تشغلي بالكِ بما يحدث الآن مع رحمة؟».

لمحت غُفران سلاح سمر الذي رفعته وصوبته باتجاهها لتنظر لها للحظة لتعيد أنظارها مجددًا لسميرة،:«لقد خرقتم الاتفاق» أجابتها سميرة بهدوء بينما تقبض على مسدسها بقوة بين يديها دون أن ترفعه،:«اصعدي لغرفتك غُفران، الأمر يتعدى أي اتفاق بيننا، رحمة في طريقها لحياة جديدة، وكما رأيتِها في النافذة لقد رحلت بإرادتها ولم يجبرها أحد على شيء».

كررت غُفران حديثها وهي تنظر لها بثبات: «لقد خرقتم الاتفاق».

لترفع سكينها في اللحظة التالية لتقذفها تجاه سمر بمهارة فيصيب ذراعها، ما جعلها تسقط سلاحها وهي تتأوه بألم، اقتربت غُفران مُسرعة مُستغلة انشغال سمر بألمها وهي تجذب السكين من ذراعها، لتلتقط غُفران سلاح سمر في اللحظة التي رفعت سمر السكين من ذراعها لترفعها تجاه غُفران، كانت قد ابتعدت الأخيرة عنها بمهارة وهي تضرب بمؤخرة السلاح رأس سمر بقوة كبيرة، لتسقط على الأرض مغشية عليها، التفتت مُسرعة لسميرة وهي تصوب السلاح تجاهها لتتفاجأ بالأخيرة وهي ترفع سلاحها على بعد إنشات من جبين غُفران.

تحدّثت غُفران بهدوء غير عابئة بالسلاح المُلتصق بجبينها: «ستصطحبيني لمكان رحمة الآن، وإلا سأُعجّل من المحتوم الذي قد يصيبك في أي لحظة»، أجابتها سميرة: «أنتِ لستِ في وضع يسمح لكِ بإلقاء الأوامر غُفران» أجابتها غُفران والغضب بدأ يتخلل روحها: «وصحتكِ ليست في وضع يسمح لكِ بمواجهتي سميرة»، تنهدت سميرة وهي تنزل سلاحها بينما تتجاهل تهديد غُفران: «لمَ لا تتركيها ترحل.. ربما تجد حياتها في المكان الذي ستذهب إليه»، اقتربت غُفران منها وهي تلتقط سكينها التي ألقت بها سمر بمكان قريب منها، ثم بمهارة شخص أجاد استعمال السكين صوبتها تجاه عنق سميرة وهي تهتف بغضب: «الآن، الآن ستأخذيني إليها، وإلا أقسم لكِ بأنني سأنهي وجودكِ في تلك اللحظة، وأنا بقادرة على الوصول إليهم بطريقتي والآن اختاري حياتكِ مقابل مكان رحمة».

ارتعشت سميرة ونصل السكين ينغرز أكثر في جسدها لتهز رأسها بهدوء، وهي تقول: «سأخبركِ مكانها، ولكن لقد تأخر وقت إنقاذها»، وضعت غُفران سكينها بجيب سروالها، وصوبت السلاح الآخر تجاه سميرة، وهي تخبرها: «التقطي مفتاح السيارة ولنذهب».

انطلقت السيارة تقودها سميرة بينما غُفران بجوارها تصوب السلاح تجاه سميرة، وفي يدها الأخرى هاتفها تحاول أن تتصل بالمساعدة، ولكن الاتصالات لا تكتمل في المنطقة التي بها، شتمت في سرها وهي تشعر بنفاد الوقت بالفعل، نظرت في مرآة السيارة الجانبية وهي تلمح أنوار إحدى السيارات خلفها تُبدّد القليل

من الظلمة، دققت النظر لتلمح وجهًا مألوفًا هتفت بسميرة: «هدئي السرعة»، استجابت لها سميرة وهي تنقل عينيها بين غُفران والسلاح المصوب تجاهها بقلق.

اقتربت السيارة الأخرى لترى غُفران سائقها ينظر لها باطمئنان: «لقد علم اللواء فريد بالأمر، الرجال في كل مكان، نحن فقط لا نعلم أي طريق سيسلكه»، أجابته غُفران بجمود: «إلى أين؟!» أجابها السائق: «إلى الحدود، ستُرحّل لإسرائيل»، شحب وجهها وهي تدير رأسها لسميرة التي شعرت بالتوتر من حديث غُفران مع الرجل ليقع قلبها وهي ترى نظرات الشر في عين غُفران لتبتلع ريقها بصعوبة وهي ترى غُفران تشتم بصوت عالٍ قبل أن توجه لها الحديث: «أسرعي، أقسم لكِ سأقتلكم جميعًا إن أتمم صفقته، الوغد الحقير».

بعد مرور نصف ساعة في الطريق، شعرت غُفران بالقلق وهي لم تر أي سيارات خاصة بممدوح ورجال عبده الجن حتى الآن، خطرت ببالها فكرة لتتناول هاتفها وتقوم باتصالها، سمعتها سميرة وهي تقول: «الشيخ عزيز، ربما حان الوقت لترد دين ابنك، أريد خدمة منك عاجلة».

ارتجاج السيارة بها في الطريق والظلام الذي يسود كل ما حولها لم يخفف من الرعب الذي أصاب قلبها وهي ترى نهايتها ترتسم أمامها، بينما تُساق كالجارية لعالمها الجديد، أغمضت عينيها وهي تشعر بالقليل من الراحة لأنه أخذها بدلًا من ليلى، الغالية ليلى لم تكن لتتحمل رؤيتها تتأذى بأي طريقة. فتحت عينيها على توقّف السيارة فانتفض قلبها برعب وهي تشعر بقرب النهاية، ليجذب انتباهها حديث أحد الرجال مع ممدوح الجالس بالكرسي جوارها هو يسأل الرجل: «ما الذي تقصده؟!» ليجيبه الرجل: «سيدي يخبرك أن الأمر يجب أن يتأجل قليلًا، ربما لساعة أو لساعتين، فالطريق مُلغّم برجال أمن مُتخفين»، أجابه ممدوح بعصبية: «لا يمكننا التأجيل، فهناك موعد للتسليم لا يمكن التأخير عنه»، قال الرجل: «حسنًا سأخبر سيدي، لكن حتى نصل لحل يجب أن نخفي آثارنا حتى إذا مرت دوريات الشرطة هنا لا تجدنا، اتبعني بسيارتك».

سمعت ممدوح يسب وهو يأمر السائق أن يتبع السيارات التي أمامه، وصلوا لمنطقة جبلية يبدو أنها أحد أوكارهم، ولمحت توقف السيارات لترى ممدوح يجذب هاتف الثريا من جيبه ليتصل بأحدهم، أخذ جسدها يرتجف خوفًا وهي تحاول أن ترى أي شيء من الظلام حولها، لتغمض عينيها وهي تستدعي ذكرى، ذكرى طمرتها منذ سنوات، ذكرى لم تتوقف للحظة عن العودة والظهور أمام عقلها في أقسى لحظات حياتها، صوت ربما تناست وجه صاحبه لكن لم تنس الأمان الذي كان يملأ روحها بوجوده فهمست داخلها: «ابق أرجوك».

حركة أثارت انتباههم وهم يرون سيارات رباعية الدفع قادمة من بعيد تمر على الطريق الرئيسي بجوار مكان اختبائهم، ركز ممدوح نظراته على السيارات ليدرك أنها مألوفة له، ساد الصمت وسط الرجال حين لمحوا إحدى السيارات تتوقف لينزل منها ثلاثة رجال يحملون أسلحة، يُدقّقون النظر حول مُحيطهم كأنهم يبحثون عن أحد، لحظات من الصمت وممدوح يتابعهم بتدقيق حين لمح أحدهم يقف مكانه طويلًا ينظر باتجاه مكانهم، فأخذ نفسه أخيرًا وهو يراهم يعودون للسيارة ولحظات وانطلقوا مجددًا في طريقهم.

سأله أحد الرجال: «شرطة؟!»، هز ممدوح رأسه وهو يجيبه: «لا، إنها سيارات الشيخ عزيز، فحتما هؤلاء رجاله، يجب أن نتحرك الآن، فإن صدق حدسي فنحن سنكون في انتظار صحبة غير مرغوبة بها الآن».

انطلقت السيارات تشق صمت الليل الأسود وهي ما زالت قابعة مكانها مُغمضة العينين تتبع صوت ذلك الذي يسكن عقلها، لعلّه يهبها بعض الأمان المفقود. مرت ساعة أخرى حتى توقفت السيارات كلها لتلمح ممدوح يترجّل من السيارة ورجاله معه، فرأت أربع سيارات أخرى أمامها لتُدرك أن حتمًا هذا مكان الاتفاق.

ارتعش جسدها بينما يصل لأسماعها أصوات ضحكات ولغة غير مفهومة لها، فلمحت أحد رجال عبده الجن يقترب من السيارة ليفتح بابها ويجذبها من ذراعها، شهقت بخوف، وكل جسدها يرتعش، وهي ترى الوجه الكريه لعبده الجن وتلك الندبة التي تبدأ من جانب عينيه لفمه تثير داخلها الرعب، كما تفعل دومًا حين كانت تلمحه وهو يأتي للمنزل ليأخذ البضاعة المعتادة، نظر لها باستخفاف

ليضحك ضحكته الكريهة وهي تراه يستلم من رجل كان يرتدي زيًا عسكريًا- ليس محليًا- حقيبتين يبدو أن بهما المقابل من صفقة بيعها، ارتجفت حين لمحت الرجل يتقدّم منها ويدور حولها وهو يتلمّس ذراعها ليقول بلغته كلامًا لممدوح جعل الرجلين يضحكان بصوت عالٍ.

ضغط الرجل بأصابعه على ذقنها ليرفع وجهها ليتأملها بشهوة، وقبل أن ينطق بحرف أصوات رصاص عالية ظهرت من أكثر من أماكن، جذبها أحد رجال عبده الجن تجاه إحدى السيارات لتختبئ خلفها ليبدأ تبادل إطلاق النار، أغمضت عينيها وهي ترتعش ورفعت كفيها لتضغط على أذنيها لعلّها تمنع جميع الأصوات من حولها، وصراخها لا يتوقف، شهقت بخوف حين لمحت أحدهم يجذبها من ذراعها، فلم يكن سوى ذلك الرجل الغريب وهو يلقي بها لأحد رجاله، ويبدو أنه أمره بأخذها لمكان بعيد عن هنا، جذبها الرجل للسيارة بينما التف مسرعًا ليركب بجوارها، لتصيبه رصاصة جعلتها تصرخ برعب وهي تراه يسقط على الأرض مُدرجًا بدمائه، رفعت رأسها لترى رجال الرجل العسكري يجذبونه لسيارة أخرى، ولحظات وانطلقت السيارة بعيدًا عن إطلاق النار، تليها سيارة عبده الجن وباقي رجاله ليفروا هاربين، نظرت حولها وهي تلمح رجالا مدرجين بدمائهم على الأرض، أخذت تبحث بعينيها عن أحد فلمحت ممدوح وهو مختبئ خلف إحدى السيارات، بجانبه رجله ورجلان بأسلحتهم يقتربون منه، اتسعت عيناها وهي تراه ينهض من مكانه في لحظة ليصيب أحدهم برصاصة في رأسه، بينما الرجل الآخر يصيب الثاني من الخلف.

عمّ السكون فجأة كما صدح صوت الرصاص فجأة، وعيناها ما زالت على ممدوح الذي التفت إليها في هذه اللحظة وهي ترى الشر الكامن في عينيه الغاضبتين، اقترب منها فلمحت بعينيها سلاحًا في الكرسي بجوارها، فحملته لتخفيه خلف ظهرها في اللحظة التي فتح فيها الباب ليجذبها من ذراعها وهو يسب ويلعن.

كاد أن يتحرك حين دوى رصاص حوله، ليلتفت إلى رجله ليجده يصرخ من الألم وهو على الأرض، التفت مسرعًا لمصدر الرصاص، فلمح تلك التي كان على

ثقة بأنها ستفسد كل مخططاته، جذب رحمة أمامه ليخفي نفسه خلفها وهو يهتف بصوته العالي بينما يصوب سلاحه تجاه رأس رحمة: «ألقي بسلاحكِ غُفران وإلا ماتت».

تنفّست غُفران بغضب وهي تلمح ارتعاش رحمة ودموعها تغرق وجنتيها وهي تهمس بإسمها: «غُفران».

تحدثت غُفران بغضب مكتوم: «لقد انتهى الأمر ممدوح، لقد انتهت الصفقة التي عقدتها، وانتهى الاتفاق الذي كان بيننا»، ضحك ممدوح بصوت عالٍ وهو يقول: «هل ظننتِ حقًا أنني أهتم باتفاقنا؟! أنتِ مخطئة عزيزتي، فأنا لم أعره يومًا اهتمامي، فقط أوهمتك باستكانتي لكِ، ولا تظني أن قدومكِ مع رجال الشيخ عزيز سيوهمني بقدرتكِ على الانتصار عليّ، ها هم جميعًا مُدرّجون بدمائهم وأنتِ هنا وحدكِ، لقد ساعدكِ الوغد العجوز في النهاية، هل الآن يرد دينه مقابل إنقاذكَ حياة ابنه من الموت؟! أنتِ مخطئة غُفران، فالصفقة التي عقدتها لم تنته بعد، أنا لا أُريد أن أخسر هؤلاء الرجال فبيننا عمل لم ينته بعد، وبعد أن أخذت مالي فيجب أن أُسلمهم رحمة، هكذا كان الاتفاق، لذا ستلقين بسلاحكِ الآن وتعودين للمنزل حتى أوصل رحمة لمالكيها وأعود».

لم تنزل غُفران سلاحها وهي تهتف بغضب: «على جثتي»، سمعت صوتًا خلفها يقول: «لا أظن ذلك غُفران»، ابتعدت قليلا عن الصوت لتقف بجوارها لتتجمد مكانها وهي تلمح سميرة تصوب سكينها نحو عنقها لتقول بتهكم: «لم أجازف بالقدوم معك والاستسلام لتهديدكِ لي تحت السلاح إلا لأمنعكِ في الوقت المناسب، كان عليكِ التأكد من عدم امتلاكي أي سلاح مخفي عن عينيكِ، والآن ستنزلين سلاحكِ وتعودين معي للمنزل كأي ابنة مطيعة حتى ينهي ممدوح عمله».

ظلت غُفران رافعة سلاحها تجاه ممدوح بينما عينها على سميرة وهي تقول: «خرقكم الاتفاق الذي كان بيننا حرمكم من تنفيذي أي أمر تريدونه، دقائق وسيعج المكان بالشرطة، وبالأدق الأمن الوطني، وبعدها لن ينفذ أحد لكم أي أوامر تريدونها»، نظر ممدوح لسميرة التي قالت: «نعم يبدو أن ابنتنا الغالية على علاقة بالشرطة، حارسك الأمين في النهاية لم يقم بمهامه جيدًا»، أخذت غُفران

كلامها وخزنته في جانب من عقلها وهي لا تعي عمن تتحدث، ولكن الآن ليس وقت التفكير.

دوى صوت صفارات سيارات الشرطة قريبًا منها لتشعر بالقليل من الارتياح لم يطل، وهي تستشعر بصوت خلفها، التفتت مسرعة لتجد خلود تقترب منها بسكينها التي يبدو أنها كانت بسيارتها على مقربة من ممدوح كعادتها، أصابت خلود ذراع غُفران بالسكين، ما جعل سلاحها يسقط منها، فدار شجار قوي بينهما، فلم تلمح تلك التي اقتُربّت منهما في محاولة منها للوصول لسلاح ناري لأحد الرجال الموتى على الأرض، ضربة قوية من غُفران لخلود جعلت الدماء تنفجر من أنفها فنهضت مُسرعة تجاه سلاحها وهي تلمح التقاط سميرة أحد الأسلحة، التقطته مُسرعة وهي تصوبه تجاه سميرة، ليدوي صوت طلقات رصاص، تجمدت الاثنتان وكلا منهما تعي أن الرصاصة لم تُطلق من سلاحها لتلتفتا على صوت صراخ من ممدوح الذي كان يصوب سلاحه تجاه غُفران، وكاد أن يطلقه عليها، بينما دماء غزيرة تنفجر من ساقه وهو يترنح مكانه من الألم، اعتدل في وقفته وهو ينظر بصدمة لرحمة التي كانت تنظر له بجمود، بينما السلاح بيديها مصوب باتجاهه، طلقة أخرى انطلقت من سلاحها لتقبع في صدره، صدمة اعترت الجميع لتفيق منها غُفران مُسرعة بعد أن تحركت خلود باتجاه ممدوح مُتفقدة إياه، فلمحت سميرة ترفع سلاحها تجاه رحمة وتصرخ بلا في نفس لحظة وصول الشرطة، رصاصة دوى صوتها في السماء لتتبعها أخرى ثم أخرى، والجميع جامد مكانه سوى رجال الشرطة الذين أمروا بإلقاء السلاح في الحال، اندفعت خلود تجاه إحدى السيارات القريبة منها لتركبها مُسرعة وهي تهرب من المكان بأكمله تحت رصاص رجال الشرطة، الذي لم يصب سوى زجاج سيارتها.

«غُفران» صوت أجفلها وهي ترمش بعينيها لتظهر لها الصورة التي ظنت أنها تتخيّلها لتجدها حقيقية لسميرة وهي مُدرجة بدمائها على الأرض وعينيها شاخصة للسماء، جذب النقيب سمير السلاح من يديها وهو يقول: «لقد انتهى الأمر غُفران».

لم تسمع ما يقول وهو تدير رأسها بقوة لرحمة، التي تقف جامدة مكانها تنظر لجسد ممدوح بجمود، فاقتربت منها مُسرعة لتجذب السلاح منها بقوة وتجذبها لحضنها، وتخفي عينيها عن ممدوح المُدرج بدمائه، وهي تهمس بقوة بينما قلبها ينتفض داخلها: «رحمة».



يزعم بعضهم أن الوجود على هذه الأرض لا يمكن تصوره خاليًا من الألم ومن الظلم اللذين يستطيعان وحدهما أن يهيأ للإنسان معرفة الخير والشر.

ألا بئست تلك المعرفة إذا كان ثمنها هذا الثمن!

دوستويفسكي

الفصل الثالث
من أنا؟!

بعد أسبوع

كان يقود سيارته بأسرع ما يمكن، أمل كاد أن يمحوه الزمن، شعر كأن روحه تكاد أن تخرج من جسده، ارتعشت يداه المُمسكتان بالمقود فابتلع ريقه بصعوبة وجبينه يتعرّق بغزارة رغم اعتدال الطقس من حوله.

وصل للمنزل وهو يلهث كأنه كان يجري على قدميه، نزل مُسرعًا وتوجّه لبوابة المنزل فتفاجأ بزوجته تفتح الباب والدموع تغرق وجهها وهي تهتف باسمه: «محمد» .

رفعت يدًا له والأخرى تسند بها جسدها على حافة الباب، فاقترب مُسرعًا مُتخطيًا درجات السلم الثلاث الأولى، حتى أمسك يديها الممدودة وجذبها لحضنه، لا يعلم إن كانت الارتجافة نابعة من جسده أم جسدها، ولكنه ضم جسدها بقوة وهو يهمس: :«اهدئي حبيبتي، تماسكي لقد جئت بعد أن سمعت الخبر» .

ظهر ابنه البكر من خلف زوجته وهو يرتدي سترة بدلته، وهو يحاول جاهدًا إخفاء توتره، ولكن شحوب وجهه أظهر مدى صدمته وهو ينظر لوالده فتحدّث بارتباك: «أبي، لقد اتصل أحدهم من المشفى الدولي يسأل عنك بالاسم» تعالت شهقات جميلة وهي في حضن زوجها لتردف بين بكائها: «ابنتي، إنها ابنتي يا محمد، أميرة ابنتنا» .

أغمض محمد عينيه وهو يشعر ببوادر أزمة قلبية، فتنفس بهدوء يعاكس النيران المُشتعلة بداخله، وأردف بصوته الحنون: «اهدئي حبيبتي، سأذهب الآن مع آسر،

لن نتأخر» انتفضت مُبتعدة عن حضنه بينما دموعها ترسم لوحة حزينة على وجهها الحبيب له لتهتف بقوة: «لا، سآتي معك، لن أنتظر هنا» .

أحاط آسر ذراعها بكفيه وهو يربت عليها بحنان: «حسنًا أمي اهدئي، نحن بحاجة لأن نكون أقوياء الآن، فنحن لا نعلم ماذا ينتظرنا؟!» .

نظرت جميلة باستجداء لمحمد، فلم يستطع فعل شيء أمام دموعها سوى أن ينفذ رغبتها، فهز رأسه لها ومسك يديها بعد أن أعطى مفتاح السيارة لآسر لعدم قدرته على القيادة مجددًا، فقادها آسر بينما جلس والداه في الخلف، كلاهما يستمد القوة من الآخر.

وصلوا للمشفى ولمحوا تجمّعًا كبيرًا أمام البوابة الأمامية لأعداد كبيرة من الصحفيين، وكاميرات التليفزيون، يحاولون جاهدين تصوير ما يحدث وإذاعته على جميع القنوات.

التفت آسر لوالده وتحدث بهدوء: «سأذهب لأري كيف ندخل بعيدًا عن الصحافة» ، هز والده رأسه بهدوء بينما ازدادت جميلة في الضغط على يديه وهي تهمس: «يا إلهي كن معنا» .

تخطّي آسر أحد الصحفيين ليصل لأمن المشفى المُرابط أمام البوابة مانعين أي صحفي من الدخول، تحدّث أحد الصحفيين أمام كاميرا إحدى القنوات المشهورة.

«نحن الآن أمام المشفى الدولي للعاصمة في انتظار خروج أحد المسؤولين ليدلي بتصريحه المهم بعد الحادثة التي حرّكت كل الجهات في البلد، وقد وصلتنا معلومات أن الضحية الأولى هي امرأة في العقد الرابع من عمرها واسمها سميرة فتحي، أما الضحية الثانية فهو رجل في منتصف العقد الرابع من عمره ويسمى ممدوح جابر وقد اكتشفت السلطات المصرية سجلات خطيرة لكلا الضحيتين وعلاقتهما بأكبر مافيا لتجارة الأعضاء والعديد من الأنشطة غير القانونية، ولكن لم تصلنا معلومات بعد عن تلك الأنشطة، أما عن أسماء الفتيات المقبوض عليهن فلا نعلم بعد إن كنَّ على صلة بتلك الجرائم أم لا، ولكن قد توصّلنا لأنهن حاملات هويات مزيفة طوال تلك الفترة التي قضينها في كنف تلك العائلة، وقد توصّلنا لأسمائهن الحقيقية

وهي حصرية لقناتنا، فقد وصلتنا في التو من أحد مصادرنا وهن (زمرد مصطفى خيري البالغة من العمر ثمانية وعشرين عامًا، وأميرة محمد الأسيوطي البالغة من العمر ثمانية عشر عامًا، أما الأخيرة فهي غُفران ممدوح جابر التي يتم التحقيق معها الآن، حيث إنها الابنة الحقيقية للضحية الأول)، وصرح مسؤول بهروب فتاتين أخريين بعد فشل الشرطة في القبض عليهما، وجار البحث عنهما، أما عن الفتاتين السابق ذكر اسميهما فقد تم الإعلان عن اختفائهما منذ ثمانية عشر عاما، أميرة محمد الأسيوطي تم الإعلان عن اختفائها بعد أسبوع من ولادتها في منتصف شهر فبراير ١٩٩٨، من مشفى حكومي بوسط البلد، وقد صادف خطفها من المشفى مع طفلة أخرى هناك، ولكن لم نكتشف صلة لها مع تلك الجماعة الإرهابية بعد، وقد صادف ذلك اليوم نفس يوم خطف الشابة الأخرى زمرد مصطفى خيري من أمام شارع منزلها، وهي طفلة في العاشرة من عمرها، نحن في انتظار المزيد من المعلومات من مصادرنا فتابعونا».

بعد عشر دقائق ركب آسر سيارته وبجواره أحد رجال الأمن الذي ألقى سلامًا سريعًا لعائلة آسر، وهو يرشد آسر للبوابة الخلفية للمشفى حيث هناك رجال في استقبال عائلات الفتيات، كان قلباهما يرتجفان رعبًا من اللقاء وعقل كل منهما يرسم حوارًا مختلفًا، أحداثه لها علاقة بها أميرتهما الضائعة.

في غرفة بيضاء ذات ستائر سماوية اللون هادئة كانت تجلس على السرير بهدوء غريب، في انتظار أن يفتح أحدهم الباب، العديد من الطبيبات قد فحصوها للمرة الثانية بعد رفضها الشديد لأي طبيب، وقد تفهّم الجميع حالتها، اطمأنت الطبيبات على تحاليلها وصحتها خالية من أي إصابات أو أمراض، لا تفهم لما يبقونها إذًا كل هذا الوقت في هذه الغرفة التي تثير ضيقها، لقد مر أسبوع كامل منذ ذلك اليوم الذي استيقظت فيه على صوت سيارات الشرطة وهي تطوّق المكان بأكمله بينما جاءها أحد الضباط الذي يبدو على معرفة تامة بغُفران ليخبرها بكل هدوء بالذهاب معه لمشفى المدينة، ثلاثة أيام قضتها هناك دون أن تعرف ماذا يحدث، سؤال وحيد خرج من فمها لذلك الشرطي الذي جاء مجددًا لرؤيتها، عن غُفران، فأجابها بأنها ستقابلها قريبًا، مرت بنفس ما مرت به هنا من تحاليل

وأشعة ولم يفتها حديث الممرضة التي أخبرتها بعد أن أخذت عينة منها بأنه تحليل DNA خاص بمعرفة من تكون، أسئلة كثيرة راودتها حين تم نقلها لمشفى العاصمة بالقاهرة تحت تأمين شديد بالعديد من سيارات الشرطة لتقبع هنا في تلك الغرفة، حتى مر أسبوع وهي لا تعلم بعد ماذا حدث، فقط بعض الكلمات التي تلتقطها من هنا وهناك عن قضية كبيرة تخص الأمن الوطني، تُرى هل اكتشفوا أخيرًا ما حدث؟! هل أظهرت غُفران أخيرًا كل أوراقها؟! ألهذا لا تستطيع مقابلتها؟!

أغمضت عينيها بقوة وهي تحاول تذكّر كل ما تعلّمته من قوانين التحكّم بالنفس، ودقائق وفتحت عينيها العسليتين لتشعا بنيران الخوف التي خمدت في لحظة وهي تسمع طرقات على الباب، تبعها دخول إحدى الطبيبات التي تبتسم برزانة فابتسمت بسخرية بداخلها وهي تلمح اضطراب عين الطبيبة وهي تتقدّم منها كأنها وحش سيفترسها في أي فرصة، ولكن أليس هذا حالهن جميعًا همست بداخلها

«الطبيبة المُتذاكية مُرتبكة وتحمل خبرًا جديدًا» وصلها صوت الطبيبة وهي تقول: «عزيزتي هل أنتِ مُستعدة للقاء عائلتكِ؟!» .

ظلت تنظر لها للحظات بجمود ثم رمشت مرتين بعينيها وقبضة قوية تعتصر قلبها خوفًا، وهي تعتقد أنها تشير لممدوح وسميرة التي لا تعلم عنهما شيئًا حتى الآن، تحدّثت بهدوء: «ماذا؟!» فأعادت الطبيبة سؤالها مجددًا فلم تجد ردًا منها، فتنهدت بخفوت وهي تُحدّثها كطفلة في الخامسة من عمرها مما زاد من ضيقها: «حبيبتي لقد جاءت عائلتكِ الحقيقية وهم بالخارج ينتظرون إذنكِ حتى يدخلوا لرؤيتكِ».

لا رد، كأنها تُحدّث حائطًا، فزفرت بخفوت وابتلعت ريقها بتوتر واضح، ثم تحرّكت تجاه الباب تحت أعينها الجليدية وهي ترفع كفيها تسمح لأحدهم بالدخول فنهضت أميرة من مكانها على السرير لتقف بجمود أمام امرأة ورجلين: «عائلتها الحقيقية.. ما الذي؟» همست داخلها بتساؤلها وهي تنظر لهم.

رفعت جميلة كفيها لفمها تمنع شهقاتها حتى لا تخيف الطفلة التي تقف أمامها، نعم هي طفلة لا يتعدّى طولها مئة وخمسين سنتيمترًا وجسدها الهش

الصغير وملامح وجهها الطفولية وشعرها الناعم القصير الأشبه بقصة ولادية أمام عينيها، عند هذه اللحظة شهقت جميلة عاليًا وهي تتأملها بعينيها، فاقتربت منها لتجذبها لحضنها بقوة وهي تهتف بين بكائها: «طفلتي، إنها ابنتي، آه يا فلذة قلبي، آه يا عمري، لقد أخذوكِ مني يا حبيبة والدتكِ، لقد اختطفوكِ من بين يدي، أميرتي أنا، ابنتي أنا».

كانت جميلة تتحدّث بين شهقاتها وهي تحتضن أميرة بقوة، بينما كانت ملامح أميرة جليدية لا توحي بأي شيء كلوح جليدي بين أحضان جميلة، تابعها آسر بعينيه وهول الموقف لم يمنعه من النظر إليها بمهنية أدرك فيها أنها ليست في حالتها الطبيعية، همس داخله بضيق: «يبدو أنها كانت جاهلة بما يحدث معها، فالأغبياء لم يُمهّدوا لها الأمر».

قاطع تفكيره استناد والده على ذراعيه، فمسك به بقوة ورفع عينيه له ليلمح دموعه التي لم يستطع كتمها، فرقّ قلبه لأبيه الحبيب، فربت آسر على كف والده بحنو وهو يبتسم له بهدوء، وفي داخله فكرة واحدة اشتعلت بعقله وهو يلمح جمودها: «تلك الفتاة لن تتقبّل أيًا منهم، فهي ما زالت في حالة صدمة».

اقترب محمد من جميلة التي تقبّل وجه أميرة بحب، وتتحدّث بين دموعها، فجذب جميلة من أمامها بهدوء وهو يحاول جاهدًا التحكم في دموعه ويتحدّث بصدمة: «اتركيها قليلا يا جميلة، دعيني أتأمل صغيرتنا، دعيني أقر عيني بها، حبيبة والدها أميرة قلبي».

اقترب محمد لكي يحتضن ابنته، فبدأت إشعارات الإنذار لدى أميرة بالانطلاق فجذبت نفسها مُبتعدة عن طريقه وهي تخرج أخيرًا من حالة الجمود لتهتف عاليًا بشراسة: «إياك أن تقترب مني»

ساد الصمت في الغرفة حتى دموع جميلة قد توقفت وهي ترى ملامح الغضب والكره ترتسم بوضوح على وجه ابنتها وهي تنظر لزوجها محمد، فابتلعت ريقها بصعوبة بينما اضطربت الطبيبة الواقفة خلف آسر، ولم تدر ما تفعله وهي ترى أخيرًا رد فعل من أميرة، بينما تابعها آسر بمهنية وهو يلمح ملامح الكرهِ وجسدها

الذي اتخذ وضعية الدفاع عن النفس، فرفعت يديها الاثنتين أمام والده كأنها ستقاتله!

عند هذه اللحظة أدرك آسر أن تلك الفتاة تعاني من خطب، ومشكلتها تبدو حقًا كبيرة، فاقترب بهدوء وهو يخفي صدمته ويحاول تذكّر كل ما تعلمه في الطب النفسي وكل ما مر عليه خلال سنوات حياته الثلاثين فناداها بهدوء: «أميرة» .

التفتت أميرة بجسدها له وهي ما زالت على هيئتها وتنقل نظراتها بين هذا الشاب والرجل الواقف بصدمة أمامها، لتجده يتحدّث بهدوء: «أميرة نحن عائلتكِ، هذه والدتكِ وهذا والدكِ وأنا أخوكِ الأكبر» .

لمح آسر اهتزاز حدقتي عينيها للحظة، قبل أن ترتدي قناع الجمود مجددًا، فاستغرب قدرتها على إخفائها مشاعرها بهذه السرعة وثباتها الانفعالي.

اقتربت جميلة بهدوء وهي تمسح دموعها، وقد لمحت توتر الموقف حتى وقفت أمام يد أميرة ولمستها بحنان حتى أنزلتها، وقد استطاعت جذب عين أميرة لها بعيدًا عن محمد زوجها، وتحدّثت بحب صادق لمس جزءًا بعيدًا كان مُغلقًا عليه من زمن في قلب أميرة: «ابنتي الغالية هذا والدكِ وهذا أخوكِ، لن يؤذيكِ أحد بعد الآن، نحن عائلتكِ الحقيقية يا أميرة»، أجابتها أميرة بجمود: «اسمي ليلى».

شعر آسر بالتفاؤل قليلا لتجاوبها مع والدتها فتحدّث بهدوء: «أبي لمَ لا نترك أميرة مع أمي قليلا؟!» .

رفع محمد عينيه الدامعة لابنه ونقل بنظراته بينه وبين ابنته فلذة قلبه التي تخشاه، لمحت أميرة نظرة ألم في عين محمد، لكنها واجهتها بكره واضح، فأسبل أهدابه بحزن حتى أعاد آسر نداءه لوالده مجددًا فتحرك في اتجاه الباب معه، وحين التفت قبل خروجه لمح جميلة تنظر له باعتذار وتهز رأسها بهدوء كأنها تخبره بألا يقلق، يكفيهم عثورهم عليها بعد كل هذه السنوات فابتسم بتفهّم حزين وتحرك ليخرج من الغرفة ويغلق الباب خلفه بعد خروج الممرضة.

مسكت جميلة يد أميرة بدفء استشعرته الأخيرة فارتجف جسدها وجذبتها جميلة لتجلس على الأريكة بجوار النافذة وهي تتأمل ملامحها، وعادت دموعها

في الانهمار مجددًا، فتحدّثت جميلة من بين دموعها: «حبيبة والدتكِ يا إلهي لو تعلمين كم اشتقت إليكِ، تخيّلتكِ كثيرًا في عقلي ولكن لم أتخيّلكِ بهذا الجمال».

رفعت جميلة يديها تتلمس ملامح وجه ابنتها وشعرها القصير فضحكت بين دموعها وهي تهمس لها: «لقد أخذتِ عين والدكِ يا أميرة مثل أخوتكِ» .

ابتلعت أميرة ريقها بتوتر لم تستطع أن تخفيه وهي تستشعر لأول مرة لمسات حنان لم تعرفها في حياتها، فهمست بهدوء: «اسمي ليلى» ابتسمت جميلة لها وهي تمسح دموعها لتجيبها :«هل تُريدين أن أناديكِ بليلى؟!» .

صمتت أميرة وهي تفكّر إن كان كل ما يحدث حولها حقيقيًا هل تريد حقًا أي شيء يربطها باسم ليلى؟! ولكن كيف وكل ما يرتبط بليلى كان ألمًا وقسوة وحزنًا وجفاء ويُتمًا، بينما تلك الأميرة يبدو أنها تحظى بالكثير، أغمضت عينيها بقوة وهي تنفض كل تلك الأفكار من رأسها، وارتدت قناع الجمود مجددًا لتلمح جميلة تشنّج جسدها: «نعم اسمي ليلى».

هزت جميلة رأسها بتفهّم وهي تبتسم لها بحنان لتقول: «حسنًا ليكن ليلى، والآن هل أنتِ مستعدة لتعودي معي لبيتكِ الجديد؟!» .

صمتت أميرة مجددًا وكأنه لزامًا عليها أن تعيد التفكير في كل حرف يخرج منها، أي بيت جديد تتحدّث عنه تلك السيدة! هل سيكون لها بيت جديد؟! ماذا عن أخواتها؟! ماذا عما حدث؟! هي لا تفهم الكثير، إن كانت هذه السيدة التي تنظر لها بحنان هي والدتها فمن تكون السيدة سميرة؟!

تذكّرت جملة: «لقد خطفوكِ من بين يدي»، فسألتها بحذر تريد معرفة ما حدث أو على الأقل ترتب أفكارها حتى تأتي غُفران لتفهم منها كل شيء: «لقد قلتِ أنهم خطفوني من بين يديكِ من هم؟!» .

تلألأت عين جميلة بالدموع مجددًا وهي تلمح ارتباك أميرة وحيرتها فأدركت أن المسكينة لا تعلم أي شيء.

ربتت جميلة على كف أميرة بحنان لتجيبها بابتسامة حزينة:«منذ ثمانية عشر عاما في الساعة الثانية فجرًا في الخامس من شهر فبراير، بدأت حرب داخلية بين

فتاة وولد، كلاهما يصارع من أجل أن يخرج أولا من بطن والدته، فصرخت الأم عاليًا حتى استيقظ زوجها فزعًا، وهو يدرك بعينيه المهنية قبل الأبوية أن حان وقت الولادة، فأسرع بزوجته إلى أقرب مشفى حيث التجهيزات اللازمة فأنجبت قطعتين من اللحم الوردي، كان الولد سليمًا مُعافى يصرخ بأعلى صوته، بينما الفتاة كانت مريضة قليلا تحتاج للمكوث في أحد المراكز الطبية المخصصة للأطفال الرضع لبعض الليالي، وعلى الرغم من مرضها فإن جمالها يسر النظر، بعينيها العسليتين أسرت قلب والدتها منذ اللحظة الأولى التي رأتهما فيها.

بعد أسبوع، وقت خروج الصغيرة، جاء موعد الزيارة اليومي للأم والأب لصغيرتهما، ولكن تلك المرة لكي يأخذاها معهما للمنزل، فسمعا جلبة كبيرة أمام المبنى الذي به ابنتها، والعديد من رجال الشرطة في المكان، انقبض قلب الأم وشعرت بشيء سيئ فوصل لأسماعها هي وزوجها أن هناك طفلتين تم اختطافهما من المكان عن طريقة امرأة كانت ترتدي زي ممرضة، تفاجأوا بها في كاميرات الأمن وهي تنقل الأطفال في عربة الملابس دون أن يلمحها أحد، وانهارت الأم لشهر كامل تحت المهدئات بعد أن أخبروها أن ابنتها واحدة من الطفلتين، وكاد الأب أن يُصاب بأزمة قلبية، ومرت الأيام والشهور والسنين والأب يعافر مع زوجته من أجل البحث عن ابنتهما من دون توقّف، ولكن لا أثر، تركنا كل المعلومات في جميع المشفيات، ذهبنا لكل أقسام الشرطة لنتواصل معهم في حالة أي جديد ولكن لا شيء، حتى استيقظت الأم في يوم لتتابع الأخبار على التلفاز فرأت خبرًا عن العثور على فتيات تم اختطافهن منذ أكثر من ثمانية عشر عامًا، وجار البحث عن الأسباب والظروف.

جاهدت جميلة في كتم شهقات بكائها، بينما أميرة تنظر لها بجمود يعاكس ما بداخلها من اضطرابات هائلة وخوف لأول مرة تشعر به، ارتعش جسدها تحت لمسة جميلة ليديها بحنان وهي تكمل بين شهقاتها: «لم أصدق يا ابنتي، وأنا التي تدعو الله كل يوم أن ألقاكِ وتشبّع عيناي برؤياكِ واحتضنكِ بين ضلوعي، لم أصدق أن الله استجاب لدعائي بعد ثمانية عشر عامًا، حتى قبل أن يخبرونا بالأسماء شيء بداخلي أدرك أنكِ هنا، حتى وصل والدكِ وقد شعر هو الآخر بما شعرت به،

وتأكدنا بعد اتصال المشفى لنا ويخبرنا أن تحاليل ال **DNA** تطابقت مع العينة التي تركناها في سجل المفقودين بعد اختطافكِ بمدة، أنتِ ابنتي».

جذبت جميلة أميرة لحضنها وهي تبكي بقوة بينما الأخيرة عقدت حاجبيها بصدمة وهي تسمع الحقيقة من تلك المرأة، وتحاول جاهدة تجاهل تلك المشاعر التي تنبض بقلبها، رمشت بعينيها أكثر من مرة وهي تشعر بحرقة فيها وتهمس بداخلها: «لن تبكي ليلى».

شعرت جميلة بجمود أميرة في أحضانها، فأدركت أنها ما زالت تحت تأثير الصدمة، فابتعدت بهدوء وهي تمسح دموعها التي لا تجف وتبتسم لها بحب: «دعينا نتفق على شيء لن أتحدث بخصوص أي شيء مجددًا حتى تسأليني، وأعدكِ وقتها أن أجيبكِ عن جميع أسئلتك، وأنا لن أسألكِ على شيء حتى تسمحي لي أنتِ بالحديث ولكن الآن دعينا نعود للمنزل أباكِ في حاجة لكِ وأخوتكِ أيضًا، ألا ينتابكِ الفضول للتعرف على توءمكِ؟!»

رمشت أميرة بعينيها للحظات وابتلعت ريقها بصعوبة وهي تشعر بانهيار قوتها، وكل ما يحدث يجذبها جذبًا للصراخ وللهروب، ولأسوأ شعور عاشته وهو الخوف، فهمست بخوف وصل واضحًا لجميلة: «أنا لا يمكنني المكوث مع غرباء، ذلك السيد الذي دخل منذ قليل».

غصة ألمت قلب جميلة لمرأى ابنتها بهذا الوضع، لتستدعي أفكارها، فتجيبها بعد لحظات: «حسنًا ما رأيكِ بألا تمكثي مع غرباء وتمكثي معي أنا؟! لدينا منزل مُكون من ثلاثة طوابق نشغل طابقين به، والطابق الأخير لا يسكنه أحد، ما رأيكِ بأن نسكنه معًا أنا وأنتِ فقط؟! اتفقنا ليلى!» .

شعرت جميلة بأنها اكتسبت نقطة في صالحها بعدما نادتها باسمها الذي ما زالت متمسكة به، فهزت أميرة رأسها بهدوء، وهي تشعر بأنها ستنهار قريبًا أمام كل تلك المشاعر التي انتابتها فجأة لأول مرة تشعر بأنها في حاجة للبكاء.

كان الطريق للبيت طويلا، هكذا شعرت أميرة بعد أن خرجت مع والدتها ليستقبلهما السيد محمد وآسر، الذي لم تفهم حتى الآن نظراته الحنونة لها، التي

تجاهلتها من دون تردد، استلمت والدتها دفة الحديث وأخبرتهم بأنهم سيعودون للمنزل الآن، وأخبرتهم بأمر مكوثها في الطابق الثالث بالمنزل، وهو أمر لم يجادلها فيه أحد، فحمدت الله بسرها لتفهّمهم الأمر، يا الله كم تحتاج لغُفران ولكن كيف ستصل إليها؟!، استغربت في البداية خروجهم من الباب الخلفي للمشفى، وكان آسر يتابع ردات فعلها، فتحدث بهدوء أن هناك العديد من الصحافة بالخارج وهو قرر الخروج من الباب الخلفي حتى لا تتعرض لأي ضغوط من الصحافة، لكنها لم تجبه بشيء، هي تشعر بأن أول صوت سيخرج منها سيكون صراخًا عاليًا يتبعه بكاء مرير.

أغمضت عينيها وهي تبتلع غصة تؤلم قلبها قبل حلقها، وتهمس داخلها: «يا إلهي ما الذي يحدث؟! كيف بإمكان شخص أن يعيش عمرًا كاملا وسط أهله ليكتشف بعدها أنهم ليسوا بأهله، ليسوا بعائلته لا والدتها القاسية والدتها ولا والدها الوغد والدها ولا أخواتها المختلفات أخواتها، هي كانت دومًا تشعر بأن هناك شيئًا خاطئًا، خاصة مع الأصوات التي كانت تسمعها داخلها كأن أحدهم يحادثها، ولكن كعادتها من الصغر تتجاهلها لكن أن تعيش ثمانية عشر عامًا بهوية غير حقيقية وسط وهمٍ، نعم كل هذا وهم».

«ليلى» فتحت عينيها فجأة وهي تنتفض مكانها على ربتة كف جميلة على كتفها، فرمشت بعينيها وهي تعي أنها السيارة توقفت لتتحدث جميلة بهدوء: «حبيبتي.. هل أنتِ بخير؟! لقد وصلنا».

نقلت أنظارها بين جميلة والمنزل الذي توقفت أمامه السيارة، فلمحت منزلًا كبيرًا مُحاطًا بحديقة كبيرة نسبيًا، مفروشة بالعديد من الورود والأزهار الجميلة التي تبعث في الروح الهدوء والطمأنينة، ابتلعت ريقها بصعوبة ثم نزلت من السيارة خلف جميلة، ووقفت قليلا دون حراك وهي تلمحهم جميعًا ينظرون لها بترقّب، فمدت جميلة يديها وتحدّثت بهدوء: «هيا عزيزتي لا تخافي من شيء، أنا معكِ».

هي غبية حتمًا، لا يجب أن تثق في أحد، تلك هي القاعدة الأولى التي اختبرت صحتها بأول اختبار خاضته في بيتها، القاعدة التي بسببها حصلت على عقاب لثلاثة أيام وحيدة في قبو المنزل المظلم، والآن هي تتجاهل كل ما تعلّمته، فهي لا

يجب أن تشعر بالأمان في صوت تلك المرأة التي تنظر لها بحنان، ولكن لما خفت شعور الخوف داخلها؟! لما مدت يديها لتضعها في يد تلك المرأة التي تبتسم لها الآن؟! ما هذا السحر الذي ألقته عليها لتجعلها تتحرك خلفها وكأنها بلا قوى.. بلا عقل؟!

دخلت لحديقة المنزل ثم لحظات ولمحت باب المنزل يُفتح بقوة، وشاب في نفس عمرها أو أكبر لا تعلم، يقف أمامهم شاحب الوجه وينظر بصدمة ولم تكن نظراته موجهة سوى لها!

تجمّدت مكانها وهي تشعر بمشاعر غريبة داخلها، قشعريرة سرت في أوصالها بأكملها وكأن الجو ازداد برودة، وغصة استحكمت قلبها فألمته بقوة، حتى بان ملامح الألم على وجهها، فسحبت يديها من يد جميلة، ووضعتها على قلبها تُمسّد عليه، بينما ازدادت نبضاته وهي ترى هذا الشاب يقترب منها، وهو ما زال على صدمته، توقف أمامها وصدره يعلو ويهبط من انفعاله الواضح، شهقة خرجت من فمه وهو يهمس بصوت خال من الحياة: «أنتِ على قيد الحياة».

تشنّجت أطرافها كلها وهي تلمح في حديثه لهجة الإقرار وليس الاستفسار، وكأنه يقر حقيقة.

رفع كف يديه باتجاهها كأنه يلمس شيئًا وهميًا فتراجعت خطوة ليتراجع هو الآخر، ولمحت اتساع عينيه بقوة أخافتها، ودمعة خائنة انطلقت من محبسها لتنهمر على وجنتيه، ثم عقد حاجبيه وملامح الألم ارتسمت على وجهه وهو يهمس بصوت مُتألم: «أنتِ هنا».

«أمير» همسة أخرجته من دوامة مشاعره، فرفع عينيه لصاحبها ليجد أخاه ينظر له بقلق، بينما جميلة تقف مُستندة على ذراع محمد ودموعها تنهمر في صمت، وهي تتابع بعينيها لقاء طفليها أخيرًا، فهمست بين بكائها: «أمير.. هذه ليلى توءمك حبيبي».

ارتجف جسده بأكمله وهو ينظر لوالدته بتيه، ودمعة أخرى هربت من مخدعها، وهو يهز رأسه بالنفي ولا يعلم ما ينفيه، ويهمس بضياع: «أمي لا».

لم يمنح والدته الرد ليعود أدراجه مُسرعًا ويدخل المنزل ومنه إلى غرفته، وكأنه لم يعد قادرًا على المواجهة.

ساد الصمت للحظات، وآسر يتابع بعينيه الموقف ويعيده في عقله، فشعر بأن هناك أمرًا ما سيحادث فيه أخاه، أما عن أخته فرفع عينيه عند هذه النقطة ليلمحها واقفة بثبات زائف، فوحده لمح ارتجاف جسدها الخائن بينما تعبيرات وجهها جامدة لا تخبره بشيء، وفي عقله أمر واحد يراوده في كل مرة يتمعّن في النظر إليها: «هذه الفتاة تعاني من خطب وخطب كبير»، تحدث بهدوء وهو يخرج الجميع من صدمته: «أمي، لم لا تأخذي أميرة للطابق العلوي لترتاح قليلا، فلقد مرّت بالكثير من الأحداث اليوم، كما أن الصغيرين على وشك العودة من بيت العمة نازلي، وأميرة ليست في حاجة للقاء أحد الآن».

هزت جميلة رأسها بتفاهم وهي تمسح دموعها، لتقترب من ابنتها وتحضن كتفها بذراعها وتأخذها لطريق جانبي بجوار المنزل، وأميرة تسير بجوارها مُستسلمة لقيادتها، وهي تشكر داخلها هذا الـ: «آسر» لما قاله، فهي في حاجة شديدة للبقاء وحدها، في حين شعرت بالغضب وهو يصر على مناداتها بتلك الأميرة، البرودة التي احتلت جسدها بعد مقابلة ذلك الشاب انتشرت في جميع أوصالها، وكلمة السيدة بجواره تتردد بداخلها: «أخوكِ التوأم»، شعرت بها تأخذها لطريق جانبي بجوار المنزل، فلمحت مسبحًا صغيرًا يجاوره درج خارجي يبدو أنه يؤدي للطابق العلوي الأخير، صعدت الدرج مع والدتها، حتى وصلت للطابق الثالث ففتحت والدتها الباب وهي تتحدث بصوتها الحنون: «حمدًا لله أن سعدية جاءت بالأمس لتُنظف المنزل وإلا كنتِ انتظرتِ قليلًا حتى أُنظفه لكِ، تفضلي عزيزتي».

لم تجبها أميرة بشيء ودخلت خلفها، فلمحت صالة واسعة بها أريكة كبيرة وكرسيان وتلفاز على الحائط يقبع أسفله منضدة كبيرة تحوي القليل من الكتب، هل الهواء بداخل المنزل مختلف؟! هل هناك سحر في أنحاء المنزل؟! رمشت بعينيها وهي تتأمل المنزل بجمود بينما تشعر كأنها تعرف كل ركن به، كأنها كانت هنا من قبل.

قاطعت جميلة تأملها وهي تتحدّث بارتباك: «إنه قليل الأثاث قليلا عن باقي المنزل لأن لا أحد يعيش به سوى الضيوف إن زارنا أحد، وأحيانًا يقضي فيه أمير

بعض الوقت في فترة الامتحانات، هذه الصالة، تعالي معي لأريكِ باقي الغرف».

أخذتها جميلة من يديها وهي تتحرك باتجاه المطبخ الذي يجاور الصالة، ويبدو أنه مُعد بكل أجهزته، ثم تحرّكت باتجاه ممر طويل أمام المطبخ في أول يمينه غرفة فتحتها جميلة لتريها لها، ثم تحركت باتجاه غرفة أخيرة في نهاية الممر لتدخلها مع أميرة وهي تريها لها، كانت غرفة بسيطة تحوي شرفة تطل على المسبح الصغير وجزء من الحديقة، وبها سرير صغير وخزانة ملابس مناسبة لحجم الغرفة ومنضدة صغيرة وكرسي أمامها، بينما هناك باب بجوار الخزانة يبدو أنه الحمام، شعرت أميرة فيها بالراحة عن الغرفة الأخرى فتحدّثت بخفوت: «سآخذ هذه الغرفة، إنها مُريحة».

ابتسمت لها جميلة بحنو وأجابتها: «حسنًا حبيبتي كما تريدين، أنا من اخترت أثاثها عن باقي المنزل.. سعيدة أنها أعجبتكِ، حسنًا سأتركِكِ لترتاحي، فأنا أعلم أن الأمر كله صعب عليكِ، أنا سأكون في الغرفة الأولى، سأعود فقط للأسفل لبعض الوقت، أحضر لكِ بعض الملابس لتنامي بها وطعام تتناولينه قبل النوم».

أجابتها أميرة بجمود: «لا داعي للطعام، أنا لست جائعة، أريد فقط ملابس»، أجابتها جميلة بهدوء: «لن أتأخر عليكِ».

تحركت جميلة تجاه باب الغرفة، ثم توقفت للحظة أمام أعين أميرة، ثم عادت لها مُسرعة وهي تحتضنها بقوة وتتأوه بخفوت: «آه.. لا حرمني الله من هذا الحضن أبدًا».

ارتعشت شفتا أميرة فضمت فمها بقوة وهي تنازع الرغبة في البكاء أمام كل تلك المشاعر التي لم تشعر بها يومًا، ابتعدت جميلة عنها فأخفضت أميرة عينيها للأرض حتى لا ترى انهيارها، فهمست لها جميلة بأنها لن تتأخر، وخرجت من الغرفة لتترك أميرة خلفها وهي على حافة الانهيار.



أود أن أبكي وارتجف وألتصق بأحد الكبار.. ولكن الحقيقة القاسية هي أنني أحد الكبار

أحمد خالد توفيق

الفصل الرابع

زمرد

مقر الأمن الوطني

خرج من الاجتماع بوجه شاحب في طريقه لمكتبه منذ اتصال صديقه عليه الأسبوع السابق وهو يخبره بقضية كبيرة ستقلب الرأي العام، وهو يشعر بقبضة غريبة في صدره، يتذكر جيدًا كيف وصل يومها لمقر عمله ليجد المكان بأكمله في تأهب كبير، فتساءل وقتها عن السبب ليخبروه أن هناك أشخاصًا تم ترحيلهم من مديرية الأمن بشمال سيناء وفي طريقهم لهنا، حيث سيتم التحقيق الرسمي في قضية مهمة تحت إشراف كبار القادة، مُستعينين بأمهر الأطباء النفسيين، وعندما تساءل عن السبب مُستغربًا فهم القليل من أصدقائه عن فتيات تم اختطافهن على يد عصابة منذ سنوات، ويحملن أدلة لقضايا كثيرة تخص الأمن الوطني، لكن حالاتهن النفسية لا تساعد على تقبّل ثقة أي شخص، نغزة أصابت قلبه وهو يتذكّر ملامح طفلة مُبتسمة تهديه ابتسامتها الخاصة له فقط، نفض عنه أفكاره ورئيسه يطلبه في مكتبه ليأمره بتولي القضية أليس هو المُقدّم يامن سعيد خيري، أفضل وأمهر رجال الأمن الوطني، تنهد بتعب وهو يتذكّر استلامه الملف الخاص بالقضية ليقرأ ويقرأ لساعات، وبعض من ملامح القضية بدأ يتضح له، ليدرك أن هناك فتاتين كانتا في مكان الحادث، وكلتاهما قامت بجريمة قتل، استغرب وقتها دخول رئيسه اللواء حسين وهو متوتر، ليخبره دون أي مقدمات عن واحدة من الفتيات تطابقت مواصفاتها مع مواصفات تركها من زمن في جميع الأقسام، مواصفات من فقدها في صغره ليحيا من دونها كميتٍ في كبره، يتذكّر جيدًا وقتها عدم تصديقه الأمر، وأن ربما يكون مجرد تشابه، إذ كيف بإمكان صغيرته الساكنة

بمنزله في بلدته سابقًا أن تكون في أبعد منطقة عنه بشمال سيناء، ولكن عقله المهني وجميع الأوراق التي كان قد جمعها في قضيتها- التي صدر بخصوصها محضر وقت اختفائها منذ سنوات- تشير كلها لحقيقة أنهما نفس الفتاة: «طفلة في العاشرة بعينين عسليتين وشامة أعلى كتفها الأيسر»، عاد بذاكرته لمشاعره وقتها، وهو يعد الساعات مُنتظرًا قدومهما، ليلمحهما وأحد الرجال يقودهما لمكتب رئيسه، وهو يشعر برجفة امتلكت قلبه حين مرت عينيه على إحداهن، وهي مستكينة جامدة في يد الرجل الذي يقودها للداخل، أغمض عينيه بألم وهو ينتظر تحاليل الـ **DNA** التي أثبتت بالتأكيد أن فتاته صغيرته هي نفس الفتاة التي تقبع داخل غرفة الاستجواب، لم يستطع أن يوصف شعوره وقتها كيف كان وهو يعيد برمجة أفكاره التي تجمدت بعقله، صغيرته عاشت لأكثر من ثمانية عشر عامًا مع أشخاص غير عائلتها، عاشت في وسط عائلة لا تتسم سوى بالإجرام، عائلة لا تحمل ذرة رحمة، عائلة تحمل تاريخًا كبيرًا في الجرائم المختلفة، شعر بالمرارة في حلقه وهو يرى الكشف الطبي الخاص بها لتجذب انتباهه جملة أصابته في مقتل: «ليست عذراء»، ليعلم أنها الوحيدة التي حملت جملة: «ليست عذراء» في كشفها الطبي، أخذته أفكاره لبعيد هل تزوجت؟! هل عاشت حياة طبيعية وسط هؤلاء المجرمين؟! هل أصبحت مثلهم؟! كيف كانت حياتها؟! هل تتذكره؟! والسؤال الأهم الذي يتجنبه ويخشاه هل تغفر له؟! زفر بتعب وهو يصل لمكتبه ليقف قليلا وهو يتذكر إصراره على تولي القضية رغم رفض اللواء الأمر لصلة القرابة بينه وبين إحدى المتهمات ولكنه أقنعه أن ربما يكون سببًا للتقرّب منها والحصول على ثقتها فيصلوا لجميع المعلومات التي يريدونها منها، يعلم أنه تحايل لكنه لم يستطع فقط لم يستطع ألا يتدخّل ألا يقترب، خاصة حين عرف من صديقه المسؤول عن القضية انهيارها بعد وصولها بساعة وهي تخبره بأنها قتلت بدم بارد بأنها تعترف اعترافًا كاملا بقتلها الضحية دون أي ذرة ندم ودون أي تهديد منه لها، أي قتلا متعمدا، خمسة أيام مرت وهي تقبع في نفس المكان الذي هو به ولا يقوى على الدخول إليها، لا يجرؤ على مقابلتها، يشعر بالمرارة وهو يعي أنه تأخر كثيرًا عن إنقاذها ولم يمتلك الشجاعة لإخبار عائلته بأنه وجدها، لا يجيب عن اتصالاتهم ولا يعود لمنزله، يعلم أنهم يحملون العديد من التساؤلات، خاصة بعد انتشار القصة في الأخبار، ولكنه

لم يستطع أن يؤكد لهم أنها هي بعد كل ما عرفه والآن حان الوقت لمعرفة الحقيقة، لمعرفة كل ما حدث في تلك السنوات، تلك المرارة التي سمعها تتحدث بها وهي تعترف، رغم اختلاف ما تقوله عن الفتاة الأخرى التي أخبرتهم بوضوح ما حدث أو بالأدق للعميد، حيث ظهر له أنه كان على معرفة تامة بها حيث إن هناك خيوطًا لهذه القضية منذ سنتين لكن كانوا يعملون عليها في الخفاء.

جلست بهدوء على الكرسي الموجود أمام الطاولة العريضة وهي تحاول جاهدة السيطرة على ارتجافة يديها، أغمضت عينيها وهي لا تصدق حتى الآن أنها قتلت قتلتها أخيرًا! همست من دون وعي: «يا إلهي».

انتفضت مكانها وباب المكتب يفتح ليدلف رجل يبدو أنه في منتصف العقد الثالث ممشوق الجسد، ملامحه هادئة تحمل القليل من الصرامة بحكم عمله، لمحة من صدمة تظهر بعينيه مع شحوب وجهه، أدركت غُفران بخبرتها أنه قد اطّلع على بعض الأمور التي تخص المزرعة أو هناك أمر آخر!

جلس على كرسي المكتب وقاطع أفكارها صوته الرخيم وهو يتحدّث بهدوء وينظر لعينيها بتمعّن، فأدركت أنه يدرس صدقها: «مساء الخير، أنا المُقدّم يامن سعيد خيري، المسؤول عن القضية الخاصة بكِ، قبل أن نبدأ التحقيق الرسمي أريد أن أسمع منكِ ما حدث آنسة غُفران أليس كذلك أم تفضلين أن أناديكِ بالطبيبة غُفران؟!» .

سألها السؤال الأخير وهو يبحث في الأوراق أمامه، فلم يلمح جمود ملامحها ولمحة ألم ظللتها، وهي تتذكر أنها عاشت لمدة ثمانية عشر عامًا باسم وهوية وعائلة غير مزورة على عكس الأخريات. أجابته بجمود وهي تفكر جيدًا أن التحقيق لم يبدأ بعد معها، بما أن اللواء ليس هنا: «نعم ما الذي تريد معرفته أيها المُقدّم؟! كيف قتلت من ربتني؟! أم ما حدث خلال أعوامي التسعة والعشرين هناك؟! أم تريد فقط معرفة بعض الإجابات لتثرثر بها مع أصدقائك».

نظر يامن لها بقوة، وهو يشعر بأنها تدرك جيدًا تخبّطه، تدرك صدمته بما سمعه وراه، خلال سنوات عمله لم يصادفه قضية كهذه، بعد اجتماع دام لساعتين

مع كبار القادة بالشرطة توصّلوا لأن يتم التحقيق تحت إشراف أطباء نفسيين نظرًا لجهلهم بما يواجهونه مع هؤلاء الفتيات، هذه الفتاة ذات الملامح الجميلة الهادئة الجامدة التي تجلس أمامه بجمود قد قتلت! لكن جريمتها ليست كجريمة زمرد!

تنهد يامن بخفوت وتحدّث بهدوء اكتسبه خلال سنوات عمله: «أخبريني بصلتك بالضحية سميرة فتحي غير أنها المرأة التي قامت بتربيتكِ».

نظرت غُفران أمامها بجمود وتحدثت ببرود صدمه: «غير أنها قامت بتربيتي، لا شيء يذكر فهي للأسف والدتي الحقيقية، وأنا أعلم أنك أدركت ذلك بنتيجة التحليل فأنا الابنة الوحيدة الحقيقية في تلك العائلة لقد قتلتها دفاعًا عن النفس ولديك الشهود، قد شاهد رجال الشرطة ما حدث أمام أعينهم، هي سحبت سلاحها أمامهم وهمت بتصويبه تجاه أختي، لم يسعف رجال الشرطة أن يوقفوها فأوقفتها أنا فإن لم أفعل كانت أختي هي القتيلة، أنا من قتلتها دفاعًا عن أختي» أكمل يامن عنها: «نعم بعد أن أفرغتِ السلاح بأكمله بجسدها».

لمح يامن اهتزاز حدقتي عينيها ولم يفته ارتعاش جسدها فأجابته بجمود كاذبة: «لم أتوقف بسبب الصدمة.. إنها المرة الأولى لي»، سألها بحذر: «دفاعًا عن أختك رحمة! المُتهمة بقتل الضحية السيد ممدوح»، التفتت بغضب لم تستطع التحكم به وهي غاضبة من نفسها قبل أن تغضب من كل ما حولها وهي تهتف: «ضحية! لقد استحق هذا الوغد الموت، لو لم تفعلها رحمة وقتها لفعلتها أنا دون تردد».

صُدم يامن من كم الكره والاشمئزاز الذي ظهر بعينيها، ولكن حافظ على هدوئه وهو يسألها: «لماذا؟!»

أزاحت غُفران نظراتها عنه وهي تنظر لنقطة في الفراغ مُجيبة إياه بكل مشاعر الكره والغضب بداخلها: «لأنه قذر مُتحرش ومُغتصب، يبيع الفتيات كجوارٍ لمن يدفع أكثر ومن يستخدمها كجارية يستفيد منها كصندوق يحوي كنزا مكونا من عين وكبد وقلب وكلي هل هذا يكفي؟!» حاول يامن تخطي المرارة في صوتها وهو

يقول: «هل تدرين معني كلامكِ؟! إنها قضية كبيرة وكلامكِ هو الدليل الوحيد لنا».

أجابته غُفران بثقة: «لا ليس الدليل الوحيد إن كنت على علم بالقضية، كما تقول إنك مسؤول عنها ستدرك جيدًا أنه ليس الدليل الوحيد، هناك أدلة أخرى أملكها كما يعرف اللواء ولكن أريد أن أعرف أولا ماذا سيحدث لرحمة؟! وهل الأدلة التي أملكها تستطيع مساعدتها في قضيتها؟!»

اختلجت عضلة في وجه يامن وهو يحاول السيطرة على غضبه الدفين بعد ما سمعه فأجابها بجمود: «إن كانت الأدلة تدينه كما تقولين فربما يساعدها في قضيتها، ولكن ما قالته أُثبت ضدها».

هتفت غُفران بغضب وبدافع حماية تملكها منذ الصغر: «لقد أُجبرت على الأمر، هي قالت ما قالته لأنها كانت في حالة صدمة، لقد أذاها، لقد قام ب...».

نظر يامن لها بقوة وسألها بترقّب: «لقد قام بماذا؟!» لمحة ألم مرت بعينيها قبل أن تبعدها عنه وهي تهمس: «إنه خطئي، كنت بعيدة عنها، انشغلت بما عرفته فلم... صدقني هي ليست كما أخبرتكم، أنا أعرفها جيدًا، رحمة لم تكن...».

رفعت غُفران يديها وأحاطت بها رأسها وهي تهمس: «يا إلهي» لا تصدق حتى الآن ما قاله اللواء لها عن الكشف الطبي الخاص برحمة حين قابلها وقت وصولها، خاصة حين قرأت نسخة منه ليجذب انتباهها جملة: «ليست عذراء» انتفضت مكانها وقتها وهي تهتف بلا لتطلب منه مقابلتها، خاصة أن منذ الحادث وهم يفصلونهما عن بعض، استجاب لطلبها لتزورها في غرفة الاستجواب ليتركهما على انفراد، تذكرت كم بدت هشة وتائهة كأنها لا تعلم أين هي أو ماذا حدث، لترفع رحمة نظراتها الجامدة لها، ليظلا على وضعهما لتسألها غُفران بقلق وهي تستشعر حالة رحمة الغريبة عليها عما حدث في غيابها بينها وبين ممدوح، تتذكر غُفران وقتها كيف نظرت لها رحمة بجمود وهي تعي معرفة غُفران بالحقيقة فهي حتما اطلعت على الكشف الطبي الخاص بها لتضحك بسخرية وهي تتذكر حديثها معها

على السطح لتجيبها وجملتها ما زالت ترن في أذنيها حتى الآن: «ما حدث بيني وبينه طوال تلك السنوات لا يخصكِ بشيء، هل كل هذا ما كنتِ تحاولين فعله وأنتِ بعيدة غُفران»، سألتها غُفران عن مقصدها لتسألها رحمة بسخرية: «هل كنتِ على علاقة بالشرطة غُفران كل تلك السنوات؟!»، ابتلعت غُفران ريقها بصعوبة وهي تستشعر حالة رحمة غير الطبيعية لتدرك أنها أسأت فهم ما حدث لتبرر لها: «رحمة اسمعيني جيدًا، لم أستطع أن أطالبهم بإلقاء القبض عليه وقتها، أنتِ لا تفهمين كان يجب أن ننتظر حتى يوصلنا لمن يعمل لديهم، الأدلة كانت كافية لتدينه هو فقط، ولكن علمنا أن هناك رجلًا كبيرًا خلف كل ما يحدث كان يجب أن ننتظر حتى نصل إليه»، نهضت رحمة من على الكرسي بقوة وهي تضرب بقبضتيها على المنضدة أمامها وهي تصرخ بقوة: «بالطبع كان على غُفران الشجاعة أن تنتظر وتنتظر.. فماذا ستخسر وهي بعيدة كل البعد عن الجحيم؟! ماذا سيصيبها وهي لا تحيا في الوحل كما عشنا نحن؟! ما الذي ستخسرينه فلننتظر شهرًا.. سنة.. سنوات.. فلن يحدث شيء، أليس كذلك يا طبيبة يا شجاعة؟ حسنًا أعتذر منكِ بشدة غُفران لم تصلي لهدفكِ كما تريدين لأنني قتلته بيدي، قتلته من دون ذرة ندم، قتلته وهو لم يحاول حتى الدفاع عن نفسه، هنيئًا لكِ لم تخسري شيئًا مهمًا.. فقط عذريتي، حيث كنت مجرد عشيقة للذي كان بيديكِ أن تلقي القبض عليه منذ سنين، ولكن غباءكِ أهداكِ للانتظار قليلا، عشيقة يلهو بجسدها كما يريد ومتى يريد، ولكن أتعلمين أنا أيضًا استمتعت بهذا الدور!» .

عادت من أفكارها التي تجلدها وهي تنظر ليديها، فغشت عينيها الدموع وهي تتذكر الصفعة التي أصابت وجه رحمة بعد أن قالت جملتها الأخيرة، هي لا تصدق ما قالته أو بالأدق آخر جملتها، جذب انتباهها صوت تنفّس يامن الغاضب، فرمشت بعينيها لتطرد الدموع وهي تسمعه يقول بغضب دفين: «أنتِ لم تخبريني بالحقيقة الكاملة»، همست غُفران بصوت مكتوم: «وهل الحقيقة ستغير شيئًا؟!» .

نهض يامن من مكانه واقترب من غُفران وجلس أمامها، فانتفضت بقوة وهي تراه قريبًا منها، فدهشت للهفته وهو يقول: «أخبريني كل شيء وأعدك أنني

سأساعدكِ، اسمعي آنسة غُفران.. أنتِ كبيرة وناضجة، بعد ما رأيته أنتِ أكثر قوة من رحمة والفتاة الأخرى، لذا أعدكِ إن ساعدتِني سأساعدكِ في قضيتكِ وقضية أختكِ، أعلم أنه سهل عليكِ أن تحصلي على براءة لأنكِ قتلتِ بغرض الدفاع عن النفس، وسهل إثبات ذلك، أما رحمة فهي لم تفعل ذلك دفاعًا عن النفس، هي قتلت بدافع القتل، ولكن يمكن إثبات أنها لم تكن في وعيها أو في حالة نفسية واعية أو بعد الاطلاع على الحقيقة الكاملة عما حدث في تلك المزرعة يمكن إثبات براءتها، لأن في تلك الحالة هي الضحية، أنتِ لديكِ كل المعلومات التي ستساعدني في إثبات ذلك، هناك فتاتان قد هربتا ولا أثر لهما، وأيضا ما وجدناه في ملفات الضحايا ليس بهينٍ لذا أخبريني كل ما لديكِ وأنا أعدكِ بأن أبذل كل ما بوسعي حتى أثبت الحق. هناك أمور خفية لم تعرفها الشرطة بعد، وخلال التحقيق سيتم عرضكم على أطباء نفسيين وأنتِ بمهنتكِ تعرفين جيدًا معنى وجود الأطباء».

كانت غُفران تنظر له بجمود وهي تحاول كشف صدق كلامه، ولكن هناك أمرًا يخفيه عنها من اهتزاز عينيه ولهفته غير الطبيعية لمُحقّق يحقّق في قضيتها، فعاجلته بسؤالها: «كيف تريد مني الثقة بك وأنت لم تثق بي؟!»

بُهت وجه يامن فتيقّنت غُفران بأنه يخفي شيئًا:«ما الذي تقولينه؟!»، اقتربت بجسدها من كرسيه وهي تقول بينما تنظر لعينيه بقوة: «هناك أمر تخفيه عني له علاقة برحمة».

لمحت جمود ملامحه وهو يعود بظهره ليستند على الكرسي، فأخفض رأسه للحظات قبل أن يهمس لها بخفوت: «حسنًا، سأخبركِ بأمري، ولكن عليكِ أن تخبريني بسركِ أو بالأدق أسراركِ، رحمة تكون زمرد ابنة عمتي المُختفية منذ ثمانية عشر عامًا»، كان دور غُفران في بهوت ملامحها وهي تهمس من دون تصديق :«أنت يامن مان!».

حانت منه ابتسامة صغيرة وهو يتذكّر لقبه الذي لم يسمعه منذ سنوات، وهو يجيبها: «لم يُلقّبني أحد بهذا اللقب منذ زمن، لم يعرفه أحد سواها».

تحدثت غُفران بشرود وهي تجيبه:«كانت دائمة الحديث عنك، في الليالي الأولى كانت تبكي بشدة وتقول إن يامن مان مُنقذها سيأتي ليعيدها لأهلها، مرت سنوات وهي تهمس لنفسها بهذا كل ليلة، ولكنك لم تأتِ.. لم يأت أحد».

قالت غُفران جملتها الأخيرة بسخرية، فلمحت تشنّج جسده وهو يقبض على يديه بقوة، فشعرت بصدق معاناته، لتنظر له هذه المرة بنظرة مختلفة، تفهّمت حالته وغضبه المكتوم، خاصة أنه رجل شرطة، ثم أعادت التفكير في الأمر، حتمًا اللواء لم يكن ليسمح بأي أحد ليحقق معها إلا إن كان ثقة، فهي تعي جيدًا كمّ الخونة في دائرة الأمن. تنهدت بعد لحظات وهي تقول :« «سأخبرك بكل شيء».

خرج من مكتبه بعد ساعة بعد أن شعر بالاختناق، شعر بأن صدره يضيق به ولا يستطيع التنفس، وضع كف يديه على قلبه وهو يشعر بآلام متفرقة في كتفه اليسرى، شعر كأنه سيصاب بأزمة قلبية، ما سمعه الآن منها لا يصدقه عقل، لم تكن مجرد عائلة صغيرة، لقد كانت عصابة، مافيا، بشر غير طبيعيين، يا إلهي لقد كانوا مرضى.

تنفّس بقوة ثم توجّه للمكتب في نهاية الدور، وهو يدري جيدًا جهته، فقط الآن يمكنه مواجهتها، هو عرف الحقيقة التي تعرفها غُفران ولا تعيها زمرد، وعليه الآن أن يعرف الحقيقة التي تعرفها زمرد ولا تعيها غُفران، طرق باب الغرفة ودخل مكتب صديقه فتحي ليبادره متعجلًا: «فتحي أريد الدخول».

نهض فتحي من مكتبه بدهشة وهو يرى حالة يامن، ثم نظر لباب الغرفة الداخلية وعاد بنظره له ليسأله بقلق: «يامن ماذا بك؟! هل أنتَ بخير؟! وجهك شاحب!» أجابه يامن وهو يمسد على قلبه وعيناه على باب الغرفة: «يجب أن أدخل فتحي»، استغرب فتحي حالة صديقه: «ولكننا لم نبدأ التحقيق بعد، أنت تعلم الأطباء لم يأتوا بعد»، أجابه يامن وهو ينظر لصديق عمره: «أعرف ولكني بحاجة للدخول، أرجوك».

صمت فتحي قليلا وهو يلمح انهيار صديقه لأول مرة، لقد عرف من اللواء صلة القرابة بينه وبين المتهمة أو الضحية، أيًا كانت الصفة التي تليق بها، ولكن صديقه

الواقف أمامه الآن يبدو أنه يعرف ما عرفه، أو بالأدق ما سمعه قال له:«أنت تعرف؟!» ازداد شحوب وجه يامن وهو يقول: «أثناء دخولي الغرفة المقابلة لغرفة الاستجواب، والتي يفصل بينهما بلوح من الزجاج العازل، بينما كنت أحضر بعض الأوراق، فسمعت الشجار الذي دار بينهما».

شعر مجددًا بأن هناك ثقبًا يتسع بروحه، مرارة شعر بها في حلقه، وهو ينظر لصديقه بشحوب، كان يعرف أن غُفران لن تخبره كل شيء، وحتما لم تخبره عن ذلك الشيء، فاق من أفكاره على ربتة صديقه وهو يقول: «سألتك لأنني شعرت أنه كان يجب أن تعرف هذا الأمر، فربما لن يتحدث فيه أحد، هي منهارة يامن وأشعر بأن الأمر له أبعاد أخرى، لذا كن رؤوفًا بها، فنحن لا نعلم مقدار العذاب الذي عشنه سوى ما سمعناه من اللواء، لديك عشر دقائق قبل أن يأتي أحد وهذا الأمر بيننا».

إن كان ما سمعه فتحي من اللواء هو مقدار من العذاب فماذا عما سمعه هو من غُفران، ربط النقاط ببعضها وهو يفكر: «هي كانت عشيقته»، هذه هي الإجابة عن سؤاله الذي راوده حين رأى الكشف الطبي، يعلم أن واحدة في موقفها وفي وضعها وفي تلك العائلة التي نشأت بينهم لا يستطيع أن يلومها على ضياع شرفها، فمن هو ليلومها وهو الذي يحمل الذنب الأكبر: «أنت لم تأتِ» أغمض عينيه وهو يفكر لماذا إذا يشعر بكل تلك المرارة بداخله، لماذا يشعر كأن أحدهم اقتلع قلبه من مكانه.

فتح عينيه وابتسم ابتسامة امتنان حزينة لصديقه، ثم دلف باتجاه الغرفة، ومد كفه المُرتعش يمسك على مقبض الباب ثم حاول تهدئة نبضاته وسؤال سخيف يراوده في وقته غير المناسب إطلاقا: «هل ستتذكّره؟!»

ابتلع ريقه بصعوبة ثم أدار مقبض الباب ودلف بهدوء يخالف ما بداخله، أغلق الباب خلفه قبل أن يرفع عينيه وينظر أمامه ليتجمّد مما رأته عيناه.

لم تتغير، يا إلهي كأن لم يمر ثمانية عشر عامًا، هو لم ير ملامحها بوضوح أثناء إحضارها هنا، ما زالت بهيئتها الهشة، نضجت قليلا وازدادت طولا ولكن ملامحها كما هي، باختلاف بريق عينيها الذي أصبح رمادًا الآن.

شعر بجسده كله يرتجف وهو يقف وخلفه الباب يستند عليه ويبدو أنها لم تلمح دخوله، شرودها جعل غصة كبيرة تحكم قلبه كقبضة تمنعه من الخفقان، ابتلع ريقه بصعوبة وتقدم بهدوء فلمحها وهي تنتفض وترفع عينيها له ويا ليتها لم تفعل.

أسياط من نار تنهش بجسده من نظراتها التائهة الحزينة، يا إلهي دموعها تتساقط كجمرات نار على قلبه وهو يتذكّر تلك الكلمات التي لا تريد أن تفارق عقله: «كانت تنتظرك ولكنك لم تأتِ».

جلس على الكرسي أمامها وهو يتناهى عن تلك الغصة التي قتلته، وهو يراها لم تتعرّف عليه بعد أن أخفضت نظراتها لكف يديها المُرتعشتين في حجرها، كل ما فيها من هشاشة يجذبه جذبًا لزرع الأمان بروحها.

لم يستطع هو بشر، إنسان عاش عمره كله على حلم، حلم وُئِد في مهده قبل أن يكبر، ليرمم قلبه ببقاياه ويعالج روحه من فقدانه، ما زال طفلا يتذكّر لمسة يد ونظرة انبهار سعيدة من حلم حياته قبل أن تختفي عن أنظاره لدقيقتين، ذهب فيهما ليحضر لها ما تريده من المثلجات.

همس بصوته الأجش من فرط مشاعره: «يا ليتني أخذتكِ معي وأنا أشتري المثلجات الكريهة».

ساد الصمت للحظات قبل أن يتوقف كل شيء، قبل أن تتوقف دموعها، قبل أن تنسى ما حدث لترفع عينيها بصدمة وهي تنظر للرجل الذي دلف للغرفة بهدوء غريب ليجلس أمامها صامتًا قبل أن يقول ما قاله، دققت في ملامحه، في عينيه، شهقت بقوة وهي ترفع كف يديها تغطي به فمها لا تصدق ما تراه، تلك العينين وتلك الملامح ليست بغريبة عنها، عادت لها نفس الذكرى التي كانت تتمسك بها في أسوأ لحظات حياتها لتهمس بصوت مبحوح: «يامن»•

سكين بارد اخترقت قلبه، يا إلهي صوتها كان كفيلا بجلب الدموع لعينيه، دموع أبت رجولته أن تسقطها، بينما تراجعت هي بكرسيها وهي تنتفض من مكانها وكفها على فمها يمنع شهقات بكائها، ودموعها عادت لتنهمر بغزارة وهي تهز رأسها بالرفض، لا تعلم ما ترفضه لتتراجع بقوة حتى اصطدم ظهرها بالحائط وهي تشهق بقوة وهي تهتف: «يا إلهي».

نهض يامن وهو يوازن جسده حتى لا ينهار أمامها، واقترب منها بملامح هادئة لا تعكس ما يدور بداخله، فقط النيران التي تشتعل بعينيه العسليتين الشبيهة بخاصتها يظهر ما يعانيه، اقترب حتى وقف أمامها وهو يحاول جذب ابتسامة لوجهه فبانت مهزوزة وهو يهمس أمام وجهها: «زمردتي الغالية».

انفجرت بالبكاء بعد سماع لقبها الذي لم ينادِها به أحد سواه وجسدها يهتز من شهقات حتى مالت رأسها للأمام تخفي وجهها بين كفيها، تشعر بالاحتقار الشديد لنفسها، وكأنها تقف عارية أمام آخر شخص توقعت أن تراه، هي لم تتوقع يا إلهي هي حتى لم تفكر في ذلك الأسبوع بأهلها واحتمال عودتها لهم، تشعر بأن حياتها انتهت في ذلك اليوم الذي أطلقت النار فيه على ممدوح، تشنّج جسده بأكمله وقمة رأسها تلمس صدره فتأوه بألم وهو يجذبها بقوة لحضنه يكتم شهقات بكائها العالية فيه، أراد أن يضربها، يقتلها، يكسر كل ما حولها عليها ثم يقتل نفسه بعد أن يعذّبها، ولكن لم يستطع فعل شيء سوى أن زاد من احتضانها وهو يربت على ظهرها بحنو ويهمس لها بصوت مُعذّب: «لقد عدتِ يا زمرد، لقد عدتِ».

تحدّثت بين شهقات بكائها بالجملة التي تُعذّبه منذ أن قالتها الفتاة الأخرى غُفران: «لم تأتِ، لم تأتِ انتظرتك ولم تأتِ، آه يامن، لقد آذوني لقد آذيت نفسي، لم تعد زمردتك كما كانت.. لم تعد غالية».

أغلق عينيه بقوة وهو يشعر بأنه يريد قتل أحدهم في هذه اللحظة، لولا أنها لم تقتل ذلك الوغد لقتله بيديه، شعر بآلام قلبه تعاوده بقوة وقبل أن يخرج نفسًا مُتألمًا تفاجأ بها تدفعه بعنف وهي تصرخ بقوة: «لا تقترب مني، أنا مُلوّثة، لا تقترب لم أعد نظيفة كما تركتني.. لقد لوّثني بقذارته، لقد لوّثت نفسي بنفسي».

نيران اشتعلت بداخله من الغضب وهو يراها تمسح يديها بعنف على جسدها كأنها تُنظّفه وهي تصرخ بقوة، حتى توقفت وهي تلهث، ولحظات وسقطت أمام عينيه مغشيا عليها واتسعت عيناه بصدمة وهو يرى دماء تتساقط من بين قدميها.



وحدهن اللاتي تغلبن على أوجاعهن يعرفن كيف يخفين دموعهن وهن في قمة الحاجة للبكاء

فهد العودة

الفصل الخامس
العائلة

منزل محمد الأسيوطي

وقفت أمام المرآة في الحمام وهي تنظر لهيئتها جامدة الملامح، تنهدت بخفوت وهي تشعر بأنها أفضل بعد استحمام كانت في حاجة إليه، يعيش الإنسان عمره بأكمله ليعرف من هو حقًا، ماذا يريد أن يحقق وماذا يريد أن يصبح، يحدد أحلامه ويسعى خلفها، هي كادت أن تصل لأحلامها وتسعى خلفها لتجد نفسها تعود لأول نقطة مجددًا وتتساءل من هي؟! من تكون حقًا! هل هي تلك الفتاة التي تَربّت على الألم؟! أم تلك الفتاة التي تحتويها الآن عائلة أخرى؟! هل ستعلم يومًا من هي حقًا؟!

سمعت صوتًا خارج الغرفة أخرجها من تفكيرها، فخرجت من الحمام وهي تظن أن السيدة جميلة بالخارج، لتتجمّد أمام الباب وهي تلمح طفلين أحدهما ينظر لها باستغراب والآخر يُعدّل من مكان الفازة التي وقعت من على المنضدة أثناء دخوله الغرفة، تابعتهما بدهشة وهي ترى من ينظر لها يسحب سترة أخيه المُنشغل بالفازة ويهمس له: «آدم.. انظر».

وضع آدم الفازة على المنضدة وهو يهتف بضيق بينما يسحب سترته التي يجذبها أخوه: «اتركني يا أحمق ماذا تريد؟!» نظر لأخيه فوجده يبتلع ريقه وينظر أمامه بشحوب، فتتبَّع نظراته ليجد فتاة تنظر لهما بدهشة ترتدي قميصًا رآه من قبل على أخيه أمير وبنطالا رجاليا يبدو أنه له.

«هذا بنطالي»، هتف بها آدم مصدومًا ويشير بيديه للبنطال الذي ترتديه أميرة، ضربه أحمد بذراعه في خصره فتأوه وهو ينظر له بضيق بينما تحدّث لها بصوت يحاول أن يكسبه الرزانة: «أهلا بكِ.. نعتذر لدخولنا الغرفة، ولكن سعدية أخفت كرة التنس هنا أثناء تنظيف المنزل، ونحن أتينا لنأخذها قبل أن تأتي أمي ولم نعلم أن هناك أحدا».

لم تجبهما أميرة بشيء، بينما ارتفع حاجب آدم بدهشة وهو يهمس لأخيه: «أظن أنها خرساء»، عقدت أميرة حاجبيها بضيق من فظاظة هذا الطفل أمامها بينما همس أحمد له: «اخفض صوتك يا غبي إنها تسمعك، يجب أن نخرج الآن، بما أنها هنا فهذا يعني أن لدينا ضيوفًا.. وهذا معناه...»

همس آدم له: «أن أمي هنا اللعنة».

ارتفع حاجب أميرة بدهشة وهي تسمع تهامسهما وتغضّن ملامح الفظ الذي أمامها، تتبعتهما بعينيها وهما يتهامسان يبدوان أصغر منها سنًا، ربما في الرابعة عشر أو الخامسة عشر من عمرهما، لديهما نفس عينيها ومن كلام السيدة جميلة يبدو أنهما أخواها. تأوهت بخفوت وهي ترى نفسها في دوامة كبيرة من الأشخاص الغريبة، تشعر بأن عقلها سينفجر من كم الأسئلة التي بداخلها: «يا إلهي أنا في حاجة لغُفران».

من غُفران؟! اتسعت عيناها وهي ترى التوءمين ينظران لها بدهشة ويبدو أن همسها الأخير قد وصل مسموعًا لهما فنظرت لهما للحظات ثم دلفت مجددًا للحمام تحت أنظارهما المُندهشة وآدم يهمس لأحمد: «اخرج مضرب التنس من الحقيبة بسرعة وأنا سأمسك بعصا الكاراتيه».

فأجابه أحمد بارتباك: «ولكن لماذا؟!» أردف آدم وهو يخرج العصا من حقيبته: «تبدو غريبة الهيئة وأنا بدأت أشك في أنها لصة بما أنها كانت مصدومة من رؤيتنا ولا تجيب عن أسئلتنا، بالإضافة لارتدائها ملابسي أنا وأمير، فهي حتما هنا لسرقتنا، هيا أسرع قبل أن تخرج من الحمام بسلاحها وحينما أهتف باسمك ناد على أمي وأبي بصوت عالٍ».

ارتبك أحمد للحظات ثم أسرع بإخراج مضرب التنس الخاص به من الحقيبة ومسكه بقوة وهو يبتلع ريقه بصعوبة ويعدّل من عويناته على وجهه في حركة لا إرادية منه.

خرجت أميرة من الحمام وفي يديها كرة التنس لتجدهما أمامها، أحدهما مُمسك بمضرب التنس بارتعاش بينما الآخر جسده قد أخذ وقفة دفاعية تُدركها جيدًا وفي يديه عصا الكاراتيه!

ارتفع حاجبيها بدهشه وهي تتحدث أخيرًا بهدوء: «ما الذي تفعلانه؟!» هتف آدم بقوة وهو يندفع في اتجاه أميرة: «الآن أحمد» فلمحت أميرة آدم يقترب منها ليقاتلها بعصا الكاراتيه بينما أحمد يهتف بصوت عالٍ: «أمي أبي يوجد لصة في المنزل أبي أمي».

اقترب آدم ورفع عصا الكاراتيه وبدأ في الهجوم على أميرة التي تجنبت ضربة كانت في طريق وجهها، وبدأت في الدفاع عن نفسها أمام حركات آدم غير المُتقنة، وفي حركة واحدة استطاعت أن تسحب منه عصا الكاراتيه، والحركة التالية كانت تثني ذراعه للخلف تدفع بجسده على الأرض وتقبع فوقه بجسدها تمنعه من الحركة وصدرها يعلو ويهبط من حركتها وهي ما زالت على دهشتها من الأمر كله وتنظر لآدم الذي يبادلها الصدمة ولم ينطق سوى: «أنتِ تجيدين الكاراتيه».

نظرت له بجمود وهي تتحدث بهدوء بينما صراخ أحمد يصدح فوقهما: «هل هذا كل ما استطعت قوله للصة تسرق بيتك؟!» .

نهضت أميرة من عليه وأبعدت برجليها عصا الكاراتيه عن متناول يد آدم واقتربت من أحمد ووقفت أمامه لتتحدّث بهدوء: «توقف»، ابتلع أحمد صراخه وهو ينظر لها مُتسع العينين، وينقل نظراته بينها وبين أخيه القابع على الأرض ويحاول النهوض مُتأوها، ولحظات ولمحت والدتها تأتي مُسرعة من الممر وفي بدايته لمحت آسر يقف بترقّب قلقًا. هتفت جميلة: «ما الذي... أحمد، آدم ماذا تفعلان هنا؟!» .

نهض آدم من على الأرض وهو ينقل نظراته بين والدته وتلك الفتاة ليردف: «أمي يجب أن تسأليها هي هذا السؤال؟!»

ارتبك أحمد وهو ينظر لأميرة التي أخفضت نظراتها للأرض وهو يشعر أنه وأخاه الغبي قد تسرّعا: «آدم يبدو أنها ضيفة وليست لصة».

أغمضت جميلة عينيها وتنهدت بهدوء ثم تحركت تجاه أميرة وابتسمت لها بهدوء: «اعتذر منكِ عزيزتي، لم أعلم بعودتهما»، التفتت جميلة لهما وهو تحتضن أميرة بذراعها: «أحمد وآدم محمد الأسيوطي.. هل هناك تفسير لكل تلك الضجة التي قمتما بها؟!» .

«أمي لقد»..: «ظننتها لصة»

تحدثا بنفس الوقت فنظرت لهما بحنان وهي تزيد في احتضان أميرة: «أحمد.. آدم هذه هي ليلى.. أختكما التي حدثتكما عنها أميرة».

اتسعت عين أحمد بدهشة تحت عويناته وهو يهتف: «ماذا؟!» بينما ارتفع حاجب آدم بانبهار: «يا الله.. أخيرًا لدي أخت وتجيد الكاراتيه».

ضحكت جميلة وعيونها تمتلئ مجددا بالدموع، وهي ترى ردات فعل طفليها، بينما اقترب أحمد بهدوء من والدته حينما لمح دموعه: «أمي.. لا تبكِ.. أنا لا أعلم ماذا حدث ولكن حتما أنتِ سعيدة الآن، الله استجاب لدعائكِ أمي»، كتمت جميلة شهقتها ودموعها تنهمر وهي تستسلم لحضن طفلها الصغير الذي احتضنها بحنان نجح في إثارة ارتباك أميرة للحظات وهي تري تلك المشاعر الغريبة أمامها، لم تشعر بآدم الذي مر بجوارها وانخفض للأرض يلتقط عصاه ثم عاد مجددًا لها وتحدث بفظاظته المُعتادة: «سأقبل بكِ أختي إن علمّتِني كل ما تعرفينه عن الكاراتيه».

ارتفع حاجب أميرة ببرود وهي تنظر له من دون قول كلمة، بينما ابتعدت جميلة عن أحضان ابنها الصغير وهي ترفع يديها لتضرب بها رأس توءمه الشقي وتهتف: «تأدب آدم.. ليلى أختك الكبيرة».

ارتبك أحمد في مكانه ورفع يديه ليُعدّل عويناته وهو يتحدّث بهدوء: «أعتذر منكِ عما بدر منّا، أخي غبي قليلا»، وابتسم لها بحب وأكمل: «حمدًا للّه على عودتكِ لنا أختي» بينما سألها آدم باستغراب: «إذا هل اسمكِ ليلى أم أميرة؟!».

أخفضت أميرة نظراتها عنهما وتحدثت بهدوء: «أنا ليلى» فتابع آدم سؤاله: «أهو اسم تدليل لكِ بدلا من أميرة؟!» لم تجبه أميرة بشيء بينما سألها أحمد: «ماذا حدث؟! أين كنتِ كل هذه السنوات؟!» .

تجمدت ملامح أميرة ولم ترفع عينيها عن الأرض، فوصل لأسماعها صوت آسر الحنون الحازم: «حسنًا أيها الشباب لنترك أميرة ترتاح قليلا، فلقد كان يومًا طويلًا وأنتما استعجلتما اللقاء بها، ولكن ما حدث قد حدث، هيا لندعها تنعم ببعض الهدوء قليلا بعد هذا الطوفان الذي مرت به».

رفعت أميرة عينيها لآسر وهي تلمح معنى آخر خلف كلامه، وبالفعل وجدته ينظر لها بتمعّن يراقب ملامح وجهها وكل ما يصدر منها، فأبعدت عينيها عنه لتلمح والدتها تأتي إليها تقبّل وجنتيها: «سأترككِ الآن لترتاحي ووقت الغداء سآتي إليكِ.. هل ترغبين في تناول شيء مُحدد؟».

هزت أميرة رأسها بلا، وهي تستقبل قبلات والدتها الحنونة التي تدغدغ مشاعرها، ولحظات ولمحت خروجهم من الشقة، فنظرت من الشرفة لتجد أحمد يحتضن والدته بحنان بينما يتقدّمهما آدم الذي يخبر آسر ما حدث ويهتف بانبهار عن قدرات أميرة في الكاراتيه من خلال حركاتها التي واجهته بها.

عادت للسرير وارتمت بكامل جسدها عليه تحاول أن تُنظّم كل الأفكار بعقلها ورغبة قوية داخلها أن تهرب منها بالنوم، نهضت من على السرير وأغلقت باب الغرفة بالمفتاح، وأسندت خلفه الكرسي كما اعتادت منذ صغرها، ثم عادت للسرير واستسلمت لرغبتها وأغمضت عينيها، وآخر ما جال بخاطرها نظرة الدهشة التي لمحتها في عين والدتها عندما رفضت منامتها وطلبت منها قميصا وسروالا رجاليا.



مقر الأمن الوطني

غرفة الاستجواب

اقترب منها مُسرعًا وأخذ يهزها وهو ينادي اسمها: «زمرد أجيبيني»، وعندما لمح عدم استجابتها حملها للخارج، قابله فتحي الذي كان يقف أمام مكتبه وقد ارتعب من الصراخ الذي بالداخل وعندما لمحه يخرج حاملا رحمة تجمّد مكانه للحظات حتى تبعه وهو يسأله عما حدث فلم يجبه سوى بأنها في حاجة للذهاب للمشفى حالا.



المشفى

كان يقف جامدًا أمام باب الغرفة في المشفى لا يقوى على الدخول، ساعة مرت وقلبه يكاد أن يتوقف، ارتفع ضغط دمه فسارع فتحي في طلب الطبيب ليكشف عليه ويعطيه دواء سريعًا ويخبره بضرورة الانتباه لصحته، ابتسم بسخرية، أي صحة وأي اهتمام هو يشعر بأنه يموت بالبطء، منذ أن خرج الطبيب من غرفة العمليات ليخبره أن زوجته فقدت جنينها، زوجته! شعر بألم يجتاحه وهو يعلم أن الطبيب لا يعلم أنه ليست زوجته وأن جنينها لم يكن...

ضرب الحائط خلفه بقبضته وهو يحاول التنفيس عن الغضب المُشتعل بداخله، رفع رأسه على أصوات في نهاية الممر ليتجمّد مكانه وهو يرى زوجة عمه قادمة مع ابنتها رحاب بوجهها الشاحب والدموع تغرق وجهها، لمحته زوجة عمه فاقتربت منه مُسرعة وهي تكاد تركض رغم جسدها الممتلئ وحجابها الذي لم تربطه بحرص قد تساقطت منها على كتفها، وصلت إليه وهي تلهث وتمسك ذراعيه وتهتف بين بكائها.

مفيدة (والدة زمرد): «يامن أخبرني يا حبيب أمك، أخبرني أن ما سمعناه في التلفاز صحيح، هل عادت ابنتي؟! هل هي حقًا؟!»

رق قلبه لهيئة زوجة عمه الحنون، الوحيدة التي سامحته على ما اقترفه منذ سنوات، الوحيدة من عائلة زمرد التي لم تبعده عنها، رفع يديه المُرتعشة ومسك حجابها ليضعه على رأسها بحنان وهو يحاول جاهدًا جلب ابتسامة لوجهه ليطمئنها: «إنها هي يا عمتي، إنها زمرد».

شهقت رحاب بصدمة وارتمت مفيدة في أحضان يامن وهي تبكي وتهتف بين نشيج بكائها: «خذني إليها يا بني خذني إليها يا غالي أريد رؤيتها وأقر عيني بها».

ربت يامن على ظهرها وهو يتحدث بصوت يحاول جاهدًا جعله هادئًا: «اهدئي يا حبيبتي سوف ترينها، تعالي معي»، مسك يديها وجذبها بحنان بينما هي تُعدّل حجابها وخلفها رحاب الشاحبة.

كانت تجلس على السرير بهدوء وكأنها فقدت الشعور بأبسط الأشياء، رفعت كفًا مُرتجفًا تتلمّس بطنها ولحظات وارتعشت شفتها لتدخل في نوبة بكاء جديدة وهي تهمس: «لقد رحلت يا صغير، لقد رأف الله بك، لقد رحلت»، أخذ جسدها يهتز بقوة بكائها، ولحظات وارتفعت يداها تكتم شهقاتها في نفس الوقت الذي سمعت فيه طرقًا على الباب وأحدهم يدلف.

تجمد كل شيء حولها وهي تراه أمامها، يا إلهي تريد أن تموت كل لحظة ينظر إليها، اتسعت عيناها بصدمة وهي تراه يدلف وخلفه امرأة طالما زارتها في أحلامها وهي تحتضنها، امرأة لم تتغير ملامحها سوى التجاعيد التي رسمت حزنًا دفينًا عليها.

كتمت شهقة خرجت من فمها بيديها بينما ستار من الدموع قد غشي عينيها لتهمس بصوت وصل لصاحبته: «أمي!».

أكان نداء عدم تصديق أم نداء استغاثة لا تعلم، كل ما تعرفه أن الأمر أخذ منها لحظة أو لحظتين حتى استطاعت أخيرًا التنفّس لتقترب منها مُسرعة وهي تضم جسد ابنتها، تقبض على ذراعيها بقوة وتنشج بالبكاء وتهتف بين قبلاتها التي تمطر بها وجه زمرد: «صغيرتي، ابنتي حبيبة قلبي، يا الله قلبي يكاد أن يخرج من

مكانه، أنتِ هنا، أنتِ معي يا زمرد، حبيبة أمكِ، يا غالية القلب، يا عقلي يا روحي لم يحرمني الله من رؤياكِ قبل أن أموت».

لحظات وهي مُتجمّدة في أحضان أمها تتقبل منها قُبلاتها حتى لم تستطع الصمود أمام كلماتها، لتضم والدتها لها بقوة وهي تهتف بين دموعها: «أمي يا إلهي أمي آه كم اشتقت إليكِ، كم حلمت بأن أكون في أحضانك، آه أمي لقد مُت من دونكِ لقد خطفوني منكِ يا أمي».

لم يستطع النظر إليها وهي أمامه في أحضان والدتها بهذه الهشاشة، بينما رحاب بجانبه تنشج في بكاء صامت ولا تصدق أن أختها الكبيرة التي طالما حدّثتها عنها والدتها قد عادت فعلًا.

لم تعلم كم مر الوقت عليها وهي في أحضان والدتها، يا إلهي الجملة نفسها لم تتذوّق معناها من قبل فسميرة لم تفعلها يومًا، شعرت بمشاعر نسيت مذاقها طوال تلك السنوات.

ابتعدت مفيدة عن زمرد وهي تمسح دموعها وتتحدث بسعادة واضحة في نبرة صوتها: «اليوم فقط رُدت لي روحي يا حبيبة أمكِ.. يا ليت والدكِ على قيد الحياة فيقر عيناه بكِ كما تمنى دومًا».

أجهشت مفيدة بالبكاء مجددًا وهي تحتضنها بقوة بينما شعرت زمرد بألم يعتصر قلبها، لقد حرموا والدها من رؤيتها قبل وفاته، لقد حرموها من التنعّم في أحضانه، هي لم تره منذ سنوات ولكن شعور اليتم الذي اجتاح قلبها وألم روحها جعلها تشعر كأن العشر سنوات التي مضتها معه كان عمرها كله وكأنها لم تعش بعده. اقترب يامن وهو يشعر بانهيار زمرد، وربت بيديه على كتف زوجة عمه: «يكفي هذا عمتي، كفاكِ بكاء، هيا ألن تعرّفي زمرد على رحاب أختها؟».

ابتعدت مفيدة عن أحضان ابنتها التي تنقل نظراتها بين والدتها وتلك الفتاة الجميلة الشاحبة الوجه بجوار يامن وتبكي في صمت، خرجت من أفكارها على صوت والدتها الضاحك بين دموعها: «اعذرني يا بني لقد مرت سنوات كثيرة،

لم أشبع منها بعد، لا أذاقك الله إحساس الفقد أبدًا، حبيبتي هذه رحاب أختكِ الصغيرة رحاب هذه هي أختك الكبيرة زمرد».

مدت مفيدة يديها لرحاب الجامدة مكانها ودموعها تنهمر بصمت فاقتربت رحاب وهي ترفع عينيها لأختها تتأملها بسكون، لا تعلم لما تشعر بأنها بعيدة، بعيدة بأميال عنها رغم أنها جالسة أمامها.

كانت زمرد تتأملها بحب خالص وهي لا تصدق أنها لها أخت، أخت حقيقية، يا إلهي لقد حرموها من الكثير لقد حرموها من كل ما هو جميل، كم تبدو أختها جميلة، هادئة، نقية.. نقية وطاهرة.

عند هذه اللحظة كانت رحاب قد وقفت أمامها تمسك بيد والدتها، فتجمّدت مكانها وهي تلمح أختها تجهش بالبكاء بقوة وتبعد وجهها عنها وتدير ظهرها لهم وتتكوم بجسدها على السرير بينما اتسعت عيناها في صدمة وهي تسمع كلماتها: «ابقِ بعيدة عني أنا لا أستطيع أن أكون أختًا لكِ أنتِ طاهرة ونقية، وجودي سوف يُلوّث طهارتكِ، أنا...»

تعالت شهقات زمرد بقوة بينما والدتها تنظر بصدمة لها ولابنتها الأخرى، ثم نقلت أنظارها ليامن الجامد الملامح لتقول بارتباك: «يامن ما الذي...» قاطعها يامن وهو يتحدث بهدوء: «لندعها ترتاح عمتي قليلًا فأنتِ تعلمين أنها ما زالت تحت الصدمة وحالتها الجسدية لا تساعدها على التعافي بسرعة».

اقترب بهدوء من رحاب الجامدة مكانها تنظر لأختها بصدمة وهمس لها بهدوء: «رحاب دعيها ترتاح قليلا، هي لم تقصد ما قالته.. فقط...» قاطعته رحاب بهدوء بعد أن استعادت تركيزها وهي تسند والدتها لتنهض من على السرير: «هيا أمي هي في حاجة للراحة، سننتظر بالخارج».

نظرت مفيدة لابنتها نظرات قلق وخوف وحزن على حالتها فنهضت مع رحاب بصمت والقلق ينهش قلبها، تبعهما يامن بعد أن ألقى نظرة على جسد زمرد المُهتز من بكائها الصامت ليُحادث رحاب: «لا تنزعجي رحاب إنها في حالة صدمة وعدم استيعاب لكل ما مرت به».

أجابته رحاب بهدوء يناقض شحوب وجهها: «أنا أتفهّم ذلك، ولكن هي في حاجة لطبيب نفسي فيبدو عليها الانهيار». أجابها بشرود: «أنا سأتكفّل بهذا الموضوع» قاطعته مفيدة بلهفة أم: «متى ستخرج يا بني؟! متى ستعود لبيتها؟!» .

أخفض يامن نظراته عن زوجة عمه، وقد شعر بأنه حان الوقت ليخبرها حقيقة الوضع، أخبرها عن الجريمة التي تمت واتهام زمرد بالقتل ولكن لم يستطع مواجهتها بحقيقة فقدان ابنتها لشرفها وإجهاضها جنينها، فهو يعلم أن صدمة الأمر الأول كبيرة عليها، وبالفعل بعد أن أنهى كلامه لمح ترنّح زوجة عمه في مكانها فأسندها مُسرعًا وهي تتحدث من دون وعي :: «قتل! يا إلهي صغيرتي قتلت شخصًا» أجاب يامن بتعب وهو يشعر بذلك الشعور الجاثم فوق قلبه: «عمتي اهدئي أرجوكِ، لقد كانت... لقد استحق ما ناله يا عمتي، لا تقلقي سأتابع القضية جيدًا وستخرج منها على خير لتبقى في أحضانكِ للأبد، فور أن نُقدّم الأدلة ستعود للبيت على الفور».

لم يستطع أن يخبرها أنها كانت تدافع عن نفسها، هي لم تدافع، هي فقط كانت تنتقم، كانت تقتل سبب عارها.

تحدثت رحاب بعد أن فاقت من صدمتها: «ما الذي قصدته بالداخل بقولها إنها ستلوّثني؟!»

نقل أنظاره بينها وبين زوجة عمه الشاردة وحمد الله داخله أنها لم تسمع سؤال ابنتها فنظر برجاء لرحاب لعلّها تتفهّمه: «ليس الآن رحاب أرجوكِ ليس الآن، هيا سأوصلكِ مع عمتي للمنزل ثم سأعود إليها، عمتي يجب أن ترتاح قليلا».

هزت رحاب رأسها بتفهّم وهي تشعر أن يامن يخفي عليها شيئًا ولكنها ستعلم في النهاية لكن ليس الآن.

شدّد على العسكري المُقيم أمام الباب الذي جاء بأمر من النيابة ألا يسمح لأحد بالدخول أو بالخروج إلا بعد التأكد من هوية الأطباء والممرضين وقت دخولهم لغرفتها ثم ذهب ليوصلهم حتى يعود لزمردته.

بعد ساعتين

شعرت بأن سيارة كبيرة قد اخترقت جسدها، فتحت عينيها ببطء وهي تتأوه من الألم، رمشت أكثر من مرة وهي تحاول أن تتذكّر أين هي حتى داهمتها آخر ذكرى وهي تغمض عينيها وتهرب من واقعها بالنوم. وصل لأسماعها صوت هادئ: «أخيرًا استيقظتِ».

أدارت رأسها مُجفلة على صوت يامن الهادئ، فلمحته يجلس على الكرسي بجوار سريرها وربطة عنقه محلولة، يبدو على وجهه الإرهاق، أخذت تتأمل وجه القريب منها لتقارنه بذلك الفتى الصغير من أحلامها، لقد نبتت لحيته قليلا مما زاد من جاذبيته، ولمعة عينيه العسليتين كما كانت وهو شاب صغير يشوبها الحزن ولمحة آخر لم تفهم مغزاها. خرجت من شرودها على حديثه: «هل انتهيتِ من التمعّن في ملامحي؟!»

أخرجها من شرودها سؤاله فأبعدت عينيها وتنحنحت بخفوت وهي تشعر بأن دماء جسدها قد ضُخّت في وجهها فابتلعت ريقها بصعوبة وهي تبحث في الغرفة عن أي أثر لوالدتها أو أختها فلم تجد ليجيب تساؤلها: «لقد رحلا، يجب عليهما أن يبتعدا عنكِ تلك الفترة».

أعادت نظراتها المُتألمة له وهي تهمس بخفوت: «يجب أن يبتعدا عني العمر كله».

لعن غباءه الذي جعله يقول جملته التي لا يعلم كيف خرجت من فمه وهو يتأمل خجلها الذي طبع أثره على وجهها الحبيب فقرر أن يخرج من مشاعره بأغبى طريقة يتبعها دومًا، ساد الصمت للحظات بينهما قرر قطعه هو بهدوء: «لقد فقدتِ الجنين».

ارتعش جسدها بأكمله، وإن كان يظن أن جملته ستجعلها تعطف عليه بنظراتها فقد أخطأت، هزت رأسها بهدوء ولم تستطع أن تنظر لعينيه، لترى فداحة ذنبها، لترى شرفها الذي أهدرته، لترى قذارة ممدوح على جسدها. سألها بغموض: «هل كنتِ على علم بأنكِ حامل؟!» .

هزت رأسها بالنفي وهي تضم شفتيها لتمنع ارتعاشهما نتيجة نشيجها الصامت، ابتلع ريقه بصعوبة وهو يحاول جاهدًا التماسك أمام هيئتها الهشة، غضبه غير المفهوم منها أضعاف رأفته بها، ولكنه يحاول جاهدًا السيطرة عليه. تحدّث بصوت مكتوم: «عليكِ أن تنفي ما قلته وقت القبض عليك، سيتولى المحامي كل الأمور معكِ، ولكن يجب أن تتوقفي عن الهتاف في كل وقت بأنكِ قتلتِه من دون تردد».

رفعت عينيها الدامعتين له وهي تتحدّث بتيه: «ولكن أنا فعلت» أجابها: «لم تكوني في وعيكِ»، شعرت بغضب غريب داخلها فهتفت: «إن كنت بوعيي وقتها سأفعلها من دون تردد».

طالت النظرات بينهما، قرر يامن قطعها وهو يتنهد بتعب فلمحته زمرد وهو يميل بجسده للأمام يستند بذراعيه على ساقيه ويضع وجهه بين كفيه ويتحدّث بإرهاق: «أنا هنا لأساعدكِ زمرد، أنتِ تواجهين قضية قتل الحكم فيها سيكون مؤكدًا، خاصة أمام كل ما تقولينه، أنتِ وغُفران صديقتك وضعكما ليس مُتساويًا، هي قتلت دفاعًا عن النفس تحت شهود، إنما أنتِ قتلتِ من أجل...» قاطعته وهي تهتف بغضب: «من أجل الدفاع عن سنين من العذاب، عن جسدي الذي انتهكه، عن شرفي المهدور الذي يجعلك تنظر إليّ كأنني فرطت فيه برغبتي».

نهض يامن بغضب وهو يشعر بفقدان السيطرة أمام جملتها الأخيرة فهتف من دون وعي: «أوليست هذه الحقيقة؟! أنتِ كنتِ عشيقة له لذا شرفكِ لم يُهدر، أنتِ بتهوركِ وغبائكِ وقلة وعيكِ قتلتِه من أجل الانتقام فقط الذي لا أفهم أسبابه.. يا إلهي أنتِ ناضجة بما يكفي لتعلمي المشاعر الحقيقية من الخادعة، أنتِ ناضجة بما يكفي لتحافظي على شرفكِ، لتحافظي على نفسكِ، لتوقفي كل شخص يحاول انتهاككِ، اللعنة زمرد أنتِ الوحيدة منهن من كانت عشيقة له.. فبماذا يوحي ذلك للجميع؟!» .

تنفّس بقوة وهو يحاول التحكّم بأعصابه حتى لا ينقض عليها ويضربها بقوة ثم يحتضنها ليحمي تلك الطفلة التي تنظر له من عينيها المُتسعتين وتضم شفتيها المُرتعشتين من هول ما قاله، أدار وجهه عنها ونظر للشرفة أمامه وهو يتحدّث

بجمود وقلبه يئن وجعًا بسببها وعليها: «توقفي عن العيش بمشاعر دور الضحية، وتذكري جيدًا أنه حان وقت التخلّي عن أنانيتكِ والنظر للقضية بجدية، لستِ وحدكِ من تعيشين في هذا العالم، حولكِ أهلكِ وأحباؤكِ لهم حق في أن يعيشوا أيامهم معكِ بعد غياب طال لسنوات، والدتكِ إن علمت ما أصابكِ فستموت بحزنها أنا لم استطع إخبارها سوى بقضية القتل المُتهمة بها، توقفي عن إبعاد كل من يحبك عنكِ بتصرفاتكِ».

تحرك يامن ليخرج مُتجاهلا النظر إليها حتى لا يضعف بعد ما قاله، حتى لا ينظر لعينيها ويرى الخذلان بها، حتى لا ترى أنه على استعداد أن يحارب العالم كله فقط من أجلها دون أن ترحل عن عينيه للحظة، هو فقط لا يفهم كل تلك المشاعر المتناقضة داخله. وقف أمام الباب وقبل أن يخرج تحدث بجمود: «تعافي بسرعة حتى يستطيع المحامي مُقابلتكِ وإخبارنا بما يُفيد في القضية».

شعرت بأن قلبها ينفطر لنصفين، ألم غريب يجتاح روحها يجلدها بسياطه، هي تعي كل كلمة قالها وتُدرك معناها، هي لم تظن أنه سيُعاملها بقسوة هكذا، سيلقي باللوم عليها دون أن يسمع ما اضطرت لفعله، أن تخرج هذه الكلمات منه هو، أن يعرّيها أمام روحها ويلفظها روحه هكذا كان هذا الأكثر إيلامًا لها.

رفعت كفها ووضعته على مكان قلبها لعلّه يهدأ من ألمه، وألم آخر يعصف برأسها جعلها تغمض عينيها وتضم جسدها بذراعيها وهي تهمس بدموع: «ماذا ظننتِ؟ أن يربت على أوجاعكِ ويخفف عن آلامكِ؟! لقد خسرتِ كل شيء الآن زمرد، لقد خسرتِ كل شيء».



مقر الأمن الوطني

دخل اللواء حسين ثروت ليجد غُفران تجلس بجمود على أحد كراسي المكتب، اقترب منها لتجفل على صوته وهو يقول: «كيف حالكِ ابنتي؟!» رمشت غُفران بعينيها وسؤال اللواء أخرجها من أفكارها وقلقها الشديد على رحمة وليلى، أجابته

بهدوء: «بخير»، جلس اللواء في الكرسي المُقابل لها وهو يتنهد بتعب، نظر لشرودها وأعاده لذلك اليوم الذي طالبته بمساعدته بعد أن أنقذت حياة ابنه، تحدّث محاولا طرد تلك الذكريات من عقله: «لقد هربت الفتاتان، سنحتاج منكِ تفاصيل لهما من أجل عملية البحث».

هزت رأسها بنعم دون قول شيء لتسأله عما يشغل عقلها:«ماذا عن ليلى ورحمة؟!»

أجابه بهدوء: «أميرة وزمرد، من حسن حظنا أننا وجدنا عائلتيهما قبل أن تحدث أي كوارث أخرى، عائلة أميرة كانت تبحث عنها منذ سنوات، تاركين الحمض النووي وتفاصيل في كل مشفى وقسم بالمدينة، لقد قابلت عائلتها ولأن لا علاقة لها بقضيتكما تركناها ترحل مع عائلتها حتى نعاود التحري معها عن أحداث المزرعة، أما عن زمرد فأحد أفراد عائلتها وجدها وقابلها، ولكن هي ما زالت معنا فقضيتها لم تنته».

تحدّثت غُفران بجمود:«المُقدّم يامن أليس كذلك؟!» أكملت وهي تلمح استغرابه لمعرفتها لتجيب تساؤله: «لقد تحدّث معي، كان في حاجة لمجموعة من التفاصيل، ربما لم أخبره بالكثير ولكن أخبرته بما يحتاجه على الأقل، أدركت من اهتمامه أنه رجل تثق به».

أجابها اللواء:«بالفعل يامن من أجدر رجالنا هنا، كما أنه سيتولى بنفسه قضية زمرد»، تنهدت غُفران وهي تقول: «بعد التحقيق الأولي والأدلة التي أملكها ستستطيع زمرد الخروج أليس كذلك؟!» .

أجابه اللواء بغموض: «نعم بالطبع» زفرت بضيق وهي تقول: «لقد حدث كل شيء بسرعة رهيبة، لقد أفسد مُخططه ما خططنا له تلك السنتين»، صمت اللواء محتفظًا بما لديه وهو يسمعها تكمل: «هكذا لن نستطيع أن نصل للزعيم الكبير، لدي شعور داخلي أن الأمر لم ينته بهروب خلود وسمر، هناك أمر حدث، أمران في الواقع، الأول هو أن هناك من أرسله ممدوح لمراقبتي ولم يوصل لممدوح معلومات عن اتصالي بالشرطة، ولكن أنا ربطت الأمر بالاحتياطات التي كنت أتخذها وأنا

أقابلك بالمشفى رغم شكي بالأمر، والأمر الثاني هو كيفية وصول النقيب سمير لمكان الاتفاق مع رجال الشرطة، الرجل الذي أرسلته ليخبرني بأمر البيع لأشخاص على الحدود لم يتبعني بعربته، وأنا علمت بالمكان من رجال الشيخ عزيز الذين راقبوا ممدوح منذ اختفائه في إحدى المناطق النائية عن الطريق الرئيسي».

أغمضت عينيها وهي تشعر كأنه عقلها سينفجر من التفكير لتضع كفيها على رأسها تحاول إيقاف الألم قليلًا ليجيبها اللواء: «أنتِ محقة بالفعل، لم يوصل الرجل الذي يراقبكِ معلومات لممدوح عن تعاملكِ مع الشرطة، وذلك لأن هذا الرجل يعمل معنا، وهو أيضا من أخبر سمير بمكان الاتفاق حتى يسرع برجال الشرطة للمكان».

فتحت غُفران عينيها لتنظر بصدمة للواء لتراه يبتسم لها بهدوء قائلًا: «أخبرتكِ أنكِ لستِ وحدكِ غفران، لم أكن لأشعر بالأمان وأنتِ هناك وحدكِ أبدًا».

نهض من مكانه واقترب من باب داخلي لمكتبه، وفتحه ليخرج منه آخر شخص توقعت أن تراه لتنتفض من مكانها وهي تنظر إليه بصدمة، بينما قابلها الرجل الآخر بهدوء محاولا إخفاء راحته لرؤيتها حية.

همست: «عمران!»

جذبه اللواء من ذراعه وجلسا على الأريكة المجاورة للكرسي الذي كانت تجلس عليه ليبادر اللواء بالحديث: «نعم غفران، عمران هو رجلنا الذي كان يمدنا دومًا بالمعلومات، هو عيننا هناك وسط رجال ممدوح وهو من أخبرنا بصفقة زمرد ولو لم يحدث ما حدث كان سيصله معلومات عن صفقة أميرة التي كانت ستوصله بالزعيم الكبير».

تحدّث عمران بعد أن رأى صدمة غُفران: «لم نستطع أن نجازف ببيع رحمة مقابل معرفتنا بالزعيم الكبير، في الحالتين كان يجب أن نتدخّل فقط، صُدمنا من رد فعل رحمة بقتلها لممدوح».

هتفت غُفران بغضب غير مُصدقة ما سمعته:«هل أنت حزين على موت سيدك؟! من معرفتي الوثيقة بك إن لم يمنعك شيء من تنفيذ أوامره».

أجابها عمران بهدوء مُتجاهلا غضبها:«لقد علمت للتو سبب تنفيذي أوامره غُفران، وبالطبع أنا حزين على موته ففي النهاية خسرنا الطرف الذي يوصلنا للرأس الكبيرة».

هتفت بغضب:«اللعنة عليك، أنا لم أثق بك يومًا ولن أثق بك أبد الدهر»، وجّهت حديثها للواء حسين وهي تقول:«لا تضع ثقتك الكاملة به، فممدوح كان يرسله ليوصل البضائع لمن دفع المقابل، إن كان رجلا من رجالك كما تقول ما صمت كل تلك السنوات، اللعنة إنه مع ممدوح منذ أن كان عمري ٥ سنوات».

ساد الصمت في الغرفة وجسدها كله ينتفض من الغضب وهي ترى عمران ينظر إلى الأرض واللواء ينقل أنظاره بينهما وحين لمح صمت عمران قرر ترك الأمر له ثم نهض من مكانه وهو يقول:«غُفران عمران يريد التحدّث معكِ في أمر مهم، أمر سيساعدنا بخصوص القضية، أتمنى أن تستمعي إليه، إن لم تثقي به فثقي بي أما أنني خسرت ثقتكِ أنا الآخر».

رمشت غُفران بعينيها وهي ترى العتاب في عين اللواء لتزيح عينيها عنه وهي تتنفس بقوة مُحاولة السيطرة على غضبها لتجلس على الكرسي مجددًا دون التفوه بشيء، تحدّث اللواء:«سأترككما قليلا فلدي اجتماع مع القادة ومجموعة من الأطباء الذين حضروا من أجل القضية».

رحل اللواء وساد الصمت بالغرفة طويلًا حتى قطعه عمران وهو ينهض من مكانه ليجلس على الكرسي المُقابل لغفران جاذبًا انتباهها له لتنظر له بغضب ازداد بعد أن سمعت سؤاله:«كيف حالكِ غُفران؟!» لتهتف:«اللعنة عليك، ماذا تظن حالي الآن، أنا غاضبة، في أشد غضبي كيف بإمكانك الصمت كل تلك السنوات؟! كيف لم تقل شيئًا وأنت تعي جيدًا علاقتي بالشرطة؟! هل تظن أنني أشعر بالامتنان الآن لأنك في الجهة الصالحة؟! أنت مخطئ أنا لا أشعر سوى بالغضب منك؟!»

حانت منه ابتسامة أجفلتها لتسمعه يقول بهدوء: «أنا لم أتوقع أي أمر بخصوصكِ أبدًا غُفران، لطالما كنتِ لغزًا بالنسبة لي، لغزًا لم أفهمه يومًا، سؤالي عن حالتكِ ليس لأزيد من مشاعر الغضب لديكِ، أنا فقط أردت الاطمئنان على حالكِ بعد أن قتلتِ والدتكِ».

تجمّد الهواء من حولها وهي تسمع جملته، لتأخذ نفسًا طويلًا آلم صدرها، لترمش بعينيها وتصمت للحظات وهو يرى بوضوح حربها الداخلية، يعلم جيدًا الألم الذي تشعر به، تريد أن تلهي نفسها بأي مشاعر أخرى، أن تغضب وتغضب من كل شيء حولها حتى لا تغضب من نفسها، وهو مُستعد لأن يتلقى منها أي مشاعر سلبية في هذه اللحظة، لكنه أيضًا يُريدها أن تُنفّس عما داخلها.

أجابته بجمود: «ماذا تظن أنتِ حالي بعد أن قتلتها؟! هيا أخبرني واصدمني بمعرفتكِ القوية بي التي تدّعيها؟!»

نظر لها بحزن ليقول: «جزء منكِ يشعر بالراحة لأنكِ انتقمتِ من المرأة التي لم تعاملكِ يومًا كأم لكِ، لامرأة أفسدت طفولتكِ وقتلت كل ما هو جميل بكِ، لامرأة كانت سببًا لأذية من حولكِ، لامرأة كادت أن تتخلى عنكِ لولا مخططها».. لمح شحوب وجهها واتساع عينيها ليكمل: «وجزء آخر حزين لأنكِ أنتِ من قتلتِها لا أحد آخر غيركِ، تستطيعين لومه متى أردتِ».

ارتعشت شفتاها وهي تراه يعرّي روحها لتقول بصوت مرتعش: «أنت لا تعرفني، لذا لا تقُل كلامًا لا يعني أي شيء».

اقترب عمران منها وهو يقول: «بلى غفران، أنا أعرفكِ جيدًا، فكما قلتِ منذ قليل أنا أعرفكِ منذ طفولتكِ، لا يفرق بيننا سوى ثلاث عشرة سنة، عشت معكِ فترة حياتي التي جازفت بها من أجل حماية من أحب».

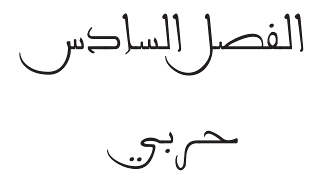
رمشت بعينيها تحاول طرد دموع غبية ليأتي بعقلها أمر واحد فقط: «هل تقصد والدتك؟!» عاد بجسده للخلف مُستندًا على كرسيه ليقول بهدوء: «حين تكوني مُستعدة سأخبركِ كل شيء، والآن دعينا نفكر جيدًا بما حدث، ونربط معًا كل ما جمعناه من معلومات طوال تلك السنوات، دعينا نخرج أولا زمرد من هنا

فهي ستكون أكثر أمانًا وسط عائلتها كما هي أميرة الآن، وبعدها لنحاول الوصول لخلود وسمر، فأنا على يقين أن لديهما خيطا قويا لما نبحث عنه، خاصة سمر، أنا لن أطالبكِ بثقتكِ غُفران لكن سأسألك المساعدة مُستدعيًا أيامنا في ذلك الكهف كوسيط لنيل مساعدتكِ».



وأنا أحتاج أن يُربّت كتفي أي شيء ولو كان قطرة مطر

محمد حسن علوان



منزل أميرة

شعرت بقرب انهيار طاقتها وهي تلهث من التعب، لم تعد ترى الطريق أمامها وهي تركض بقوة ثم ازدادت الخطوات التي تسمعها خلفها، فأصاب قلبها الرعب لأول مرة وهي تشعر بقرب الخطوات، لمحت دموعها تتساقط بغزارة وهي ما زالت على هيئتها فسمعت صوتًا من بعيد يناديها: «أميرة.. أميرة»، ازداد اختناقها وخارت قواها فسقطت على الأرض وهي تصرخ: «ليلى اسمي ليلى».

شعرت بأحدهم يمسك بذراعها ويجذبها منه فانتفضت مكانها، وفي لحظة سحبت سكينها من جانبها ونهضت وهي تضعها على رقبة من يمسك بها وهي لا تستطيع رؤية ملامحه من الظلام، ثم أخذت تدفعه حتى ارتطم بالحائط والسكين ما زالت على رقبته، حتى إنها أحدثت شقًا لم تلمحه وهي ما زالت على صرختها: «اسمي ليلى.. ليلى».

ثم فجأة أُضيئت الغرفة فأغمضت عينيها للحظات وفتحتها مجددًا وهي تسمع آسر وهو يهتف: «ماذا يحدث؟»، بينما هي عقدت ما بين حاجبيها وهي تلهث بصعوبة غير واعية إن كانت في حلم أم واقع، لتدرك أنها كانت تحلم، فنظرت أمامها للرجل الذي دفعته للحائط وسكينها على رقبته ولم يكن سوى السيد محمد.

لم تتحرك إنشًا، وقد ازداد غضبها، فزادت من ضغط السكينة على رقبته وهي تهتف أمام وجهه: «ما الذي تفعله هنا؟!»

وصلت لأسماعها أصوات أقدام كثيرة لتسمع هتاف أحدهم: «ما الذي تفعلينه؟! هل أنتِ مجنونة؟! اتركي أبي»، أدارت عينيها لتدرك أن الصوت لم يكن إلا لأمير، فازداد غضبها لتهتف: «ليس قبل أن يجيب سؤالي».

ارتعشت جميلة الواقفة بين أمير وآسر وخلفها أحمد وآدم يشاهدان ما يحدث بصدمة، ازداد غضب أمير وهو يرى والده ينظر بصدمة مصحوبة بألم لأميرة، لا يصدق ما تفعله، كاد أن يقترب فمنعه آسر وهو يهمس لوالدته بأن تتقدم، تحركت جميلة بسرعة لتقف بجوار أميرة التي تحتجز محمد بسكين على رقبته، ويدها الأخرى تقبض على قميصه فتحدّثت بارتجاف: «ليلى حبيبتي اهدئي قليلاً.. إنه والدكِ محمد لن يؤذيك يا صغيرتي فقط اتركي السكين جانبًا».

زمجرت أميرة بغضب وهي ما زالت على وضعيتها: «فليخبرني هذا القذر عما كان يفعله في غرفتي».

شهقت جميلة وازداد اتساع عين محمد غير المُصدق لما يحدث، بينما ارتعب الصغار من هيئة أميرة الغاضبة، تساقطت دمعة من عين محمد وهو يشاهد صغيرته بهذه الحالة فأجابها وهو ما زال تحت تأثير الصدمة: «فقط. اشتقت لصغيرتي، جئت لأنني فقط أردت رؤيتكِ، ليس عدلاً أن تمكثي هنا أسبوعًا كاملاً ولا تجعليني أراكِ يا ابنتي، ليس عدلاً بعد كل هذه السنوات، طرقت باب غرفتكِ ولم تجيبي، فسمعت صوتكِ كأنكِ تنازعين فدلفت للغرفة، فلمحتكِ تعانين، فبدا كأنه كابوس وأنا كنت...»

ارتعش جسد أميرة للحظات وهي تلمح دموعه، فعقدت ما بين حاجبيها بعدم تصديق فالتفتت جميلة وهي تحاول السيطرة على الوضع وهتفت لأمير بأن يرحل ويأخذ إخوته الصغار معه، رغم رفضه الشديد إلا أنه استجاب بعد أن ألقى نظرة غاضبة أخيرة على أميرة، فخرج من الغرفة مع أخويه وآسر ما زال في مكانه يحاول جاهدًا دراسة الموقف وحالة أخته المُضطربة، تحدّثت جميلة بهدوء: «ليلى.. اتركي السكين حبيبتي هيا ألا تثقين بي؟!» أجابتها بصوت مكتوم: «أنا لا أثق بأحد..

أخبرتِني أن هذه الشقة لا يدخلها أحد، وها هو زوجكِ العزيز يدخلها ليلًا ليشاهد الفتاة الصغيرة في المنزل وهي نائمة في غرفتها».

كانت ملامح الاستنكار والاحتقار على وجه أميرة لوالدها مما جعل قلبه يتفتت لشظايا، ليقول بألم مُدافعًا عن نفسه: «لمَ لا تقولي إن زوجها قد جاء ليرى صغيرته النائمة ويشبع عينيه بالنظر إليها لأنها لا تسمح له برؤيتها والنزول من مسكنها لتجلس ولو لساعة بالأسفل معه ومع إخوتها؟! لتتحدث إليه، لتدعه يتحدث إليها».

رفع محمد يديه التي ما زالت تحمل قطعة وردية من الثياب، ورفعها أمام عين أميرة وهي يريها فستانًا صغيرا لطفلة، وأكمل من بين دموعه التي لم يستطع أن يسيطر عليها: «أردت أن أريكِ ثيابكِ الوحيدة التي اشتريتها لكِ منذ ثمانية عشر عامًا، أردت أن أخبرك كم كنتُ في انتظاركِ كل تلك السنوات، كم حلمت بأن ألمس خصلات شعركِ بعد أن تُسرّحها لكِ جميلة، وكم حلمت بأن أنام كل ليلة بجواركِ أحكي لكِ عن قصة حبي لوالدتكِ، وكم حلمت بأن أرى نظرة الحب في عينيكِ وأنتِ تناديني بأبي الحبيب وأناديكِ بأميرتي الصغيرة، أردت أن أخبركِ كم اشتقت لاحتضان ابنتي الوحيدة التي حرمني منها مجرمون قد حوّلوها لإنسانة غريبة عني، لإنسانة لا تثق في عائلتها».

ازداد نشيجه وهو يتابع موجهًا حديثه لجميلة: «سامحيني جميلة لم أستطع أن أصبر يا إلهي إنها ابنتي، كيف أمنع نفسي عن رؤيتها وقد غابت عن عيني كل تلك السنوات، لم أستطع.. أقسم لكم لم أستطع».

أخفض محمد وجهه واهتز جسده ببكائه الصامت، بينما شاركته جميلة البكاء وقلبها يتألم لرؤية حبيبها هكذا، بينما لمعت الدموع في عين آسر وهو يتفهّم حالة والده وحالة أخته أيضًا، وهو يهمس داخله: «لقد تعرضتِ لأمر مماثل لما حدث يا أميرة ولم يكن أمرًا بريئًا».

شعرت أميرة بمشاعر غريبة داخل قلبها وهي تلمح بعينيها صدق كلامه بخبرتها وعدم ادعائه وهي تهمس بداخلها: «هل يعقل؟! هل يوجد مثل هذه المشاعر؟! هو لم يحمل أي نوايا سيئة؟!»

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تشعر بأن هناك شيئا غير صحيح، فانتفضت مبتعدة عنه وفي يديها سكينها ما زالت مُمسكة بها بقوة، فلمحت جميلة وهي تقترب من زوجها وتحتضنه بقوة وهي تهمس له: «آسفة سامحني».

رفعت نظراتها لأسر فوجدته ينظر لها بتمعّن فرمشت بعينيها وهي تبعدها عن عينيه، هي لا ترتاح لنظراته تشعر به يفهمها ويفهم ما يدور داخلها، وهي تكره هذا، لا تريد أن يعرفها أحد أو يفهمها أحد، هي لا تريد أي شخص بالقرب منها.

خرجت من دوامة أفكارها على صوت جميلة وهي تقول لمحمد: «هيا دع آسر يُعالج جرح رقبتك» فنقلت أميرة نظراتها للدماء التي لونت قميصه الأبيض وذلك الشق الذي يلمس عظمة الترقوة فارتجف جسدها للحظات ورفعت عينيها له فلمحته ينظر لها بين دموعه بألم ثم نظر للأرض وخرج وأسر يسنده.

زفرت جميلة بإجهاد وهي لا تصدق حتى الآن ما حدث بعد أن انتفضت في نومتها على صوت صراخ أميرة وهي تهتف اسم ليلى، وشعرت بأن الدنيا كلها تضيق بها لتخرج مُسرعة لغرفة أميرة التي تجاور غرفتها لتلمح بعدها أبناءها يصعدون الدرج وهم في حالة صدمة لسماع هذا الصراخ الذي لا يتوقف فكان آسر هو الأسرع في دخول الغرفة لترى بعينيها ما حدث.

نحت جميع أفكارها بعيدًا وهي تتذكّر جملة آسر: «أمي أميرة في حالة للمساعدة»، نظرت لأميرة التي كانت تراقبها بجمود ومازالت مُمسكة بالسكين في يديها فاقتربت جميلة منها وهي تبتسم بهدوء وتنقل نظراتها بينها وبين السكّين فرفعت كفيها لتُحيط بوجنتي أميرة وتتحدّث بحنان: «هل دومًا تعتادين على حملها معكِ وأنتِ نائمة؟!» لم تجيبها أميرة للحظات وهي تشعر بالخدر من لمسة كفيها لوجنتيها ثم هزت رأسها بنعم فتبعتها جميلة بسؤالها: «هل تخافين من شيء؟!»

«أنا لا أخاف» سارعت أميرة بالرد بقوة فابتسمت جميلة لها وهي ترى في أعماق عينيها طفلة صغيرة ترتجف خوفًا، أبعدت جميلة كفيها عن وجنتي أميرة لتشعر الأخيرة ببرودة غريبة ثم شعرت بكف جميلة يمسك ذراعها جاذبة إياها ليجلسا معًا على السرير لتقول جميلة بشرود: «هل تعلمين وأنا في سنكِ كنت أخاف

دائمًا أن أنام وحدي بالغرفة، كنت أتحجّج بأي حجة حتى أنام مع أمي، كنت أشعر بأن أحدهم سيدخل غرفتي ويؤذيني».

شعت عين أميرة حماية لها وهتفت من دون وعي:«هل أذاكِ أحد وأنتِ صغيرة؟!»

ابتسمت جميلة لها وهي تُربّت على وجنتيها:«لا يا حبيبتي لم يؤذني أحد أبدًا على الأقل أذية جسدية ولكن شهدت أمام عيني موت والدي فأثر بي كثيرًا» تحول جسد أميرة للوح جليدي ولم ترمش بعينيها ولم تغب حالتها عن جميلة فبادرت بسؤالها:«هل شاهدتِ موت أحد أمام عينيكِ؟!»

لم تجبها أميرة للحظات فقط هزة رأس خفيفة بنعم فأكملت جميلة مُتشجّعة باستجاباتها:«هل أذاكِ أحد وأنتِ صغيرة؟!» ساد الصمت للحظات وشعرت جميلة بأنها لن تجيبها فتفاجأت بهمستها:«لم يستطع».

ابتلعت جميلة ريقها بتوتر وهي تستشعر بأن هناك أمرًا ما خلف جملتها:«هل حاول أحدهم أذيتكِ؟!»

فأجابتها أميرة بكرهٍ:«تركت على ذراعه أثرًا ليتذكّر دومًا بألا يحاول مجددًا».

شعرت جميلة بقلبها يتفتت ألمًا وهي ترى طفلتها تتحدّث بكرهٍ واضح في عينيها وأعصاب يديها مُنتفضة نتيجة ضغطها على السكّين بقوة، فلمست جميلة كفيها وهي تنظر للسكّين لتسألها:«هل هذه ملككِ؟!»

أبعدت أميرة نظراتها عن جميلة وهي تنظر للسكّين في يديها وهمست شاردة:«منذ العام السابع، أعطتني إياها أختي، هي أعطت كل واحدة منّا سلاحًا».

كتمت جميلة شهقتها وهي تحاورها بهدوء:«هل حذّرتكِ من التعامل مع الرجال؟!» أجابتها بصوت مكتوم:«بل حذّرتنا من التعامل مع الأوغاد» فسألتها جميلة:«وكيف تعرفين أن الذي أمامكِ جيد وليس وغدًا؟!»

خرجت أميرة من حالة شرودها وهي تنظر بقوة لجميلة لتهتف:«ما الذي تريدين إثباته؟!» أجابتها جميلة بهدوء:«محمد ليس وغدًا، وإخوتكِ ليسوا أوغادًا»، صمتت أميرة ولم تجبها بشيء لتحاول جميلة إخراجها من حالتها وهي تقول بضحكة:«أحيانًا أمير يصبح مستفزًا ولكننا نحاول معالجته»، حانت من أميرة ابتسامة وهي تنظر لها بانبهار لمحته الأخيرة لتسألها:«لماذا تنظرين لي هكذا؟!»

فقالت أميرة بشرود:«ربما رأيت من هن أجمل منكِ، لكن لم أر مثلكِ أبدًا، ضحكتكِ جميلة للغاية والوحيدة التي أجد نفسي أرتاح إليها رغم حذري الشديد مع كل من حولي»، ابتسمت جميلة لها بحنان وهي تحاول طرد دموعها لتقول:«لقد تلاقت أرواحنا عند نقطة إذًا لأنني لم أر من في جمالكِ وجمال ابتسامتكِ من قبل»، نظرت أميرة للأرض بحرج وهي تهمس لجميلة:«ليس من المفترض أن نبتسم مع الغرباء».

سألتها جميلة بأمل:«وهل أنا غريبة لكِ؟!» رفعت أميرة عينيها لها وأردفت:«يجب أن أعتبركِ غريبة ولكن هذا يرفض بشدة».

وأتبعت جملتها بالإشارة لقلبها فرقت عين جميلة لها ودمعت وهي تجذبها لحضنها لتهمس لها بحب:«أدعو الله أن يزرع في قلبكِ الحب لوالدكِ كما زرع الحب لي في قلبكِ يا حبيبتي».

شعرت جميلة بارتجافة بسيطة في جسد أميرة فهمست لها:«أعطِنا فرصة صغيرة يا صغيرتي، فقط فرصة صغيرة لتتعرّفي علينا وتُصدّقي مشاعرنا، وإن خسرنا فرصتنا لن أطلب منكِ شيئًا آخر».

ساد الصمت للحظات قبل أن تهز أميرة رأسها بإيماءة صغيرة جعلت جميلة تحتضنها بقوة وهي تهمس داخلها فرحة:«الحمد لله».



بعد أيام بمنزل أميرة

«آسر هناك واحدة تريد الحديث مع أميرة، وأنا لا أعرف ماذا أفعل؟!» رفع آسر رأسه من على الكتاب الذي كان يقرأ فيه وهو ينظر بدهشة لأحمد: «ماذا؟! من تكون؟!»

سأله آسر وهو ينهض من على كرسيه بغرفته متجهًا مع أحمد للبوابة وأحمد يجيبه: «لا أعرف، ولكن هيئتها توحي بالخطر».

فتح آسر البوابة ليجد أمامه فتاة تتشح ملابسها المُكونة من بلوزة سروال بالسواد، كانت تدير وجهها عنه فتحدث جاذبًا انتباهها: «مرحبًا، كيف أستطيع مساعدتك؟!»

التفتت غُفران في هذه اللحظة وهي تشعر بالضيق داخلها ورجل أكبر سنًا من الشاب الذي قابلها يحدثها، نظرت له بجمود للحظات وهي تلمح تشابه ملامحه مع ملامح الشاب لتجيبه بهدوء مُحاولة استعادة أنفاسها الهاربة وهي تفكر أن هذا الرجل لديه هالة حوله تشعرها بالارتباك، باستنفار استشعارات الإنذار لديها: «أنا أريد التحدث مع ليلى، أميرة، أخبرها أن غُفران تريدها».

ساد الصمت للحظات وهو ينظر إليها وهو يقول: «إذا أنتِ غُفران، ولكن كيف بإمكاني التأكد بأنكِ لست واحدة من الذين فروا من المزرعة أو من الصحافة».

تذكّر منذ يومين واللواء حسين يطالب برؤيته ليحدّثه عن القضية الكبيرة ويطالبه بمقابلة أميرة لتتحدّث عما حدث تحت إشراف أطباء ليطلب منه أن يتولى هو معالجتها بما أنه طبيب نفسي، وفي نفس الوقت أخوها، ليفكّر اللواء قليلا قبل أن يوافق على طلبه ويخبره بالمُستجدات عن هروب فتاتين: «خلود وسمر» ما زال البحث عنها ساريًا ولكن ربما تسببان أذى للفتيات.

قلبت عينيها وهي تخرج بطاقتها الشخصية من الحقيبة التي ترتديها لتعطيها له بنفاد صبر جعله يرفع حاجبيه مستغربًا من تغضن ملامحها بالغضب، نقل أنظاره بينها وبين البطاقة الشخصية بين يديه ليسألها بدهشة: «أنتِ طبيبة، بأي تخصص تعملين؟!» لم تستطع كتم غضبها أكثر وهي تشعر ببرودة هذا الرجل

لتهتف من بين أسنانها: «أنا أريد التحدّث مع أميرة، والآن بعد أن تأكدت من هويتي هل بإمكاني رؤيتها؟!»

رمش بعينيه وهو يشعر بطاقة غريبة تفوح منها ليقول بعد صمت دام للحظات: «اتبعيني».

لمحته يخرج من المنزل ليمر بقربها فابتعدت على الفور وهي تراه يأخذ ممرًا بجانب المنزل فتبعته بحذر وهي ترى الحديقة الخلفية للمنزل، ثم لمحته يصعد الدرج ويضغط على جرس باب فتوقفت مكانها ولم تصعد وهي تلمح بعد لحظات امرأة تفتح الباب لتبتسم له ليهمس لها بشيء جعلها تنقل أنظارها لغُفران لتتململ الأخيرة في وقفتها وهي تعي أن الحديث عليها، لا تريد أن تفقد سيطرتها حتى ترى أميرة هذا كل ما يهم الآن، هي عرفت من اللواء حسين أنه الآن يتم التحقيق في القضية الكبيرة بعد أن أدلت بشهادتها وأعطته الأدلة التي جمعتها كل تلك السنوات هي وعمران ليتم الإفراج عنها هي وزمرد بضمان محل إقامتهما ومنعهما من السفر حتى ينتهي هذا التحقيق باعتبارهما شهودا في القضية، لذا أخبرها اللواء أنهم بحاجة لشهادة أميرة أيضًا بما أنها قضت سنوات عمرها هناك، فطلبت منه عنوانها فهي تريد رؤيتها والاطمئنان عليها، فمن حقها معرفة حقيقة ما حدث.

سمعت السيدة تقول لها: «تفضلي ابنتي»، شعور قلّص معدتها وهي تستشعر نبرة حنان ذكّرتها بأخرى غالية لقلبها، صعدت الدرج لتلمح آسر يبتعد عن طريقها سابقًا إياها للداخل.

«أنا والدة أميرة، هي بغرفتها سأناديها الآن حتمًا ستكون سعيدة برؤيتكِ»، هزت رأسها بتحية مُقتضبة وهي لا تقوى على قول شيء محاولة مغالبة ذلك الشعور الغريب الذي اكتنفها وقت دخولها المنزل الذي يبدو أنه تم تأثيثه بحب جعل للمكان روحًا دافئة، ارتعش جسدها وهي تحاول أن تخرج تلك الأفكار السخيفة من رأسها بينما ذلك الساذج يقف مكانه بدون حراك وهو ينظر إليها بتمعّن، كادت أن تسبّه وهي تشعر بأنه ينظر إليها مُحاولًا اكتشاف سر خطير لا يعرفه.

أصوات أقدام وصلتها من الممر لتلمح في لحظة أميرة وهي تنظر إليها بشحوب كأنها لا تصدق وجودها كما أخبرتها والدتها، ثم في لحظات انتفضت مكانها لتلقي بجسدها في أحضان غُفران وهي تشد ذراعيها حول جسدها هاتفة بصوت عالٍ: «غُفران أنتِ هنا، أخيرًا أتيتِ، لقد انتظرتكِ كثيرًا، لقد أتيتِ لقد أتيتِ».

راحة افتقدتها منذ أسابيع شعرت بها تجتاحها وهي تضم جسد أميرة لها مغمضة عينيها، رامية بقناع جمودها أرضًا وهي تتنهد بقوة، ربتت على شعرها القصير تهمس لها: «أنا هنا عزيزتي».

فتحت عينيها وهي تستشعر أنظارًا مُوجهة لها، ليصدق ظنها وهي ترى نظرات مختلفة من الرجل الذي يقف على مقربة منها، وابتسامة صغيرة يوجهها لأميرة جعلت قشعريرة غريبة تسري بجسدها، لتنقل أنظارها للمرأة التي أخبرتها أنها والدة أميرة، لتراها تنظر بأعين دامعة ضامة كفيها لصدرها ونظراتها لم تكن موجهة سوى لها هي، فأبعدت أميرة عنها وهي تتنحنح بخفوت، تمسح دموع أميرة بحنان لتقول لها بصوت خرج بصعوبة: «هل بإمكاننا التحدث قليلا على انفراد؟!»

لمحت ارتباك أميرة وهي تدير رأسها لوالدتها لتنظر والدتها لآسر كأنها تسأله المساعدة فقال آسر وهو ينظر لغُفران بغموض: «أمي لمِ لا تحضري كوبين من العصير حتى تجلس ليلى قليلا مع ضيفتها».

هزت والدتها رأسها وهي تخرج من الشقة ولكن بعد أن قبّلت شعر أميرة التي أسبلت أنظارها للأسفل جاذبة انتباه غُفران لها، رفعت غُفران عينيها لآسر وهي تفهم الآن حمائيته في الدفاع عن أختها، لتجده واقفًا مكانه لتقول: «أنا لم أقصد بسؤالي السيدة فقط».

حانت منه ابتسامة صغيرة وهو يقول: «أنا لن أترك ليلى وحدها»، رفعت ليلى أنظارها باستغراب لآسر وهي تقول: «لا داعي لذلك إنها غُفران لا تقلق»، نظر لها آسر بحنان وهو يقول: «لا أستطيع عدم القلق يا عزيزتي»، نظرت له غُفران بجمود وهي تراه يعيد كلمته، ما الذي يحاول إيصاله لها؟!

«أظن أن السيدة جميلة قالت إنه غير مسموح لكم بالصعود لهنا» ضحك آسر لترتبك الفتاتان ليقول لها بتفاهم:«أوتش لقد تم قصف الجبهة بنجاح، حسنًا يمكنك التحدّث مع ضيفتكِ بغرفتكِ ليلى وأنا سأبقي على باب الشقة حتى تعود أمي».

مسكت أميرة كف غُفران ودلفت بها لغرفتها وهي تفكّر أنه منذ حادثة السيد محمد وأسر أصبح يناديها دومًا بـ«ليلى»، أغلقت الباب خلفها بالمفتاح أثار انتباه غُفران لتسألها بقلق:«هل يؤذيكِ أحد هنا؟!» لتلتفت لها أميرة وهي ترى قلقها لتبتسم لها بين دموعها:«لقد اشتقت لاهتمامكِ بي غُفران»، اقتربت منها غُفران هذه المرة لتبادر باحتضانها وهي تقول:«سامحيني حبيبتي تركتكِ لتواجهي كل هذا وحدكِ دون أي تفسير، لكن بمجرد أن انتهى التحقيق معي، جئت إليكِ على الفور والآن أجيبيني ولا تهربي من سؤالي هل يؤذيك أحد هنا؟!»

ابتعدت أميرة عنها وهي تنظر لها بارتباك:«أنا لا أعرف أنا. لا أفهم ماذا حدث بالمزرعة وأين رحمة؟! وهل هؤلاء أهلي حقًا؟! أنا لا أفهمهم هم يمنحونني مشاعر لم أتفهّمها، يمنحوني حبا غريبا يشعرني بالقلق أحيانًا، وهي. غُفران هي لا تتركني منذ أسابيع، أتتخيلين لقد طلبت منها أن أبقى بعيدًا عنهم فوافقت على الفور من دون قول شيء، عارضة عليّ هذه الشقة لأمكث فيها معها، رغم بقائي بالغرفة إلا أنها تبقى في الشقة، لا تذهب لمنزلها معهم إلا لإحضار الطعام، وهم هم احترموا رغبتي، وآسر يحاول كل فترة وأخرى الحديث معي ولكنني أخاف حديثه أنا.. أنا فقط لا أستوعب ما يفعلونه، أشعر بأنه سيتم الغدر بي في أي لحظة وأحيانًا أشعر بأن هذه طبيعتهم، هم لا يدّعون، وهي لا تتوقف عن احتضاني وإخباري بمدى حبها ومدى سعادتها، يا إلهي غُفران أنا أشعر بها كل ليلة تدخل الغرفة وتُقبّل رأسي لتهمس بأنها تحبني ثم تخرج بهدوء كاتمة دموعها فخفت لكن أنا لم أستطع إغلاق الباب في الليل كأنني أرغب بما تفعله ولا أرغب به أنا لا أفهم أنا...».

شعرت بألم بقلبها وهي تستشعر ضياع أميرة أمامها فجذبتها لأحضانها مُطمئنة عليها بين عائلة واثقة بأنها تستطيع احتواءها لتقول:«يا صغيرة هذا ما

يسمى الغريزة أو الفطرة، هم عائلتك لذا حبهم لكِ وتفهّمهم مزروع داخل قلوبهم وأرواحهم، هم يُعاملونكِ من القلب، يُحبونكِ لأنكِ ابنتهم، لأنكِ أختهم أميرة».

ابتعدت أميرة وهي تعقد حاجبيها غاضبة من كلمتها: «لا تناديني بأميرة أنا ليلي، لقد أجبرتهم بأن ينادوني بليلي، أنا لا أتقبّل تلك الـ أميرة»

ابتسمت لها غُفران بحنان وهي تجذبها لتجلسا على الأريكة الموجودة لتقول لها: «اسمعيني جيدًا ليلى لأن ما سأقوله لكِ في غاية الأهمية».

أخذت غُفران تخبرها بكل ما حدث تلك الليلة، مُوضحة لها ما تحتاج معرفته من تفاصيل، غافلة عن البعض، ثم أخبرتها بتعاونها مع الشرطة لتصمت في النهاية مُنتظرة رد فعلها، مُتمنّية أن تفهم أميرة أسبابها، لا تسيء الظن بها كما فعلت رحمة.

لمحت شرود أميرة ودمعة ترسم البؤس على وجهها لتقول لها: «لطالما كنت متأكدة أن من المستحيل أن يكونا أبا وأما لنا فمن يفعل هذا بأبنائه، ذلك التحليل الذي طلبتِ مني أن آخذ عينة من سميرة كان لإثبات ذلك أليس كذلك؟!»

هزت غُفران رأسها بنعم، وهي تنظر لأميرة بترقّب لتسألها أميرة السؤال الذي تنتظره: «لماذا لم تكتفِ بالأدلة التي لديكِ لتطلبي من الشرطة أن يلقوا القبض عليهم؟!»

أجابتها غُفران: «لأنها لم تكن كافية لإدانة رؤسائهم، ممدوح لا يعمل وحده أميرة بل يعمل لدى عصابة لها أفرادها الكثر في كل مكان داخل وخارج مصر، أنا اضطررت للانتظار من أجل معرفة تحت إمرة من يعمل، أقسم أنني لم أفكر سوى بالقضاء عليهم جميعًا حتى ننتهي من شرهم للأبد».

صمتت غُفران في انتظار رد فعل أميرة لتراها تتنهد بتعب تمسح دموعها وهي تنظر للأرض قائلة بصوت باكٍ: «أتفهّمكِ لكن ما فعلوه يا غُفران كان فوق المحتمل».

«أعلم أقسم لكِ أعلم» أجابتها غُفران شاعرة بالندم لتركهم كل تلك الفترة، لتنظر لها أميرة وهي تقول: «هناك الكثير مما لا تعلمينه أنا لن أقوى على التحدّث به لكِ الآن، ربما فيما بعد أخبركِ بما أجبرونا على فعله، وأتمنى وقتها أن تسامحيني كما أسامحكِ الآن، ففي النهاية كلنا اضطررنا لفعل ما لا نرغب به».

جذبتها غُفران لحضنها وهي تقول: «شكرًا لتفهّمك، رغم انتفاض قلبي رعبًا لما قلتِه الآن إلا أنني سأنتظركِ في أي وقت لتخبريني بما تريدينه، وأعدكِ أنني أسامحكِ وسأسامحكِ دومًا، فأنتِ قبل أي شيء ابنتي الصغيرة».

ابتسمت أميرة لها وهي تقول: «حنانكِ هذا يذكّرني بالسيدة جميلة».

ابتعدت غُفران عنها وهي تنظر لها بحب: «حدّثيني عنها، يبدو أنها جميلة في مشاعرها كاسمها»، نظرت أميرة للأرض وهي تفرك يديها قائلة بارتباك: «هي هي حنونة جدًا، تحاول بقدر إمكانها تنفيذ ما أرغب به من دون أن تسأل، يبدو أنها تحاول تعويضي كل تلك السنوات التي ضاعت، لا تتوقف عن إخباري بمدى تعاسة حياتها في الفترة التي قضوها بين المستشفيات ومراكز الشرطة في البحث عني، أتعلمين أنهم لم يتوقفوا أبدًا، كل شهر كانوا يذهبون للبحث في كل مكان، يتصلون بالجهات المختصة التي تركوا بها أرقامهم بحثًا عن أي جديد، لم يتوقفوا عن فقدان الأمل أبدا»، ابتسمت غُفران لها بحب وهي تحتضن وجنتيها بكفها لتجد نفسها تسألها دون تفكير: «وماذا عن أخيكِ آسر؟!» تنهدت أميرة وهي تقول: «لا أعلم أشعر به مثلكِ كثيرًا، يقوم بكل ما يجب من أجل حمايتي، قام بالكثير في منع الصحافة من الوصول إلي، واحترم رغباتي بعدم التحدّث لأي شيء حتى الآن رغم طلب الأمن الوطني بالتحدّث إليّ، فكما تعرفين قد عينوا طبيبًا نفسيًا لكل واحدة منا فطالب هو بأن يكون طبيبي»، سألتها غُفران باستغراب: «هل هو طبيب؟!» أجابتها أميرة: «نعم في الحقيقة العائلة بأكملها أطباء، يبدو أنه أمر متوارث بينهم كما سمعت من السيدة جميلة، إن أمير يريد أيضًا أن يكون طبيبًا لم أخبركِ أن لي توءما أليس كذلك؟!»

«توأم!» أجابتها أميرة بضحكة: «نعم تخيلي أنا لدي توأم غير سهيلة، توأم غريب» سألتها غُفران باستغراب: «لماذا غريب؟!» قالت أميرة بشرود: «لا أعلم ربما لم نتحدّث بكلمة حتى الآن سوى يوم عودتي إلا أنني أشعر أحيانًا أنه نادم على عودتي، وأحيانا أشعر كأن روحي تتعرّي أمامه إن صادف ورأيته من نافذتي، كأن نظرته الجامدة لي تخبرني بأنه يعرف».

أجابت السؤال بعين غُفران: «نعم غُفران، أشعر بأنه يعرف عما حدث لي، أنا أيضًا لا أفهم ربما أتخيّل وربما لا ولكن أحيانًا أشعر به أشعر أحيانًا كأنه يناديني وأحيانًا كأنه يشكو لي شيئًا لا أعرفه لا أعلم، أشعر أن رأسي سينفجر».

ربتت غُفران على كفيها وهي تقول بحنان: «هوّني على نفسكِ عزيزتي، تقبّلي الأمور بتروٍ، أنا أردت أن آخذكِ معي ولكنني بحاجة لأرتب أموري قليلًا سأحاول أن أجد شقة تكفينا أنا وأنتِ ورحمة»، تجاهلت أميرة المشاعر التي شعرت بها بعد سماعها خطة غُفران لتسألها بارتباك: «هل عادت رحمة لعائلتها أيضًا؟!» أجابتها غُفران بجمود: «نعم إنها وسط عائلتها الآن، لم أذهب لرؤيتها بعد» سألتها أميرة وهي تشعر أن قلبها يتوقف من الخوف: «لماذا؟! هل هناك شيء بخصوص عائلتها؟! هل قالوا شيئا أو فعلوا شيئا؟!»

نظرت لها غُفران باستغراب وهي تقول: «لماذا تقولين هذا؟!» أجابتها أميرة مُسرعة: «لا لا شيء أنا فقط أطمئن عليها»، الخوف الذي كان داخلهما رغم اختلاف أسبابه إلا أنه في النهاية كان يلتقي بشبيهه في نقطة واحدة، كلتاهما خائفة من معرفة الأخرى بما تعرضت له رحمة هناك، فساد الصمت بينهما لم يقطعه سوى طرق الباب لتفتحه أميرة بينما وقفت غُفران مكانها لتلمح أخو أميرة يدخل حاملا بين يديه أكوابا من العصير قائلا بهدوء وهو ينقل أنظاره بين ملامح أميرة الباكية ووجه غُفران الجامد: «طلبت من أمي أن تتأخر قليلًا حتى لا نقاطع جلستكما ولكن لا أريد لضيفتنا أن تعتقد أننا بخلاء فأتيت بالعصير، ليلى هل أنتِ بخير؟!»

الارتباك الذي شعرت به غُفران من كلامه ذهب مع الريح حين سمعت سؤاله الأخير لتقول بصوت مكتوم: «لا تقلق لم ألتهمها بعد»، أجابها آسر بهدوء وهو يضع الأكواب على طاولة موجودة بالقرب منها: «أعلم بأنكِ لستِ من آكلي لحوم البشر» نقلت أميرة أنظارها بين آسر وغُفران وهما يقفان أمام بعضهما آسر بوقفته الهادئة الرزينة وهو ينظر لغُفران بنظرة الغموض التي لمحتها منه من قبل، بينما غُفران تقف بوقفتها الدفاعية كأنها ستنقض على آسر في أي لحظات لتسمعها تقول: «حسنًا سأذهب الآن أميرة وسأعود لأراكِ كل فترة حتى نُنفّذ ما أخبرتكِ به، اهتمي بنفسكِ جيدًا».

اقتربت من أميرة في نهاية كلمتها وهي تُقبّل جبينها لتسمع آسر يقول بتسلية: «ألن تتناولي العصير لقد أحضرته أمي خاصة لكِ» أجابته باقتضاب وهي تحمل حقيبتها لتسير باتجاه الباب: «أنا لا أتناول العصير».

شعور غريب داخله يُجبره على جذب الكلمات منها، يُجبره على إخراجها عن جمودها الغريب هذا ليقول: «ألن تشكريني حتى؟!» التفتت وهي أمام باب الشقة غافلة عن والدته التي نهضت من مجلسها وعن أميرة التي تقف خلفه لتقول: «سأشكر والدتك بما أنها من أحضرت العصير».

«أنا لم أتحدّث عن العصير، كنت أريد أن أعطيك هويتكِ فلقد نسيتها معي في غمرة غضبك غير المفهوم أسبابه»، لمحته يرفع البطاقة أمامها لتشعر بالغباء للحظة لترفع يدها تأخذ البطاقة منه من دون قول شيء لينظر لها للحظات قبل أن تلتفت لتفتح باب الشقة قائلة بصوت مكتوم: «إلى اللقاء أميرة».

نظر آسر للباب بغموض لتحين منه ابتسامة صغيرة مُلتفتًا لحديث والدته لأميرة: «حبيبتي هل أنتِ بخير؟! لمَ يبدو عليكِ البكاء؟! هل أزعجتكِ صديقتكِ بشيء؟! هل ضايقتكِ من مناداتها لكِ بـ أميرة؟!»

نظرت أميرة لوالدتها بصمت وهي تعي كلام غُفران الآن، تلك المرأة التي تقف أمامها تُحبها، تُحبها من قلبها حتى لو لم تُقدّم لها شيئًا، حتى لو لم تطلب منها أن تحبها، ذلك الخوف والقلق الذي لمحته في عينيها آلم قلبها فجعل دموعها تتساقط

مجددًا لتقترب منها والدتها وهي تلمس وجنتيها قائلة: «حبيبتي لمَ البكاء؟!» تابعها آسر بعينيه وهي تمسح دموعها وتنظر للأرض بحرج لتقول بصوت مُنخفض: «لا شيء، أنا مُتعبة فقط، سأذهب لأنام قليلا».

تركتهما أميرة لتدخل غرفتها بينما نظرت جميلة لآسر بقلق وهي تسأله: «بني ماذا يحدث معها؟!» أجابها آسر بشرود وأفكار كثيرة تدور بعقله: «هي تكتشف من حولها أمي، قلبها يتقبّل تلك المشاعر الجديدة التي صادفتها والآن الحرب مع عقلها غير المُصدق كينونة تلك المشاعر، دعيها قليلا أمي، هي في حاجة لكل الوقت لتتقبّلنا بقلبها وعقلها».



وبعد عام تدرك أن عامًا واحدًا يفعل الكثير

الفصل السابع

أنا هنا أنا هناك

رغم المساحة التي حولها والطبيعة الخلّابة التي تُزيّن مسكنها إلا أن تلك الخنقة التي تعتلي صدرها تزداد بسرعة قاسية، خرج نفسها ببطء كأن عذاب روحها يتجدّد مع كل نفس يدخل صدرها، كانت تظن أن عودتها للبيت ستجعل كل شيء على ما يرام، إلا أن الوحدة التي اختارتها وسط عائلتها جعلت من الـ(ما يرام) خيالا، فلا شيء سيكون على ما يرام بعد ما خسرته، إن نظرت للمعادلة ستجد أن ما خسرته أكثر مما تملكه الآن، كأن اغتصابها المُهين وسنوات عمرها الضائعة في ذلك المكان وموتها يتزيّنون أمامها دائمًا ليُذكّروها أنها ما عادت حية، نعم هي ماتت هناك في تلك المزرعة والجزء الباقي الذي حاولت جيدًا التشبّث به لتحيا مات معها ذلك اليوم الذي أطلقت فيه النار على ممدوح وعرفت الحقيقة التي كانت تخفيها غُفران، تعلم أنها قست جيدًا عليها ولكن هي فقط لم تتحمّل بعد أن عرفت أنه كانت هناك فرصة لإنهاء عذابها وعذاب من حولها بيد غُفران وهي لم تستخدمها، شعرت بالنار تشتعل داخلها فتحرق كل ما حولها، أغمضت عينيها تمنع دموع عينيها وهي تعود بذاكرتها لذلك اليوم الذي عادت فيه للمنزل، بعد أن سُمح لها بالخروج بعد أن تم تقديم الأدلة الكافية بأن ما فعلته كان مجرد دفاع عن النفس، ابتسمت بسخرية وهي تتذكّر قدوم يامن لها وإخبارها بالمشفى أنها ستعود للمنزل فهناك ستكون آمنة من أي شر مُحتمل أن يصيبها، خاصة لأنهم لم يلقوا القبض بعد على باقي أفراد العصابة، تذكّرت نظرته الجامدة لها وهو يخبرها أنه سيتولى القضية وأمانها بات الآن وظيفته.

هل عادت للبيت حقًا؟! التشوش الذي رأته في عين والدتها وهي تحتضنها وترحب بها في المنزل، شحوب وجه أختها الذي حاولت مُداراته بابتسامتها، مراعاة عائلتها عدم السؤال عن أي شيء وكأنهم هكذا سيتجنبون أبواب الجحيم التي بانتظار أحدهم أن يفتحها، كل هذا أكد لها أنها لم تعد للبيت أو أن هذا البيت كما لم يكن بيتها لمدة ثماني عشرة سنة لم يعد بيتها الآن، ولسخرية القدر هي اشتاقت لغرفتها بالمزرعة، اشتاقت للغضب الذي كانت تجده في عين ليلى، هي اشتاقت لغُفران وبشدة.

دمعت سقطة من عينيها وهي تتذكّر إملاء يامن الأوامر عليها كأنه أمر مُسلّم به أن تُنفّذ كل ما يقوله.

لا خروج من المنزل، لا محاولة للاتصال بأحد من رفيقاتكِ، إن أردتِ مُحادثة أحد أخبريني وسأحاول أن أجد طريقة، ولكن الأفضل أن ينتظر هذا الأمر قليلًا، فأي اجتماع بينكم الآن قد يُهددكن بالخطر، سنُخصص ساعتين يوميا وفيهما سوف تقابلين أحد الأطباء النفسيين، يجب أن تخبرينا ما حدث هناك بالتفصيل فأي تفاصيل صغيرة ستساعدنا جيدًا في القضية.

تذكّرت وقتها هتافها بعد صمت دام لفترة: «أنا لن أقابل أي طبيب لست بحاجة له، أنا لست مجنونة».

فتحت عينيها لتنهمر دموعها بغزارة وهي تتذكّر غضبه وصراخه بوجهها كأن رد فعلها ليس ما كان ينتظره منها: «لا لست مجنونة لكنكِ الأقرب منهم له، ففي النهاية أنتِ من قضيتِ معه أكثر أوقاته المُريحة».

رفعت كفها تكتم شهقاته وهي تضرب بالكف الآخر على صدرها ولا تعلم سبب ذلك الألم الذي يقتلها كلما جاء يامن بذكر الحياة المُهينة التي عاشتها.

طرقات على الباب جعلتها تنتفض وهي تعي أخيرًا أنها بغرفتها التي عاشت فيها طفولتها وقد احتفظت بها والدتها كما كانت في انتظار طفلتها لتعود، والدتها التي تأبى حتى الآن مُفارقتها في أي وقت، حتى إنها تدخل كل ليلة غرفتها لتتأكد فقط أن وجودها حقيقة لا محض خيال.

مسحت دموعها بكفها وحاولت هندمة الثياب التي أخذتها من رحاب أختها الصغيرة، ثم أخذت نفسًا تحاول تهدئة نفسها به واقتربت من الباب لتُجيب من خلفه بصوت مبحوح: «من؟!»

«هل بإمكان ابن العم أن يرى ابنة عمه بعد مرور ثماني عشرة سنة؟!»

صوت تخّلله حنان دافئ وتأثير ما زال له أثر على روحها لتفتح الباب وهي ترى الشاب الذي كان دائم التحالف معها في أي مقلب صغير كانت تقوم به ويقوم بالتغطية على جميع الأشياء التي تحطمها من دون قصد أو قصد ليُخبرهم أنه من فعلها، أخذت تنظر لملامحه الحبيبة لها وهي تراه قد غدا رجلا ما زال يحمل الطفولة في ملامحه وابتسامته التي شابها الحزن وهو يتأملها هو الآخر ليخرج صوته مبحوحًا وكأنه يُغالب دمعه: «اشتقت لكِ يا ابنة العم».

«سليم» همسة خرجت منها لتقترب منه مُسرعة وهي تحتضنه بقوة هامسة بدموع هذه المرة باسمه ليغمض عينيه وهو يُبادلها الاحتضان مُنُدهشًا من الطفلة التي أمامه ومن ردود أفعالها غير المُتوقعة دائما كما كانت، وهي تتشبّث به وكأنها كانت بانتظاره، ضحك شاعرًا بالإحراج من احتضانها له وهو يقول بينما يخفي تأثره بانهيارها: «الحمد لله لقد ظننتكِ نسيتِ أن لكِ ابن عم آخر».

ابتعدت عنه وهي تمسح دموعها المُتدفّقة من دون توقف لتقول بابتسامة حزينة: «أنت من المستحيل نسيانك أبدًا» مد يديه بمنديل لها أخرجه من جيبه وهو يقول: «سامحيني زمرد لأنني لم أكن موجودًا عند عودتكِ لقد عدت من السفر الآن فقط».

أجابته بمشاعر صادقة: «يكفي أنك هنا»، ضحك وهو يضع يديه على قلبه بدرامية قائلًا: «دائمًا ما تضعيني في مكانة عالية يا ابنة العم».

صمت للحظات وهو يتأملها لتخفت ابتسامته وهو يقول بهمس: «ما الذي فعلوه بكِ يا زمرد؟!» لترتجف شفتاها وهي تقول بعد لحظات: «أنت الوحيد الذي سألني هذا السؤال باهتمام سليم، لقد فعلوا الكثير سليم وأرغموني على فعل الأسوأ، أنا مُتعبة سليم، هنا يوجد ألم كبير، ألم ما عدت قادرة على تحمّله»، أتبعت جملتها

وهي تشير لقلبها موضع ألمها ليرمش بعينيه وهو يحاول مغالبة دموعه ليخرج نفسه مرتعشًا وهو يلمحها تضم جسدها الضعيف بذراعيها كأنها تقيه من البرد والألم وكل ما يحيط بها، حتى الآن هو لا يُصدق عودتها، لم يجلس مع يامن ليعرف منه التفاصيل، وهو يرى ابن عمه الآخر في حالة مُزرية، الغضب يتخلّله كقطة داس أحدهم على ذيلها ولكن صدمته برؤيتها بهذه الحالة وانهيارها الذي يبدو أنه قد بدأ آلم قلبه بقوة وهو يتذكّر تلك الطفلة التي كانت تشع السعادة من ملامحها لتنشرها في قلب كل من يراها.

خرج من أفكاره وهو يقول لها بحنان: «ما رأيك أن أتركِك لعشر دقائق أبدّل فيها ملابس السفر بملابس أكثر راحة وتقومين أنتِ أيضا بالمثل لنخرج قليلًا نتناول بعض المثلجات، ما زلت أتذكّر أنكِ لم تستطيعي مقاومتها يومًا» ضحكت من بين دموعها وهي تقول: «ما زلت تتذكّر!» ليجيبها بصدق: «أنا لم أنس يومًا يا ابنة العم» تذكّرت أوامر يامن لتخفت ابتسامتها وهي تقول: «لكن يامن أمر بعدم خروجي من المنزل، وأنا لا أريد أن.. فهو لم....»

صمتت لينظر لها بتمعّن وهو يرى أن تأثير يامن عليها ما زال ساريًا رغمًا عنها وعن ذلك العنيد ليبتسم قائلًا: «ما زال هادم اللذات أليس كذلك؟!» ليصدق ظنه وهو يراها ترد عليها مُدافعة عنه: «لا هو فقط يحاول حمايتي»

«وما زلتِ مُدافعة عنه، يا الله كأن الزمن لم يمر، حسنًا دعيني أحضر لنا المُثلجات ونتناولها في الحديقة بالأسفل حتى لا نُكسر أوامر سيادة المُقدّم ما رأيكِ؟!» ابتسمت له لتهز رأسها بالموافقة ليبتسم لها بحنان غافلين عن عيون تراقبهما بألم.



منزل محمد الأسيوطي

لا تعلم كم من الوقت مر عليها وهي جالسة على سريرها لا تفعل شيء سوى النظر للسقف، تدير حديث غُفران لها بعقلها، تحاول أن تفهم، أن تدرك جيدًا حياتها الجديدة، حياتها التي تشبه الروايات التي داومت على قراءتها، حياة كانت

تظنها من صنع الكاتب فقط، فهي لم تذق حنان أم أو حب أب، حتى إخوتها لم يكن أحد قريب منها سوى غُفران التي غابت عنها في أقسى أيام حياتها، ربما هي الآن تتفهّم أسبابها، ربما هي تعلم الآن اضطرار غُفران للصمت كل تلك الفترة، تُسامحها، فقلبها لا يستطيع الغضب منها وهي كانت أمًا لها منذ ولادتها.

عادت أفكارها مجددًا لتلك السيدة القابعة بالخارج تنتظر منها أي كلمة، أي فعل، أي شيء. هي لديها أم لديها أم تحبها، لديها أم لا تنظر إليها باشمئزاز، لديها أم لا تبث سمومها داخل عقلها، لديها أم تفعل أقصى ما تستطيع من أجلها.

أغمضت عينيها وهي تفكر في سميرة، تلك التي لم تعتبرها يومًا أمًا، تلك التي لم تتهاون لحظة عن بيع أبنائها للشيطان نفسه، سميرة التي كانت تنظر لها بكرهٍ وحين تخطئ تستغل الموقف في جلدها مهما كان خطؤها صغيرا.

دمعة سقطت من عينيها على الوسادة لتفتح عينيها المتلألئة بالدموع وهي تُحدّث نفسها: «لديك إخوة يا ليلى، أخ أكبر منكِ يدعمكِ بكل نظرة وآخرون لم تسمحِ لهم بالاقتراب منكِ بعد، لديك أب، أب كان يبكي من أجل أن يمنحكِ حبه الذي رفضتِه بقسوة جارحة إياه في جسده قبل قلبه وروحه»

أغمضت عينيها مجددًا كاتمة شهقاتها وهي تشعر بألم غريب داخلها، ألم تريده أن يؤذيها أكثر وأكثر، ألم تريده أن يتوغل بروحها أكثر لعلّه يلهيها عن أفكارها، لتتوه مجددًا في ذلك العالم الذي يجذبها حين تريد الهروب من آلامها، لم تكد تخطو خطواتها فيه حتى أتتها أصوات بالخارج.

فتحت عينيها وهي تنهض من على سريرها لتمسح دموعها، اقتربت من الباب ليصل لأسماعها والدتها تُحدّث أحدهم: «حبيبي أعطِها بعض الوقت فقط، أعلم أنك وإخوتك تريدون التقرّب منها ولكن من الأفضل أن ننفّذ رغباتها فهذا حقها».

أتاها صوت لطفل لجوج: «أمي لكن أنا لن أسبّب لها الضيق، أنا سأمنحها شيئًا يجعلها سعيدة، صدقيني ستجدينها مُستمتعة بوقتها معي هيا أمي، دعيني أحدّثها وبعدها دعي القرار لها أرجوك أرجوك أرجوك».

«حسنًا حسنًا يا إلهي آدم» تنهّدت جميلة لتقول بصوت قلق:«آسر سوف يقتلك»

وصل لأسماعها أصوات أقدام لتبتعد عن الباب مُجفلة وهي تسمع طرقًا عليه، مسحت آثار بكائها وابتلعت ريقها تشعر بالارتباك من مطلب آدم لتفتح الباب، تنظر بصمت لوالدتها التي تفرك كفيها لتقول لها:«عزيزتي، آدم يريد التحدث معكِ بخصوص أمر ما».

قلّب آدم عينيه وهو يبعد والدته من أمامه قائلا ببهجة:«يا إلهي أمي، لا داعي لتلك المُقدّمة، أنا لن أتناولها كحلوى قبل الغداء»، ضحك على كلامه كأنه ألقى نكتة لينظر لوجه أميرة الباهت، لتخفت ضحكته وهو يشعر بنفسه سخيفا ليقول بإحراج:«إحم، أنا أمزح فقط، حسنا سأخبركِ بدون أي مقدمات كما قلت لأمي، أنا أريدكِ أن تُدربيني على الكاراتيه، لقد رأيت حركاتكِ المُتقنة ويبدو أنك تلقّيتِ تدريبًا عاليًا، أنا أريد أن أتمرّن ووالدتي تصر على أنها رياضة عنيفة، وتخبرني أن التنس أفضل، ولكن التنس ممل لا أشعر بالسعادة وأنا أمارسه كما يفعل أحمد الذي يبدو أنه واقع في غرام الكرة».

ضربة على مؤخرة رأسه من والدته جعلته يتأوه وهو يلتفت إليها يسألها بتذمر:«ماذا؟! ماذا فعلت الآن؟!»

أجابته والدته وهي تستشعر رفض أميرة:«تتحدّث كثيرًا، وتتحدّث بكلام غير مُناسب لسنك، ممن تسمع ذلك الكلام؟!» كاد أن يجيبها حين سمع صوت أميرة الخافت:«حسنًا»

التفت الاثنان لها ليقول آدم:«ماذا؟!» أجابته أميرة بحرج:«حسنًا يمكنني تعليمك ولكن ليكن بالحديقة الخلفية، أنا لا أريد الخروج من المنزل».

أخفت جميلة تأثرها لترمش بعينيها دافعة بالدموع بعيدًا، تتذكر كلام آسر وهو يخبرها أنه يجب أن نُعاملها بطبيعية حتى لا تنفر من أفعالنا، وجدت آدم يرفع كفيه بتشجيع وهو يقول ببهجة:«نعم، حسنًا متى نبدأ؟!» حانت من أميرة ابتسامة

وهي ترى حماسه لتجيبه: «غدًا إن أردت»، ارتفع حاجبا آدم لتزداد ابتسامته وهو يقول: «حسنًا، غدًا سأكون بانتظاركِ بالأسفل».

تركها وركض وهو يهتف بصوت عالٍ: «أحمد.. ليلى وافقت، أخيرًا سأتعلم الكاراتيه يااااه».

نظرت جميلة لأميرة بحنان وهي تلمح ابتسامتها الصغيرة لتقول لها بحنان: «أشكركِ لاستجابتكِ لطلبه، إنه أكثر من لحوح في أي أمر يريده، لذا لم أستطع أن أرفض طلبه بسؤالكِ».

نظرت أميرة لوالدتها لتقول لها بهدوء: «لا داعي للشكر، أنا أيضًا أرغب بالخروج من الغرفة قليلا وشغل عقلي بأي شيء غير التفكير، من قبل كنت أقرأ الكثير من الروايات التي تجعلني أتلهى عمن حولي، لذا كانت تبعدني عنهم مؤقتًا، لذا تعليم الكاراتيه سيساعدني قليلًا».

ابتسمت جميلة لها وهي تتنهد بارتياح ثم لمحت ارتباك أميرة وهي تسألها: «هل.. هل سيكون السيد محمد غدًا في نفس الوقت بالمنزل؟!»

انقبض قلب جميلة ألمًا لرؤية ابنتها تنادي أبيها بالسيد لتجيبها وسط دموعها: «لا إنه إنه بالمشفى لديه غدًا عمل إضافي، لن يعود إلا مُتأخرا»

أسبلت أميرة عينيها عن دموع جميلة هي تعرف أنها تجرحها بتباعدها عن زوجها ولكنها لا تستطيع تقبّل وجوده حتى اللحظة.



منزل زمرد

أرسل الهواء البارد قشعريرة سرت بين أوصالها لتشد الشال الذي يحيط بجسدها رغم أنهم في نهاية الصيف إلا أن لا تزال تشعر بالبرودة، لا تعلم هل السبب مُقابلتها سليم واحتواؤه لمشاعرها أم لتلك الأرجوحة التي وجدتها كما هي في مكانها، كادت أن تبكي بانهيار مجددًا وهي تصل للحديقة وتلمح أرجوحتها كما هي لم تتغير، ليزداد نحيبها وهي تعي أنها تتحمل وزنها وهي تُجرّبها لتشعر

بتلك الطفلة التي فقدتها منذ زمن، رمشت بعينيها تحاول منع الدموع من الانهمار مجددًا وهي تلمح سليم يقترب من البوابة الأمامية للمنزل ويحمل معه المثلجات مُبتسما لها بحنان ما زالت تحمله روحه.

وصل إليها وهو يقول: «بالطبع ستتحمّل وزنك فأنت كالعصفورة»، ابتسمت له بحزن وهي تتلمّس الأرجوحة بكفها قائلة بصوت مبحوح: «لا أصدق أنها ما زالت هنا»، جلس أرضًا أمامها وهو يجيبها بينما يخرج المثلجات من الكيس: «يامن من أصر على بقائها» ليعطيها المثلجات وهو يقول بابتسامة واعيا على لمحة الألم التي مرت بعينيها: «ها هي مُثلجاتكِ بنكهة الفراولة كما تحبينها أم تفضلين نكهة أخرى لا أعلم إن تغيّر ذوقكِ أم لا».

أخذتها منه تجيبه بامتنان: «لم يتغير أي شيء، أنا توقفت عن الاختيار منذ زمن بعيد سليم».

نظر لها وهي تنظر للمثلجات بشرود، وهو يعي أن جملتها تحمل الكثير والكثير ليسألها دون مواربة: «هل أجبروك على ما لا ترغبين؟»، ارتعش جسدها وهي تمتنع عن النظر له مجيبة: «اسأل السؤال الصحيح يا ابن العم، أهناك ما لم يجبروني عليه؟!» أصابت ملامحه الجمود وهو يقول لها: «زمرد.. أنا أريد أن أعرف وأخشى سؤالكِ، لا لرفضي ما ستنطقين به ولكن لخوفي عليكِ»

ابتسمت بسخرية وهي ترفع عينيها لتناظره أخيرًا: «الوحيد منذ عدت وهو يرغب حقًا في المعرفة ولا يخشى منها»، لم يبتسم لها ليقول بغضب مكتوم: «هل ضايقكِ أحدهم بالكلام؟ هل جرؤ أحدهم أن يحمّلكِ ذنب ما مررتِ به؟»

«لهم كل الحق في ذلك سليم، فما فقدته لم تكن روحي فقط بل جسدي شرفي» أجابته بألم.

انتفض داخله بعنف وهو يحاول أن يُسجّل ما تقوله داخل عقله مُحاولًا تفسيره ليقول بغضب: «لا يحق لهم شيء، يكفي ما مررتِ به، كيف جرؤوا على هذا؟ من؟ أخبريني من لأكسر له رأسه؟» ابتسمت له بحزن وخطان من الدموع يرسمان معاناتها على وجهها لتقول: «لم يعد أي شيء مهمًا سليم لقد...»

أشاحت بأنظارها بعيدًا عنه تحاول لملمة شتات نفسها وهي تنظر للمُلحقين التابعين للمنزل حيث تسكن عائلتها بأكملها به، لتقول له بهمس: «حين دخلت هنا صباحًا منذ يومين شعرت بالمرارة، نظرت لذلك المبنى الكبير وتذكّرت أن تم خطفي من بين عائلتي، من شارعي الذي أسكن فيه، من بين يديه بعد أن تركها للحظات».

عادت بأنظارها للمثلجات التي بدأت في الذوبان دون أن تتذوق منها شيئًا لتقول: «لقد تركني للحظة من أجل أن يحضر لي المثلجات، كانت مجرد لحظة أدار فيها وجهه عني ليسود العالم من حولي مُستيقظة في مكان آخر باسم آخر بعائلة أخرى في مبنى كبير كهذا»، أغمضت عينيها وجسدها يرتعش تتذكّر ذكريات الليلة الأولى لها: «أزاحت الملابس من على جسدي وأحرقتها، نزعت عني قرطي الذي ألبسني إياه والدي، أخذت تسألني عن اسمي فأخبرها بأنني زمرد لتصفعني على وجهي فتسألني مجددًا لأجيبها بزمرد فتصفعني مرة أخرى ليتكرر سؤالها وتتكرر إجابتي ويتكرر صفعها وأنا لا أعلم ما الخطأ، ليأتي ليقف أمامي»، لمح سليم ملامح الكره على وجهها وجسدها ينتفض يحاول عدم مقاطعتها رغم الألم الذي سكن داخله وهو يراها تنهار هكذا، سمعها تكمل بصوت مكتوم: «لقد وقف أمامي ببرود ليهدر صوته عاليًا: «اسمك رحمة ممدوح العزامي» لم أفهم وخوفي لم يساعدني وقتها على الفهم لأتساءل بصوت مرتجف ماذا؟ لأجد بدل الصفع جلدًا على جسدي مُرددًا جملته اسمك رحمة ممدوح العزامي، لتتوالى جلداته وأنا أصرخ من الألم حتى حصل مني على ما يريد، لأردد بصراخ أنا رحمة ممدوح، رحمة ممدوح، وقتها كدت أفعل أي شيء له فقط ليتوقف عن جلدي فتتوقف تلك النيران التي تصيب جسدي»، رفعت كفها تكتم شهقاتها لتتساقط المثلجات أرضًا مُصطدمة بالعشب قائلة بين بكائها: «ليته لم يتوقف عن استعمال السوط، ليته لم يستخدم أساليبه الأخرى ليحصل مني على ما يريده، ليتني تحمّلت قليلا، ليتني لم أتفوه بالاسم الذي أراده ربما ربما مت صغيرة من قوة الألم ولا أن أحيا بذلك الاسم، اللحظة التي تخلّيت فيها عن زمرد ماتت لتحيا رحمة والآن بعد ثمانية عشر

عامًا يريدون أن أكون زمرد مرة أخرى، كيف أفعل هذا يا سليم؟ كيف أكونها وأنا قتلتها بيدي كما قتلته، يا الله لقد قتلته يا سليم لقد قتلته بيدي».

نظرت بهستيرية لكفها وكأن الدماء تُقطّر منها، لتنتفض مكانها وهي تحاول مسح كفها بشالها في انهيار متأخر منها، تضغط عليه بقوة لعلها تمسح تلك الدماء ليقف سليم مراقبًا انهيارها عاجزا عن فعل شيء لها ليهتف لها: «زمرد انظري لي زمرد، زمرد»، لتصرخ بصوت أوقظ جميع سكان المنزل: «لقد ماتت، لقد ماتت، لقد ماتت» اقترب سليم مُسرعًا منها وهو يراها تجرح كفيها بأظافرها ليحتضنها بقوة مُحاولًا احتواء غضبها وتخبّطها بين ذراعيه لتتوقف بعد لحظة وهو يشعر بثقل جسدها عليه، مُدركًا بأنها فقدت الوعي، لمح عائلته تخرج من البيت وعائلتها وعائلة يامن لينظر لهم بقهر، وظنه يؤكد له أن المرارة التي شعرت بها هنا لم تكن إلا بسببهم، فهدر بهم بغضب وهو يحمل جسدها: «اللعنة لم يمر عليها سوى ثلاث ليال وقد شعرت باليتم مجددًا، اللعنة لقد تم اختطافها صغيرة، لم تترك المنزل هاربة لتُحمّلكم العار».

«ما الذي يحدث هنا؟!» هتاف خرج بصدمة من يامن الذي عاد من عمله في هذه اللحظة مصدومًا من المشهد الذي أمامه، عائلته بأكملها في الحديقة الخلفية وسليم يحمل زمرد بين ذراعيها ويبدو عليها الانهيار، هتف سليم به: «استدعِ طبيبًا على الفور يا ابن العم، ومن الأفضل أن يكون طبيبًا نفسيًا، مُبارك جفاؤكم تجاهها عجّل من انهيارها، واصلوا فعلتكم ليومين آخرين وستجدونها ميتة بينكم»، نظر لهم سليم بغضب وهو يمر من جانب يامن حاملا زمرد مُتجهًا بها إلى منزلها، مُتجاهلا الشهقات من خلفه.



منزل محمد الأسيوطي

تنفّست بقوة وهي تنظر لجسد آدم المُلقى على الأرض يتأوه لتسمع ضحكات أحمد التي لا تتوقف، اعتدلت في وقفتها تحاول تنظيم أنفاسها وهي تسمع صوت

آدم المُتألم: «يا إلهي، أنتِ لست عادلة، هل أخبرتكِ أنني أمارس الكاراتيه؟ حسنًا لقد كذبت أنا لست مُبتدئًا حتى لقد شاهدت القليل من الفيديوهات فقط عنه».

حانت منها ابتسامة وهي تجذب الحقيقة من فمه أخيرًا ذلك المغرور الصغير، التفتت لأحمد الذي وقع من على الكرسي من كثرة الضحك وهو يتابع أخاه يحاول النهوض، أحمد الخجول ما عرفته عنه من كلام جميلة لم يكن كافيًا لوصفه، هذا الطفل يحمل براءة في قلبه تكافئ مكر أخيه التوءم، أحمد الذي استأذنها بخجل أن يتابعهما من بعيد فلم تستطع الرفض أمام طلبه وهي تراه يجاهد لكيلا يزعجها بطلبه، أحمد المناقض تماما لتوءمه الشقي آدم.

لمحته يناديها وهو يقول بلهفة: «احذري» لتلتفت في اللحظة التي جذبها آدم من رجلها برجله لتسقط على الأرض بجواره لينهض في لحظة وهو يقول من بين أنفاسه المُتسارعة: «لا تنس قوانينكِ الخاصة أختاه، لا تبعد عينيك عن منافسك أبدًا، ها، لقد أوقعتكِ أخيرا».

حاولت النهوض وهي تُداري ابتسامتها لتشعر بالألم في كتفها ويبدو أنه اصطدم بحجر ضخم مُلقى على الأرض، اقترب أحمد منها وهو يسندها ليسألها باهتمام: «هل أنتِ بخير؟! يا إلهي ماذا فعلت آدم؟!»

لمحت قلق أحمد وهو يزيح العشب من على رأسها ويمسد على شعرها ليقترب آدم وهو يشعر بالارتباك حين لمحها تمسك كتفها: «هل حدث شيء؟! أنا.. أنا لم أقصد أن...»

التفتت له وهي تراه شاحب الوجه لتُجيبه بابتسامة هادئة: «لم يحدث شيء، أنا لم آخذ حذري فقط»

«ماذا يحدث هنا؟!» التفت ثلاثتهم إلى آسر الذي لا يُصدّق حتى الآن وجود أميرة وسط أخويه، أميرة التي ظنها أحد أصدقاء آدم بشعرها القصير وهيئتها الضعيفة حين دلف للمنزل وشاهدهم يلعبون بالحديقة، وحين اقترب ليرى عن قرب ماذا يفعلون لمحها لتزداد دهشته لنزولها من الشقة ولعبها مع آدم وأحمد.

سمع إجابة آدم المُرتبكة: «أنا.. أنا طلبت من ليلى أن تُعلمني الكاراتيه، واليوم كان أول درس، أنا لم أقصد أن أؤذي ذراعها».

«ذراعها» همسة خرجت من آسر ليقترب من أميرة وهي تلمحه يفحص كتفها بحرص حتى وصل لمنطقة الألم فتأوهت لتبعد ذراعها عنه، وهي تقول بحرج لامحة قلقهم الذي أثار داخلها بمشاعر مُختلفة: «لم يحدث شيء، صدقني أنا لم أكن حذرة فقط، آدم لم يفعل أي شيء»

أجابها آسر بهدوء: «حسنًا، دعينا نفحصه أولا لنطمئن»، أجابته أميرة وهي تُعدّل من ثيابها شاعرة بالحرج وسطهم: «لا داعي حقًا أنا بخير، بالكاد أشعر بالألم».

التفتت لآدم لتقول له بابتسامة صغيرة تحاول مُغالبة ألمها: «حسنًا لقد انتهى الدرس الأول، ارتح قليلا وغدًا صباحًا قم بالتمارين التي أخبرتك بها، وبعد غد سنكمل تدريبنا، الآن اعذروني يجب أن أصعد فلقد تأخر الوقت»، تركت الثلاثة إخوة وصعدت للشقة وهم جامدين مكانهم فاتحين أفواههم غير مُصدقين تجاوبها معهم ورغبتها بتكملة التدريب.

كان آسر أول من خرج من دهشته، ليقبض بكفيه على قميص آدم وأحمد من الخلف وهو يجذبهما لداخل المنزل وآدم يتأوه من قبضة آسر ليجلسهما آسر على الأريكة وهو يسألهما من دون مُقدمات: «حسنا ما الذي حدث الآن؟!» كاد أحمد أن يجيبه حين نظر آسر لآدم وهو يقول بلهجة ذات معنى: «بالتفاصيل».

بعد ساعة

خرجت من الحمام بعد أن غيّرت ثيابها وهي تمسك كتفها بألم لتكتم تأوهها، لقد انخلع كتفها من مكانه وأعادته لموضعه أثناء استحمامها، يبدو أن الوقعة كانت أقوى مما تخيلت، ولكن الألم يفوق قدرتها على التحمّل، أغمضت عينيها وهي تستشعر سخونة رهيبة مكان الألم لتفتح عينيها على صوت طرق على باب الغرفة، جففت وجهها بالمنشفة لتقترب من الباب تسأل عن الطارق ليأتيها صوت آسر: «إن انتهيت من معاينة نفسك دعيني أفحصكِ أرجوكِ، كتفكِ لم يبد بخير».

أغمضت عينيها وكادت أن تضحك وهي تظن أنها أخفت ألمها عنه هو الطبيب!

تنهدت بخفوت وهي تفتح الباب مُحاولة أن تبدو طبيعية لتقول بهدوء بعد أن شعرت بإحراجه وهو ينظر لشعرها المُبتل من المياه فبدت كطفل صغير يريد الاهتمام: «أنا لا أعلم ما الذي تتحدّث عنه، أنا بخير والألم بكتفي بسيط».

سألها بهدوء: «حقًا! حسنًا يبدو أنني مخطئ، تفضلي هذه الكتب كانت بمكتبتي أخبرتني أمي عن حبكِ للقراءة فقلت لمَ لا أعطيكِ بعضًا من الكتب التي لدي»، وأتبع حديثه وهو يضع الكتب بين ذراعيها مُستغلا دهشتها لتتأوه والكتب تقع منها على الأرض عاجزة عن حملها لتسبّ في سرها الماكر المُخادع.

«هل ما زلتِ مُصرّة على أن الألم بسيطٌ!؟»

نظرت له لتقول من بين أسنانها كاتمة ألمها: «لقد انخلع كتفي من مكانه وقمت بإعادته وانتهى الأمر، لا أحتاج لمساعدتك ولا لكُتبك السخيفة وأحذّرك الآن من إخبار والديك بما حدث فآدم لم يفعل شيئًا لا هو ولا أحمد.. أنا من وقعت».

أخذ الأمر منه دقائق ليستوعب ما تقوله، شحوب وجهها وحمائيتها، في البداية صُدم من تعاملها مع خلع كتفها ببساطة كأنه لا شيء يُذكر، ثم ازدادت صدمته وهي تُهدده بعدم إخبار والديه عما حدث، هي لا تريد العقاب لآدم ظنا منها أنهم وحوش سيعاقبونه أشد العقاب ويُعذّبونه لما فعل!

سألها ببهوت: «هل ظننتِ أن أبي وأمي سيلقيان عليه أشد عقاب لما فعل أو يؤذيانه؟!»

جاء دورها بالبهوت وهي تتذكّر عقاب ممدوح وسميرة لهم حين يخطئ أحدهم، لعنتهم في سرها وهي تشعر بالخجل لمقارنة والدي آسر بهما، بالطبع فمن هي ليعاقبوا ابنهم من أجلها، تحدث آسر وهو يشعر بتضارب أفكارها: «نعم للأولى ولا للثانية».

نظرت له باستغراب يتبعه دهشة وهي تراه يجيب عن الأسئلة برأسها: «نعم والدكِ ووالدتكِ ليسا كذلك الرجل وتلك المرة اللذين عشتِ معهما تلك الفترة،

ولا تظني أن أبي وأمي لن يعاقبا آدم لما فعله بكِ لأنكِ لستِ ذات أهمية، أبي وأمي بالفعل سيعاقبان آدم ولكن بتفاهم، ربما الأمر كان خارجًا عن إرادتكما ولكن وجب الحذر في تعامله معكِ، لا لأنكِ ضعيفة ولا لأنكِ عدتِ أخيرًا لحياتنا ولا لأننا نُعاملكِ بلطف، بل لأنكِ أخته، فتاة لا كأصدقائه الصبية، وبنيتكِ تختلف عن بنيته، ربما أنتِ أقوى، ولكن في النهاية أنتِ فتاة، فكان يجب أن يأخذ حذره معكِ لأن أبي وأمي يعلمان جيدًا أن آدم عنيف الشخصية على العكس من أحمد، لذا كل ما سيفعله والداي هو أن يتحدثا معه في هذا الأمر ليُفهّماه ما وجب فعله ليعتذر لكِ ولو قبلتِ اعتذاره سيكون وقتها الأمر انتهى.

شعر بها تائهة بعد حديثه الطويل نسبيًا، شعر بها كأنها تعيش في غمامة من الظلام تريد لأحد أن ينتشلها منها، وهو أقسم داخله أنه لن يدعها فيها بعد الآن، يكفيها تخبّطا، يكفيها عذابًا حتى الآن، هو يحتاج لأن يفهم، يفهم قبل أن تحكي له عما حدث في حياتها السابقة.

حين لمح دموعها المُترقرقة في عينيها تحدث بهدوء وهو يحمل الكتب من على الأرض ليضعها على الطاولة بغرفتها: «والآن اجلسي قليلا حتى أحضر صندوق الإسعافات لأعالج كتفكِ»

تركها وخرج من الغرفة لتسند جسدها بذراعيها، وهي تستشعر دوران كل ما حولها، جلست على السرير لتدمع عيناها وهي تنظر بجمود باتجاه الممر في انتظار عودة آسر.



مقر الأمن الوطني

جلس في مكتب اللواء حسين يفكر في ذلك اليوم الذي عالج فيه كتف أميرة، تذكّر دموعها المُتساقطة التي تجنّب الحديث عنها وهو يداوي كتفها ويأتي بأدويتها بعد أن كتب لها مواعيد الأدوية التي تساعدها على الشفاء، طالبًا منها عدم إجهاد نفسها تلك الفترة، ليتفاجأ هو وهي بقدوم جميلة مُسرعة وهي تحتضنها مُكررة اعتذارها لها من بين دموعها وخلفها آدم المُنكّس الرأس وهو يدلف لغرفتها ليتأسف

لها وهو يشعر بالخجل والحزن لأذيتها بهذا الشكل، لتبتعد أميرة عن حضن جميلة مُقتربة منه لترفع رأسه بكفها لتحرك رأسها بالنفي وهي تبتسم له كأنها تخبره أنه لم يحدث شيء، ربما كان موقفًا صعبًا إلا أنه ساعد في تقارب آدم وأميرة وأحمد من بعضهم، تذكّر حديث والدته عن أمير الذي جاء أثناء تأنيب والديه لآدم فسأل والدته عما حدث لتجيبه بهدوء ملاحظة ضيق أمير الذي لم يخفه عنهم وهو يقول بغضب: «هي من أخطأت، لم يمر عليها فترة وها هي تنشر العنف في ابنكما، ربما من الأفضل أن تبقى بغرفتها بالأعلى»، استغرب وقتها من رد فعل أمير المُبالغ فيه لتخبره والدته عن دفاع والدها عنها وهو يهدر به: «احفظ لسانك أمير، ما الذي يحدث معك؟! لقد أخطأ آدم بدون قصد، وأختك لم تفعل سوى ما طلبه آدم منها، وهذا منزلها كما هو منزلكم، لذا لها الحق في التواجد بأي مكان تريده، أنا لم أتوقع منك هذا أمير»، لينظر له أمير بحزن ثم تركهم ليصعد لغرفته.

عاد من أفكاره وهو ينوي أن يتحدث لأمير بخصوص هذا الأمر، منذ عودة أميرة وهو لم يحاول أن يتحدث معها بشيء بل في المرتين اللتين تقابلا فيها صدفة وهي تُدرّب آدم بعد تعافيها بقليل بدا كأن ما بينهما من غضب يفوق أي مشاعر أخرى، الآن فقط هو يركّز بأفكاره على ليلى قبل أن تكون أميرة هو يحتاج لمعرفة الكثير من الأمور عن الحياة التي كانت تحياها، جاء لمكتب اللواء حسين الذي قابله بترحاب، رجل محترم مخلص لبلده ووطنه مما سمعه عنه من رجال عملوا معه، استمع اللواء لمطلبه وهو يخبره بأنه سيحضر له كل الأوراق التي يحتاجها وتركه وهو يخبره عن اجتماعه الطارئ، وطلب منه الانتظار، فقد صادف وجوده وجود شخص قادر على مساعدته أفضل من أي ورق يمكنه الاطلاع عليه.

خرج من أفكاره على دخول اللواء لمكتبه يتبعه آخر شخص ظن أنه سيراه مجددًا لتزداد ابتسامة آسر وهو يرى جمود الشخص أمامه، كأنه لم يتوقع رؤيته هو الآخر، سمع اللواء يقدمها له: «دكتور آسر أقدم لك الطبيبة غُفران، لقد ساعدتنا كثيرًا في تحقيقنا، وهي على استعداد لتقديم المُساعدة لك بخصوص أختك»، وقف آسر وهو يقول بترحيب: «أهلا دكتورة غُفران سعيد برؤيتكِ مجددًا».

لم تجبه بشيء وهي جامدة مكانها، ليتحدث اللواء حسين غافلا عن حالتها وهو يحضر أوراقًا من مكتبه: «حسنا غُفران، هذا هو الدكتور آسر من يرغب بمعرفة بعض الأمور الخاصة بأخته أميرة، سأترككما لتأخذا كل الوقت الذي تحتاجانه وسأذهب لمعاينة بعض الأمور مع رجالي فيبدو أننا وصلنا لمكان إحدى الفتيات، أستأذنكما»

تركهما اللواء لتلمح غُفران آسر يجلس بهدوء على الكرسي، وتلك الابتسامة السخيفة تُزيّن وجهه، لتتفاجأ به وهو يسألها: «يبدو أن رؤيتي لم تسرّكِ كما سرّتني رؤيتكِ، ولكن أنا لن أعتذر لكِ لأن اللواء طلبكِ لمساعدتي، فأنا أخبرته بحاجتي لأوراق تساعدني في التعامل مع ليلى وهو أخبرني أنه سيحضر لي ما هو أفضل من الأوراق، لذا هو من طلبكِ لا أنا».

تجاهلت كل الهذر الذي يهذي به وهي تجلس على الكرسي المقابل له لتتحدّث بدون مقدمات: «ربما من الأفضل أن تبدأ بمُناداتها أميرة حتى تُجبرها على تقبّلكم».

لمحها تنظر له بجمود ليرفع حاجبيه مُستغربًا من الحالة التي بها: «لماذا تبدين دائمًا كأنكِ على وشك قتلي بأسنانك؟! أنا شخص مسالم»، قالها بابتسامة لترفع حاجبيها هي الأخرى بتهكّم لتكمل حديثها كأنه لم يقل شيئًا: «ما الذي تريد معرفته عن أميرة؟!»

لمحت ملامحه تتسم بالجدية أشعرتها بالاستغراب من الحالة التي تبدّل فيها من التهكّم لتسمعه يسألها: «كل شيء، أميرة تحتاط من كل شيء حولها، أستطيع أن أخبرك أنها لم تثق بأي فرد منّا حتى الآن، ربما تقرّبت قليلًا من والدتي، ومن أخي قليلًا بحكم أنها تُدرّبه للكاراتيه ولكن ثقة لا، حين تراني تبدأ برفع دفاعاتها كلها مثلكِ كأنني سأقوم باغتيالها في أي لحظة، بينها وبين توءمها حرب نظرات كأن كليهما في سباق من سينتصر أولا، إن استمر في الغضب أكثر، وأبي موضوع آخر، هي حسنا بدون تجميل للكلام هي تُكِن له كرهًا لا نهاية له».

أنصتت غُفران له باهتمام وهي تستشعر بصدق مشاعره، هذا الرجل أمامها يريد حقًا مساعدة أميرة، جذبت انتباهها الجملة الأخيرة لتقول بهدوء وهي الأخرى تلقي بدفاعاتها أرضًا: «ليس والدك هو المنشود بهذا الكره، أميرة تكره أي رجل يكبرها سنًا، أي رجل تستشعر منه مشاعر غريبة، يبدو أن والدك شخص حنون لذا هي تستغرب من مشاعره هذه، في حياتنا لم نجد سوى النقيض تمامًا من والدك، لذا من الطبيعي مع عدم ثقتها بكم، أن تتمسّك بالكراهية بدلا من أن تستسلم للحب».

سألها آسر باستغراب: «لماذا؟! لمَ لا تستسلم للحب؟!»

ابتسمت وهي تجيبه بشرود: «لأنه في اللحظة التي سوف تستسلم فيها للحب لن تبقى على قوتها، ستصبح ضعيفة، وفي العالم الذي نشأنا فيه سيد آسر، الضعيف يموت، ولكنه يعاني قبل موته»

نظر آسر لها بتركيز وهو يعني أنها تقصد نفسها بكلامها عن أميرة أكثر، ليسألها مباشرة: «أنا أعلم أن ذلك الرجل لم يكن طبيعيًا، ولكن لا أستطيع أن أمنع نفسي من سؤالكِ هل آذاكِ ذلك الرجل؟!»

ارتبكت ملامحها وهي تعي أنه يسألها هي لا عن أميرة، لتشعر بالغضب من تفاهة سؤاله لتجيبه من بين أسنانها ونار تشتعل بعينيها: «الأذية كلمة خفيفة لوصف ما تعرّضنا له جميعًا، كل ما أستطيع قوله لك ويُفيدك بتعاملك مع أميرة، نحن لم نحيا حياة طبيعية أبدًا، لم نعش طفولة سعيدة ولا حياة بهجة مليئة بالحب والسعادة، نحن لم نكن نحيا كأسرة، كل شيء بقانون، من يجرؤ على تخطي الحدود المرسومة يُعاقب، والعقاب ليس عقابا نفسيا بل جسدي، بأقصى الطرق التي يمكن تخيّلها، أنت ربما تفهم الصورة الخارجية أننا تألمنا كثيرًا لكن لا سيد آسر، هناك فرق بين الألم والمعاناة، الألم يستمر لفترة محدودة ويأتي الوقت لينتهي، ربما يبقى أثره لفترة ولكن الحياة تُجبرك على التغاضي عنه، أما المعاناة فلا تنتهي سيد آسر، ويبقى أثرها لباقي العمر، تذكّر جيدًا أن أميرة حالتها تختلف عن زمرد وعني، أميرة ولدت في ذلك المكان، مشيت خطواتها الأولى على دماء أشخاص، وصلت لأسماعها أصوات صراخ، ذاقت الكثير من البرد والألم، تفاجأت بأشخاص

يبقون فترة من الزمن معها، يوما يومين أسبوعا شهرا، تتعلّق بهم ثم فجأة تستيقظ على لا شيء كأنهم لم يكن لوجودهم أساس من الصحة، وحين تسأل عنهم تُعاقب، ربما كنا نحميها قليلًا من أذيتهم ولكن حين لا نكون في الجوار وحدها من تنال ما يكفيها وأكثر، لتتضح الأمور أمامها وتعرف أين يذهب الأشخاص الذين يأتون لفترة، ماذا يكون مصيرهم بضاعة مُستعملة أم بضاعة فريدة، شراء وبيع لجسد أم شراء وبيع لأعضاء جسد. كرهتنا نعم، حمّلتني المسؤولية أنا وزمرد نعم، لكن بعدها اكتشفت أننا مثلها الفرق الوحيد بيننا أنها قضت معهم ثمانية عشر عامًا فقط، بينما قضينا فترة أطول، تكره والدك لها الحق في البداية، وهي لم تر أبًا بصفته الطبيعية، بل رأت أبًا وغدًا حقيرًا يستطيع فعل المستحيل من أجل المال ومن أجل من يعمل لديهم، رأت أبًا يضرب ويقتل ويغتصب».

ارتجفت عيون آسر وهو ينظر لها بجمود لتكمل بهدوء: «نعم ربما لم تره يفعلها لكن سمعت وأدركت ممن حولها، حتمًا هذا هو السبب، أنا تركتهما فترة، تلك الفترة ربما أكملت على صورة ممدوح القذرة في عقلها، ذلك الظلام الذي بروحها يكاد ينقشع، لقد لمحت ذلك حين قابلتها، هناك شيء مختلف بها لا أدركه، لكن أشعر به، عقلها يرفضكم رفضًا تامًا وقلبها يتشرّب كل ما تُقدّمونه لها، والحل يا سيد آسر حتى ننهي هذا الحوار هو أن تُعاملوها بطبيعية، امنحوها من حبكم الكثير ومن عطفكم ما يملأ روحها، لا تدعوها لكوابيسها، لا تبعدوها عنكم في السكن، اجبروها على أن تقضي معكم معظم أوقاتكم بالمنزل، سترفض وتعاند بالبداية لكنها ستملأ روحها بكل محاولاتكم، وستفيض مشاعرها بما تمنحونها إياه لكن إياكم وإهمالها بعد أن تعطوها كل شيء، لأنني وقتها لن أسامحكم أبدا، تريد أن تتقرّب منها لتسرد لك أسرارها تقرّب، استفد بوظيفتك كما أخبرت اللواء وعالجها لكن لا تعاملها كأخت عاملها كمريضة وقتها ستصل لداخلها، أما بالنسبة للثقة فاتركها للوقت فالثقة لا تُمنح بل تُكتسب».

نهضت من مكانها وهي تحمل حقيبتها ليرمش بعينيه مبهوتا بالطاقة التي تحيط بها ليسألها دون أي مقدمات: «لماذا لم تبلغي الشرطة قبل ذلك؟! أنتِ تقولين أنكِ

هناك قبلها فلماذا لم تقيها شر ما رأته من قبل أن يخطفوها؟!» التفتت برأسها له وهي تقول بصوت خال من الحياة: «ومن قال لك أنني لم أفعل؟!»

سألها باستغراب: «إذا ماذا حدث؟! ألم يستمعوا إليكِ؟!» التفتت له لتبتسم بتهكم: «بلى، استمعوا للطفلة الصغيرة التي أتتهم، استمعوا لكل كلمة بُحت لهم بها، استمعوا وقاموا بواجبهم فأعادوني للمنزل مجددًا ليستلموا المقابل الذي جعلهم لا يتفوهون بكلمة، وكم كان السيد ممدوح كريمًا مع أمثالهم، وكن على ثقة سيد آسر أنه لم يتوان في جعلي لا أتفوه بكلمة مع أحد لفترة طويلة من الزمن، أتمنى ألا يكون لديك أسئلة أخرى».

شعر بالمرارة في جملتها الأخيرة وهو يلمح إرهاقها الواضح على ملامحها ليشكرها بخفوت أتبعه باعتذار، رفعت رأسها باستغراب له لتراه يجيبها بحنان أثار ارتباكا بمعدتها: «أعتذر لأنني أجبرتكِ على الحديث وتذكّر ما لا ترغبين به» لتُجيبه بهمس قبل أن ترحل: «أنا لم أنس لأَتذكّر سيد آسر».



لا تقولي إنك خائفة أبدا يا صغيرتي، أبدا وإلا فإن ما تخافينه سيتعاظم حتى يهزمك

جوزبه كاتوتسيلا

الفصل الثامن
ابق أرجوك

منزل محمد الأسيوطي

لا تدري كيف أقنعتها السيدة جميلة بالنزول، حاولت بقوة السيطرة على قلقها وهي تلمح خلو المنزل من ساكنيه بالفعل كما أخبرتها، ولكن لا تعلم لمَ هذا الشعور يعتريها، ربما لم تمكث سوى ثلاثة أسابيع في غرفتها بالدور الأخير، إلا أنها شعرت بأنها مسكنها الآمن المؤقت، لم تستطع الثقة بعد بأحد، تعلم بأن هناك الكثير من الأسئلة التي يحتاجون إجاباتها، لكنها لا تستطيع أن تتحدث، فقط لا تريد، حمدت الله في سرها أن هذا ال آسر لم يحاول التحدث إليها بعد مواجهتها معه الأخيرة، ولكنها تعلم أن عينيه تحويان الكثير والكثير من الأسئلة، حتى بعد حادثة السكّين لم يحاول أن يستفسر عن شيء، فقط سألها إن كانت بخير أم لا، ولم يتفوه بأي شيء عما قالته عن عقاب أهله لآدم حين جاء ليطمئن على ذراعها، هي تشعر بصدق مشاعره، يشبه كثيرًا السيدة جميلة في حنانها. خرجت من أفكارها على صوت السيدة جميلة: «فيما شردتِ؟!» التفتت لها بهدوء وهي تراها تضع أطباقًا من الحلوى أمامها وتبتسم لها بحنو، يا إلهي أنها كتلة حنان مُتحركة، تريد بشدة النهل من ينبوعها وتخاف من أن تنجرف نحو مشاعرها، طالما أخافوها من نتيجة الانجراف خلف المشاعر، خلف ما نحتاجه.

أخرجتها جميلة من شرودها بلمسة يديها الحنونة على كفها الموضوع على الطاولة: «أتمنى ألا تكوني مُنزعجة من إصراري على نزولكِ».

خفضت أميرة نظراتها وهي تسحب كفها بهدوء من تحت يد جميلة وتضعه في حجرها وهي تقول

«لا أنا فقط لم أعتد على داخل المنزل بعد، لم أنزل سوى للحديقة الخلفية».

ابتسمت جميلة لها بحب وتجاهلت سحبها ليديها وتحدثت: «الجو في الدور الأول يكون جميلا في هذا الوقت، كما أن الشرفة على الحديقة الخلفية تسمح للقليل من أشعة الشمس بالمرور، أنتِ لم تر المنزل جيدا، وكذلك الحديقة الأمامية الكثير من الورود التي زرعها محمد لي لمعرفته بحبي لها.

رفعت أميرة عينيها تنظر لجميلة بجمود وهي تتحدث عن محمد، وتلمح في عينيها بريقا غريبا، لمحت جميلة نظراتها المتابعة لها: «لمَ تنظرين لي هكذا؟!» أجابتها أميرة: «لديكِ لمعة غريبة تبرق بعينيكِ وأنتِ تتحدثين عن...» صمتت أميرة ولم تكمل كلامها لتبتسم جميلة لها وهي تكمل كلامها: «وأنا أتحدث عن محمد! حسنًا تلك اللمعة التي تريها تبوح بمدى حبي له» سألتها أميرة بشرود: «حب!»

هزت جميلة رأسها وهي تقول: «نعم عزيزتي لحبنا قصة سوف نسردها عليكِ يومًا ما»

لم تجبها أميرة وأشاحت بنظراتها عنها فكادت جميلة أن تتحدث حين رن جرس الباب فأخبرت أميرة أن تتناول الحلوى حتى ترى من بالخارج، وصلت جميلة للباب وهي تتساءل من جاء في هذا الوقت. لمحت رجلًا عريض المنكبين يرتدي نظارة شمسية تخفي عينيه، بينما اعتدل في وقفته وهو يخرج كفيه من جيب بدلته ليتحدث بهدوء: «عذرًا سيدتي هل هذا منزل الطبيب محمد الأسيوطي؟» أجابته جميلة بتوتر: «نعم، من تكون؟!» أجابها: «أنا المُقدّم يامن سعيد خيري من الأمن الوطني وصديق قديم لابنكِ الطبيب آسر، هل هو بالمنزل؟!»

أجابته جميلة بارتياح بعد أن عرفت أنه يسأل عن آسر: «لا لم يعد بعد، هل هناك رسالة مُعينة تُريدني أن أوصلها له؟!» ساد الصمت للحظات ثم تحدث يامن: «أريد التحدث مع الآنسة أميرة محمد الأسيوطي»

تجمّدت جميلة للحظات وهي مُمسكة بباب المنزل، مُتذكّرة حديث آسر معه عن هروب باقي أفراد العصابة، فتحدّثت أخيرًا بقلق: «لماذا؟! ماذا تريد منها؟! هل حدث شيء؟!»

أشفق يامن على هيئة التوتر التي أصابت جميلة والخوف يشع من عينيها: «اهدئي سيدتي لا يوجد أي شيء، فقط بعض المعلومات نريد أن نعرفها منها»، أجابته بارتباك: «ولكن هي لا تتعامل نهائيًا مع أحد، هي بالكاد بدأت في التعامل معي وقليلًا مع إخوتها».

سألها يامن: «إذا هل تأذنين لي بالاتصال بآسر وإخباره بالمجيء؟! صدقيني سيدتي الأمر هام»

هزت جميلة رأسها بالموافقة بعد تردد وهي تنظر خلفها لأميرة التي تأكل الحلوى باستمتاع طفلة، وحديثها مع يامن بعيدًا عن أسماعها.

مرت ربع ساعة ويامن مُنتظر بالخارج مُستندا على سيارته يفكر في كل ما مر حتى الآن، انهيار زمرد لم يساعده في جعلها تذهب للطبيبة التي حجز معها موعدًا من أجل القضية، وهو يحتاج أن يجمع بعض المعلومات، غُفران التي قابلها أخبرته أنها لم تكن موجودة لسنتين، ومما سمعه أثناء شجار زمرد معها أن هناك الكثير مما حدث في تلك السنتين فجعله يفكر في الفتاة الأخرى التي بقيت مع زمرد في تلك الفترة.

اعتدل يامن من وقفته وهو يلمح آسر يدلف بسيارته ليقف أمام بوابة المنزل، ثم لحظات ونزل وهو يقترب مُندهشًا من رؤية يامن، صافحه بحرارة وهو يقول: «يا إلهي لقد مر وقت طويل منذ آخر مرة رأيتك فيها».

ابتسم يامن له بود مبررًا له: «العمل لا يسمح لنا بالتنفّس قليلا ولقاء أصدقائنا القدامى، كيف حالك آسر؟!» أجابه آسر بابتسامة: «بخير يامن أم أقول المُقدّم يامن؟!» ضحك يامن وهو يجيبه: «لا داعي للألقاب يا دكتور» ابتسم آسر وهو يحاول جاهدا السيطرة على قلقه: «إذا ما سبب هذه الزيارة المفاجئة؟!» تحدث يامن بهدوء: «آسر أنا المسؤول عن قضية من القضايا التي حدثت بالمزرعة وفي حاجة شديدة للتحدّث مع أختك الآنسة أميرة».

صمت آسر بهدوء وهو يفكر في كلام يامن: «ولكن أميرة لا دخل لها بما حدث، لم تكن هناك أثناء الحادثة»، أجابه يامن: «نعم ولكن أريد سؤالها بضعة أسئلة

عن فتاة كانت معها اسمها رحمة»، قال له آسر بقلق:«يامن أنت تعلم أنني لن أعترض أبدًا عن أي مساعدة في تلك القضية، ولكن حالة أميرة»

قاطعه يامن وهو يجيبه بهدوء:«أعرف، أخبرتني السيدة والدتك، ولكن أنت هنا معنا لذا اتصلت بك، ستحضر معي التحقيق وإن شعرت بأنني سأتمادى أو سأسبّب لها أي ضرر امنعني على الفور، أرجوك آسر الموضوع شديد الأهمية»، نظر آسر له باستغراب ليسأله:«ما الموضوع يامن؟!»

أجابه يامن بعد تنهد طويل:«رحمة تكون زمرد ابنة عمتي»

صُدم آسر من سماع ما قاله يامن، ولأول مرة يعرف أنه كانت له قريبة مُختطفة هي الأخرى، تفهّم حالته ليجيبه:«حسنا نظرا لأننا في نفس الموقف فأنا أتفهّم حالتك، دعني أرتّب معها الحديث أولا حتى تتقبّله ولا تتفاجأ»

هز يامن رأسه مُتفهما وهي يشكره بامتنان، دلف آسر للمنزل وهو يحاول جاهدًا إخفاء توتره، لمح والدته تجلس في الشرفة مع أميرة المُستمعة بإنصات لما تقوله والدته، وفجأة رفعت عينيها له ليقف مكانه للحظة وهو يلمح ارتباكها قبل أن يتنحنح بخفوت ويقترب مُبتسما بهدوء:«مساءكم سعيد، تشرّفت شقتنا البسيطة بوجودكِ ليلى»

ارتبكت أميرة أمام نظراته وتمتمت بكلمة شكر وهي تنهض مكانها تخبرهم بأنها ستصعد لغرفتها

ليوقفها آسر مناديًا إياها:«ليلى هل يمكنني التحدث إليكِ قليلًا؟!»

التفتت أميرة بهدوء لتنظر له بقوة محاولة معرفة ما يريده، فلمحت ارتباكه لتسأله بجمود:«عن أي شيء تريد التحدّث؟!» أجابها آسر:«حسنا لست أنا من يريد في الواقع، ولكن أنا في حاجة لمساعدتكِ»

نظرت له بدهشة ورددت كلامه:«مساعدتي أنا؟!» أجابها:«هل يمكنكِ الجلوس قليلًا؟!»

جلست أميرة مكانها ليجلس أمامها آسر مُبتعدا قليلًا حتى لا يخيفها، وأخبرها بقدوم يامن وما يريد معرفته عن رحمة، وأن مساعدتها ستفيده كثيرًا وتفيد رحمة في قضيتها.

ساد الصمت للحظات والتوتر أصاب آسر وهو يلمح جمود ملامحها لتتحدث بجفاء: «ما الذي يريد معرفته عن رحمة؟!» أجابه آسر بقلق: «لا أعلم جيدا، ولكن كل ما أعرفه أن تلك المعلومات ستفيده كثيرًا في قضيتها، أنتِ تعلمين أن التحقيق ما زال ساريًا.. ما حدث معكم في المزرعة ومقتل ذلك الرجل ممدوح»

ارتعش جسدها للحظة، ولمح آسر اشمئزاز ملامحها فأجابت بجمود: «لا أريد» .لم يجبها آسر للحظات، ثم نهض مُتجاهلًا حالتها، وهو يتحدث بهدوء: «حسنًا، كما تريدين، سأخبر يامن برفضكِ مساعدتها»، تحرك آسر تجاه باب المنزل فتوقف قبل أن يفتح الباب على ندائها له، فأخفى ابتسامته بهدوء وهو يستدير لها، أوجع قلبه مرآها قلقة وهي تفرك كفيها بقوة وهي تحاول إبعاد عينيها عن نظراته لتتحدث بخفوت: «هل يمكنك أن تبقى معي أثناء المقابلة؟!» ابتسم لها بحنان وهو يجيبها: «بالطبع يا صغيرة».

رفعت عينيها له مُمتنة لموافقته وهي تلمح الحنان الذي يطغى على عينيه، فأذاب كل مخاوفها، بينما ابتسمت جميلة بحب وهي تتابع حديثهما وتدعو الله أن يحفظهما لها.

حاولت جاهدة السيطرة على مشاعرها وإبعاد كل ما يشوش تفكيرها في هذه اللحظة بينما تسمع أصوات أقدام تقترب من غرفة المكتب التي قرر آسر أن يكون الحديث بها، لمحت آسر يدلف بابتسامته الهادئة وخلفه دخل رجل يماثله في الطول عريض المنكبين ذو جسد ممشوق، ولم تخف عنها نظراته المصدومة.

حاول يامن السيطرة على صدمته، وهو يلمح تلك الفتاة الصغيرة التي تبدو جيهان أخته ذات الخمسة عشر عامًا أكبر منها، ألقى يامن التحية بهدوء ليسمع تمتمة بسيطة منها.

جلست أميرة على أريكة بجوار المكتب، ليجلس آسر ويامن على كرسيين مقابلين لها، بادر يامن بالحديث: «كيف حالكِ آنسة أميرة؟!» أجابته بجمود: «ليلى».

ارتفع حاجب يامن بدهشة من صوتها القوي، أو الذي تحاول أن تخرجه قويًا، ليجيبها: «عذرًا».

قالت: «اسمي ليلى»، نظرة من آسر له جعلته يفهم أنها ما زالت لم تتقبّل واقعها الجديد، فتحدّث بهدوء: «حسنًا آنسة ليلى، أنا المُقدّم يامن، أريد أن أسألك بضعة أسئلة عن صديقتكِ رحمة.. ستساعدنا كثيرًا في قضيتها».

نطقت أميرة من دون وعي: «قضيتها! يجب أن تُمنح جائزة لقتلها ذلك الحقير».

تابعها يامن وآسر بدهشة، بينما لعنت تسرّعها في التفوه بما قالته، أجابها يامن: «صدقيني أنا أكثر شخص أريد أن أساعدها في هذه القضية»، لمحت أميرة شيئًا غريبًا في لغة جسده وما وراء كلماته: «لماذا؟!».

حانت منه ابتسامة صغيرة وهو يرى حمائيتها ليجيبها: «رحمة تكون زمرد ابنة عمتي»، اتسعت عين أميرة بدهشة وهي تهتف من دون تصديق: «يامن مان!»

خرجت منه ضحكة صغيرة خافتة، وهو يتحدث بصوت بدا حزينًا: «يبدو أنها أخبرت الجميع عن لقبي».

نظرت أميرة للأرض بحرج، وهي تهز رأسها بالنفي، لتقول: «لا لم تخبرني به، لقد سمعتها تهمس به كثيرًا وهي نائمة، خصوصا في تلك الليلة...».

قالت أميرة آخر كلمة بخفوت فشعر يامن بأن هذا طرف الخيط، ليلمع الألم بعينيه وهو يعي أنها دومًا كانت تناديه، ليسألها: «آنسة ليلى.. أنتِ تعلمين لمَ يتم التحقيق في القضية التي تخص المزرعة، وقضية قتله نحن نحاول أن نجمع جميع الأدلة التي تُدينه وننهي بها تحقيقنا ونصل لمن هرب، أنا في حاجة لمساعدتكِ، إن كان لديكِ أي معلومات تخصها أو تخص ذلك الـ... تخص الضحية فأتمنى أن تخبريني بها».

صمتت أميرة قليلًا وهي تتابع محاولاته لكبح غضبه، وأدركت من ملامح وجهه أن هذا الرجل يعاني، لتسأله من دون مقدمات: «هل تحبها؟!»

رفعت يامن رأسه لها بقوة، بينما اتسعت عين آسر بدهشة من سؤالها، ارتبك يامن وهو ينقل نظراته بينها وبين آسر ليقول بارتباك: «ما...» لتقاطعه أميرة: «لديك نفس اللمعة التي تمتلكها السيدة جميلة وهي تتحدث عن زوجها، لذا أسألك لأعرف، أتريد أن تعرف الحقيقة؟! والأهم هل ستتقبل ما تسمعه؟! كشخص يحبها أم كشخص قريب لها يرغب فقط بحل القضية».

تجمدت ملامح يامن وهو يلمح أسئلتها التي تخبره بها بهدوء، فشعر بغصة تؤلم قلبه، فابتلع ريقه بصعوبة وهو يقول: «إن أخبرتكِ أنها مهمة بالنسبة لي، وأنني أريد أن أعرف الحقيقة ومهما كانت سأتقبّلها، فهل ستقولين لي كل ما تعرفينه؟!»

ساد الصمت للحظات وأميرة تتابع نظراته لترى صدق كلماته لتجيب بصوت جليدي أثار القشعريرة في جسد يامن وآسر: «لسنتين أقام الأب علاقة مع ابنته، بعد أن فشل من قبل مع ابنته الأخرى».

تخلّل الصمت الغرفة، لا يسمع سوى أصوات أنفاسهم، لتكمل أميرة بعينين مشمئزتين: «بعد فشله مع ابنته الأخرى، والأخرى، والأخرى، لتقع الابنة الساذجة في فخه، فتُسلّم نفسها له كل ليلة وتذهب إليه كلما أرادها، لتعود في فجر اليوم التالي قبل أن يستيقظ مَنْ في البيت».

شدد يامن على قبضته بقوة وهو يسمع ما حدث وكلماتها القاسية تجلده مرة وراء الأخرى، من دون توقف، بينما عقد آسر حاجبيه بصدمة، وهو يلمح قسوة كلمات أميرة ولمحات الاشمئزاز على وجهها، ثم تجمدت نظراته وهو يلمحها تنظر له بقوة: «هل علمت الآن لمَ رفعت السكين في وجهه؟!»

ارتسم الألم على وجه آسر بينما لم يسمع يامن جملتها الأخيرة، وهو يفكر في ما سمعه، هو عرف الكثير من المعلومات من غُفران، ولكن لم يعرف أن الأمر حدث هكذا، ولمدة طويلة سنتين، تلك السنتين.

ابتلع يامن ريقه وهو يكسر الصمت الذي ساد: «أنتِ تعلمين أنه ليس...» قاطعته بسخرية: «ماذا؟! ليس والدنا! حسنًا أنا لم أعرف ذلك إلا بعد أن مات، ربما راودتني الشكوك قبل موته بأشهر».

ثم رفعت أميرة عينيها لآسر لتتحدث بنفس جمودها: «لسنتين وأنا أعيش في عالم قذر، بين أب مختل وابنة عشيقة له، وسنوات وأنا أرى أبًا يتلذذ بأن يرى نظرة الرعب في عين فتياته، كما يُلقبهم دومًا، وهو يحاول التعدي عليهن، وقد حاول معي وأنا ابنة الثالثة عشرة، فتخيّل بنفسك كيف كانت طفولتي وكيف أصبحت فترة نضجي».

أدارت رأسها ليامن ونهضت من مكانها وهي تقترب منه بجمود لتقف أمامه، فنهض وهو يبتلع ريقه بقلق من هيئتها ونظرتها الصارمة له، على الرغم من فرق الطول الكبير بينهما إلا أنها تحدثت بقوة كأنها تشغل محيط الغرفة بأكملها: «رحمة كانت مراهقة.. بعد تفكير أدركت أنها حتمًا كانت تعلم بأنه ليس والدها.. وإلا لم تكن لتسمح بأن يلمسها.. ولكن هذا لا يبرر خطأها وينافي كل ما تعلمناه منذ صغرنا في ذلك المكان، بعد فترة أدركت أن رحمة عاشت سنتين كاملتين في جحيم، وهي تعي أنه يلهو بها وبجسدها ويبدو أنها عانت خلالهما من محاولات اغتصابه لها لأكثر من مرة، من مرضها المُستمر والكدمات التي كانت تخفيها كل فترة وأخرى، ترأّف بحالها وكن بجوارها حتى لو رفضت، حتى لو أثبتت لك ولكل من حولها أنها تستحق ما هي فيه، لقد ظلت لتسعين يومًا تهمس في كوابيسها باسمك، وهي تناجيك لتأتي، فلا تتركها بعد أن أتيت وإلا ستموت، ووقتها سأقتلك أنا بيدي، أظن أن هذا كل ما تريد معرفته ويخص القضية، هذا الرجل كان مجرد حثالة، وكان يستحق ألا يموت موتة رحيمة بطلقة رصاص، كان يستحق أن يتعذّب كل لحظة في حياته حتى يموت مُتعفنا غارقا في دمائه القذرة».

لهثت أميرة بقوة، وكأنها كانت تحارب أحدهم، وخرجت من غرفة المكتب وهي تشعر بانهيارها.

جلس يامن وهو يشعر بالأرض تميد به، بينما ما زال آسر على صدمته، رفع عينيه لصديقه وهو لا يعلم كيف يواسيه، لا يعلم ما الذي يجب قوله بعد ما سمعه، ويفكر في أن الطريق لأخته طويل جدًا.

بعد أن ودّع آسر يامن بصمت، وقد شكره يامن بصوت مكتوم، دخل المنزل ليعرف من والدته أن أميرة صعدت للشقة، فصعد خلفها.

كانت تشعر بأن كل ما أرادت أن تنساه خلال الفترة السابقة قد هجم على ذاكرتها كالوحش الضاري، تنفّست بصعوبة وهي تغمض عينيها بقوة، تحاول جاهدة منع استرسال كل تلك المشاهد التي طالما غزت أحلامها لتحولها لكوابيس، شعرت بالغثيان فأسرعت للحمام بغرفتها لتخرج كل ما بجوفها.

تنفّست بتعب بعد انتهائها، لتجلس على أرضية الحمام الباردة تحاول تنظيم تنفسها، رفعت كفها لفمها تمنع ارتعاشة، بينما ترقرقت الدموع في عينيها، ولحظات وأجهشت بالبكاء أخيرًا، تبكي روحها، طفولتها، حياتها، تبكي مرارة أبوة زائفة.

أغمضت عينيها وذكرى أول ليلة بدأت تعي فيها ما يحدث حولها وهي مجرد طفلة تعود لعقلها، تنهش من روحها بألم وهي تتذكر دخوله غرفتها، لمساته لجسدها، استيقاظها الفزع وهي تشعر به قربها، نفور روحها وصراخها الذي كتمه بسرعة قبل أن يسمعه أحد، أنفاسه القذرة التي همست لها في أذنها أن تهدأ، ورفض جسدها الانصياع لأوامره.

نهضت من مكانها مجددًا لتتجه للحوض وغثيانها لا يتوقف ودموعها لا تنضب، ارتعش جسدها بقوة بعد أن انتهت من استفراغ كل ما بمعدتها، ولحظات ووجدت أحدهم يحاوط جسدها بمنشفة، فاستدارت مُرتعبة وصورة ممدوح تغشي عينيها، فصرخت بلا وعي: «لا أرجوك لا تلمسني.. ابتعد».

«اهدئي صغيرتي.. أنا آسر.. آسر»، جملة وصلت لأسماعها وسط صراخها، لتنزاح الغشاوة التي أعمت عينيها، لتظهر صورة آسر واضحة وهو يقف أمامها مُمسكًا بيديه المنشفة وملامح وجهه تشاركها ألمها، فأخفضت رأسها وهي تجهش بالبكاء مجددًا، وتلعن ضعفها الذي ظهر أمامه.

اقترب آسر من أميرة بهدوء، وقبضة ألم تعصر قلبه لمرآها هشة وضعيفة هكذا، وهو يلمح بكاءها بانهيار لأول مرة، حتى وصل إلى جسدها المُرتجف وأحاطها بمنشفة طويلة وضمها بهدوء له، ليشعر بتشنّج جسدها في حضنه، ليعاود الربت على ظهرها بهدوء ويُهدّئ جسدها من الارتعاش قليلا.

لم تستطع أن توقف دموعها، قدرتها على التحمل بدأت تضعف أمام كل الحب الذي تجده لأول مرة في هذا البيت، هي طفلة في النهاية لم تستطع أن تدّعي القوة طويلًا، فقط لدقائق تنعم من هذا الحب.

أخذت تقنع نفسها بتلك الكلمات وهي في حضن آسر الحنون، حتى مرت دقائق طويلة هدأت فيها وابتعدت بهدوء عنه، وهي لا تقوى على النظر لعينيه، فهمست بصوت باكٍ: «أرجوك، دعني بمفردي قليلًا».

نظر آسر لها طويلًا، ثم تنهد بخفوت، وأجابها بالموافقة، وهو يعلم أنها في حاجة لأن تكون بمفردها لتستعيد قوتها قليلًا، وبعدها سيسألها بهدوء عن كل ما يريد معرفته.

خرجت من الحمام بعد أن سمعت صوت باب غرفتها يغلق، لتدرك أن آسر احترم رغبتها وتركها، فتوجهت لسريرها لعلّ النوم يريحها من كل هذه المشاعر المُضطربة التي تشعر بها.



منزل زمرد

دلف بهدوء للحديقة الداخلية للمنزل، بعد أن شعر بأنه غير مُستعد للعودة لغرفته الآن، ولأحزانه التي لا تنتهي، رفع رأسه وهو يتنهد بخفوت، وفتح عينيه ليتجمد مكانه على ما وقعت عيناه عليه، يا إلهي كم مرّ على آخر لقاء بينهما بعد عودتها للمنزل؟! بعد شجارهما حين أخبرها بضرورة الذهاب لطبيب نفسي! متى تحدث معها وأشبع روحه برؤيتها أمام عينيه؟! هي هنا أمامه في بيته.

تأوه بخفوت ليجذب انتباه تلك التي كانت تجلس على الأرجوحة وبيديها كتاب، فعادت بذاكرتها لطفولتها البريئة مع الشخص الوحيد الذي كانت تتبعه بقلبها، وها هو يقف أمامها مُنهك الجسد، يبدو عليه التعب الشديد، ونظرة أخرى لم تفهمها، طال الصمت بينهما، وصمت الليل يترك أثره على نفسهما، بينما تتحادث العيون في حوار طال انتظاره، بين عتاب وندم واعتذار، وأخيرًا شعور آخر لم يفسّراه.

قطعت زمرد الصمت بحديثها بهدوء: «لم تتغير الأرجوحة، كأني تركتها بالأمس فقط».

ارتبكت بعد حديثها وهي تلمح نظرة ألم في عينيه، أخفاها سريعًا وهو يجيبها بجمود: «يبدو أنها الوحيدة التي لم تتغير مع الزمن» شعرت بطعنة تخترق قلبها، ولم تدر أن أثرها عاد لقلبه بآلامه وهو يلمح الألم في عينيها، أخفضت أنظارها للأرض وأجابته بخفوت: «نعم، كل شيء غيرها تغيّر»، نهضت من مكانها وحملت الكتاب الذي استعارته من رحاب الصامتة دومًا معها، بعد أن رأته معها، وذكّرها بليلى الحبيبة، كأنها تحتمي به، وتحركت لتخرج من الحديقة، وهمست له بعد أن مرت بجانبه: «مُبارك عقد قرانك»

تشنّج جسده بأكمله، وشحب وجهه بعد همستها، وهو يردد داخله جملتها: «عقد قرانك!» التفت مُسرعًا وهو ما زال على صدمته، ولكن لم يجد شيئًا، فقط فراغ، لا أحد غيره يسكن فيه.

أغمض عينيه وهو يتأوه داخله بخفوت، وهو يدرك جيدًا أن سالي قد قامت بزيارتها المؤجلة لوالدته، ولم تجد سوى اليوم من ضمن كل الأيام كلها.

جلست على سريرها ومصباح صغير بجوارها يضيء ظُلمة الغرفة، بينما تنظر لسقفها بشرود، لحظة وراء الأخرى فتساقطت أول دمعة وهي تتذكّر اجتماع العائلة اليوم ووالدة يامن تخبرها: «زمرد.. هذه سالي»، لتتساقط الدمعة الثانية: «سالي خطيبة يامن»، لتتساقط الدمعة الثالثة: «هي صحفية نابغة في جريدة الحرية»، لتتساقط الدمعة الرابعة: «لقد تم عقد قرانهما منذ ٦ أشهر»، رفعت يديها مُسرعة لتكتم شهقة بكاء لم تستطع كتمها، وهي تستغرب ذلك الألم الذي تشعر به

لأول مرة، ألم مختلف، ألم قادر على سلب روحها بسهولة وهي تفكر: «يامن تزوج يا زمرد، تزوج من امرأة رائعة، تزوج من امرأة شريفة ليست ملوثة مثلك، ليست بقذارتكِ، هل فهمتِ الآن كرهه ونبذه لكِ؟! فهو لم ولن يراكِ سوى عاهرة مُلوّثة».

انخرطت في بكاء مرير لم تعد تسيطر عليه، وهي ترفع يديها وتضعها على قلبها تدلك مكانه، وتهمس بألم: «يا إلهي قلبي يؤلمني بشدة».



منزل في أحد الأحياء البسيطة

«لا تخافي سوف أغطي جسدك بالغطاء فقط فالجو بارد هنا».

ارتجفت مكانها وهي تنظر برهبة حولها لتسأله: «لماذا انتقلنا من المنزل لذلك المكان؟! هذا المكان مخيف»، ربت على كفها بحنان وهو يضم الغطاء لجسدها مطمئنًا إياها: «لا تقلقي، أنا هنا معكِ فلا تخافي، حاولي أن تنامي قليلًا وسأوقظكِ حين ينتهوا من إعداد الطعام، فحتما أنتِ جائعة».

هزت رأسها بارتباك وهي تقول: «أين أمي؟!» سمعته يتنفس بغضب ليقول بصوت حاول أن يبدو هادئا: «هي تقضي أمرًا ما وستعود.. لن تتأخر لا تقلقي» هزت رأسها وهي تضم الغطاء لجسدها، تنظر له بقلق لتراه ينظر لها باطمئنان، ولحظات وبدأت عيناها بالانغلاق وقد استجاب جسدها للنوم أخيرا بعد أن شعرت بالدفء، لتسأله بصوت ناعس: «ما اسمك؟!» ليجيبها وهو يربت على شعرها: «عمران».

ابتسمت له وهي تقول: «وأنا غُفران»، لتنام على الفور ويداه لا تتوقف عن الربت على شعرها وهو يقول بهمس: «سعدت برؤيتك غُفران، أعدك بأن أحميك من شرورهم».

فتح عينيه فجأة وظلام الغرفة يرسم مع خيالاته تلك الذكرى التي تعلّقت بقلبه وعقله، نهض من على سريره وهو يتنفس بتعب، حتى الآن لا يصدق كل ما حدث،

لا يصدق أن الأمر كاد أن ينتهي، لا يعلم كيف سيخبر والدته القابعة في الغرفة المجاورة له؟! منذ أسبوع وهو متخفٍ هنا، كما أمره اللواء حسين، وهو يثق به، ولكن يشعر بالقلق عليها، لا يعلم كيف هي الآن وكيف هي أيامها وهي وحيدة في سكنها، ثلاثة شوارع هي كل ما يفصله عنها ولا يجازف بمحاولته رؤيتها.

: «غُفران» همسة خرجت من فمه فآلمت قلبه وهو يتذكّر كيف كانت حياته معها، لقد قضوا فترة في كهف مهجور في الصحراء بعد وصوله لأخيه، ومعرفته للمخطط الذي سيقوم به مع باقي عصابته، بعد أن عادوا من ليبيا، مخطط أمره به رئيسه المجهول، تذكر كيف كانت حياتهما مترابطة معًا منذ أول مرة وقعت عيناه عليها، صغيرة شاحبة وخائفة حتى ذلك اليوم، يعلم أنه خسرها فيه، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه، علم أنه سيجازف بمكانته لديها ولكن كل شيء فداء لروحها وحياتها، ذلك اليوم الذي قررت فيه الذهاب للشرطة وهي طفلة لم يتعدَّ عمرها الثالثة أو الرابعة عشرة، كما يتذكّر، بعد أن أخبرته بما رأته في القبو، ذلك اليوم الذي جاءت فيه مذعورة، وقد شهدت بعينيها انتزاع روح من جسد تلاه انتزاع أعضائه.

لطالما كانت ذكية، وقد استطاعت أن تربط بين كل ما دار في المنزل رغم سنها الصغيرة، استطاعت أن تجد مبررات لكل تلك الاختفاءات التي حدثت، لكل ذلك الصراخ المكتوم الذي كان يوقظها من نومها فزعة، يعلم أنه كذّب عليها ويعلم أنه خان ثقتها، ذلك اليوم الذي تشاجرت فيه معها وهو يحاول منعها من الذهاب للشرطة حتى لا يؤذيها ممدوح ليتذكّر ذهابه بعد هروبها وإخبار ممدوح بفعلتها، أدرك أن سيكون هناك أذية لها، ولكن أذية أخف من قتل ممدوح لها.

أغمض عينيه وهو يتذكّر ما فعلوه بها، وهو يتذكّر إخضاعها الذي استمر لثلاثة أيام بين جلد وحبس وتعذيب، ولكن غُفران القوية ما زالت صامدة فالتجأ ممدوح للأسلوب الذي جعله يقتل الروح في جسد بناته.

النزال، قتال بين اثنين يجب أن ينتهي بموت أحدهما، ليكن الطرف الأول غُفران والطرف الثاني أعز أصدقائها: «فيروز» التي كانت معها منذ الصغر.

نهض من مكانه وهو يشعر بالغرفة تضيق به، وكل الأفكار السوداء تغتاله بلا رحمة، هو مُدرك أن ما وصلت إليه غُفران من تبلّد بمشاعرها هو وحده السبب فيه، لو كان منعها بقوة من الذهاب للشرطة، لو كان ضربها وحبسها قبل أن تهرب منه ويضطر لإخبار ممدوح بما حدث ما تعرّضت لكل تلك الآلام.

خرج من غرفته ليتجه لغرفة والدته الحبيبة، فوجدها نائمة في سريرها، جلس بجوار السرير على الكرسي، وهو ينظر إليها بحب بينما يصدح صوت: «المنشاوي» بالقرآن الكريم في الغرفة بخفوت، صوت نشر الهدوء في أنحاء جسده وعيناه لا تزال على والدته، عائدًا بذكرياته مع تلك التي احتلّت قلبه من دون أي مقدمات، تلك التي احتلّت قلب والدته هي الأخرى، تذكّر المرة الأولى التي صُدم فيها بمعرفتها بوالدتها.

خرج من الغرفة مُسرعًا وهو ينادي: «سعاد.. سعاد».

خرجت من المطبخ فتاة في أوائل العشرينات، ذات هيئة ضعيفة، تربط شعرها بغطاء وردي ذي عقدة خلف رأسها، وهي تمسح يديها في المنشفة، وتجيبه بقلق وهي ترى ملامح الذعر على وجهه: «ماذا حدث؟!»

أجابها بخوف: «أمي إنها لا تجيب، هاتفي الطبيبة التي أخبرتني عنها»، هرعت سعاد للهاتف الأرضي وضربت بعض الأرقام وهي تنتظر الإجابة من الطرف الآخر.

مرت سبع دقائق حتى سمع رنين الباب، فهرع ليفتح ليتجمد مكانه وهو ينظر بعدم تصديق لصاحبة الطرقات، مرت لحظة فأخرى قبل أن يخرج من صدمته على صوت سعاد وهي تهتف خلفه: «سيد عمران هل أتت الطبيبة غُفران؟!» تجاوزته غُفران وهي تزيحه عن طريقها بسرعة لتدلف لغرفة والدته، بينما ظل مكانه ينظر لأثرها في ذهول وهو لا يصدق وجودها هنا، رمش بعينيه أكثر من مرة وهو يحاول استعادة تركيزه ليطمئن على والدته أولًا، وبعدها يستفسر عن كل شيء، الأمر الذي يطمئنه قليلًا أنه حتمًا والدته لا تعلم عمن تكون غُفران، وإلا قد علمت الحقيقة منذ فترة طويلة.

دلف للغرفة فلمحها وهي تعالج والدته بمهنية، بينما ملامح وجهها الجامدة لا تعبر عن شيء، هو على يقين بصدمتها وقت أن رأته، ولكنها كانت الأسرع في تخطّي الصدمة، طالما كانت الأسرع.

أخرجه من أفكاره صوتها وهي تقول بهدوء لسعاد: «إنها نوبة سكر، يبدو أنها لم تأخذ علاجها اليوم، كيف أهملتِ هذا الأمر سعاد؟!» أجابتها سعاد بحزن: «أنا سألتها عند عودتي من السوق وأخبرتني أنها أخذته، أقسم لكِ غُفران».

تنهدت غُفران بخفوت، وهي تلمح بعينيها ذلك الذي يقف على الباب صامتًا، فتحدثت بهدوء بينما تتجنب النظر إليه: «لقد أعطيتها حقنة الآن، ودقائق وتفيق، هي بخير لا تقلق».

هز رأسه من دون أن يقول شيئًا، وبالفعل بعد دقائق لمح والدته وهي تفيق، فاقترب مُسرعًا من السرير، وهو يحيط بكفها ليقبلها بحنان استغربته تلك التي تتابعه بعينيها بتدقيق، لتسمعه يجيب والدته بعد أن سألت عما حدث: «لماذا أهملتِ في علاجكِ أمي!؟ لقد دخلتِ في غيبوبة سكر بسبب عدم حفاظكِ على العلاج، لقد ارتعبت عندما عدت من السفر ووجدتكِ فاقدة الوعي، فطلبت من سعاد الاتصال بطبيبتكِ».

ابتسمت له بحب وهي تقول: «عمران حبيب والدتك، أنا بخير حبيبي، لقد اشتقت إليك»، قبّل كفها بحنان وهو يجيبها بابتسامة يخصها دومًا لها: «وأنا أيضًا اشتقت لكِ يا غالية».

أدارت وجهها في الغرفة، وغُفران التي تتابعهما بجمود بينما عقلها يُرتب كل معلومة جمعتها من هذا الحديث البسيط، ومن وجود عمران في هذا البيت، عمران الذي يعمل لدى ممدوح هو ابن أغلى سيدة لقلبها، قاطعت أفكارها الأخيرة بصوتها الحرج وهي تقول بارتباك: «أنا.. أنا بخير غُفران»، فأجابتها بجمودها: «لمَ أهملتِ العلاج وأخبرتِ سعاد أنكِ تناولتِه؟!» نظرت للأسفل من دون قول شيء، وهي تشعر بالحرج لكذبها على سعاد: «أنا.. إن مذاقه مرٌّ غُفران».

نظرت لها غُفران للحظات قبل أن توجه حديثها لسعاد بغضب: «إن أهملت علاجها مجددًا لا تتصلي بي»، لم يعجب عمران لهجتها في الرد على والدته لينهض بغضب ساهيًا عن ابتسامة والدته لها ليقول: «نحن لسنا في حاجة إليكِ باستطاعتي الاتصال بأفضل الأطباء لها» نظرت له أخيرًا بجمود قبل أن تجيبه ببرود: «اقضِ بعض الوقت معها أولا قبل أن تأتي بأفضل الأطباء ليداويها».

كاد عمران أن يجيبها بغضب حتى لمست والدته كفه، وهي تقول بابتسامة: «اهدأ عمران، غُفران قلقة فقط على صحتي لذا قالت ما قالته»، أجابتها غُفران ببرود: «أنا لا أقلق على أحد».

ضحكت والدته ضحكتها الحنونة التي دومًا لها أثر عليها لتُجيبها وهي تمد يديها لها: «تعالِ يا فتاة النار، اقتربي مني»، تابعهما عمران بدهشة وهو يرى تلك العلاقة التي بين والدته وبينها، وهو حتى الآن لا يصدق وجودها في منزله، لتزداد دهشته وهو يرى غُفران تجلس على الكرسي بجانب سرير والدته، رافضة أن تمد يديها لكف والدته، فضحكت والدته بتعب وهي تقول: «سامحيني ابنتي واعذري كبر سني وتخريف العجوز»، نظرت لها غُفران بضيق وهي تقول: «أنتِ لن تستدرجيني هكذا، أنا لن أسامحكِ بسهولة».

مدت والدته يدها لها وتلمست طريقها حتى لمست كفها وضغطت عليه بحنو، وهي تقول: «لن أفعلها مجددًا أقسم لكِ»، ساد الصمت للحظات قبل أن ترفع غُفران أنظارها لها لتقول بهدوء وهي تتجاهل كفها الذي تحيطه العجوز: «لا تهملي صحتكِ أرجوكِ، كان يجب أن تخبريني بأنك لا تستطيعين تناول الدواء لمذاقه، كنت عالجت لكِ هذا الأمر لا أن تهمليه»، ابتسمت لها بحنان وهي تجيبها: «حسنا لن أكررها مجددًا»، هزت غُفران رأسها من دون قول شيء، ثم نهضت من على الكرسي لتقول لها العجوز وهي تسمع خطواتها: «ابقِ قليلًا لأعرفك على عمران، دومًا أحدّثكِ عنه ولكنكِ لم تقابليه من قبل، عمران هذه الطبيبة غُفران، ملاك الرحمة لي»، نظرا كلاهما لبعض للحظات قبل أن تشيح غُفران أنظارها عنه وهي تحمل حقيبتها لتقول بهدوء: «في وقت لاحق، أما الآن فيجب أن أذهب، لدي العديد من الأمور غير المُنتهية، سأزوركِ صباحًا لأطمئن على صحتكِ»، من دون انتظار

ردها على حديثها خرجت على الفور، ليتحدث عمران بهدوء لسعاد: «سعاد ابقِ مع أمي قليلًا حتى أوصل الطبيبة فالوقت متأخر».

خرج بهدوء من الغرفة ليسرع باتجاه الباب، ولينظر للدرج فلمحها تنزل بهدوء، أسرع ينزل خلفها الدرج حتى قبض على ذراعها، فالتفتت له مُسرعة وهي تدفعه بقوة للجدار من خلفه وتنظر له بغضب وهي تهمس: «لا تلمسني»، أجابها بهدوء: «يجب أن نتحدث»، ثم وصل لأسماعهما صوت أحدهم يصعد الدرج، فأمسك بذراعها مجددًا وهو يجذبها خلفه قاصدًا سطح المنزل.

تأكد من خلو السطح من سكان العمارة، ليلتفت إليها وهو ينظر لها بقوة ليلمح نظراتها الجامدة له، ليتنفس بقوة قائلًا: «كيف وصلتِ لهنا؟!» أجابته ببرود: «أنا أسكن على بعد ثلاثة شوارع من منزل والدتك»، ساد الصمت للحظات قبل أن يسألها بترقّب: «أنا أعلم تلك المعلومة غُفران، هل أمي تعرف من...» قاطعته بسخرية قبل أن يكمل سؤاله: «هي لا تعرف سوى القليل»، سألها بحذر وهو يقترب منها: «ما الذي تقصدينه بالقليل؟! وهل يعلم أحد غير سعاد بقدومكِ لعلاجها؟!»

صمتت للحظات وهي تعيد ترتيب أفكارها، وأسئلته تفتح العديد من المتاهات بعقلها، فاقتربت منه بهدوء وهي تسأله: «لا أحد يعلم عنها أي شيء أليس كذلك؟!، لا أحد يعلم عن حياتك الشخصية شيئًا، ومن انفعالك الواضح وغضبك غير المُبرر أنت لا تريد لأحد أن يعرف عنك أو بالأخص عنها شيئًا».

نظر لها بجمود للحظات، قبل أن يجيبها وهو يقبض على ذراعها بقوة: «نعم، وأنتِ لن تتفوهي بشيء غُفران، أنا لا أعلم بعد ما الذي تخططين له، ولكن أقسم لكِ إن أصاب والدتي شيء سأقتلكِ على الفور».

أبعدت ذراعها بقوة عن قبضته وهي ترفع إصبعها لتدفعه في صدره: «أنا لا أتهدد عمران، واليوم فقط عرفت أنها والدتك، وأدركت لمَ لا يشفيها الدواء، فالمال الحرام لا يشفي الأمراض، رغم جهلي بإخفائك أمرها عن الجميع إلا أنني لن أستفيد شيئًا وأنا أتجه لهم لأخبرهم أنني قابلت والدتك».

ساد الصمت للحظات ولمحة ألم مرت بعينيه لتلتقطها بسهولة وهي تتراجع خطوة عنه لتسمعه يقول: «إن علم ممدوح بوجودها سيقتلها»، شحب وجهها وهي تبتعد عنه خطوتين، ليسود الصمت للحظات قبل أن تسأله: «لماذا؟!»، نظر لها طويلًا قبل أن يقول: «لا أستطيع إخبارك، أنا أصدّقكِ غُفران وأعلم من والدتي أن هناك طبيبة تتابعها لأشهر، فلو كنت أخبرتِ ممدوح ما كانت والدتي حية حتى الآن، لذا سأقول لكِ بهدوء لا تأتِ مجددًا لأمي، أنتِ مُراقبة من رجال ممدوح، وإن استعلم أحدهم عن سبب مجيئكِ هنا سيصل ممدوح لأمي، لذا أنتِ لن ترى أمي مجددًا».

خرج من أفكاره على ربتة على كفيه، لينظر لكف والدته التي تحيط بكفه، لينظر لها بحب بعد أن قالت: «ما الذي يحزنك يا بني؟!»، أجابها بابتسامة وهو يقبّل كفها: «آه من الحنّونة وهي تشعر بي قبل أن أخبرها ما بي».

ابتسمت والدته له بحب وهي تقول: «آه يا بني لم ينادِني أحد بهذا بعد وفاة والداك»، رمش عمران بعينيه حتى يبعد الدموع عنها، ليقترب منها وهو يقبّل جبينها قائلا بمزاح: «يا لي من مُقصّرًا إذا، سأعوضكِ عن هذا بأجمل إفطار لمالكة القلب»، ضحكت والدته ضحكتها المُحببة له وهي تستقبل قُبلته، وبعد لحظات من خروجه حانت منها ابتسامة حزينة وهي تقول: «لقد لهف قلبي عليك يا ابن بطني، ولهف قلبي على ابنة قلبي، يا الله كن معهما يا الله».



إن الكثيرين لا يريدون منا حلًا لمشكلاتهم بقدر ما يريدون القلب الذي يتوجع ويتأسى، وكما قيل ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

سلمان العودة

الفصل التاسع
عودة من الموت

منزل يامن

جلست سالي بهدوء على كرسي بالمطبخ، وهي ترى حماتها تعد الطعام، لتقول لها ببراءة مصطنعة: «إذا يامن لم يخبركِ بما يشغله عني هذه الأيام؟!»، نظرت لها (شادية) والدة يامن بابتسامة لتقول: «يمكنكِ خداعي بهذا الوجه يا ابنتي، ولكن أنتِ الأدري بيامن، تعلمين أنه دائم الصمت، خاصة إن كان أمرًا يخص عمله».

تنهدت سالي وهي تقول: «فقط لو يسمح لي بالحديث معها؟!»، رفعت شادية عينيها لسالي وهي تقول بقلق: «لا يا ابنتي، حتى لو لم يمنعكِ يامن، لا ضرورة من الحديث معها، إن حالتها النفسية لا تسمح لأحد بالحديث، لقد انهارت من فترة وجعلتنا جميعا نتوخى الحذر في التعامل معها»، قالت سالي بتذمر: «هذا ليس عدلًا، كيف إذا سأكمل السبق الصحفي الخاص بي وأنا زوجة مُقدّم قريبته كانت فردًا من تلك العصابة؟».

انتفضت من على كرسيها على صوت حماها وهو يقول بصوت جامد: «قريبته تلك تكون ابنة عمه، سُمعتها من سُمعته، وأي رجل لديه كرامة لن يسمح لأحد بالخوض في شرف عائلته مهما كان مَن، هذا ليس له علاقة بالعمل بل بالأخلاق والمبادئ، لذا سبقكِ الصحفي لن تجدي مساعدة هنا في تقديمه، أم يامن لقد تأخر الوقت عن الغداء» أجابته شادية بارتباك: «نعم لقد جهز الطعام.. سنعد الطاولة الآن أبا يامن».

التفت ليخرج فأوقفته سالي وهي تقول بقلق خوفًا من معرفة يامن بكلامها: «عمي أنا لم أقصد ما قلته كما وصل لك، أنا فقط أريد نشر الحقيقة بدلًا مما يتحدث به الناس، أنا لا أعي أن ما يقولونه حقيقي، فالله وحده يعلم ما حدث معها في ذلك المنزل، ولكن لِكَتم أقاويل الناس يجب أن نرد عليهم برد قوي نظهر به الحقيقة.. هذا ما قصدته فقط».

نظر والد يامن لها بهدوء ليقول: «إن جاهدنا في طريقنا بهذه الحياة لإرضاء الناس بما يريدونه لن نتحرك مكاننا يا ابنتي، ربما نتحرك خطوة للأمام، ولكن أمامها نعود مائة خطوة للخلف، الناس لا يريدون الحقيقة بل يخشونها، الناس يريدون حديثًا يلهيهم عن أحاديث حياتهم، يريدون الخوض في أعراض الناس للترفيه عن أنفسهم، وأنا لن أسمح لابنة أختي أن تكون وسيلة ترفيه لهم، نحن منعنا الصحافة كلها من أي حوار معها، لذا أنتِ لست استثناء، وكما قلت لكِ نحن رجال لدينا كرامة ونفدي أهل بيتنا بأرواحنا تجاه أي شيء قد يؤذيهم مهما كان قربه».

ارتسم الجمود على ملامح سالي وهي تعي مقصده، لتخرجهما والدة يامن من هذا الحوار، وهي تعي أن زوجها لن يتوانى عن التوقف دفاعًا عن أهله لتقول: «حسنًا، هيا لقد انتظرنا كثيرًا وسيبرد الطعام، هيا سالي دعينا نعد المائدة».

جذبت سالي من ذراعها لتعد معها الطعام، وخرج والد يامن وهو يستغفر ربه في سره، غير راضٍ عن خطيبة ابنه وأفكارها التي قد تؤذيها وتؤذي ابنه يومًا ما، بينما أخذت سالي تساعد حماتها وهي تستشعر كره حميها لها، حميها الذي لم يقبلها حتى الآن كِنة له، ولكن منذ متى وكان يهمها شيء تافه كهذا، هي لديها هدف وستحصل عليه مهما اضطرت لفعل ما لا يرغبون فيه.

الحاج سعيد خيري كبير عائلة خيري، الأخ الأكبر لوالد زمرد ولوالد سليم، يعمل في تجارة الأخشاب، وراثة في العائلة أبًا عن جد.

جلس أمام طاولة الطعام يتذكّر ما حدث قبل أسابيع وقلب كيان العائلة بأكملها، عودة الابنة المُختطفة، ابنة أخيه الغالية زمرد، لم يتذكّر يومًا ارتباطه بأحد أطفال

العائلة كما ارتبط بالفتاة الصغيرة التي كانت تُقبّله على خده في كل مرة تراه فيها، آلمه قلبه حين رآها شابة أنهكتها الآلام، شابة بملامح عجوز قاست في الحياة الكثير ورأت من أهوالها الأكثر، ما سمعه من والده يامن كسر ظهره، وهو يعي أن ما استعادوه بعد كل تلك الأيام هو بقايا فتاة أخذوا منها كل ما هو غالٍ، هو يعي رد فعل ابنه ويرفضه بقوة، ولكن هو يعطيه الوقت ليتفهّم، لقد رأى ابن أخيه ما لم يره ابنه، زمرد لا يحق لأحد أن يلومها على أي شيء فعلته، لا يحق لأحد عتابها على أي خسارة خسرتها، آه فقط لو ابنه يعي ذلك الأمر ويُدركه ويعي قرارته الخطأ الذي داوم على أخذها في تلك السنة، استغفر سره وهو يدعو له بالهداية وعدم الانجذاب خلفه عِنده.



منزل زمرد

نظرت بشرود للطعام الذي أمامها وهي تفكر أنها هنا منذ ثلاثة أسابيع، مرت عليها كسنين، أقل من أسبوعين مرا منذ انهيارها المُخجل أمام سليم، لتستيقظ بعدها لتجدهم حولها يتنفسون الصعداء، وجوههم شاحبة ووالدتها تحتضنها بقوة تذرف الكثير من الدموع، لتعي أنها ظلت فاقدة الوعي ليوم كامل، استغربت بعدها ردود الأفعال من حولها، أعمامها وزوجاتهم يحاولون بقدر المستطاع مُعاملتها بلطف، مُتفادين الكم من التساؤلات التي تتراقص داخل أعينهم، والدتها على الرغم من عدم استطاعتها النظر لعينيها إلا أن لساتها لم تستطع المقاومة لتحتضنها كل فترة وأخرى مُقبّلة رأسها مُتمتمة: «حفظك الله لي يا قرة عيني»، ورحاب التي تحاول فتح المواضيع معها لتحدثها في أي شيء مُتجنّبة الحديث عنها وعن حياتها.

وحده من توقف عن الحديث معها، عن النظر إليها، عن التواجد في نفس المكان الذي هي به منذ آخر لقاء بينهما في الحديقة، بعد أن باركته على عقد قرانه، حتى سليم توقف عن المجيء لها، وحين سألت عنه في اجتماع العائلة تغضّنت ملامح والده بالغضب، وهو يخبرها أنه في سفرية عمل، مُعتذرًا منها عما بدر منه تجاهها،

وأنه لن يكرر فعلته مجددًا، لتتساءل غير مُستوعبة حديثه، لتجيبها والدته بأنه لم يجب أن ينفرد بها بمكان واحد بمفردهما في وقت متأخر، ولم يجب أن يحملها لغرفتها كما فعل، ليصطدم عقلها فجأة بعالم من المبادئ والأخلاق كان معدومًا في عالمها، من معاشرتها لهم تلك الفترة أدركت مدى التزام عائلتها القوي.

أخرجتها من أفكارها ربتة على كفها من والدتها لتقول لها: «لمَ لا تأكلين يا قرة عيني؟! ألا يعجبك الطعام؟! أتريدين طعامًا آخر نعدّه لك؟!» لتهز رأسها بالنفي محاولة التقاط لقيمات من الطعام دون قول شيء.

طرقات على باب الشقة جذبت انتباههم، لتنهض رحاب مُرتدية حجاب رأسها تفتح الباب، ليقابلها يامن بابتسامته الحنونة لها، جاذبة انتباه زمرد التي لم تره يومًا مُبتسمًا، سمعته يسأل رحاب عن حالها ودراستها، ثم لمحت والدتها تنهض لتقابله بينما هو ما زال على باب الشقة رافضًا الدخول، ارتعشت أوصالها وهي تسمعه يخبر والدتها أن الطبيبة قدّمت الميعاد لليوم بدل الغد، الطبيبة التي أجبرها على رؤيتها مُدعيا أنها أوامر عُليا من رؤسائه بخصوص القضية، طبيبة زارتها أربع مرات، رافضة فيها الحديث معها بأي شيء، رافضة محاولاتها لبدء أي تقارب تجاهها، وقفت من مكانها شاحبة وهي تسمعه يقول إنه يجب الذهاب إليها في عيادتها اليوم بدلًا من مجيئها بالمنزل.

التفت ثلاثة أزواج من العيون لها، اثنان بقلق وزوج ببرود، لترتعش مكانها وهي تقول بارتجاف: «أنا لن أخرج.. أنا لا أستطيع الخروج».

لمحته يدلف للشقة ويتجه ناحيتها، فقبضت على كفيها تحاول ادعاء الثبات أمامه لتسمع نبرته الباردة: «الطبيبة تجد أن المنزل هنا لا يساعدك على التواصل معها، وأصرت على تغيير المكان من أجلكِ، لعلّكِ تبدئين بالحديث معها»، كأنها لم تستمع لما قاله لتكرر كلامها: «أنا لا أستطيع الخروج».

تنفّس بغضب وهو يقول: «عليكِ الخروج وتنفيذ تعليمات الطبيبة، أنتِ لا تتقدمين في العلاج ولا تتفوهين بشيء، والوقت يمر دون أن نعرف ما نريده من معلومات تساعد في التحقيق».

هتفت بغضب وهي ترى تشنّج ملامحه: «وأنا لا أريد أن أتحدث.. لقد أخبرتكم بما يفيد التحقيق، لا شيء إضافيًا يمكن أن أقوله»، أجابها: «المعلومات التي حصلنا عليها من غُفران والفتاة الأخرى غير كافية، ووحدك من تملكين المعلومات، بحكم أنك قضيتِ تلك السنتين في المزرعة»، هتفت بغضب: «لم أكن هناك وحدي، ليلى كانت معي أيضًا، وما قلته لا يزيد شيئًا عما قالته»، ضرب بكفيه على الطاولة أمامه: «اللعنة، لا تدعيني أقولها حتى لا أخسر احترام أهلك لي».

شحب وجهها وهي تعي مقصده، ليشحب وجهه وهو يعي ما تفوه به، زفر بغضب وهو يتجه ناحية الباب قائلا بصوت مكتوم: «عشر دقائق وأجدكِ بالأسفل»، أغلق الباب خلفه، لترفع نظرها لوالدتها وأختها تراهما بصورة مُشوشة من غمامة الدموع، أشاحت بنظرها عنهما تجر رجلها لغرفتها، تشعر بتلك السكّين التي بصدرها تتحرك من مكانها آلمة إياها، دلفت رحاب خلفها إلى غرفتها في مبادرة منها لدعمها، لمحت الغرفة بحالتها الطبيعية كأن لا أحد يسكنها، ابتلعت ريقها وهي تنظر باتجاه الحمام لتلمح زمرد تخرج منه ووجهها يبدو عليه البكاء، انتفضت زمرد مكانها وهي ترى رحاب أختها تنظر لها بشرود، رحاب أختها الصغيرة التي أخذت الكثير من ملامح والدها العزيز، في الكثير من الأوقات تختلس النظر إليها من دون علمها لتلمح فيها ملامح اشتاقت لتذكّرها، أختها الصغيرة المتفوّقة بكلية الإعلام في سنتها الأولى، أختها التي تخشى أن تزعجها بوجودها فتلتزم دومًا الصمت وهي بمجلسها معها، تحاورها كل فترة وأخرى في أي شيء لا علاقة له بها.

ابتلعت ريقها وهي تسمع رحاب تقول لها بهدوء: «أردتُ أن أخبركِ فقط أن يامن لا يقصد إزعاجكِ بكلامه هذا، الكلام يخرج من فمه دون الدخول على أي فلتر ينقّي الكلمات حين يشعر بالضغط»، حانت من زمرد ابتسامة وهي ترى ضحكة رحاب لتقترب منها رحاب بهدوء وتقول لها: «بما أن هذا أول خروج لكِ فاسمحي لي أن أعطيك بعض ملابسي ترتدينها حتى نذهب معًا لشراء ملابس لكِ».

لمعت الدموع في عين زمرد لتهز رأسها بالموافقة دون قول شيء، فترى حماس رحاب وهي تقول: «لحظة سأحضر الثياب.. لن أتأخر عليكِ» لمحتها تخرج من الغرفة مُسرعة لتغمض زمرد عينيها ودمعتان يتيمتان تسطران آلامها على وجهها.

مقر الأمن الوطني

نزلت من سيارة الأجرة ونظرت للمقر أمامها فتذكرت وجودها هنا منذ أكثر من ثلاثة أسابيع، منذ أن قتلت سميرة، تنفست بهدوء تحاول جاهدة الحفاظ على هدوئها، هي هنا اليوم من أجل أمر مهم، رحمة أو زمرد، حانت منها ابتسامة صغيرة وهي تهمس داخلها أن زمرد يليق بها أكثر، تريد أن تقابل المُقدّم يامن لتسأله عنها وتُطالبه برؤيتها، فهي اشتاقت لها بشدة.

عبرت الطريق حتى تصل لمركز الشرطة، وبينما هي ترفع عينيها عن الطريق لمحت سيارة سوداء تخرج من شارع يجاور المركز، وشد انتباهها وجه مألوف يظهر من خلف زجاج أحد الأبواب الأمامية لتجد في لحظة زجاج الباب الخلفي ينزل، وآخر وجه قد تصدق في يوم أن تراه مجددًا ينظر إليها، وابتسامته الكريهة على وجهه، لتتسع عين غُفران في صدمة وهي تهمس: «غير معقول»، تجمّد جسدها بأكمله وهي تلمح صاحب الوجه يرفع فوهة مسدس غريب الشكل تجاهها، وخلال ثوان لمحت رصاصة تخرج من الفوهة، فأغمضت عينيها في انتظارها لتخترق جسدها، وهي تستشعر بأنها النهاية حتمًا، ولكن جسدًا قويًا أحاط بجسدها، وأدارها بقوة حتى سقطا معًا على الأرض.

كان في حاجة للقدوم لمقابلة اللواء حسين، لعلّه يصل لغفران، لا يعلم ما به، ولكن منذ فترة وهي تأتي لتفكيره كثيرًا، أخذ يفكّر منذ يومين أن لكل من أميرة وزمرد عائلة ماذا عن غفران؟! مما سمعه من التحقيقات والأخبار أنها الابنة الحقيقية لتلك العائلة، لذا أين تعيش الآن؟! وكيف تحيا حياتها بعد أن قتلت والدتها؟! خرج من أفكاره على رؤيتها تأتي من بعيد في اتجاهها لمقر الأمن الوطني، حانت منه ابتسامة وهو يرى الهالة التي تحيط بها نفسها، بالسواد الذي تتشح به دومًا كأنها هكذا تخفي نفسها وهيئتها، بالعُقدة المُتراخية لشعرها الغجري أسود اللون كأنها قاصدة أن تهمل الاهتمام به، ازدادت ابتسامته وهو يفكّر أنها المرة الأولى له ليتأمل فتاة بهذه الدقة، فتاة غير طبيعية في كل شيء، جذب انتباهه توقّفها وشحوب وجهها، عقد حاجبيه وهو ينظر باتجاه نظراتها فلمح سيارة سوداء تقف في الحارة المجاورة للمقر، لا يعلم لمَ شعر بقبضة تعتصر قلبه جعلته يتحرك

باتجاهها ليركض مُسرعًا وهو يلمح من بالسيارة يصوب لها سلاحًا ويبدو كأنه سلاح تخدير، فلم يفكر للحظة وهو يجذبها باتجاهه بعيدًا عن الرصاص، ليسقطا كلاهما أرضًا بعد أن شعر بحرقة في جانب جسده.

تأوهت بألم وهي تستشعر بأنه من سقوطها وليس من الرصاصة، فكرت للحظة أن الرصاصة لم تخترق جسدها بل...

عند هذه اللحظة أدركت أنها ما زالت في أحضان أحدهم، وهو يتأوه، فابتعدت بقوة عنه ليزداد تأوهه، وهي تلمح تجمّع بعض الناس حولهم ليتحدث آسر بتأوه: «يا إلهي كم أنتِ قوية!».

شهقت بصدمة وهي ترى آسر على الأرض ويمسك جانبه بألم، فاقتربت بعملية وهي ما زالت تحت تأثير الصدمة لتمسك بجسده فترفعه لأعلي ثم تنزله مجددًا على الأرض وتديره يمينًا ويسارا تبحث برعب عن الرصاصة التي اخترقت جسده ليقول بتألم وهو يضحك: «توقفي.. يا إلهي أنتِ تؤلميني».

توقفت عن دفعه وهي تسمع صوته، فهتفت بصدمة: «أنا لا أرى أي جرح بجسدك»، لمحت تراخي ملامح آسر وهو يبتسم بخفوت، بينما يقاوم إغماءه وهو يرفع يديه لتلمح سهمًا مخدرًا في يديه.

ليقول بصوت خافت: «إنها رصاصة مخدرة ليست حية، يا إلهي لم أصدق للحظة أن من الممكن أن أتذوّق ما أفعله بمرضاي هذا المخدر...»، ضحك آسر بخفوت قبل أن يكمل جملته ليستسلم لإغمائه ويذهب في النوم أمام صدمة غُفران لهيئته.



منزل محمد الأسيوطي

كانت تبحث في المكتبة عن كتاب ممتع تقرأه لعلّها تشغل عقلها به، منذ فترة وهي تلمح أن ساعة الظهيرة لا يكون أحد بالمنزل سواها هي وجميلة، التي اعتذرت منها اليوم لتذهب لقضاء أمر بالمشفى، بعد أن انقطعت عن العمل كل تلك الفترة

لتبقى معها، أخذت تتمشى بالمنزل وهي ترى صور العائلة على الجدران، وكم بدوا سعيدين للغاية، ثم لمحت تلك الغرفة التي حين دخلتها تجمدت مكانها وهي ترى أكبر مكتبة قد رأتها، مكتبة تأخذ جدران الغرفة بأكملها، فأخذت تبحث بين كتبها المختلفة، غارقة فيها بعيدًا عن العالم كله.

قاطعها طرق على باب المنزل، فخرجت من غرفة المكتب بتوجس وهي تتساءل من يأتي في هذا الوقت، اقتربت بهدوء وتساءلت عن الطارق فاتسعت عيناها بدهشة وهي تسمع صوت غُفران، ففتحت لها الباب على الفور. تجمدت في مكانها وهي تلمح غُفران تسند أخاها آسر بجسدها، وإغماء آسر واضح للعين، أخرجها من جمودها هتاف غُفران: «تحركي أميرة وساعديني.. فجسد أخيكِ ثقيل».

اقتربت أميرة بتوتر واضح وساعدت غُفران في إسناد جسد آسر حتى وضعتاه على أريكة في منتصف الصالة. تنفست غُفران بقوة وهي تتأوه من ألم ظهرها، وتحرك ذراعيها لترفع عنهما الآلام، بينما أميرة ما زالت في مكانها تنقل عينيها بدهشة بين غُفران وآسر، الذي يبدو أنه نائم! لتسألها: «ما الذي حدث؟!»

أخفضت غُفران عينيها عن أميرة وتحدثت بهدوء كأنها لم تتعرض لمحاولة قتل: «لا تقلقي، إنه فقط نائم.. سأرحل الآن» وقفت أميرة أمامها مُسرعة، تمنعها من الرحيل، وهتفت بقلق: «غُفران.. أخبريني ماذا يحدث؟!»

ابتسمت لها غُفران بحب، ورفعت كفيها تُربّت على وجنتيها بحنان أرسل رجفة في جسد أميرة.

«لا تقلقي أميرة»، انزعجت ليلى من مناداة غُفران لها بأميرة لتقول بارتباك: «لا تناديني أميرة، أنا ليلى».

اقتربت منها غُفران واحتضنتها بحنان وهي تقول: «لا فرق لدي بين الاثنتين، فكلاكما غالية لقلبي، ورغمًا عني بدأت في حب أميرة أكثر، فهي تبدو أقوى وأجمل».

ابتعدت غُفران مُسرعة هربًا من أسئلة أميرة التي هي متيقنة من عدم استطاعتها الإجابة عنها في الوقت الحالي، كادت أن تفتح باب الشقة حتى التفتت

لآسر النائم على الأريكة، ونظرت له بغموض لتقول بصوت مُرتبك: «أوصلي لأخيكِ شكري».

خرجت غُفران من المنزل مُسرعة، ولم تلمح الضياع الذي شعرت به أميرة من كلماتها البسيطة، لم تستطع قبول واقعها الجديد، فهي ليست بقوة غُفران، نظرت بوجوم لأخيها النائم وهي تتذكّر مشاعر الخوف التي ملأت قلبها في اللحظة التي رأته مغشيا عليه وغُفران تسنده بجسدها.

كيف تخاف على شخص غريب عليها؟! ولكن هل آسر غريب حقًا؟!

اقتربت بهدوء وجلست على الأرض بجوار الأريكة وأخذت تتأمل ملامح وجهه الهادئة، حانت منها ابتسامة صغيرة وهي تهمس: «تشبه السيدة جميلة كثيرًا في حبها وحنانها.. هل حقًا تحبني كما تفعل هي؟!»

أسرعت غُفران في طريقها للخروج من الحي وهي تشعر بقلبها يكاد يتوقف، توقفت وهي تلهث كأنها في ركض طويل، فلمحت مقعدًا على جانب الطريق فجلست عليه بهدوء وهي تنقل نظراتها بين الناس الذين يتحركون في الشارع، أخذت تعد في رأسها الأشخاص كما تفعل دومًا حينما تريد الهرب من التفكير وتهدئ قلبها من الخوف، فأخذت تهمس وهي تعد كل ما تراه عيناها:

«واحد اثنان ثلاثة ممدوح حي، أربعة خمسة ستة يا إلهي لم يمت، سبعة ثمانية تسعة لقد حاول تخديري، عشرة آسر تلقى الرصاصة عني».

ارتعش جسدها بأكمله وهي مُندهشة من كمّ المشاعر التي أصابت قلبها في هذه اللحظة، رفعت ذراعيها تحيط بهما جسدها لتكمل بهمس: «لم يمت ممدوح، زمرد لم تقتله! لقد حاول تخديري.. هل هذا معناه أنه ما زال على مخططه؟! آسر يا إلهي».

أخفضت وجهها تنظر للأرض وهي تفكر فيما شعرت به حينما تلقى الرصاصة عنها، الخوف.. الخوف من أن يصيبه أذى بسببها، لم يفعل أي شخص من قبل ما فعله، لم يفدِها أي شخص من قبل بحياته. هي لم تره سوى مرتين فكيف يفديها بحياته هكذا من دون أي تردد؟! هل هو بحكم عمله كطبيب أم...!

ضحكت بتهكّم من اتجاه مشاعرها، ثم هزت رأسها يمينًا ويسارًا كأنها تنفض جميع أفكارها وهمست داخلها:

«يبدو أن الصدمة أصابت عقلك.. ركزي غُفران ممدوح لم يمت، ممدوح لم يمت».

سكتت للحظات تفكر، ثم نهضت من مكانها مسرعة وهي توقف إحدى سيارات الأجرة، وتخبر السائق أن يوصلها لمقر الأمن الوطني.



منزل زمرد

فتحت عينيها بتثاقل على أصوات مكتومة من بعيد، رمشت بعينيها أكثر من مرة تحاول طرد النوم الذي زارها أخيرًا بعد محاولات فاشلة لساعات، فاعتدلت لتجلس على سريرها، وهي تشعر بقبضة تتوسط صدرها، عصف الصداع برأسها فأغمضت عينيها تحاول التخفيف عن آلامها، مسدت بيديها موضع قلبها وهي تتساءل: هل حقا أثر شجارها مع يامن عليها هكذا أم أن روحها بدأت في رفض الحياة من حولها؟

عادت الأصوات البعيدة مجددًا لأسماعها، فنهضت من مكانها تتوجه للشرفة تنظر من خلف ستائرها، لتلمح أربعة رجال يتشابهون في البنية القوية والهيئة الصارمة التي تدل على عملهم يقفون أمام بوابة المنزل، لمحت يامن بعينيها يوجه لهم الحديث ويبدو الغضب على ملامحه، شعرت بالقلق يعصف بها في اللحظة التي رفع فيها وجهه ليشحب حين نظر لشرفتها.

ابتعدت عن الشرفة، ولحظات وأبدلت ثيابها لتخرج على الفور وهي تستشعر بروحها أن هناك أمرًا وأمرًا كبيرًا، لمحت والدتها تجلس على أحد الكراسي تحاول الاتصال بأحد، وزوجة عمها تجلس بقربها تُربّت على ظهرها، فرفعت الاثنتان أعينهما لها حينما لمحتا نزولها، لتسألهما على الفور حين لمحت شحوب وجه والدتها: «ماذا يحدث هنا؟!»

كادت والدتها تجيب حين دلف يامن للمنزل سائلًا زوجة عمه: «هل ردت على اتصالكِ عمتي؟!» مُتجمدا مكانه وهو يلمحها واقفة تبادلهم النظر بقلق، لتعيد سؤالها مجددًا: «ما الذي يحدث هنا؟!» تجاهل يامن سؤالها وهو يسأل زوجة عمه: «هل أجابت رحاب على اتصالاتكِ؟!» لتجيبه قلقة: «لا يا بني، يبدو أنها في محاضرة، لقد أخبرتني أن لديها اليوم ثلاث محاضرات فقط، لو تخبرني ماذا يحدث فلقد ارتعب قلبي عليها»، اقترب منها يُربت على كفها وهو يقول محاولًا طمأنتها محاولًا بقوة عدم إظهار أي شيء أمام تلك التي تقف خلفه: «لا شيء، فقط أريد الاطمئنان عليها، بعض الشغب حدث في أحد الشوارع المُحيطة بالجامعة لذا بما أنها لديها ثلاث محاضرات فمعناه أنها لن تخرج من مبنى الجامعة، وهذا وحده مُطمئن، وأنا بنفسي سأذهب لأحضرها.. لا تقلقي»، نظر لوالدتها باطمئنان ثم لحظات واستأذن للخروج، فتبعته زمرد وهي تناديه ليتوقف على الدرج مواليا ظهره لها لتسأله مباشرة وهي تعي جيدًا متى يقول الشخص الحقيقة ومتى يتجنّبها: «ما الذي يحدث.. أجبني؟!» تنهد بقوة ليجيبها بهدوء: «لا يوجد شيء زمرد.. فقط أريد أن اطمئن على...» نزلت درجتين لتقف أمامه وهي تنظر له بجمود: «لا تخبرني بقصتك التي رويتها لأمي محاولة منك لطمأنتها.. ما الذي يحدث مع رحاب ومن هؤلاء الرجال بالخارج؟»، صمت يتأمل ملامحها الغاضبة غير قادر على الإشاحة بعينيه عنها، يتأمل شحوب ملامحها والإرهاق البادي على وجهها حاملًا آثاره عليها، لا يصدق ما سمعه من رئيسه منذ ساعات، ليقع قلبه في رجليه وهو يعي أن الرجل الذي شوه روحها ما زال على قيد الحياة طليقًا في الخارج، لا أحد يعرف مكانه، وقد حاول اختطاف غُفران، ترى كيف ستكون ردة فعلها حين تعرف بذلك؟!

«يامن.. أنا أسألك أنت لا تبدو على ما يرام، كما أنك تتجنب النظر لعين والدتي، لذا حتما أنت تخفي شيئًا، هل هناك شيء أصاب رحاب؟ أنا لا أفهم».

رق قلبه وهو يشاهد قلقها وترقّرق الدموع بعينيها، ليجيبها بهدوء مُلقيا قنبلته: «ممدوح العزامي على قيد الحياة، وقد حاول اختطاف غُفران، ولكنه فشل».

لحظات تستوعب فيها جملته المُكونة من كلمات بسيطة، لتتحول لدقائق وهي جامدة تنظر له، كأنها في انتظار أن يخبرها أن هذه مزحة، ممدوح على قيد الحياة هو لم يمت، لم يمت، شعرت بالقبضة التي بروحها تتسع أكثر فتضيق على أنفاسها، لتسمع صوت يامن قادمًا من بعيد ويبدو أنه يقول شيئًا، شعرت بالألم الذي برأسها يكاد يمزقها لتغمض عينيها مُستشعرة كفين يمسكان بها بقوة بينما تدور الأرض بها.

وصلت لأسماعها سُبّة أطلقها يامن وهو يسندها بجسده: «اللعنة، تعالي معي»، جذبها بكفه وهو ينزل الدرج غاضبًا من حاله بعد أن شك ببردة فعلها تجاه الخبر، فهو ظن أنها ستتأثر فرحة بالخبر، مما يؤكد له ارتباط مشاعرها حقًا بذلك الوغد، إلا أن الرعب الذي رآه على وجهها غيّر من كل أفكاره، وصل للحديقة الخلفية ليجلسها على أحد المقاعد، وتركها ليحضر ماء أعطاه لها لتشربه، ليسبّ مُجددًا وهو يرى الكأس تقع من بين يديها، مُتهشّمةً على الأرض، جلس بالمقعد الذي يجاورها مُمسكا بكفها في بادرة لأول مرة منه، مُتجاهلا مشاعره وهو يشعر ببرودة كفيها ليهتف بها: «انظري إليّ زمرد»، لتنفذ أمره، قاتلة إياه بدموعها التي أظهرت مدى رعبها ليقول بقوة مُحاولًا تأكيد كل كلمة تخرج منه: «أنا لن أدعه يصل إليكِ مهما كان الثمن، لن أدعه يلمس ذرة منكِ»، شهقت بقوة وهي تنهض على الكرسي مُبتعدة عنه، تضم جسدها بذراعيها، تقف مُشتتة تنظر في كل اتجاه حولها برعب، كأنها تشعر بوجود ممدوح بقربها، لتهمس من دون توقف: «سيأتي، سيأتي ليكمل ما لم ينهِه، سيصل أنت لا تعرفه، هو...» وضعت يديها على قلبها تشعر بأنه سيقف فورًا لتلمح يامن أمامها يهدر بصوت عالٍ: « لن يفعل ولو كلّفني هذا موتي»، انتفضت مكانها وهي تسمع جملته لتقول بوجع: «لا يامن، لا تذكر الموت، أرجوك لا تفعل» ليتضح أمامها ما كان يفعله منذ الصباح: «يا إلهي، رحاب أنت تظن أنه قد...» هز رأسه بالنفي يؤكد لها: «لا أنا فقط أضع احتمالات، هو لن يغامر بالوصول لأفراد العائلة، أنا فقط لا أضع مجالًا أمام شكوكي، أريد أن أكون مُستعدًا لأي شيء، سأذهب إلى الجامعة وأحضرها بنفسي، ولكن أريد أن أذهب مُطمئنًا زمرد، عليكِ ألا تخرجي من المنزل لأي سبب، حتى لو أتاكِ أي اتصال

من أي شخص لا تخرجي أبدًا من المنزل»، صمتت كأنها تفكر في شيء: «أنت قلت أنه حاول اختطاف غُفران، هل أصابها...» قاطع سؤالها وهو يرى دموعها المُنهمرة: «لا لم يصبها شيء، هي بخير كما هي بسحرها الأسود الشرير»، حانت منها ابتسامة وسط دموعها لتجيبه: «هي ليست شريرة.. هي فقط تائهة».

ستقتله يومًا ما بقلبها هذا وبابتسامتها هذه، ابتلع ريقه يحتوي مشاعره ليهدئ من وجيب قلبه، مُبتعدًا عنها، وهو يقول بعملية كأن لحظات قربه منها قد ولت: «حسنًا، والآن هناك أربعة من رجالي بالخارج لن يتحركوا من مكانهم، سيكونون دومًا هنا بوجودي أو في حالة عدم وجودي، لا أريد أن تعرف والدتك شيئًا، حالتها الصحية لا تسمح لها بالانفعال مجددًا، لذا أتمنى أن يبقى الأمر بعيدًا عنها، أعلم أنك لا تتحدثين معها بشيء، رغم جهلي بأسبابكِ إلا أنني سأخبركِ بأنه مهما دارت بكِ الأفكار والوساوس هي والدتكِ في النهاية زمرد»، رفعت عينيها له وهي تنظر له بشحوب لا تعي متى انتقل الحديث لعلاقتها مع والدتها، نظر لها نظرة تفهّم وهو يقول: «الأم هي الوحيدة التي يحزن قلبها عليكِ لا منكِ».



قبل أسبوع

دلفت إلى المشفى مساءً، وحولها رجلان يتبعانها كظلها، لتنظر بهدوء حولها مُحاولة عدم جذب الانتباه لها، قابلها أحد رجال الاستقبال سائلا إياها عمن تكون لتجيبه بلهجة ثابتة: «أنا لدي هنا موعد مع الدكتور وليد صادق»، استغرب رجل الاستقبال من حديثها، ليمنع دخولها حتى يتأكد من حديثها، فاتصل بغرفة الطبيب وليد ليجيبه على الفور ويخبره أنه بانتظار مريضة بالفعل قد أعطاها موعدًا.

تنفست بهدوء وهي تدخل المصعد مع الرجلين، ولحظات حين أغلق الباب أخرجوا أسلحتهم من الحقيبة كل منهم يحمل سلاحًا كاتمًا للصوت، انفتح باب المصعد لتجد أمامها الدكتور وليد وهو ينظر إليها بشحوب، لتبتسم له بسخرية وهي تقول: «مواعيدك مضبوطة دكتور وليد والآن ادخل».

دخل الطبيب المصعد بارتباك وهو يرى أسلحتهم ليغلق باب المصعد، وهو يضغط على الدور وجهتهم ليسألها بقلق: «هل هناك سبب للأسلحة، أخبرتكِ أنني سأنفذ كل ما تريدينه فقط اتركِ عائلتي بحالها».

لم تجبه بشيء ليلمحهم يخفون أسلحتهم خلفهم، حتى فتح المصعد وخرجوا ليسيروا في الممر خلفه بهدوء مارين بممرضتين تتابعان حالة مريض في غرفة في بداية الممر، حتى وصلوا للغرفة المنشودة، لمحت شرطيًا يوقف الطبيب ويسأله عن وجهته في ذلك الوقت، وقبل أن يجيبه الطبيب بشيء رصاصة اخترقت رأس الشرطي ليسقط على الفور، حاملا إياه أحد الرجال وهو يدخل به الغرفة ليخلع معطفه الذي غطى على بدلة مشابهة لبدلة الشرطي، وحمل سلاحه ليأخذ مكانه خلال الأيام القادمة في انتظار التعليمات القادمة، ارتعب الطبيب مكانه وهو يلمحهم يلقون بجسد الرجل على الأرض.

اقتربت من السرير الوحيد بالغرفة الذي يحمل جسده، لتبتسم وهي تقرب فمها من أذنه: «أنا هنا، لقد وصلت حبيبي»، سألها الطبيب بارتباك: «حسنًا أنا أوصلتكِ له فماذا ستفعلين الآن؟» التفتت إليه وهي تصوب سلاحها تجاه لتقول بهدوء: «لا شيء، مجرد تصريح خروج منك باسم مزيف لمريض، فأنا لا أريد أن يلمح أحد خروجه الآن، دعهم يتفاجأون بعد أيام بالهدية التي سأتركها لهم، بالإضافة إلى أنك ستمنع دخول الممرضات للغرفة، وحدك من تدخل وتخرج كأنك تطمئن على حالته»، أجاب الطبيب: «ولكن لم نتفق على هذا؟» أجابته بجمود وهي تقرّب السلاح من جبينه: «أنا لم أتفق معك على شيء، أنت تنفذ ما أريده مقابل حياة عائلتك لذا نفذ».

أعطاه الرجل ورقة ينقصها توقيعه واسم المريض ليقوم بما يلزم، وبعد أن انتهى أمرته بأن يتصل بالاستقبال ليجهزوا له سيارة إسعاف توصل المريض لوجهته، فنفّذ أمرها مُضطرًا حتى بدأت بمساعدة الرجل نقل ممدوح بسيارة الإسعاف مع الطبيب المرافق له.



بعد ساعتين

فتح عينيه وهو يشعر بألم في صدره وساقه، أغمض عينيه مُجددًا، وإضاءة الغرفة تؤذيه ليلمح صوتًا قريبًا منه جعله ينظر لصاحبه أو بالأدق لصاحبته: «كنت على يقين أن تلك الحقنة التي أعطتك إياها خلود في غفلة عن أعين غفران ستقوم بواجبها، عودًا حميدًا رئيسنا الغالي».

أغمض عينيه مُجددًا وهو يتنهد بارتياح وابتسامة صغيرة تُزيّن فمه، ليقول بصوت مبحوح: «سمر غاليتي، لمَ كل هذا التأخير؟! آه ما أحلي العودة للمنزل».



مقر الأمن الوطني

«اللعنة كيف حدث ذلك سامي؟!» هتاف خرج من اللواء حسين، وهو يشعر بالغضب الشديد ليُجيبه النقيب سامي: «لقد بلّغ أحدهم عن وقوع حادثة على الطريق السريع في نفس الوقت الذي أبلغونا به في المشفى بمقتل الشرطي الذي كان يحرس ممدوح، بعد أن لمحت ممرضة خلو الممر من الشرطي الذي يبدو أنه تغيّر من أيام، دلفت للغرفة لتجد جثة العسكري، ووجدنا في المشفى تعليمات من الطبيب بعدم دخول أي ممرضات له وأنه سيتابع حالته بنفسه.

سأله اللواء: «حسنًا هل تأكدوا من أن الجثة بالحادثة تعود للطبيب؟!» أجابه: «نعم، للأسف سيدي كانت هناك عربة إسعاف وسيارة أخرى ملاكي، وجدنا جثة الطبيب بالإسعاف ورصاصة تخترق جبينه و...»

سأله اللواء بقلق: «ماذا سمير؟!» أجابه سامي بأسف: «بالسيارة الملاكي وجدنا ثلاث جثث لامرأة وطفلين فارغين سيدي» سأله اللواء بصدمة: «ماذا تقصد بفارغين؟!»

«فارغين من أي أعضاء سيدي» أجابه سامي ليهتف اللواء بغضب: «اللعنة على ذلك الوغد اللعين».

أكمل سامي: «يبدو أن من أنقذ ممدوح لم يقم بعملية انتزاع الأعضاء على الطريق، فلا دماء سوى دماء الطبيب، لذا حين عادت بعض القوات لمنزل الطبيب اكتشفوا الكثير من الدماء فيبدو أنهم قاموا بنقل الأعضاء هناك».

جلس اللواء على الكرسي وهو يقول: «اللعنة عليهم عديمي الضمير، أرسل قوة مُتخفية لمنزل آسر ويامن، وحاول أن تجد غُفران، أحاول الوصول إليها من أيام ولا أستطيع، فيبدو أن ممدوح سيقوم بضربته في أقرب وقت حالما يستعيد قوته»، أجابه سامي: «حسنًا سيدي، واللواء سامح راغب قد تولى قضية مقتل الطبيب سيدي».

نظر له اللواء حسين بصدمة: «لماذا ولوا له القضية؟! ألا يعلمون أساليبه؟!»، تنهد حسين بضيق وهو يقول لسامي: «احذر سامي فهذا الرجل غير نظيف».



منزل ممدوح

أتاه اتصال طارئ جعله يدلف لغرفة المكتب مُغلقا الباب خلفه، ليجيب على الفور: «سيدي».

«أيها الغبي، هل تدرك بفعلتك كم من الأبواب ستُفتح علينا مجددًا؟!»، أجابه ممدوح بارتباك: «لا تقلق سيدي، لقد أخذنا حذرنا هذه المرة، سننهي الأمر كله في خلال شهر»، وصله صوت رئيسه بغضب: «خلال هذا الشهر سننتهي جميعًا قبل أن تنهي أنت الأمر، خطؤك هذه المرة كبير ممدوح، وأتمنى أن تصلحه بأسرع وقت، لا تفرح بإنقاذ فتاتك لك، لقد كان بإمكاني قتلك بغمضة عين، ولكن منحتك فرصة أخيرة لإصلاح كل ما أفسدته حتى الآن، تلك الفتيات إما الموت لهن أو تنفيذ ما خططته لهن في أسرع وقت، يجب أن نتخفّى عن الأنظار بعدها، لقد بدأوا في تشكيل لجنة كبيرة من أمهر الرجال والأطباء، لديك أسبوعان لإنهاء تلك المهزلة، وخلال تلك الفترة سأسوي آخر أوراقي هنا محاولاً تغطية آثارك فلم يتبق لدي سوى القليل».

أغلق ممدوح الهاتف بعد أن أغلق رئيسه الخط، وهو يزفر بضيق مُتوعدًا لغُفران بالكثير بعد أن أفسدت عليه الخطط مجددًا.

على الطرف الآخر

جلس رجل في أوائل الستينات ينفّث دخان سيجاره وهو ينظر أمامه بشرود، يفكر في خطوته التالية، ليقطع تفكيره مساعده وذراعه الأيمن: «إذا ما الخطة سيدي؟!» أجابه بهدوء: «داوم على عملك كما تفعل دون جذب انتباه، وغدًا سأقوم بما يجب في سبيل إخفاء أي أثر لنا، أخطاء ممدوح كثرت ولكن دعنا نتركه ينفذ لنا ما نريد حتى نقضي عليه بعدها قبل أن يجذبنا معه للهاوية»، تحدّث مساعده: «اللواء حسين علم بتولّيك القضية»، ابتسم الرجل بسخرية وهو يقول: «دعه يلهو قليلًا والأيام وحدها ستخبره، الفوز دائمًا للأسياد ولن أكون سامح راغب إن لم أرِه ذلك بنفسي».



منزل محمد الأسيوطي

لقد مرت ساعة وهو نائم مكانه لا يتحرك، شعرت بالقلق عليه وهي تحاول أن توقظه بشتى الطرق ولا استجابة منه، دمعت عيناها وهي تشعر بالعجز لعدم قدرتها على الوصول لأحد من عائلتها، أخرجها من قلقها رنين هاتف، فأنصتت السمع لتجده من جيب سترة آسر، فاقتربت مُسرعة لتخرج الهاتف، فرأت اسم أمير على الهاتف، لم تنتظر لتفتح المكالمة وتقول بصوت باكِ: «أمير تعال للمنزل، آسر...».

لم تكمل المكالمة لتجد الخط قد فُصل، نظرت للهاتف بصدمة وهي لا تصدق أن أمير أغلق الهاتف وهو يحدثها، أخذت تحاول فتحه لكن فشلت في معرفة الكود الخاص به، جلست مُجددًا على الكرسي وهي تنظر إليه ساكنًا لا يتحرك لتتساقط دموعها غير قادرة على منعها، وهي تجهل ما يجب فعله لأول مرة.

عشر دقائق مرت لتجد باب المنزل يُفتح فجأة ويدخل منه أمير الذي نظر حوله بقلق حتى سقطت أنظاره عليها وهي واقفة تبكي بدموع مُمسكة هاتف آسر، نقل بأنظاره ليجد آسر على الأريكة ويبدو ساكنًا في مكانه، اقترب مُسرعًا منه وهو يهتف بها: «ما الذي فعلتِه به؟! ماذا أصابه؟!»، ابتعدت عن طريقه وهي تراه يفحص نبض آسر: «لم أفعل شيئًا، لقد أحضرته غُفران هكذا، ولم تخبرني بما حدث؟!»

«ومن غُفران هذه؟! أهي صديقتكِ؟! هل آذيتماه؟!» هتفت بغضب ودموعها لا تتوقف: «توقف عن هذا وعالجه، اتصل بالطبيب أو أي أحد»، نهض من مكانه يتوجه لحقيبته التي ألقاها حين دخل للمنزل وأخرج هاتفه ليتصل بوالده فلم يكد يتصل حتى لمح والده يدلف للمنزل ويبدو أنه قد عاد مُبكرًا اليوم، نظر لأمير الواقف على مقربة منه ليقول بهدوء: «آه أمير هل أتيت؟! ظننت أنك ستأتي مساءً»، لم يكمل حديثه وهو يلمح أميرة واقفة تنظر له بشحوب ودموعها تنهمر منها، نقل أنظاره بينها وبين أمير القلق ليسأله: «ما الذي يحدث؟!»، تحركت أميرة من مكانها مبتعدة عن آسر ليلمحه محمد الذي نظر بدهشة له بينما يقول أمير: «أبي، لا أعلم ما حدث له، إنه لا يتحرك ونبضه ضعيف، أخبرتكم أنها لن تهدأ حتى تؤذينا جميعًا».

«اخرس أمير» هتف محمد وهو يقترب بسرعة من جسد آسر ويتعامل بعملية ليفحص عينيه ونبضه، بينما أميرة تتابعه بجمود، وجملة أمير تتردد في عقلها، سمعت محمد يقول لأمير: «هناك حقنة. اذهب للصيدلية وأحضرها على الفور»، تحرك أمير على الفور وهو يحضر لوالده الحقنة بينما وقفت أميرة مُمسكة بهاتف آسر كأنه نجدتها وجسدها كله ينتفض رعبًا، بينما ترى محمد يفحص جسده بأكمله ليلمح جرحًا صغيرًا بجانب ساقه، ربما يحتاج لقطبة أو قطبتين، فتحرك باتجاه الحمام وهو يحضر علبة الإسعافات ليوجه حديثه إليها وهو يراها شاحبة الوجه: «هل بإمكانكِ مساعدتي؟!»

تحركت دون وعي باتجاهه وهي تسأله عما تفعله، ليخبرها أن تفتح علبة الإسعافات بعد أن شق سروال آسر وبدأ يداوي جرحه، ويطلب منها بعمليةٍ الأدوات اللازمة.

استمر عمله لدقائق حتى عاد أمير ليجد أميرة بجوار والده مُمسكة بإحدى الأدوات، فاقترب منها وأعطى والده الحقنة، ثم أخذ من يديها الأدوات وهمس بجانب أذنيها بعيدًا عن سمع والده: «ابتعدي عن هنا، اصعدي لغرفتكِ نحن لا نحتاجكِ»، شعرت بآلام تغزو قلبها وهي ترى ملامح الكره على وجهه، ليلتفت إلى آسر ويركّز أنظاره عليه، شعرت بأنها ستبكي مجددًا فركضت على الفور باتجاه غرفتها خارج المنزل، وأغلقت بابها بعد أن وصلت لتجلس على السرير وتشهق بالبكاء.



مساءً

طرقات على الباب للمرة التي لا تعلم عددها، ولكن هذه المرة ليس صوت والدتها بل صوت آسر، لم تشعر بنفسها إلا وهي تقفز من على السرير وتفتح الباب بسرعة لتجده واقفًا أمامه مُستندًا على الباب، ليقول بابتسامته المعتادة: «إذا هذا صحيح كما قالت أمي، لن يخرجكِ أحد من الغرفة إلا أنا».

لم يستطع أن يكمل جملته ليلمحها ترتمي بحضنه وهي تقول بهمس: «أنا لم أفعل شيئًا أقسم لك، لم أفعل شيئًا، أنت بخير، أنت حي»، ضمها آسر لها وهو مصدوم من أول رد فعل لها تجاهه، ليُربّت على شعرها بحنان وهو يقول: «اهدئي يا صغيرة، أنا بخير، ما زلت حيًا أرزق».

ابتعدت عنه وهي تشعر باضطراب في مشاعرها لتنظر للأرض غير واعية لنظراته الحنونة لها ليصل لأسماعها صوت والدتها: «هل فتحت الباب؟! آه يا إلهي ليلى، لقد أقلقتِني عليكِ حبيبتي».

احتضنتها والدتها بقوة وهي تضم لجسدها، بينما لمحت آسر ينظر لها بحنان ويجلس على أحد الكراسي الموجودة بالممر، يريح ساقه قليلا، لتبتعد والدتها عنه تقول بعتاب: «كيف لا تجيبي على نداءاتي لكِ ليلى؟! هل حدث مني شيء أزعجكِ؟!»

لم ترفع نظراتها لوالدتها وهي تهز رأسها بلا، لتسمع والدتها تتنهد لتقول بهدوء: «حسنًا اجلسي قليلًا حتى احضر لكِ طعامًا»، أجابتها ليلى على الفور: «أنا لا أريد لست جائعة»، أجابتها والدتها بتعب: «لا، لا مجال للرفض، أنتِ لم تتناولي شيئًا من الصباح»، قاطعهما آسر وهو يرى رفض أميرة: «أمي لمَ لا تحضرين لنا الطعام لنتناوله معًا أنا وليلى بينما أحدّثها في أمر مهم؟».

«حسنًا عزيزي فكرة جيدة»، تحركت والدتها على الفور دون أن تفكّر في أخذ رأيها حتى لتشعر بالضيق من ذلك الأمر، فوجهت أنظارها لآسر الذي كان ينظر إليها بتفكّه وهو يضحك: «الأمر مزعج أليس كذلك؟! أن يأخذوا رأيكِ من المُسلّمات! إذا أهلًا بكِ في عائلة الأسيوطي أختاه».

حانت منها ابتسامة وهي ترى ضحكته، وشعر بمشاعر غريبة لم تستطع أن تفسّرها حتى لنفسها، تحدّث آسر: «إذا لقد ساعدتِ في إنقاذي اليوم مع أبي، إنه فخور بكِ يقول أنه لو من أحلامكِ أن تصبحي طبيبة فستكونين طبيبة ماهرة».

أجابته بضيق: «أنا لم أفعل شيئًا، كما أنه لا يستطيع أن يقرر شيئًا عني، لا أحد يستطيع أن يفعل».

بهتت ابتسامة آسر لتشعر بقلبها يغوص وهي ترى الحزن بعينيه، لتتنهّد بضيق قائلة: «أنا لا أريد تناول الطعام، لذا إن كان هناك ما تريد سؤالي عنه فتفضل».

نظر لها بهدوء لينهض مُستندًا على الحائط وهو يقترب منها ببطء، لترفع أنظارها من على ساقه مكان ألمه، لتنظر لعينيه بدموع غريبة عليها، لتضم شفتيها مانعة نفسها من البكاء ليقول: «حسنًا، هناك أمران ليس أمرًا واحدًا، أمر يخصكِ وأمر يخص غفران»، استطاع أن يجذب انتباهها ليجدها تسأل: «ماذا عن غفران؟! ولماذا أحضرتك صباحًا هكذا؟! ما الذي حدث معكما؟!».

«حسنًا، حسنًا سؤال وراء الآخر، ولكن قبل أن نتطرّق لهذا الموضوع، أخبريني بما قاله لكِ أمير وجعلكِ تحبسين نفسك في الغرفة طوال اليوم؟!».

شحب وجهها لتنظر له بارتباك وهي تقول: «لم يحدث شيء، ولماذا تقول إن أمير من ضايقني بكلامه؟ من الممكن أن يكون والدك وأنت لا تعرف؟».

أجابها آسر: «هذه ليست الحقيقة ليلى، فأنا وأنتِ ندركِ جيدًا احترام أبي لرغبتكِ في عدم الحديث أو الاقتراب منكِ لأي سبب، فما زال يحمل جرحكِ».

أجفلت من نبرة العتاب بصوته، لتنظر إليه وهي تهتف بغضب: «حسنًا أنا هكذا، لا أريد أحدًا ولا أريد أن أتعامل مع أي أشخاص لا أرغب في معرفتهم، وأنتم لن تجبروني على حب من أكرههم».

أجابها آسر بهدوء: «أنتِ لا تكرهين أبي ليلى، كما لا تكرهينني بدليل دموعكِ التي قابلتِني بها».

«اللعنة عليك آسر، إن كنتِ تظن أنك ذكي وهكذا ستحاول التعمّق لدواخلي فأنت مخطئ أتفهم؟! أنا لا أحب أحدًا ولا أهتم بأحد، وإن مت الآن في هذه اللحظة لن أهتم».

شهقة جاءت من آخر الممر تلاها سقوط لأطباق لتلمح أميرة والدتها تنظر لهما بدموع، لترمش بعينيها وهي تمنع ارتعاش يديها عما سمعته لتهبط بجسدها محاولة للمة الأطباق المكسورة، فاقترب آسر منها ببطء وحين رأى شهقتها وقد أصابتها قطع الزجاج المكسورة، فلمح من تمر بجانبه مُسرعة وهي تقترب من جميلة تمسك كفها بارتعاش، لترفع جميلة عينيها الدامعة لها لتجدها تنظر إليها بحزن: «أنا.. أنا لم أقصد، فقط لم أنا لم أسبّب لكما سوى الأذية، هو محق فيما قاله، أنا لم أقصد أقسم لكِ».

أغمضت جميلة عينيها وهي تجلس على الأرض جاذبة إياها لحضنها، وهي تربت على شعرها بكفها السليم محاولة السيطرة على دموعها المنهمرة وهي تحاول تهدئة أميرة المنهارة من البكاء.

مقر الأمن الوطني

دلفت بهالتها الغاضبة لمكتب اللواء حسين دون طرق الباب، وخلفه يهتف سامي بها: «غُفران انتظري حتى ينتهي الاجتماع».

التف جميع من بالغرفة لتلك التي دخلت عليهم وخلفها النقيب سامي وهو يشعر بالحرج من الموقف، نهض اللواء حسين من مكانه وهو يقترب من غُفران، وقد لمح الغضب الذي يعتريها، ليبادر بالحديث: «سنتحدث، لكن أعطِني نصف ساعة فقط أنهي بها اجتماعي».

هتفت من بين أسنانها: «لا أصدق ذلك، كنت على علم بالطبع، كنت على علم بأن ذلك الحقير على قيد الحياة ولم تقل شيئًا، هل تعلم إذا بأمر هروبه؟!»

أجابه بهدوء: «غُفران...» لتقطع حديثه وهي تنظر إليه وإلى عمران الذي نهض هو الآخر واقترب من وقفتهما، بينما باقي الرجال ينظرون باستغراب لبعضهم متسائلين عن تلك التي تتحدث بغضب للواء

«بالطبع تعلم، أخبرني إذا هل تعلم بأمر محاولته اختطافي؟!»

شحب وجه عمران بعد أن سمع جملتها، ليقول اللواء بارتباك: «اختطافكِ!» ليسألها عمران على الفور: «ماذا فعل؟! هل رأيتِه؟! هل آذاكِ؟!» نظرت له بسخرية وهي تقول باتهام واضح: «إنك تتقن دورك بامتياز عمران، أراهن أنك كنت على علم بكل شيء، ولا أشك بأنك من سرّبت عنوانه لباقي أفراد العصابة حتى يهرّبوه».

التفت اللواء حسين لرجاله وهو يقول بصوت هادئ: «حسنا لنكتفي بهذا القدر، ولينفذ كل شخص ما طُلب منه، وأنا في انتظار النتائج، أعطوا للأمر الأهمية القصوى، يمكنكم الانصراف الآن».

جذب عمران ذراع غُفران بقوة وهو يبتعد بها عن طريق الرجال، ليهدر بصوت مكتوم بها: «كفي عن تلك التفاهات التي تتفوهين بها، وأخبريني ماذا حدث؟! هل رأيتِه؟! كيف حاول اختطافكِ؟! أنا لا أفهم».

جذبت ذراعها من قبضته بقوة وهي تقول: «حاول تخديري، يبدو أن مخططه ما زال ساريًا، ونعم رأيته ويبدو أنه ﴿ أحسن حال».

جلسوا جميعًا بعد أن حاول اللواء تهدئتها، وقد سردت عليهم ما حدث، فشعرت بصمت عمران، خاصة بعد أن عرف بأمر إنقاذ آسر لها، أخرجه من صمته سؤال اللواء له: «ماذا تظن عمران!؟ هل سيتحرك على الفور؟! حتما لديه خطة»، هز عمران رأسه وهو يجيبه: «بالطبع لديه خطة، ممدوح لا يقوم بأي خطوة إلا وقد رسم طريقه جيدًا، دومًا لديه خطة بديلة».

التفت اللواء حسين ليقول بصدق: «غُفران، استمعي لي جيدًا، نحن لم نخبركِ بأمر ممدوح لأننا لم نرد له الموت، ونحن نعلم أنه بعد كل ما عرفتِه عن رحمة فلم تكوني لتفكري مرتين قبل قتله، أحيانًا الغضب يعمي أبصارنا يا ابنتي ولا يجعل الرؤية واضحة، نحن لم نقصد إخفاء الأمر عنكِ، نحن كنًا فقط ﴿ انتظار استيقاظه حتى نحصل منه على ما نريد، عمران نفسه لم يعرف بهذا الأمر إلا قبل ساعتين فقط».

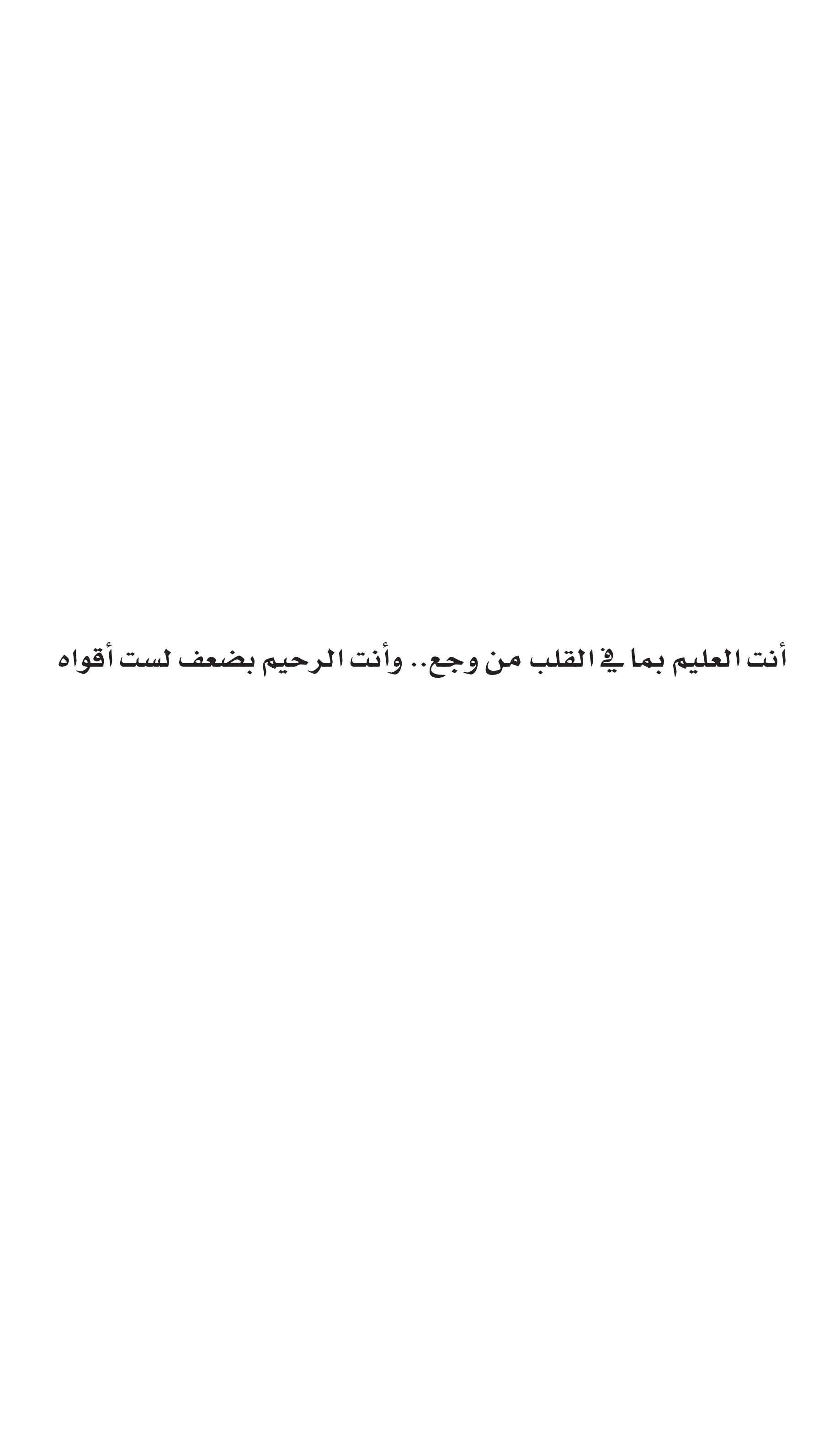
لم تجبه بشيء بينما علا الجمود ملامح وجهها، لتنظر لعمران الذي كان ينظر لها بشرود ويبدو أن عقله ليس معهما لتسأله: «فيمَ تفكر؟!» انتبه لها ليجيبها بصراحة: «لا يجب عليكِ البقاء وحيدة بعد الآن، إن حاول اختطافكِ فهذا معناه أنه ما زال على مخططه، لذا ربما من الأفضل أن تأتي لتسكني مع والدتي».

ارتعش قلبها لصراحته لتقول بضيق: «ظننتكِ لا تريد قربي من والدتكِ كما قلت آخر مرة؟» نظر إليها ليقول بتهكّم: «وكأنكِ استمعتِ لحديثي وامتنعتِ عن رؤيتها!»، رفعت رأسها لتجيبه بغرور: «لا أحد باستطاعته منعي عن رؤيتها».

حانت منه ابتسامة حنان أرسلت قشعريرة داخلها ليقول: «إنها لا تتوقف عن السؤال عنكِ ولا عن الدعاء لكِ»، ابتلعت ريقها بصعوبة لتقول بصدق: «وحدها

دعواتها من تُنجيني، أنا لن أخاطر بالقدوم والسكن معها، حتمًا ما زلت مُراقبة، لذا سأجد مكانًا آخر أمكث فيه، المكان ليس بمشكلة»، كاد يسألها إن كانت ستذهب لذلك الـ»آسر»، لكن حديث اللواء معها منعه من التفوه بسؤاله، فكتمه داخله وشعور مرير قد أصاب حلقه لا يدري سببه.





أنت العليم بما في القلب من وجع.. وأنت الرحيم بضعف لست أقواه

الفصل العاشر
لحظة فاصلة

منزل يامن

كانت تقف في ردهة المنزل وهي تفرك يديها بقوة، كانت تشعر بالتوتر ولكن هذا الأمر مهم لها، يجب أن تطلب مساعدته، أخذت نفسًا طويلًا ثم زفرته بارتجاف وهي تلمحه يخرج من غرفة مكتبه، يحاول أن يخفي تعبير الدهشة المُصاحب للفضول، بعد أن علم من والدته بمجيئها وأنها تريده في أمر مهم.

أسبلت أهدابها وهي تحاول أن تسيطر على اضطراب قلبها، ساد الصمت للحظات بعد أن رحلت والدته وهي تخبرهما بأنها ستحضر لهما العصير.

«هل ستظلين صامتة لمدة طويلة هكذا؟!» تأثرت بلمحة السخرية في كلامه فجعلت كل استعداداتها تذهب مع الريح، تنحنح بخفوت وهو يراها تتراجع عما جاءت إليه ليقول بهدوء: «اجلسي قليلًا».

جلسا كلاهما في الردهة وهي تحاول أن تهدئ من توترها، فتحدثت بهدوء: «عذرًا على تعطيلك عن عملك، ولكن أريد أن أطلب منك خدمة»، سألها بنفس هدوئها عما بإمكانه فعله لها، فتشجّعت وهي ترفع عينيها له قائلة: «كانت لدي أخت ثالثة صديقة، كانت معي في.. كانت هناك في المزرعة، سافرت لإحدى مدارس زويل لتدرس في المرحلة الثانوية، منذ ما حدث وقد انقطعت الأخبار بيننا ولم أعد أستطيع التواصل معها، هل بإمكانك مساعدتي في الوصول إليها؟!».

ساد الصمت للحظات بعد انتهائها، وهو ما زال على وضعيته ينظر إلى عينيها بقوة، لا يعلم ما يشدّه أكثر إليها عيناها المُتشحتان بالحزن أم تلك البراءة التي

تخدع من ينظر إليها، نهض بصمت ثم تحرك لغرفة مكتبه ودخلها من دون أن يتحدث بكلمة، بينما هي تتابعه بدهشة، تنهدت بخفوت وهي تشعر بالمهانة للقدوم وطلب مساعدته، فنهضت وتحركت باتجاه باب المنزل، لتوقفها والدته وهي تتساءل باستغراب عن سبب رحيلها بسرعة، فأجابتها بحرج: «لقد تأخرت على أمي كما أن المُقدّم لديه الكثير من العمل»، كادت والدته أن تعترض حتى جاءها صوته: «إلى أين أنت ذاهبة؟!»

التفتت له لتلمحه ينظر لها بدهشة وفي يديه دفتر وقلم، أكمل حديثه: «لما ذهبتِ قبل أن تعطيني البيانات التي سأحتاجها!؟»، نقلت أنظارها بينه وبين والدته وشعرت بالحرج من تسرّعها، لمحت والدته ارتباكها فرقّ قلبها لها وهي تُربّت على كفيها تسحبها معها للردهة ويتبعهما يامن وهو يحمل العصير من والدته.

وضع العصير على الطاولة والتفت لها ومد يديه بالدفتر وهو يقول: «سجلي كل ما تعرفينه عنها، اسمها بالكامل، عمرها، شكلها وهيئتها، لو لديك معلومات عن المحافظة التي بها مدرسة زويل سجّليها أيضا ستساعدنا كثيرًا»، هزت رأسها بالموافقة وجلست تستند بالدفتر على ركبتيها وتسجل كل ما يريده من معلومات، تركتهما والدته وهي تجيب على هاتف المنزل بينما جلس هو بارتباك على الكرسي المقابل لها وهو يراها بوضعيتها هذه وما تكتبه يشغل كل تفكيرها، ليعيد به الزمن لسنوات مضت وهما يجلسان نفس الجلسة بينما هو يشرح لها مسائل الرياضيات التي تكرهها ويصعب عليها فهمها، نبضة طرقت قلبه وجعلت روحه تهيم في مشاعر طفل كانت حياته كلها مُتشكّلة في الطفلة التي أمامه.

رفعت رأسها بعد أن انتهت فتزلزل قلبها من النظرة التي كانت يرمقها بها فابتلعت ريقها بصعوبة وهي تقول: «هذه هي كل المعلومات عنها هي في محافظة البحر الأحمر، أعلم أنها بعيدة ولكن إن استطعت أن...»

«اعتبري الأمر مُنتهيًا، حينما أصل لها سأخبرك على الفور»، قاطعها بجملته فتنهدت بارتياح هذه المرة وهي تنهض من مكانها وتهمس بكلمات امتنان وشكر له.

طلب منها أن تبقى لتشرب العصير وتجلس قليلًا مع والدته، لكنها رفضت سريعًا وتعلّلت بأسباب يعلم جيدًا عدم صحتها، فقط لتهرب من أمامه بمشاعرها

التي تكاد أن تظهر على وجهها، قبل أن تخرج أوقفها وهو يقول: «لا تنسِ الليلة لدينا موعد مع الطبيبة على السابعة»، هزت رأسها من دون قول شيء، وخرجت على الفور.

مساءً

لمحها بطرف عينيه ويبدو أنها غفت مكانها، يبدو أن ما فعلته اليوم أفقدها قوتها، تذكّر حديث الطبيبة بعد أن نادته في آخر الجلسة لتخبره أن هناك بداية جديدة اليوم بينما كانت زمرد في الحمام المُلحق بغرفة الطبيبة تغسل وجهها مكان دموعها، توصّل مع الطبيبة إلى اتصالها به بعد كل زيارة لتخبره التفاصيل وهو في انتظار إيصال زمرد للمنزل حتى يحدّثها.

تذكر غضبه عليها أول يوم أجبرها فيه للذهاب للطبيبة، وشحوب وجهها بعد جرحه لها أمام والدتها ورحاب، لكنه كان مضطرًا، هي في حاجة لتخرج خارج تلك القوقعة الصامتة التي تضع نفسها فيها بعيدًا عن أي أحد، اليوم كان موعدها فانتظرها بعد أن اتصل بوالدتها وأخبرها أنه بالأسفل، منذ معرفته بأن ذلك الوغد ما زال على قيد الحياة وهو يسعى بكل قوته ليجده، يريد أن يقتله بيديه، من وقتها وهو يبتعد عن المنزل كثيرًا، حتى سالي، اتصالاتها لا تتوقف، هي لا تفهم أنه في حاجة لأن يفصل نفسه عن أي حاجة تشعره بأنه حي، حتى يستطيع أن يُركّز في أمر ذلك الوغد، ويتبع الخطوط التي حوله حتى يجده، وجدها اليوم تخرج من المنزل بعد خمس دقائق من انتظاره وقد ارتدت أحد فساتين رحاب التي تبدو فيها شبيهة للطفلة التي ترك يديها في لحظة لتنقلب حياته بأكملها في اللحظة التالية، يدرك أنه يحمل الذنب الأكبر في اختطافها، ربما لم يسامحه عمه قبل موته، ربما لم يتحدّث أحد من عائلته عن الأمر بعد ذلك، ربما سامحته زوجة عمه وهي تقول له بأنه يكفيه الآلام التي بقلبه فلن تزيد عليه بغضبها منه، لكنه يعلم أنه لو لم يتركها لما اختطفوها، لمحها عاقدة شعرها بربطة مُتراخية، أصابت هيئتها الهشة ووجهها الشاحب قلبه بشعور بغيض ومرارة في حلقه، ليكملا طريقهما للطبيبة في صمت، محاولة تجاهل انتفاض جسدها ويبدو أن خروجها اليوم قد أصابها بالرعب، خاصة بعد معرفتها بأن ممدوح حي، يدرك أنه لا يحاول أن يفهم رفضها

وتعنّتها، هو حتى لا يسمح لعقله بمحاولة فهمها، ما ينّفك يراها حتى يبث نيران غضبه بوجهها على الفور.

زفر بصوت ليلمحها تنتفض في نومتها ثم تسكن مجددًا، فأبطأ من سرعة السيارة وهو ينظر إليها تارة وإلى الطريق تارة أخرى، يشعر خلف هيئتها الهشة هذه بسور عالٍ ترفض أن تسمح لأحد باجتيازه، سور يعلم جيدًا في اللحظة التي سيجتازه فيه ستنفتح أبواب الجحيم أمامه.

وصل للبيت أخيرًا ليوقف السيارة بهدوء، ليلتفت إليها يراقب ملامحها الحزينة، وجزء داخل قلبه سمح له بالتنفس قليلًا للحظات، ليسمح له ينبض بقوة كطفل حصل على أمنيته الوحيدة، تذكّر أحلامه وحياته التي رسمها من صغره ونسيها، أو بالأدق طمرها مع ذكرياته التي كانت تخصها فقط، ليدفنها بنفسه بعد القرار الذي أخذه قبل عودتها بأشهر بارتباطه بسالي ليزيد من الردم فوقها، بعد ما اكتشفه عنها وسمعه بإذنه يوم أن وجدها.

يعلم أنه قاسٍ ليحاسبها على أمر عاشت حياتها به، ولكن هو فقط لا يفهم، لو تسمح للطبيبة باقتحام أسرارها ربما وقتها فقط يفهم، لمح تلك الخصلة تسقط على وجهها ليمد يديه مُحاولًا إبعادها لينتفض قلبه بقوة لملمس وجنتيها، يشعر بدفئهما ليبعد كفيه قابضًا عليه بغضب، وهو يتذكّر احتضان سليم لها وحمل جسدها لغرفتها وقت فقدانها الوعي، لا يعلم لماذا شعر وقتها بالغضب ليتشاجر مع سليم أمام والده وعمه، مُبررا غضبه أمامه بأنه لا يجوز له ما فعله، بينما نظر له سليم بتهكّم دون أن يقول شيء.

رفع كفيه يضغط بهما على رأسه، هو لا يفهم نفسه، لا يفهم اضطراب مشاعره، لا يفهم ما يصيبه بقربها، ينشد قربها ويبغضه، ينشد صوتها ويبغض حديثها، ينشد...

أخرجه من أفكاره صوتها الذي يجلده: «يامن هل وصلنا؟ هل أنت بخير؟!» أجابها بجمود وهو يشعر بأنه عرّى روحه أمامها وهي ترى تخبّطه: «انزلي».

لهجة الأمر التي حدّثها به جعلتها تنظر له بجمود وهو ينظر أمامه، أشعرته بأنه يبذل جهدًا ـ في البقاء بقربها، كأنه لا يطيق المكوث أكثر، فتحت باب السيارة تجاهد آلام روحها لتقول بصوت مسموع قبل أن تغلق الباب وتدخل المنزل: «لا تكلّف نفسك أمر أخذي للطبيبة وتوصيلي للمنزل، فأنا سأطلب من رحاب أن تأتي معي بعد ذلك».

نزل خلفها بغضب ليجذب ذراعها قبل أن تصل للبوابة هاتفًا: «لا تخالفي أوامري، أخبرتك بألا خروج من المنزل وحدكِ، فلا تفكري ـ في الهروب من الذهاب للطبيبة». أجابته بغضب هي الأخرى مُتجاهله ألم ذراعها: «أخبرتك بأنني سأذهب مع رحاب لا وحدي، كما أنني لا أتهرب من شيء، فقط أحاول تجنيبك البقاء معي لفترات طويلة، فيبدو أنك تبغضه»، أجابها والغضب من كل شيء يمنعه من التفكير: «إن لمحتِ بغضي لوجودكِ معي ويهمكِ مساعدتي فلتقومي بواجبكِ محاولة نفض هذا العناد من عليكِ والذهاب للطبيبة كأي عاقلة تحاول تقديم المساعدة لعلّنا ننتهي من هذا الكابوس الذي وعينا عليه ـ في يوم وليلة، لأرتاح على الأقل من كل هذا الجهد الذي أبذله لأبقى بقربك».

ساد الصمت فجأة، ليلمح الألم الذي ارتسم على وجهها، وارتعاش شفتيها، كأنها على وشك البكاء، ليشعر بها تجذب ذراعها من كفه، فتركها لتجيبه بصوت مجروح: «أعدك بأن هذا الكابوس سينتهي لتنتهي معه معاناتك للأبد، فلا تحمل همّ قربي الذي يقهرك».



منزل يامن

جلس على سريره والهاتف بيديه، ينظر أمامه بهمٍّ، وهو يتذكّر ما قالته له الطبيبة منذ قليل

«هي ليست مريضة طبيعية سيد يامن، عليك أن تدرك هذا، أنا ليس معي عصا سحرية، أقول بعض التعويذات فتصبح زمرد على ما يرام ـ في يوم وليلة، زمرد تعيش حالة من الرفض، رفض كل شيء حولها، تظن بصمتها أنها تعفي نفسها من

الدخول في أماكن لن تخرج منها سليمة، جدران غرفتها أشبه بدرع حماية ممن حولها. سألها باستغراب: «من أهلها؟!»

أجابته بتوضيح: «من أشخاص غابوا عنها لثماني عشرة سنة، ثم عادت فجأة إليهم، هي تعيش ما نسميه باضطراب ما بعد الصدمة المُعقد، هذا الاضطراب يمكن أن يبدأ بعد أسابيع أو شهور بعد الحادث الأليم الذي يتعرض له الشخص، فيجد نفسه غير قادر على الاستمتاع بأي شيء، يصبح لديه انعدام مشاعر في جسده، والأسوأ هو سيطرته على عواطفه إن وجدت باستخدام إما المخدرات أو إلحاق الضرر بالنفس كالتفكير بالانتحار».

شحب وجه يامن لتكمل الطبيبة بعملية: «سيد يامن ما أحاول توضيحه لك زمرد لا ترفض التحدث بمبدأ الرفض، لكنها تجد فقط الصعوبة في التعبير عن مشاعرها، ما أريده منك ومن أفراد عائلتها أن تتركوا لها المجال قليلًا ولكن لا تتركوا الحبل نهائيًا.

إن كان لديها أعراض كعدم القدرة على التركيز، الاكتئاب والغضب في بعض الأحيان اتركوها تنفّس عن نفسها قليلا، إن أرادت أن تأخذ وقتًا في غرفتها، دعوها ولكن بعد فترة من الزمن لا تطلبوا منها بصيغة الأمر أن تخرج من الغرفة بل اشغلوها بأي شيء، اقترحوا عليها هواية معينة تنفس بها عما بداخلها، اسألوا رأيها في أمور الحياة الطبيعية وهكذا. والأكثر أهمية ابتعد كل البعد عن أن تخبرها أنك تعلم بالضبط كيف تشعر، وما بداخلها.

مما واجهته زمرد- من الأوراق التي أمامي- يبدو أن معاناتها كانت الأصعب وسط باقي الفتيات، بما أنه كان هناك انتهاك جسدي، أن تقلّل بحديثك عن صعوبة ما مرت به يجعلها تظن أن معانتها السابقة لم تكن شيئًا فتزيد من حدة اكتئابها وألمها ونحن بالطبع لا نريد للحالة أن تسوء».

أغمض عينيه وهو يتأوه بصمت، يشعر بأن عقله سينفجر من التفكير، والده تحدّث معه كثيرًا وهو يرى غضبه واندفاعه في أي شيء يخص زمرد، أخبره أن هناك حدودًا للشخص الطبيعي، إن تعداها سيكرهه هذا الشخص، فما بال

شخص بحالة زمرد، هو لم يفكر برأيها، بنظرتها، بأي شيء تشعر به، هو فقط ينفّس عما يشعر هو به، واجه نفس كثيرًا لمَ يشعر بهذا الشعور، لمَ هذا التناقض الذي دومًا يشعر به تجاهها، تذكّر جملة ابن عمه وهو يراه يعاني: «دع السيطرة لقلبك قليلًا يا ابن العم»، تساءل بداخله أي قلب وكيف يمنحه السيطرة.



عندما تقرر الانتحار تكون وقتها قد مُتّ بالفعل، ما ينقذونه بعد ذلك لا يكون أنت لكن جثتك.

بهاء طاهر

بعد منتصف الليل

وقفتُ على حافة الجبلِ، ارتجف جسدي من البرودة التي اِجتاحته بفعل الرياحِ القويةِ، أغمضتُ عينيّ أستشعر الخوف للحظات، فقط للحظات فلم أعد أخشى شيئًا بل لم أعد أشعر بشيءٍ، فتحتُ عيني أتأمل هذا السكون الذي يُحيط بي من كل جهةِ، اقتربت خطوةَ لأرى الأرضَ البعيدةَ عني، لكن لمَ تبدو قريبةَ هكذا؟! هل هي تدعوني لها؟ رفعتُ رأسي مجددًا ونظرتُ للسماءِ، هل سينجلي هذا الشعور؟! هل سترحل تلك الغُصة؟! هل نهاية لهذا الضيق الذي يحيط بقلبي؟!

ارتجف جسدي مجددًا، شعرتُ ببرودةٍ شديدةٍ في أوصالي، هل تشعر يدي بما أنا مُقدِمة عليه؟! هل هذا الجمود الذي يُثبِّت قدماي على الأرض هو رصاصة الانطلاق؟! هل أسقط الآن؟! لما يُسمونه بالسقوط؟! لمَ لا يُلقِّبونه بالتحرّر؟! فها أنا أتحرّر من كل الآثام التي أثقلت كاهلي، ها هي تلك الغصة التي أحكمت قبضتها على قلبي تنزاح ببطءٍ، ها هي الدموع تتحرر من القيود وتنهمر بشجاعة، ببساطة، ها هو الضيق الذي اِلتحف بقلبي يتقهقر بانهزام، وها هي روحي تتحرّر، ها أنا اقترب من الأرض، لم أعِ متى خطوتُ الخطوة الأَخيرة وتحرّرت ولكن ها هو كل ما أثقل روحي قد اِنزاح، ها أنا أرى طفولتي، سعادتي، شبابي، اِنكساري، جروحي غير المُلتئِمة، أحلامي التعيسة، ذكريات ظننتُ للحظة أنها رحلت مع من رحلوا، هل يجب أن أغمض عيني الآن؟! ها هي الأرض تقترب، متى تحتضن الأرض جسدي؟! أعلم أنني لن أتألم، لا لأنني ما عدتُ أشعر بشيء بل لأن اِحتضان الأرض لجسدي لن يكون بألم ما عانيته وأنا أسير عليها.

ها هي اللحظة، ها هي الروح تتحرر وها هي الأرض تتلقَّف جسدي.

شهقت بقوة وهي تنهض من نومتها لتجد الظلام من حولها، أسرعت تتلمس جانبها حتى وصل كفها للمصباح الذي يجاور سريرها، لتتسع عيناها وهي ترى

انقشاع الظلام من حولها، ارتعشت شفتاها وهي تعي أن هذا مجرد كابوس، منذ عودتها مع يامن من عند الطبيبة وكلامه الذي قاله لها وهي تشعر برغبة شديدة في الخلاص، لا تعلم متى نامت بملابسها، ولكن يبدو أن نسيت أن تشعل المصباح بجوارها حتى لا تنام في الظلام.

وصل لأسماعها أصوات دندنات غريبة، نظرت للساعة على الحائط أمامها فوجدتها الثانية فجرًا، نهضت من على سريرها وهي تشعر بالوهن في جسدها، فتحت الباب ببطء لتصلها الأصوات واضحة قليلًا، خرجت من الغرفة واقتربت من الصالة ليقشعر جسدها بأكمله وهي ترى والدتها تقرأ القرآن في خشوع ورحاب خاشعة في صلاتها، ارتعشت روحها وهي تشعر كأنها انتقلت لعالم آخر، حالتها النفسية الوهنة بعد ما عايشته في كابوسها وصوت والدتها يتخلّل خلاياها تاركًا أثره داخلها، أغمضت عينيها وهي تكتم شهقاتها، بينما دموعها تنهمر بغزارة، لتسمع أنشودة تأتي من الراديو الذي ما زالت والدتها محتفظة به:

يا مؤنِسي في وحدَتي

يا مُنقذِي في شِدتي

يا سَامعًا لنِدائي

فإذا دَجَى ليلي وطال ظلامُهُ

نادَيتُ يا ربّ فكُنتَ ضِيائِي

أنهت رحاب صلاتها لتصل إليها أصوات شهقات بكاء استدارت باستغراب لتلمح أختها تنظر إليها بدهشة، نهضت رحاب وهي تضم سجادة الصلاة لصدرها ثم اقتربت منها بهدوء وهي تلمح بعينيها والدتها منشغلة بقراءة القرآن، مسكت رحاب كف زمرد وهي تنظر لها بحنان لتجذبها لغرفتها.

منذ اللحظة التي دخلت فيها زمرد الغرفة حتى خرجت شهقات بكائها عالية، فلمحتها رحاب منهارة من البكاء، تركتها هذه المرة تبكي وتبكي، وهي تعي أن بكاءها هذا تطهير لما في الروح من آثامِ، مرت نصف ساعة حتى توقفت زمرد

عن البكاء، أعطتها رحاب مناديل ثم قالت بهدوء: «هل ارتحتِ قليلًا؟!»، نظر لها زمرد بتيهٍ: «أنا أشعر بأن هناك شيئًا هنا، يجثم عليّ ولا أستطيع التنفّس بسببه»، وأتبعت حديثها وهي تشير لقلبها،: «صوت أمي وصوت التسجيل ذلك الصوت...»

أجابتها رحاب إنها أناشيد ما قبل الفجر، نظرت لها زمرد وهي تقول بتوسّل: «أريد أن أسمع منها أكثر، هل لديكِ تسجيلات أو...» ابتسمت لها رحاب بحب وهي تقول: «أنا أحفظ القليل منها، هل تريديني أن أقولها لكِ؟!» هزت زمرد رأسها وهي تقول: «نعم نعم، إنها.. إنها تُريحني».

ابتسمت لها رحاب وقالت بصوت هادئ وهي تمسد على ظهر زمرد بحنان:

مُجيبَ السائلين حَمَلتُ ذنبي وسِرتُ على الطريق إلى حِماكَ

ورُحتُ أدقّ بابكَ مستجيرا، ومُعتذرا، ومُنتظرا رضاك

دعوتُك يا مفرّج كل كربٍ ولستَ تردّ مكروبًا دعَاكَ

وتُبتُ إليك توبةَ من تراهُ غريقًا في الدموع.. غريقًا في الدموع.. غريقًا في الدموع ولا يراكَ

رباه ها أنا ذا خلصت من الهوى واستقبل القلب الخالي هواك

وتركت أنسي بالحياة ولهوها ولقيت كل الأنس في نجواك

ونسيت حبي واعتزلت أحبتي ونسيت نفسي خوف أن أنساك

دقت الهوى مرا ولم أذق الهوى يا ربِ حلوا قبل أن أهواك

يا غافر الذنب العظيم وقابل التوب

قلب تاب ناجاك قلب تاب ناداك

صمتت رحاب وهي ترى اللوحة السيريالية التي أمامها، ودموع زمرد وهي تغمض عينيها منصتة لها توحي لها بمدى اتصالها الروحي، فتحت عينيها وهي تسأل رحاب: «هل انتهت؟!» هزت رحاب رأسها بتأثّر، لتجيبها زمرد: «قولي المزيد.. أرجوكِ»، لتجيبها رحاب بابتسامة: «ما رأيكِ لو نقول معًا ما هو أفضل

من تلك الأناشيد؟!» أجابتها زمرد وهي تستشعر هذا العالم الذي ينشر الراحة بقلبها: «نعم».

مسكت رحاب كفها ونهضتا لتتجه بها إلى الحمام وأخذت تعلّمها الوضوء وهي تتذكّر والدها حين كان يعلّمها لتزداد دموعها، أخذتها لغرفتها تحت أنظار والدتها المندهشة من حالة زمرد المنهارة، لكنها لم تقل شيئًا بعد أن نظرت إليها رحاب بنظرة تفهّم.

ساعدتها في ارتداء رداء الصلاة وأخذت تعلّمها كيفية الصلاة والإرشادات البسيطة، لتبدأ صلاتها بعد أن صلّت بها رحاب ركعتين، لتتركها تصلي وحدها لتبوح بمكنوناته صدرها للوحيد الذي يعلم عنها.

صلّت وصلّت وبكت الكثير، أخبرتها رحاب أن تقول كل ما لديها في السجود، فهذا هو الموضع الأقرب لها في الدعاء للّه، فصمتت وهي لا تعلم ماذا تقول، لتهمس داخلها: «أنت تعلم أليس كذلك؟! وحدك تعلم ما بي، أدعوك يا اللّه، أدعوك وأرجوك أن تتقبّلني وأن تسامحني، يا اللّه أنا في أقصى احتياجي لك، يا اللّه أنا.. أنا متعبة، ذلك الألم وحدك القادر على محوه، يا اللّه أنا أريد أن أتطهّر من كل تلك الآثام، يا اللّه أنت العليم بما في القلب من وجع وأنت الرحيم بضعف لست أقواه».

تابعتها رحاب بدموع باكية وهي تطيل في سجدتها وتدعو ببكاء يقطع نياط القلب، بينما والدتها خلفها تكتم شهقاتها وهي ترى ابنتها تلجأ للوحيد الذي لن يخذلها.

مرت ساعة وزمرد تنهي صلاتها لتصلي مجددًا حتى أذن الفجر فشعرت برجفة قوية بجسدها وهي تنظر لرحاب لتقول لها بحنان وهي تلمح دموعها التي لا تنضب: «هيا لنصلي معًا وبعدها نقرأ القرآن».

إن ظنت أنها بالصلاة قد شعرت بالتطّهر من جميع الآثام فبقراءة القرآن شعرت كأنها عادت طفلة صغيرة تمت ولادتها حديثًا، أعطتها رحاب القرآن وهي تفتحه على صفحات معينة لتقرأ زمرد وتنهي السورة لتفتح لها رحاب سورة أخرى، وهي تراها رسائل من اللّه لها تُعرّي روحها وتمسد على جروحها بحنوٍ لتقرأ: ﴿وَهُوَ

الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾،: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وآيات كثيرة قرأتها وكررتها ورحاب بجانبها تمسد على ظهرها بحنان تشاركها الدمع، بينما والدتهما جالسة على مقربة منهما تتساقط دموعها بصمت تدعي لهما بالهداية وأن يحفظهما لها.



منزل أميرة

جذب كرسي من أمام المكتب ووضعه أمامها في الشرفة ليجلس عليه مقابلًا لها، ساد الصمت للحظات وهي لا تنظر إليه، فقط تتابع بعينيها لعب آدم وأحمد في الحديقة بشرود، فتابعها آسر بعينيه وهو يفكر أنها صامتة، وفي هذه الحالة منذ انهيارها الأخير، يعلم أنه ضغط عليها قليلًا خاصة بعد أن كشفت عن القليل من مشاعرها وهي تحتضنه قلقة على حاله، بعد بكائها في حضن والدته، نهضت لتدخل الغرفة مغلقة على نفسها بابها، وقد أقامت أسوارًا جعلتها تمكث ليومين من دون الخروج منها، لتخرج بعدها وتسأل عنه، عندما قابلها ظن أنها ستحدثه عن انفعالها وقتها، لكنه لم يتخيل طلبها بأن يعالجها،: «أنا.. أنا أريد أن أشفى»، جملة لطالما سمعها من مرضاه، لكن آلم قلبه سماعها من صغيرته، قاطع آسر نظراتها وهو يقول: «هل تشتاقين لطفولتكِ؟!» رفعت عينيها باستغراب لآسر ولمح نظرة ألم في عينيها أخفتها بسرعة وهزت رأسها بالنفي ليجيبها: «لا يوجد أحد لا يشتاق لطفولته إلا إذا..» أكملت بتهكّم: «كانت طفولة سيئة! لا تقلق لن تجرح مشاعري إن قلتها»، سألها آسر بغموض: «هل يجب أن أراعي مشاعركِ ونحن نتحدث؟! أنا هنا الطبيب آسر وليس آسر أخو أميرة»، هتفت بقوة: «ليلى»، أجابها آسر بنفس غموضه: «أميرة ليلى لا فرق، فهما نفس الشخص بالنسبة لي»، أزعجتها إجابته التي ذكّرتها بجملة غُفران لتجيبه بقوة: «شتان بين الاثنين».

ساد الصمت للحظات وعين آسر تتوغل في أعماق عينيها يحاول جاهدًا كسر حاجز الجمود الذي تتشبث به، ليقول: «حسنا لنبدأ من جديد أميرة أعتذر ليلى»، ضغط آسر على حروف اسمها كتأكيد واحترام لرغبتها، فابتسمت ابتسامة صغيرة وأردفت: «أنت ذكي آسر»، ابتسم ليقول بغرور مصطنع: «هل هذا إطراء؟!»

أشاحت أنظارها ببرود ورفعت شفتها العلوية باستنكار، فضحك على هيئتها، ملامحها وردود أفعالها تثبت أنها مجرد طفلة، تنهد آسر وهو يقول: «حسنًا لنبدأ وحينما تشعرين بالتعب أو الرغبة في عدم الاستمرار أخبريني».

هزت أميرة رأسها بترقّب ليكمل آسر: «لنبدأ بلعبة سأخبركِ ببعض الأسماء لتخبريني دلالتها لكِ أو من أو ما يمثلها لكِ (أشخاص- أماكن هكذا) اختبار بسيط في البداية وبعدها سأعطيك دفترًا لتسجلي به شيئًا يبوح عما بداخلكِ، كل يوم تسجلين ما ترغبين به وما تريدين مشاركتي به ستتركينه على المكتب هنا لأقرأه اتفقنا؟!» شعرت أميرة بالحماس قليلًا وهي تراه يتحدث بجدية محببة لها، فهزت رأسها بالموافقة، بدأ آسر: «الراحة» لتُجيبه: «غرفتي الجديدة».

آسر: الحنان

أميرة: السيدة جميلة.

ابتسم آسر لها وأكمل: «السعادة»

ساد الصمت للحظات وشردت أميرة قليلًا لتجيبه: «لا أتذكر سوى آخر مرة شعرت بها بالسعادة وكانت بعودة غُفران للمزرعة بعد انتهائها من الجامعة».

التقطت آسر اسم غُفران، فوجد نفسه يسألها عنها: «غُفران» ابتسمت بحزن لتقول: «أختي الكبيرة.. كانت أكثرهن حنانًا، كانت تترك المزرعة كل بداية دراسة ولا تأتي إلا بانتهاء السنة، لأنها كانت تدرس في مدينة أخرى، هي طبيبة مثلك، لكنها طبيبة جراحة، عندما كانت تغيب عن المزرعة كنت أشعر بأن هناك نقصًا في كل شيء، في سعادتي، في راحتي، في اطمئناني، وعند عودتها أنسى كل ما هو سيئ وأتشبّث بها كأني طفلتها المُدللة، ولكن ليس أمام البقية.

أتعلم؟ كنت أحيانًا أحسدها على وحدتها، فمن يرفض أن يعيش ببلدة أخرى وحيدا حرًا على الرغم من معرفتي أن هذا كان إجباريًا لها، لكن الفكرة نفسها كانت تستهويني، ثم بعد مرور بعض الوقت فكرت بها من جهة أخرى، أولئك الذين اختاروا الوحدة دفعوا دموعهم وآلامهم قربانًا لها حتى يحصلوا عليها، كانت الفكرة في حد ذاتها مُؤلمة، وأنا أفكر في الأمر أنها تعود كل يوم لتبقى وحيدة، ألا تخشي ظلمة الليل وهي تعي أن لا أحد هناك يشاركها غرفتها؟ ألا تشتاق لصحبة تشعر معهم بالأمان، بالحب، بالمودة؟ ثم ومض في عقلي ذلك الأمر؛ من يمرّضها حين يصيبها التعب، من يسهر بجانبها ليطمئن على صحتها، ماذا إن مرضت يومًا ولم تستطع طلب المساعدة من أحد، وصلت لفكرة أن غُفران ممكن أن تموت في ذلك السكن ولا يعلم بها أحد.

التفكير في الأمر مؤلم ولكن كعادة غُفران منذ سنين ذلك الجزء الخاص بالمشاعر قد طمرته للأبد، حتى أحيانًا أشعر أنها تشتري حصتها من المشاعر في كل مرة تزورنا فيها حتى تمنحنا إياها، إن ألقيت نظرة داخل قلبها ستجد خواءً، ولكنه خواء خادع يخفي تحته العديد والعديد من الآلام».

صمت آسر يفكر في كلماتها، إنها بالفعل تصفها رغم رؤيته لها لمرات تعد على الإصبع، إلا أن تلك الفتاة حقًا تحمل الكثير داخل قلبها، لم يستطع أن ينسى تلك النظرة الخاوية التي كان يراها في عينيها وهي تحدّثه عن القليل مما حدث، غُفران سر كبير، يرغب بشدة التوغّل فيه، خرج من أفكاره حين لمح صمتها ليسألها بترقب: «هل تمت معاقبتكِ من قبل؟!» ابتسمت بحزن وهي تقول: «كثيرًا، خاصة وأنا صغيرة، في الحقيقة جميعنا نحمل آثار جلد على أجسادنا، لكن كان هذا هو العقاب ونحن صغار، أما حين كبرنا فالعقاب كان أسوأ»، لمح آسر شرودها فلم يرغب بقطع سير ذكرياتها في عقلها، فتركها تكمل وهي تنظر للنافذة: «ذات يوم كنت قد اكتشفت ما يحدث حقًا بقبو المزرعة، أنت لن تصدق ما بالقبو، تستطيع أن تقول إن المكان مُجهّز بكل ما يحتاجونه سواء في التعذيب أو العمليات التي يقومون بها، حين صرخت بهم وأخبرتهم أنني سأبلّغ الشرطة وقتها رحمة صفعتني على وجهي وجذبتني للغرفة، كرهتها في هذه اللحظة لأعي أن تلك الصفعة كانت حماية

لي من عذاب تلقّيته بعدما أخبرت سمر السيد ممدوح بما قلته، وقتها قضيت ثلاث ليال في غرفة تحت الأرض من دون إضاءة ودون طعام سوى لقيمات صغيرة، ثلاثة أيام شعرت بها بالرعب من الأصوات التي كانت تصل لمسامعي، ثلاثة أيام أجبرني فيها على أن أعترف بخوفي بعد أن واجهته قبلها بأنني لا أخشى شيئًا، ففعل كل ما قد يخيف فتاة بالرابعة عشرة من عمرها».

قاطعها آسر وهو يسبّه بخفوت، لتنظر لعينيه لتجد غضبًا شبيهًا بغضبها الذي كان لتكمل بحزن: «أتدري ما الفرق بيننا وبين الآخرين؟! أن في الوقت الذي كانوا يحلمون فيه بمستقبلٍ أفضل كنا نحن نُصارع من أجل البقاء على قيد الحياةِ، من أجل القضاء على رعبٍ توغَّل في أعماقنا، من أجل نفحة أمانٍ نتلمَّسها في غرفة ضيقة يستند سقفها على جدران باردة، والأهم أن بابها مُغلق بإحكامٍ لأن بالخارج يقبع موتنا».

أشاحت بأنظارها وهي تشعر بأنها باحت بالكثير، لتتنحنح بخفوت رافضة قول المزيد، وتفهّم آسر حالتها ليغيّر من مجرى الحديث، وهو يحاول مدارة صدمته، ليقول بهدوء: «لنكمل اللعبة، آه الغرور»، لتجيبه: «أمير».

ضحك آسر عاليًا بعدما لمح اشمئزاز ملامحها، فنظرت أميرة له بانبهار وهي تفكر كم يشبه والدته كثيرًا.

ليجيبها: «حسنًا معكِ حق في هذا، أو على الأقل أحيانًا، لن أعترض»، ابتسم آسر لها بعد أن لمح ابتسامتها وهو يكمل بغموض: «محمد الأسيوطي»

ارتعش جسد أميرة للحظات، ولم ترفع نظراتها لآسر، وساد الصمت للحظات يتابع فيها بعينيه حالتها الصامدة والاضطرابات التي تحدث بداخلها، محمد الأسيوطي لغز لأميرة، لغز لا تستطيع فكه، منذ آخر مواجهة بينه وبينها ولم تره سوى وقت تعب آسر، تذكّرت هتافه على أمير وقتما تفوه بكلماته القاسية، وتذكّرت دفاعه عنها بعد أن أخبرتها السيدة جميلة بما حدث أثناء تأنيب آدم، وتذكّرت ذلك اليوم الذي استيقظت فيه فجرًا لتنظر من النافذة لتلمحه خارجًا بسيارته ويبدو أنه كان ذاهبًا لعمله، ورأت السيدة جميلة تودّعه ليلفت انتباهها خروجه من السيارة

واحتضانه لها بحنان، وهي تنظر لملامح وجهه التي شعّت حبًا وسعادة لزوجته، وقتها لم تستطع النوم وهي تفكّر أنه بالفعل كما أخبرتها السيدة جميلة: «هو كتلة من الحنان تسير على الأرض»، خرجت من أفكارها وهي تنظر لآسر لتجيبه بهدوء: «قلق، ترقّب، القليل من الخوف».

ساد الصمت بعد كلماتها، ليسجل آسر بهدوء بعض الملاحظات في دفتره الذي يحمله معه، رفعت أميرة عينيها بترقب لآسر فلمحته ينظر لها بابتسامة هادئة رزينة لتسأله باستغراب: «ماذا؟!» أجابها بهدوء محافظًا على ابتسامته: «فقط أفكر في كلماتكِ، قلتِ القليل من الخوف وليس الخوف»، لترمش بعينيها وهي تجيبه بحرج: «هذه الحقيقة»، أكمل آسر بهدوء: «حسنًا لنكمل، ماذا لدينا؟ آه أحمد!» .

أميرة: «رجل صغير»، ليتبع سؤاله: «وآدم؟»، رفعت شفتيها بامتعاض وهي تقول: «فظ، لجوج وبالطبع مدلل والدته».

ضحك آسر على ملامح وجهها وهو يقول بتأكيد: «أوافقكِ، حسنا لنكمل: الصداقة»، صمتت أميرة لتقول بعد لحظات: «لا وجود لها»، صمت آسر قليلًا ليسألها

آسر: الاطئمنان؟

أميرة: آسر

آسر: نعم

ابتسمت أميرة بحرج لمحه آسر لأول مرة على وجنتيها، فتساءل بهدوء: «ماذا؟!» أجابته بحرج: «كنت أجيبك فقط».

ساد الصمت للحظات ليستوعب آسر جملتها، ثم ارتسمت الدهشة على ملامحه تحولت لسعادة واضحة وابتسامة حنونة على وجهه، ليقول بحب: «شكرًا لكِ، يسعدني أن أُمثّل لكِ الاطمئنان».

ارتبكت أميرة أمام نظراته الحنونة، ونهضت من مكانها وهي تقول: «سأذهب لأحضر مياها»، منعها آسر وهو ينهض من مكانه ويجيبها: «سأحضرها أنا، وخلال تلك الفترة سأترككِ لتسجلي ما تريدينه في الدفتر».

وتركها وخرج من غرفة المكتب وهو يشعر بسعادة بسبب التقدّم الكبير في طريقه معها.

اقتربت من الطاولة التي وضع عليها دفتره الخاص بجوار دفترها، وفتحته فلمحت اسمها في بداية الصفحة أميرة وبجواره اسم ليلى وأمامه علامة صواب، ثم ملحوظة صغيرة باسم غُفران وملحوظة أخرى: «محمد الأسيوطي في بداية الطريق».

تركت أميرة الدفتر وهي تشعر بصدق المساعدة التي يقدمها لها آسر، واحترامه لرغباتها، ولم تندم لأنها اطمأنت له فعليًا، تذكّرت منذ أيام وهي جالسة على السرير وحيدة فشعرت بشعور مرير بحلقها وهي تمنع نفسها عن الخروج لرؤية السيدة جميلة والتحدّث معها، وهي تمنع نفسها من تدريب آدم والتعرض لمشاكسته والضحك مع أحمد، تتذكّر تلك الليلة حين قرأت جملة في رواية وقعت في حبها، حفظت تلك السطور في عقلها كأنها ستحتاجها يومًا ما

«كنت أرقد في سريري أرمق الظلام حولي في جميع الاتجاهات، شاعرا أن العالم لم يعد مشكلتي بعد الآن، ليس هناك شيء بحاجة للقلق من أجله، ليس هناك شيء أنتظر وقوعه، لم أشعر من قبل بسلام نفسي كالذي شعرت به في هذه الفترة. هل يكمن السر في التسليم؟ عدم انتظار أي شيء؟ الوصول إلى قمة المعاناة بحيث لا يصبح هناك ألم أكثر؟ حينما أفكر في تلك اللحظات أجد أن ما فعلته حقًا وقتها تقبُّل ما أنا فيه.

«التوقف عن الرغبة، التوقف عن المقاومة، الاستكانة لتيار الحياة، استسلمت لفكرة أنني مسؤول عما أصابني، أن ما حدث قد حدث وعليّ فقط التعايش معه».

أحمد عبد المجيد

ولكن هي بالفعل استكانت لتيار الحياة وتقبّلت ما هي فيه، فقررت في تلك الليلة أن تُشفى، أن تصبح طبيعية، لذا قررت محادثة آسر، فهو أكثرهم تفهّمًا لها، نظرت للدفتر الذي يجاور دفتر آسر، ثم أخذته وجلست في زاوية الغرفة لتكتب أول ما خطر ببالها.



قد تبلغ المحبة بين شخصين حتى يتألم أحدهما بتألم الآخر ويسقم بسقمه وهو لا يشعر.

ابن القيم

الفصل الحادي عشر
توأم الروح

منزل محمد الأسيوطي

دخل المنزل مُسرعًا حتى يُبدّل ثيابه ليلحق بأصدقائه في النادي، صعد الدرج حتى وصل لغرفته ولكن أوقفه ألم غريب في كف يديه، فرفعه لنظره لكنه لم يجد شيئًا فاستغرب للحظة، فهذه هي المرة التي لا يعرف عددها التي يشعر فيها بآلام مختلفة فجأة هكذا، منذ أسبوع أو أكثر أصابه ألم في أعلى كتفه واستمر لليلة كاملة ولا يعرف سببه، ولكنه لم يرد أن يخبر أحدًا حتى لا يصيبهم القلق، تنهد بخفوت وهو يقول لنفسه ولأنهم مشغولون معها، كاد أن يدلف لغرفته حين سمع همهمة بالأسفل فعقد حاجبيه باستغراب وهو يعلم أن لا أحد في المنزل سواه وارتفع حاجباه بدهشة وهو ينزل الدرج بهدوء ويحاول إرهاف السمع ليجد أن الهمهمات من المطبخ، فاقترب بهدوء فلمحها واقفة أمام المطبخ ترتدي أحد قمصانه التي أخذتها والدته منه وبنطالا أسود ولاديًا يبدو أنه لأخيه أحمد، تابعها بعينيه وهو يسمعها تسبّ أحدهم ثم لمحها وهي تلتفت لتأخذ قطعة قماش تضغط بها على كفها. ارتجف جسده للحظة وهو يرفع كفه الأيمن لينظر مكان الألم الذي شعر به منذ قليل وكذّب ذلك الإحساس الذي راوده منذ فترة طويلة، رفع عينيه لها ليشهق برعب وهو يجدها تقف أمامه وتنظر له بقوة، فانتفض مكانه وعاد خطوتين وهو يهتف: «اللعنة لقد أوقفتِ قلبي»، رفعت أميرة حاجبها الأيسر ببرود وهي تهتف بلامبالاة: «من أوقف قلب الآخر؟! من دخل المنزل دون أن يصدر صوتا؟!» أجابها بنفس برودها: «ولماذا يجب أن أصدر صوتًا وأنا أدخل منزلي؟!» أجابته: «ربما

لتنبّه الذين يشاركونك السكن في نفس المنزل أنك موجود، ربما أحدهم لا يريد رؤيتك».

رفع أمير حاجبه الأيسر في حركة شبيهة بحركتها وقال وهو يبتسم ببرود: «هذه مشكلتكِ ليست مشكلتي»، رمشت بعينيها وهي ترى ابتسامته لتقول بدون تفكير: «لمَ هي مشكلتي؟! أنت لست ذا أهمية لي لهذه الدرجة» ارتسم الجمود على ملامح وجهها بعدما أدركت ما تفوّهت به ونظر لها أمير بضيق ثم لحظات وتركها ليصعد الدرج، فأوقفه ألم كفه المتزايد فالتفت بهدوء تحت أعينها المُرتقبة واقترب منها حتى وقف أمامها فلمح اهتزاز عينيها للحظة، فمسك يدها اليمنى دون أي مقدمات ونزع قطعة القماش منها فلمح جرحًا كبيرًا في كفها ينزف بغزارة، ابتلع ريقه بصعوبة وهو يجاهد في تكذيب ما يشعر به، وهمس بصوت غريب عليها: «إنها تؤلمكِ».

استغربت حديثه وهي تراه يقر بجملته لا يتساءل كما فعل أول مرة رآها فيها، فابتلعت ريقها بصعوبة وهي تستشعر شعورًا غريبًا داخلها، ذلك الشعور الذي كان يراودها وهي في أقسى أيام حياتها، فقالت بارتجاف: «اترك يدي»، قال بهدوء: «يجب أن نعالجها إنها تنزف بغزارة»، ارتعشت لنبرة الحنان في صوته لتقول بتوتر: «اترك يدي سأتكفل أنا بها»، حاولت جذب يديها فتأوه كلاهما وهتف بها بقوة: «توقفي إنها تؤلم».

التقت عيناهما بصدمة للحظات، وهي تحاول إبعاد ما تشعر به داخلها، ولكن فضولها لم يمنعها من أن تضغط مجددًا على جرح كفها، فلمحت تغضن ملامحه من الألم فشهقت برعب وابتعدت عنه بقوة، فتراجع هو خطوتين للخلف بنفس صدمتها.

ارتفع صدره وهو يتنفّس بصعوبة كأنه يلهث مما اكتشفه بينما اتسعت عيناها بصدمة وهي تهمس داخلها: «هل يعقل أنه يشعر بما أشعر؟! هل هو توءمي لهذه الدرجة؟! هل معنى هذا أنه.. لا».

لمحها وهي تهز رأسها يمينًا ويسارًا كأنها ترفض أمرًا ما، فابتلع ريقه بصعوبة والتفت مسرعًا ليصعد الدرج ويدلف لغرفته مغلقًا الباب خلفه.



مساءً

دلف من البوابة الخارجية للمنزل يحمل سترته على كتفه، ويدلك عينيه بتعب بعد يوم طويل من العمل، وهو يشعر بأنه في حاجة شديدة للنوم، لمح بعينيه تلك السيارة التي تقبع منذ أيام على بعد أمتار من بوابة المنزل، رجال من الأمن أرسلهم اللواء حسين للتأكد من أمان أميرة، بعد التأكد من هروب ممدوح، بالطبع هو لم يستطع أن يخبرها الحقيقة، خاصة وهو يرى تطورًا في حالتها.

«آسر»

التفت مندهشا على نداء أميرة اسمه، فلمحها تقف أمام باب الحديقة الخلفية بارتباك وشحوب وجهها جعله يقترب منها بقلق: «ليلى! ماذا حدث؟! هل أنتِ بخير؟!» أجابته بنفس ارتباكها: «نعم، لا تقلق أنا...»

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تشعر بمدى غبائها وتسرّعها لأول مرة، قطع آسر أفكارها وهو يسألها: «ليلى ماذا بكِ؟!» تراجعت عن نيتها لتقول له بسرعة: «أعتذر منك لا شيء، تصبح على خير».

التفتت لتدلف للحديقة الخلفية حتى تصل للدرج الخلفي للدور الذي تسكن فيه، فأوقفها نداء آسر: «انتظري، هناك أمر حدث معك اليوم أليس كذلك؟!»، توقفت مكانها وهي تفرك كفها لتقول: «أنت أخبرتني إن واجهتني أي أسئلة أو أي شيء غير منطقي أن أخبرك به.. ولكن».

لمح قلقها وتوترها فابتسم لها بحنو: «ما رأيكِ في كوب لذيذ من العصير الطازج في هذا الجو الجميل؟!»

رفعت أميرة عينيها له ولحظات وهزت رأسها بهدوء بالموافقة. كانت تنقل نظراتها له وهو يعد المشروب وبين باب المطبخ، فجلس آسر أمامها بكوبين من عصير البرتقال وهو يهمس بهدوء: «لا تقلقي الجميع نيام في هذا الوقت».

أخذت الكوب من يديه وارتشفته بهدوء وهو يتابعها بعينيه الناعستين، لتسأله بعد لحظات: «هل كان يعاني أمير من كوابيس في صغره؟!» رمش آسر بعينيه أكثر من مرة وهو يشعر بأن إرهاقه جعله يتوهّم بسماع سؤالها: «عذرا ماذا قلتِ؟!»

أعادت سؤالها بحرج، فصمت آسر للحظات يحاول إخفاء دهشته من اهتمامها بشيء من ماضي أمير، ليقول بعد تفكير: «احم.. حسنًا على ما أتذكر هو عانى فترة من الكوابيس، كان في العاشرة من عمره أو ربما في الحادية عشرة، لا أتذكر جيدًا، والأمر استمر معه لسنوات حتى اختفت الكوابيس وهو في....»

أكملت أميرة عنه وهي تقول بخفوت: «السادسة عشر من عمره!»، نظر آسر لها بدهشة وهو يلمح شحوب وجهها ليقول: «نعم»

ارتعش الكوب في يديها فتركته على الطاولة وهي تحاول تهدئة نفسها، لتسأله سؤالها التالي الذي جعله يشعر بأن هناك شيئًا غريبًا يحدث: «هل من الممكن أن يتصل التوءم اتصالا مباشرا في مشاعرهما أو تكون مشاعرهما واحدة في بعض الأوقات؟!» أجابها آسر باستغراب: «تقصدين التخاطر الروحي أو النفسي؟!»

هزت أميرة رأسها ففكر آسر بهدوء ثم أجابها بعملية: «نعم أحيانًا يكون هناك تخاطر روحي بين التوءم، وهناك العديد من القصص التي تثبت حقيقة هذا التخاطر، بالرغم من أنه لا يوجد دليل علمي يدعم فكرة وجود قدرات حسية فائقة لدى التوائم، وهذا جعل العلم يقف عاجزا في تفسير تلك الظاهرة بنظرية علمية محددة وواضحة، ولذا لم يستطع نفي حقيقتها وأحيانا الناس يسمونها توءمة الروح» سألته بفضول: «ما هي تلك القصص؟!»

أكمل آسر مُتذكرا ما قرأه من قبل: «ما أتذكره هو قصة استغربت حين قرأتها عن فتاة تسمى جيما، وقد سمعت فجأة صوتًا غريبًا بداخلها يقول لها: «اذهبي إلى

الحمّام أنا في خطر»، ركضت دون وعي أو تفكير إلى الحمّام لتجد شقيقتها ممددة في البانيو مغمورة بالمياه ولونها أزرق.

كانت (ليليان) الشقيقة التوءم لـ(جيما) تعاني من (الصرع)، وصادف أن وقعت في نوبة الصرع وهي في الحمام. قالت جيما وقتها: لو أنني تأخرت دقائق قليلة كنا فقدناها، لكن أحمد الله أنها بخير الآن، لا أعرف ما حدث لي لكنني فجأة سمعت ذاك الصوت بداخلي يطلب مني الذهاب فورا إلى الحمام لأن ليليان تحتاجني».

استغرب آسر ازدياد شحوب وجه أميرة وجمود ملامحها ليسألها بقلق: «ليلى.. ماذا بكِ؟!»

لم تجبه أميرة للحظات، ثم نظرت له بتيهٍ وهي تقول: «لقد كان يشعر بي، ربما أيضًا شعر بما مررت به، أنا أيضًا كنت أشعر أحيانًا بأحدهم يناديني، يخبرني أن أعود ولا أعلم إلى أين أعود أو ما هذا الصوت، وفي ليلة ما سمعت صراخًا بداخلي وأحدهم يناجيني ويقول أحتاجكِ».

«ولكنكِ تجاهلتِ النداء».

انتفض كلاهما على صوت أمير الواقف ببرود أمام باب المطبخ، وينظر لها بلا مبالاة، ثم أبعد نظراته عنها وهو يقترب من آسر ويخبره أنه يريد مُسكنًا.

نقّل آسر نظراته بينهما وهو يحاول أن يجمع ما قالته أميرة وما سمعه من أمير، ولكن سؤال أمير أخرجه من دوامة تفكيره ليسأله: «هل أنت مريض؟!» أجابه ببرود: «لقد جرحت يداها اليوم، والغبية لا تريد أن تذهب للمشفى، وتقاوم الألم، وأنا أشعر بنغزات بكفي لا تجعلني أنام، فعلى ما يبدو أنها تجبرني على مشاركتها الآلام».

اتسعت عينا آسر بدهشة وهو يسمع ما يقوله أمير بهدوء، كأنه يقول أمرًا طبيعيًا، ثم نظر لأميرة الشاحبة وأنزل نظراته لكف يديها، فلمحه ملفوفًا بشاشٍ تحول لونه

للأحمر القاني، عقد ما بين حاجبيه واقترب مُسرعًا ليمسك يديها فتأوهت بخفوت فرفع عينيه بقلق ليسألها: «هل تؤلمكِ؟!» ليجيب كلاهما في نفس الوقت.

أميرة: لا

أمير: نعم

لتهتف أميرة من بين أسنانها: «إنها يدي أنا»، ليجيبها أمير: «وأنتِ تُسببين الألم لي». لتقول أميرة بعند: «هذا سبب إضافي يجعلني لا أعالج يدي، فلتتألم ولتذهب للجحيم»، ابتسم أمير لها بسخرية: «ستكونين في انتظاري هناك»، ليهتف آسر فجأة: «حسنًا هذا يكفي».

التزم كلاهما الصمت، بينما آسر مندهش من تلك الشرارات التي بينهم ليأمرهما: «اجلسا أمامي».

هتف أمير بضيق: «فقط أعطني مسكنا»، ليجيبه آسر وهو يجلس على كرسي أمامهما: «سأعطيك إياه، ولكن لتجلس أولا»، جلس كلاهما على مضض، بينما ينظر آسر لهما بدهشة، فمد يده ومسك كف أميرة وضغط على جرحها بقوة فتأوهت أميرة بينما قبض أمير على قبضته دون قول شيء، ليهتف آسر غير مُصدّق: «يا إلهي»، كاد أن يضغط مجددا ليهتف أمير به بنفاد صبر: «لا تعيدها مجددًا إن كنت صدقت كلامنا»، ليتراجع آسر على كرسيه وهو يقول بعدم تصديق: «توءمة الروح».

ساد الصمت مجددًا قطعه آسر وهو يخرج من شروده ليذهب ويحضر علبة الإسعافات الأولية، وجلس أمام أميرة ينظف لها الجرح ويعالجه.

أحضر شريط دواء وأعطى حبة لكل منهما، وبعد أن ابتلع أمير الدواء نهض ليصعد لغرفته، وهو يتذكّر نزوله بعد أن كاد الألم أن يفتك برأسه وبكفه فقرر الذهاب لغرفة آسر ليلمح نور المطبخ مُضاءً، وصوت همهمات تخرج منه، فاقترب بهدوء ليسمع حديث آسر عن التخاطر الذهني فابتسم بسخرية وهو يعلم جيدًا أن هناك تخاطرًا ذهنيًا بينه وبين تلك الغبية، ألم يتحدث معها دومًا في صغره؟!

وأوقات أخرى كانت تُحدثه فهو الوحيد الذي كان واثقًا من أنها على قيد الحياة، واثقًا وخائفًا في نفس اللحظة.

قاطع تفكيره آسر وهو يأمره بأن يجلس، فساد الصمت للحظات مجددًا، الجمود يحتل ملامحهم فتنهد آسر بضيق ليقول: «حسنا أنتما متصلان وبينكما تخاطر ذهني، كلاكما يشعر بآلام الآخر، يا إلهي أنتما توءم، فلماذا تتصرفان هكذا؟! أمير ما سبب هجومك الدائم على ليلى؟».

رفع أمير عينيه بجمود ولمحة ألم مرت ليخفيها سريعا، وهو يشيح بأنظاره عن آسر ليقول بدفاع: «من يهاجم من؟! عادت بعد غياب ثمانية عشر عامًا لتحيا معنا لأكثر من شهر وما زالت تحمل بين ملابسها سكينها، هددت والدنا بها، وآلمت قلبه بكلماتها، وأمي تتألم كل يوم لصعوبة الحياة بطبيعية مجددًا، تشاركنا ثيابنا وتجلس مع أمي وتدرّب أخي ثم تتجنب الجميع، ولكن يبدو أن سحرك جذبها فأصبحت تتحدث معك أنت فقط، إن كان عدم تقبّلي لوجودها هو هجوم حسنًا أنا أهاجمها».

لم تهتز شعرة في ملامح أميرة بينما داخلها يتلوى ألمًا مما سمعته، لا تعلم لمَ تشعر به؟!

ساد الصمت للحظات ليقول آسر بابتسامة وهو يعدّل من جلسته: «هل تغار؟!» رفع أمير رأسه له وهو يرمش بعينيه ليقول باستنكار: «ماذا؟!» حاول آسر كبت ضحكة تكاد تخرج منه وملامح الغيرة تظهر واضحة في كلام أمير ليكمل آسر بمكر: «أتساءل فقط.. بما أنك غاضب لأنها تتحدث إليّ أنا» قال أمير ببرود: «ألم تستمع لكلمة مما قلته؟!»

ابتسم آسر له والتفت ليسأل أميرة بهدوء: «حسنا ما سبب هجومكِ الدائم ليلى على أمير؟!» لتجيبه ببرود هي الأخرى: «إنسان مغرور مُتكبّر، لمَ لا أهاجمه؟!»

خفتت ابتسامة آسر وهو يلمح أمير يقول بغضب: «هل جمعتِ هذه الأفكار التي أخذتها عني خلال شهر ونحن لم نتحدث ثلاث كلمات مع بعض لتخرج في هذه

الصورة مغرور، متكبر؟» أجابته أميرة مُتسلّحة ببرودها: «لا أحتاج لوقت كبير في الحكم على الأشخاص».

نهض أمير ببرود مصطنع ثم انحنى ليقول أمام وجهها: «أو ربما ما تشعرين به داخلكِ ما هو إلا مرآة لما هو داخلي، أليس بيننا تخاطر ذهني؟!»

ارتجفت أميرة للحظة بينما التفت أمير ليرحل من المطبخ وهو يشعر بغصة كبيرة تقتات على قلبه بألم، بينما آسر يتابعهما بصمت، ساد الصمت للحظات وآسر يلمح ارتعاش أميرة للحظة ليسألها: «هل أنتِ بخير؟!»

صمتت حتى ظن آسر أنها لن تجيبه لتفاجأه بسؤاله: «ما الذي حدث لأمير عندما كان في الثانية عشرة من عمره؟!» ضيق آسر ما بين حاجبيه يتذكّر ما حدث، ولمحت أميرة نظرة ألم في عينيه وهو يتحدث: «لقد تاه عن أبي في المركز التجاري، وبحثنا عنه لليلتين، ثم اتصل بنا أحدهم في المشفى ليخبرنا أن رجل أمن هناك وجده في حمام مبنى مهجور في المركز التجاري يصرخ بأعلى صوته أن ينقذه أحدهم، وبدا كأنه تاه هناك ورجال الأمن وجدوه أثناء تأمينهم على المركز في دوريتهم بالصدفة، فالمكان كان مهجورًا ولا يدخله أحد»، أغمضت أميرة عينيها بقوة وهي ترفع يدها لقلبها وتتنفس بصعوبة وذكرى جاءتها واضحة.

«أنا أحتاجكِ.. تعالي أرجوكِ.. أنا خائف»، ثلاث جمل لم تستطع كتم صداها في رأسها، والآن فقط أدركت معناهم.

نهض آسر واقترب منها بهدوء وهو يلمح ملامحها المُتألمة وضمها لصدرها بيديها فناداها، وكاد يلمس كتفها حتى تجمد مكانه وهو يلمحها تبكي!

نظر آسر لها بدهشة وهو يرى انهيارها دون سبب مفهوم له، وهي تحاول جاهدة منع دموعها من السقوط، فاقترب منها وضمها لصدره بحنان أخوي وهو يناديها: «ليلى» لتقول من بين دموعها: «لهذا هو يكرهني، يا إلهي، أنا لم أخذل أحدًا من قبل، أقسم أنني لم أكن أعرف أن هناك أحدًا وراء تلك الأصوات، لم أكن أعرف أنه يستغيث بي وأنا تجاهلت نداءه يا إلهي، أنا آسفة».

ازداد آسر في ضمها له وهو يحاول فهم ما تقوله، ولم يلمح ذلك الذي كان يقف خارج المطبخ مُستندًا على الحائط بعيدًا عن أعينهما، لتخونه دموعه وتسقط بصمت هامسا: «وأنا أيضًا آسف بشدة لأنني لم أنقذكِ، أنا أيضًا تجاهلت نداءكِ ولم أستطع فعل شيء».

بعد يومين

نهض من مكانه وهو يلمح والدته تنزل الدرج، فسألها بلهفة: «هل ستنزل؟!»

هزت جميلة رأسها بلا، وهي تجلس بجواره ويبدو أن الحزن زاد من سنوات عمرها لتقول بهمٍّ: «لا أعلم ما الذي حدث لها يا بني؟! لمَ انتكس حالها مجددًا؟! لمَ عادت لقوقعتها؟! لقد ارتاح قلبي عندما بدأت في النزول هنا والجلوس معنا ولو لوقت قصير»، اقترب آسر وضم ذراع والدته بحنان وهو يهمس: «لا تقلقي يا أمي، فترة وستمر، ستمر حتمًا»، سألته باستغراب: «لا أعلم ما الذي حدث هي كانت بخير؟!»

تنهد آسر وهو يعتدل في جلسته ويضم كفيه ليقول: «لقد حدث شيء أمي».

رفعت جميلة عينيها الدامعتين وهي تنظر له باستغراب تحول لصدمة، بعد استماعها لما حدث بين أميرة وأمير، رفعت كف يديها لفمها وهي تهمس: «يا إلهي».

تنهد آسر بتعب وهو يكمل شاردًا: «أميرة تلوم نفسها لأنها لم تكن موجودة وقتما تاه أمير، وأظن أن أمير أيضًا يلوم نفسه»، اتسعت عينا جميلة بدهشة وهي تسأله عن السبب ليجيبها: «إن كانت أميرة قد شعرت به وبندائه أثناء تلك الحادثة فأمير قد شعر بها في فترة طفولتها، أو ربما رأة ما مرت به، لا أعرف».

أخذت جميلة تفكر في كلام آسر للحظات، حتى قالت: «يا إلهي.. كوابيسه!» فكر آسر في جملة والدته هو أيضًا فكر في ذلك ليقول: «لا أظن أن الأمر اقتصر على الكوابيس أمي، يجب أن أتحدث معه».

مسكت جميلة كف آسر وهي تهمس بدموع: «آسر أنقذ إخوتك، أعدهما لي».

التمعت الدموع في عيني آسر، واحتضن أمه بقوة وهو يقبّل جبينها: «لا تقلقي أماه، كل شيء سيكون بخير، ألا تثقين في ابنك الطبيب، ألم تسمعي كلام الناس عني بالخارج؟ ابنكِ طبيب ماهر».

ابتسمت جميلة بين دموعها وهي تضم نفسها لحضنه الآمن لتقول بحب: «بارك الله فيك يا بني، وحماك أنت وإخوتك من كل شر»، أغمض آسر عينيه وهو يؤمن خلف والدته.



منزل زمرد

«هل بإمكاني قتل نفسي لأرتاح من كل الثرثرة التي ملأت المكان»، ابتسمت زمرد على حديث رحاب وهما بالمطبخ معًا، منذ انهيارها الأخير، الانهيار الذي تبعه حياة أخرى تحياها الآن، حياة ملأت كل جوانبها بحبها للذي شهد على ضعفها ومنحها القوة لتكمل لتعود من جديد طفلة ترى كل ما حولها جميلا، رحاب أختها الصغيرة الكبيرة القلب، رحاب التي بدأت في التواصل معها ومعاملتها كأخت مقربة لها وهي تنهل من هذا الحب، رحاب التي تفهّمت حديثها وقت انهيارها عما حدث بينها وبين ممدوح دون أن تعلّق بشيء، وهي تسألها إن كان الله سيغفر لها ذنبها، رحاب التي قابلت أسئلتها برحابة صدر ولم تبتعد عنها وتبعد عينيها عنها كأنها تنفر من فعلتها، فلم تتوقف عن التحدّث معها بل اقتربت أكثر وأكثر كأنها تعوضها عن صدمة والدتها بها وصمتها عن الحديث معها بعد ما سمعته، فلقد كانت موجودة لحظة انهيارها، والدتها لم تتقبّل أن تفقد ابنتها شرفها حتى إن كانت مخطوفة!

«هاااي إلى أين شردتِ؟!» ابتسمت زمرد وهي تقول: «لا شيء، هيا فلا يجب أن نتركها كل هذا الوقت»، قالت رحاب وهي تحمل أكواب العصير: «أنا أجلس معها فقط من أجلك، فهي ذات لسان سليط، ولن أسمح لها بالتقرّب منك ففي النهاية هي صحفية»، ابتسمت زمرد بحنان لها وهي تعي عمن تتحدث، فاليوم زارتها خطيبة يامن، وقضت معها وقتًا طويلًا وهي تعرّف عن نفسها وعن عملها

وعن ارتباطها بيامن وقصة حبهما التي حاربا من أجلها، يامن! يامن الذي توقفت عن رؤيته منذ أسبوع، بعد انهيارها لم تقو على الخروج من المنزل، فطلبت من رحاب أن تتصل بالطبيبة وتسرد لها ما حدث، وتطلب منها القدوم للمنزل هذه الأيام، الطبيبة التي بدأت في التعاون معها، وقد بدأت في التقرّب منها في محاولة للوصول لأعماقها، تنهدت وهي تفكر أن لا وسيلة لأحد للوصول لأعماق آخر ما لم يسمح له بذلك.

خرجا من المطبخ لترى زمرد سالي وهي تجلس على مقربة من والدتها ويبدو أنهما كانتا تتهامسان على شيء، فصمتتا فور خروجهما، نهضت سالي لتأخذ كوب العصير الخاص بها من رحاب دون كلمة شكر، وهي توجه حديثها لزمرد: «ما رأيك يا زمرد في الأثاث الحديث، أرى أنه يجعل المكان أجمل؟!» نظرت لها زمرد بابتسامة وهي تسمعها تناديها بزمرد كما يفعل يامن وسليم لتجيبها: «لا علم كافيًا لدي بهذا الموضوع سالي لأساعدكِ به، ولكن أظن أن الجديد في أي شيء يحمل طابعه الحسن».

نظرت لها سالي بهدوء وهي تحاول أن تدرسها لتسألها: «آه ظننتكِ على علم بذلك ولكن بالطبع بحكم معيشتك في العريش لا تعرفين الكثير...» نظرت لها زمرد غافلة عن مقصدها لتجيبها رحاب: «وما علاقة العريش بقصة أثاثك سالي؟ ولمَ تتحدثين كأن العريش بلد من العصر القديم؟ أو أن التكنولوجيا لم تصلها، التطوّر في كل مكان موجود»

نظرت سالي لرحاب بتسلية وهي تقول: «بالطبع، ولكن مما أعرفه عن مسكن زمرد السابق هو أنه كان في الصحراء في منطقة بعيدة عن الإسكان، آه هل أتممتِ تعليمكِ زمرد أم لم يسمحوا لكِ؟!»

نظرت زمرد لها طويلًا لتقول بصراحة: «بلى أتممته، أنا أنهيت حقوق بامتياز، فلقد كان لزاما علينا أن نكمل دراستنا في مجال معين يختارونه لنا لكي ننفعهم بوجودنا».

ساد الصمت في المكان لتلمح زمرد والدتها وهي تستأذنهم لتستريح قليلًا، والدتها التي تهرب من أي حديث يعيدها لنقطة خطف ابنتها واغتيال شرفها.

شعرت بلمسة رحاب ليديها فنظرت لها لتجدها تنظر لها بحب، لتسمع سالي وهي تقول: «ما رأيك لو خرجنا معًا زمرد؟!»،: «لا»، خرجت من رحاب قوية وهي تقول: «زمرد لا تخرج بسبب أوامر الأمن، يامن أصر على ذلك وأكد عليه»، لم تنظر سالي لرحاب وهي تدرس صمت زمرد لتقول لها: «اهدئي حبيبتي أنا لن آكل أختك، أنا أعرض عليها فقط الخروج معي لنشتري بعض الملابس، وسيكون هناك رجل أمن معنا وسيوصلنا ليامن، فأنا أريد مفاجأته اليوم في العمل، هو يحب كثيرًا أن أزوره بالعمل».

سمعت رحاب نداء والدتها لها فنظرت لزمرد بارتباك لا تريد أن تتركها مع تلك الحية، لتقول لها زمرد باطمئنان: «اذهبي لأمي رحاب، فحتمًا تريدكِ في شيء مهم».

بعد دقائق تحركت رحاب على مضض خائفة من ترك زمرد وحدها، ساد الصمت للحظات لتسمع زمرد سالي وهي تقول: «أنتِ لا تسمعين الأخبار أليس كذلك؟!»، فأجابتها زمرد بالنفي لتقول بخبث: «عائلتكِ تظن أنها تحميكِ هكذا ولا تعلم أنها تبعدكِ فقط عن المشاكل ولا تعالجها»، سألتها زمرد باستغراب: «لماذا تقولين هذا؟!».

اقتربت سالي لتجلس في الكرسي المجاور لزمرد لتقول: «الصحافة تتحدث عن القضية التي قلبت الرأي العام ولرفض الأمن الوطني البوح بأي أمر يتعلق بالقضية، ومنع الصحافة من التحدّث مع الضحايا، بدأت الجرائد في نسج قصص غير حقيقية فقط من أجل جذب الناس إليهم، ومن حديثهم علاقتكِ مع ذلك الرجل ممدوح، أنا أخبرت يامن بأن أقوم معكِ بحوار صحفي نوضح فيه للناس الحقيقة لكنه كالعادة يرفض و...»، لم تسمع زمرد أي شيء مما قالته سالي بعد جملته: «علاقتكِ مع ممدوح»، هي تعرف والناس كلها تعرف، شعرت بالمهانة وهي تعي أن أذية ممدوح لها ما زالت سارية، استغفرت في سرها فلم تمنع دموعها من السقوط، لتقترب سالي منها وهي تقول: «عزيزتي أنا لم قصد إزعاجكِ، سامحيني أرجوكِ أنا فقط أردت أن أخبرك، أنا لم أرد إلا المساعدة، سامحيني».

مسحت زمرد دموعها وهي تقول بهدوء: «لا لم يحدث شيء، أنا فقط متعبة قليلًا»، قالت سالي: «آه أنا لا أصدقكِ، حسنًا حتى أتأكد أنكِ سامحتِني ستأتين معي لنشتري بعض الثياب، هيا سوف نستمتع كثيرًا، وأعدك أننا لن نتأخر وسنأخذ رجل أمن معنا وسنذهب في النهاية ليامن سيسعد كثيرًا برؤيتنا».



النادي

مرت مدة على وضعه وهو شارد في كل ما حدث، صباحا بعد أن أنهى ركضه تفاجأ بآسر الذي جاء ليطمئن عليه، وفي عينيه الكثير من التساؤلات، جلسا وسرد له أمير كل ما شعر به من مشاعر تواصل بينه وبين أميرة طوال تلك السنوات من ألم وخوف أو الكثير من الخوف، شاعرًا بالندم لأنه لم يبح بما شعر به من قبل، فربما كان لينقذها ليخبره آسر أنه ليس ذنبه فمن كان يتخيل هذا، تذكّر ذلك اليوم الذي دار فيه بينه وبينها حديث، كانت المرة الأولى التي تتناول فيها الغداء معهم، تذكّر انطواءها على نفسها وقت حضور والده ليزداد مع حضوره، عاد بذاكرته لذلك اليوم وهو يتذكر فخر أخيه بما تعلّمه منها وهو يخبرهم ليبوح والده عن فخره هو الآخر، فلمح خجلها المرافق لارتباكها من كلامهم، لينتفض بعدها من مكانه وهو يشعر باختناق روحه، تذكّر تتبعها لمكانه وهو يسدد ضرباته لكيس الملاكمة يحاول جاهدًا إخراج كل تلك الشحنات السالبة منه ليسمعها تخبره بأنه سيؤذي نفسه هكذا لتسديده الخطأ، سخر منها وقتها وهي تخبره بأن ضرباته غير مُنتظمة وسيشعر بآلام في يديه، لا يعلم لماذا انتفض وقتها ليصرخ بوجهها: «يبدو أنك على خبرة جيدة بالموضوع، هل كانوا يُدرّبونكِ على القتال في حالة اضطررت لمقابلة أي خطر أم كان هذا هو أساس اختطافهم لك ليُربّوا أجيالًا تكمل عملهم».

تنفّسه الغاضب وهذره الذي يبدو أنه أصابها في مقتل جعل رد فعلها غير متوقع له وهي ترفع كفها لتصفعه على وجنتيه، لينظر لها بصدمة غير مُصدق ما قامت به ليتجمد مكانه، وهو يسمعها تقول بصوت ميت: «لم يجعلونا نتدرب بل وضعونا في

قتال، آمرين إيانا بأن نفوز وإلا الموت، ضرباتنا لم نكن نوجهها لكيس من الملاكمة بل كيس من عظام ولحم أو بالأدق إنسان».

كما بدأ الهذر فجأة انتهى فجأة، وهي تلتفت باتجاه الدرج لتصعد في هدوء مُغلقة باب الشقة خلفها، كأنها لم تصفعه منذ قليل بكلام آذاه أكثر من صفعة الوجه.

قبض على صدره وهو يشعر بارتعاش جسده وألم بغيض سكن صدره، ليعود من ذكرياته وهو يزفر بضيق ليلمح آسر وهو يقترب منه وفي يديه علبتان من العصير، فأعطاه واحدة وجلس بجواره وهو يتناول خاصته، ليبادر أمير بسؤاله: «هل تثق بأننا يمكننا إنقاذها؟!» قال آسر بغرور مصطنع: «أنت تهين قدراتي كطبيب نفسي».

ابتسم أمير بخفوت بينما أكمل آسر حديثه بصدق: «إن كان احتمال مساعدتي لها وإنقاذها بنسبة سبعين في المائة فالآن وأنت معي النسبة تعدت المائة بالمائة»، التفت أمير له وتحدث بجدية: «أنا مستعد لفعل أي شيء من أجلها».

ابتسم آسر له بحب وتفاؤل أن القادم حتما سيكون أفضل مما فات، ليقول له بجدية: «عليك أن تتقرّب منها أمير، أدخل نفسك في محيطها الآمن، في اللحظة الأولى التي ستنعم فيها بوجودك الفعلي الصادق بجوارها ستنهار كل حصونها، ستدرك معنى المشاعر الحقيقية، معنى العطاء، مع الأمان والاطمئنان، دعها ترى حب والدينا لك وحنان والدتنا لك، دعها ترى أبوتك المبكرة لأحمد وآدم، دعها ترى مشاعرك الحقيقية حتى تأمن لمشاعرها الحقيقية»، هز أمير رأسه بتفهم وهو يجيب آسر بصدق: «سأفعل أعدك».

تنهد آسر وهو يستشعر الأمل، لغز أميرة حله بيد أمير وحده القادر على فك آخر لغز في الحلقة، لتكتمل الأحجية ويتم فك اللعنة، تذكّر كلمات التي حفرت أثرًا كبيرًا داخله بعد أن تركت دفترها ذلك اليوم ليقرأه.

«كلنا أسرى لشيء.. كنا مُقيَّدات بقيودِ وهميةِ تمنعنا من العديد من الأشياء من ضمنهم العيش، وأهمها الشعور بالأمان.

أن تنام مغمضَ العينين آمِنًا في بيتك كان حلمًا لنا، رغم سننا الصغيرة إلا أن كان بإمكاننا أن نقف في مهب الرياحِ بلا خوف، بإمكاننا التصدي لصفعاتِ الحياةِ بلا كلل، أتعلم لماذا؟! لأننا اِعتدنا الألم والأسوأ اِعتدنا الخوف، رأيناه في أبشع صوره، في المكوث ليلة كاملة في غرفة مُظلمة تضيق من حولك وعينيك لا تتحرك من على جسد صغيرة تُجاورك، تتلمَّس فيها دفء من المستحيل أن تمنحكَ إياه ولماذا؟! لأنها فاقدة الروح. رأيناه في انتهاك أحلامنا فصارت الكوابيس حلمًا لنا، رأيناه في زلة بسيطة نقع فيها فنتلّقى عليها أبشع العقوباتِ حتى لا نفكر حين نكبر أن نخطئ، سياطهم لم تترك أثرًا على أجسادنا بل حُفرت في أرواحنا، مشوهات! ربما، ولكن لم نعتد يومًا على أن نيأس رغم كل شيء، غير ودودات! محتمل، فماذا تتوقع من شخص فقد كل معاني الود في صغره ولم يكبر إلا على القسوة والجفاء. لكن برغم كل هذا ما زال لدينا قلب، بذرة وضعها الله في قلوبنا لا تتأثر بكل المساوئ التي تمرَّغت فيها روحنا. برغم كل عفنٍ نما في روحنا، كان قلبنا ينتفض عند رؤية فراشة نقية تطير بأجنحتها البرَّاقة، كان قلبنا يئن وجعًا كلما لمحنا أمًا تُربّت على كف اِبنتها وأبًا يحمل ابنه على كتفه، كان قلبنا يرفرف بسعادة حين نرى طيارة ورقية تستطيع أن تعلو وتعلو في السماء الواسعة رغمًا عن الجميع، ورغمًا عما صنعته منه، العطب كان بروحنا لا بقلبنا، ولهذا ما زلنا على قيد الحياة حتى الآن نداويه لعلّ يومًا ما تصفو روحنا».

أميرة لديها تلك البذرة وهو لن يتركها، حتى يرويها بمساعدة عائلتهما.



كيف يمشي واحد منّا إذا فقد شخصًا؟! أنا حين فقدت شخصًا توقفت كان هو الماشي وأنا أتابعه، كنت الماشي فيه وحين توقف لم تعد لي قدمان

وديع سعادة

الفصل الثاني عشر
سهيلة

مقر الأمن الوطني

نهض يامن من على كرسيه عندما لمحها تدلف لمكتبه مع سالي، فنظر لهما بصدمة وهتف: «ما الذي تفعلانه هنا؟!»، اقتربت سالي بابتسامتها وقبّلت وجنتيه وتحدثت بسعادة: «ما رأيك بهذه المفاجأة؟!»، أبعد يامن سالي عن طريقه وعيناه ما زالت على تلك التي تتململ في وقفتها وتنظر في كل مكان بعيدًا عن مرأى عينيه، تلك التي عذّبته في صحوته ونومه ولم تتركه لحظة لتأتي الآن إليه بعد أكثر من أسبوع غياب، خرجت من المنزل وخالفت أمره، عند هذه اللحظة اقترب منها وتحدث بجمود: «ألم أخبركِ ألا تتركي المنزل لأي سبب كان؟!»، لعنت زمرد غباءها وموافقتها للخروج مع سالي بعد إلحاح الأخيرة وقد أخذتها حجة لتراه فهي كانت في حالة غريبة تجبرها على القدوم إليه كأنه نداء غريب لها بأن تأتي لهنا، لتكون بمكتبه فابتلعت ريقها بصعوبة ولم تقل شيئًا بينما اقتربت سالي ووقفت بجوارها وتحدّثت بتذمّر مُصطنع: «لا تمارس سلطتك على الفتاة هيا لقد ألححت عليها كثيرًا لتخرج معي، الفتاة تقبع بالمنزل لأكثر من شهر ونصف، ولم تر خارجه أبدًا»، لم يكن يامن مُنتبها لما تتحدّث به سالي وعيناه ما زالت تلتهم تفاصيل زمرد التي فاجأته بخروجها من البيت وهي ترتدي الحجاب!

هتف بلا وعي: «أنت ترتدين الحجاب؟»، ارتبكت زمرد ولعنت نفسها للمرة الثانية لتضرج وجنتيها بهذا الشكل السخيف، لم يعجب سالي نظرات يامن لها، فتحدثت بضيق: «أنت لم تُحيينا حتى!» ارتبك يامن هذه المرة ونظر لسالي فتنهد بضيق وأشار بإصبعه على زمرد: «يوجد قضية مهمة عالقة بها، والبيت هو المكان

الوحيد الآمن لها، لذا غير مسموح لها بالخروج، ولهذا وضعوها تحت مسؤوليتي، والآن ستجبرينني أن أوقف عملي حتى أوصلها للمنزل بأمان، لذا اعذريني عن عدم ترحيبي اللائق بكما وأنا مشغول بالتفكير في كل المصائب التي كانت لتحدث لو أن شاهدها أحد أفراد العصابة وهي تتجول معكِ في شوارع العاصمة»، هتف يامن بآخر كلماته بصوت عالٍ أربكهما، واندهشت سالي لغضب يامن المبالغ فيه من رأيها فأجابت بهدوء: «حسنًا أنت لمَ تخبرني التفاصيل بقضيتها؟ اهدأ سنرحل الآن»، قاطع يامن كلامها وهو يعود لمكتبه مُتجاهلًا تلك التي أسرت عقله بدخولها المُباغت وهيئتها الملائكية: «أخبرتكِ أن عملنا خط أحمر سالي، كلانا يعلم مصير المعلومات التي سأخبرك بها عن أي قضية فما بالك بقضيتها! وأنتِ سترحلين أما عن زمرد فستنتظر قليلًا معي حتى أنهي عملي وأتأكد من خروجنا من المركز بأمان»، ارتفع حاجب سالي سخرية على كلامه، وتحدثت بتهكّم: «لم أعهدك وغدا يامن»، شهقت زمرد من حديث سالي بينما نظر يامن لسالي بجمود وتحدث: «وأنا لم أعهدكِ عديمة المسؤولية سالي»، طالت النظرات بينهما للحظات، فأخفضت سالي نظرها للأرض ومسكت حقيبتها بغلٍّ مكتوم، واستدارت لزمرد وابتسمت ابتسامة تكاد تكون قبيحة، وقالت ببرود: «لا تعيري اهتمامًا لحديثي مع حبيبي، فنحن معتادان على هذا، عذرا لن نكمل جولتنا اليوم بسبب الإجراءات الأمنية، لذا إلى اللقاء للوقت الذي يسمح لنا عزيزنا يامن فيه بالخروج».

خرجت سالي من الغرفة بغضبها وهالتها السوداء، بينما كانت زمرد تنظر في الفراغ الذي خلّفته سالي بفم مفتوح وهي مصدومة مما حدث، شيء بداخلها أخبرها أن مكنون سالي ليس كظاهرها، وهذا أفزعها للحظات، رفعت عينيها ليامن فوجدته عاد لكرسيه وهو ينظر للأوراق التي أمامه بتركيز وكأن ما حدث لم يحدث معه، قاطع تفكيرها صوته: «إن انتهيتِ من صدمتكِ فاجلسي على احد الكراسي حتى أنهي ما بيدي»، ابتلعت زمرد ريقها بصعوبة وتحركت بارتباك لأبعد كرسي في الغرفة، وجلست وهي تعدّل من حجابها بطريقة لا إرادية منها.

مرت نصف ساعة والصمت يسود المكان، فشعرت زمرد بكبر غبائها وما أوصلها لما هي فيه الآن، فتحدثت بصوت خافت: «أنا آسفة لخروجي دون أن

أخبرك»، أجابها يامن بجمود وهو ما زال ينظر للورق أمامه: «اصنعي معروفًا لي ولا تُسمعيني صوتكِ، فأنا أكاد أسيطر على غضبي»، شعرت زمرد برغبة مُلحة في البكاء فهتفت بأول شيء جاء في بالها: «أنا أريد أن أصلي»، تجمدت يده على الورقة المُمسك بها ورفع رأسه لها، فنظر لها للحظات وهو يراها قد اختلفت عن آخر مرة رآها فيها، لقد أصابتها حالة من الوهن، ولكن وهن جميل، نظر إلى هالتها الملائكية بحجابها وهو يرى نضوجًا مؤلمًا، اجتاحته رغبة قوية بأن يضمها لصدره يزيل ألمها ويحميها من أي شر قد يصيبها، كاد أن يبتسم، تأثيراتها عليه أصبحت خطرة، أخفض رأسه للورق أمامه وتنهد بخفوت وأجابها بصوت هادئ، مُشيرا بيديه لباب يقبع بجوار مكتبه: «هذه غرفة أجلس فيها وقت راحتي بالداخل تستطيعين الصلاة».

هزت رأسها دون أن تجيبه بشيء، ونهضت بارتباك ودخلت مُسرعة للغرفة مُغلقة الباب خلفها، أرجع يامن رأسه على حافة الكرسي مُغمضًا عينيه يهمس لنفسه: «أعِنّي يا الله»، جملة شاركته فيها وهي تضع يديها على قلبها الذي ينتفض مكانه بينما تستند بجسدها على الباب، لم تكن تظن أن رؤيته ستبعثر دواخلها بهذه الطريقة، فتحت عينيها تتأمل الغرفة، أريكة صغيرة وبجوارها مكتبة تحوي على العديد من الكتب والملفات، وفي الجهة الأخرى مكتب صغير موضوع عليه العديد من الأوراق، وضعت حقيبتها على المكتب واتجهت لآخر الغرفة ووضعت سجادة الصلاة وصلت لربها.

بعد مرور بعض الوقت من الدعاء نهضت وهي تشعر بأنها أفضل حالًا، الصلاة كالسحر قادرة على فعل العديد من المعجزات، طوت السجادة ووضعتها مكانها ثم تحركت تجاه المكتب وسحبت حقيبتها فوقع بعض الأوراق من على المكتب، وضعت حقيبتها مُسرعة على الأرض وأخذت تجمع في الأوراق لتضعها على المكتب وأثناء نهوضها لمحت جزءًا من وجه يظهر من ورق موضوعة داخل ملف، شعرت بأن ذلك الوجه مألوف لها فسحبت الورق حتى ظهرت ملامح الوجه أمامها، فشحب وجهها وشهقت بصدمة، وقعت الورقة من يديها وتراجعت خطوتين للخلف في نفس اللحظة التي طرق فيها يامن الباب وهو يهتف: «هل أنتِ بخير زمرد؟! لقد تأخرتِ!»

كانت تنظر بتيه للورقة المُلقاة على الأرض ودموعها تنهمر من عينيها غير مُصدقة، أعاد يامنٌ الطرق مرة واثنتين حتى أصابه القلق، فدلف للغرفة ورآها بهذه الحالة، ارتعب يامن للحظة واقترب مسرعا وهو يتحدث بقلق: «زمرد ماذا بكِ؟! لمَ تبكين هكذا؟!» لم تجبه وعيناها ما زالت على الورقة وهي تهز رأسها بالرفض، فتتبع بعينيه نظراتها حتى لمح صورة ضحية في جريمة يبدو أنها وقعت من ملف، فاقترب مسرعًا وأخذ الورق وطواها داخل الملف، وهو يعتذر لها لرؤيتها لهذا المنظر ظنا منه أنها تأثرت بصورة الفتاة الميتة، اقتربت منه وأبعدت يديه عن الملف وهي تعيد فتحه مجددًا وترى الصورة مجددًا وهمست بوجع: «لقد ماتت.. لقد قتلها».

كان دور يامن هذه المرة في الصدمة فتحدث بحذر: «هل تعرفينها؟!»، ابتسمت زمرد بسخرية ودموعها ما زالت تنهمر: «هل أعرفها؟! آه يا يامن هذا السؤال ليس في محله، هل أعرفها؟! لقد انتهى كل شيء، لقد ضاع كل شيء هباءً، آه يا يامن الآن فقط أنا مت، الآن فقط فقدت نفسي، هل أعرفها! لأجلها فعلت كل ما فعلته، لأجلها فقط ضحيت بكل شيء».

أنهت زمرد جملتها وهي تشعر بأن الأرض تميد بها لتستسلم للظلام الذي جذبها لأعماقه فلم تسمع نداءات يامن باسمها.



- ذكرى -

لم تعلم كم مر الوقت عليها وهي نائمة، نهضت من سريرها وهي تنظر حولها فلم تجد سهيلة، نادتها أكثر من مرة ولكن لا شيء فقط الظلام يحيط بالغرفة، أشعلت النور ونظرت للساعة على الحائط لتجدها الحادية عشرة مساءً: «لقد نمت كثيرًا، يا إلهي لقد كان دور إنفلونزا قويًا هذه المرة، ولكن أين ذهبت سهيلة في هذا الوقت؟!» وقع قلبها في رجلها وعقلها يذهب بها لأمر واحد: «ممدوح».

خرجت من الغرفة مُسرعة وعظام جسدها تئن من الوجع، وهي تبحث عنها في الأروقة، وتنادي اسمها بصوت خافت، ثم نزلت للدور السفلي وهي تسعل بقوة فأخذت تبحث عنها في الغرف والمطبخ ولكن لا شيء، رفعت رأسها للأعلى ثم ابتلعت ريقها بصعوبة وكادت أن تصعد مجددًا للغرفة التي تخشاها، ولكن أصوات مكتومة وصلت لأسماعها، التفتت لتتبع تلك الأصوات بأذنيها حتى وجدتها تأتي من الخارج، فتحت باب المنزل فلفحتها برودة الجو في هذا الوقت وفي طقس الشتاء القارس البرودة، بينما صوت الرعد يدوي في السماء والمطر ينهمر بقوة، ارتدت معطفًا شتويًا كان على الأريكة وخرجت وهي تتبع تلك الأصوات وتسعل بإعياء، فوجدت الأصوات تأتي من الحظيرة الكبيرة، توجهت لها بخطى ثابتة وهي تشعر بالخوف يتسلّل لقلبها، وصلت فلمحت سمر وخلود تتهامسان بضحك وهما تقفان أمام الباب، فتتبعت بعينيها لما تنظران إليه، فوجدت سهيلة تتقاتل مع خديجة وممدوح يجلس على بعد منهما، وهو يتابعهما بعينيه القذرتين.

هتفت بإعياء: «ما الذي يحدث هنا؟!» التفتت سمر وخلود لها ونظرت خلود لها بضيق: «لا يجب عليكِ أن تكوني هنا الآن»، كادت زمرد أن تدلف للحظيرة حين منعتها سمر بقوة: «غير مسموح لكِ بالدخول»، هتفت زمرد بها بغضب: «ابتعدي عن طريقي سمر»، نظرت خلود لسمر نظرة ذات معنى وهي تبتسم بخبث: «حسنا

كما تريدين»، ابتعدت الاثنتان عن طريقها فشعرت زمرد بالريبة، ولكنها لم تتردد للحظة وهي تلمح سهيلة تتلقى العديد من الضربات من خديجة، تلك الفتاة التي زارتهم من أسبوعين ولم تُرحل بعد.

أوقفهما ممدوح وهو يرى زمرد تدلف بغضب شديد وملامح الإعياء تبدو على وجهها، همس بداخله: «يبدو أن المخدر لم يكن قويًا معكِ يا نمرة»، هتفت زمرد بغضب: «ما الذي يحدث هنا؟!»، أجابها ممدوح ببرود وهو ينظر لها بنظراته الكريهة لها: «اختبار الكفاءة»، أجابته زمرد بصدمة: «لقد انتهى هذا الاختبار منذ زمن، وأنت تعلم أن غُفران قد هددتك بعدم القيام به مجددًا، ومن وقتها ولم يعد لهذا الاختبار معنى».

ابتسم ممدوح بسخرية: «غُفران قد هددتني! بماذا بأن تخبر الشرطة أن قد حدث بالمنزل جرائم قتل».

ارتعش جسد زمرد للحظة ثم استعادت قوتها مجددًا: «حسنًا أنا سأتصل بها وأخبرها وليحدث ما يحدث، لن أسمح بأن تفسد طفولتهما كما فعلت معنا».

ضحك ممدوح ضحكته التي أرسلت قشعريرة بجسد زمرد: «رحمة الصغيرة ظهرت لها أنياب، هذه هي نمرتي الشرسة»، نظر ممدوح لسمر وخلود اللتين تتابعان الموقف بانتباه، وأشار لهما برأسه أن ترحلا فنفذتا أمره على الفور.

ابتلعت زمرد ريقها بصعوبة وهي تلمح خروج خلود وسمر، ثم اقتربت مُسرعة من سهيلة تحاول مساعدتها للنهوض، فسقطت سهيلة أرضًا بينما ارتفع جسد زمرد للأعلى، وممدوح يحملها بين ذراعيه، فأخذت تتلوى بجسدها وهي تصرخ: «ابتعد أيها الوغد»، حتى قيّد ممدوح جسدها بجسده وهو يلصقها للحائط، فهمس أمام أذنها وأنفاسه تلفح وجهها: «اهدئي أيتها النمرة، وتابعي بعينيكِ ما سيحدث»، وقف ممدوح وجذب جسدها لتقف أمامه بينما احدى يديه تقيد ذراعيها، واليد الآخر تجد طريقها لجسدها، فأخذت تتلوى بقوة وهي تشعر بالرعب يقتلع قلبها، ولكن شعرت أنها تبعد حائط بشري عنها لقوة ممدوح وضخامة بنيته،: «تابعي باستمتاع».

أشار برأسه لخديجة لتكمل ما كانت تفعله فأخذت تقاتل سهيلة التي لم يعد في جسدها مكان سليمًا من الكدمات، فكانت سهيلة تقاتلها بضعف بينما تتلقّى العديد والعديد من الضربات، دمعت عين زمرد وهي تجاهد بأن تبعد يد ممدوح عنها، وهي ترى قرب نهاية سهيلة: «أرجوك توقف، أتوسل إليكِ دعني أنا أكمل بدلًا منها، أرجوك ستقتلها، سهيلة ليست مُستعدة بعد، خديجة لها خبرة مثلنا دعني أقاتلها».

«توقفي»، صدح صوت ممدوح في الحظيرة فتوقفت قبضة خديجة وهي على بعد إنشات من وجه سهيلة، فألقت بها على الأرض وهي تلهث، بينما كان جسد سهيلة ساكنا بلا حراك.

همس ممدوح لأذن زمرد: «سأستمتع بمشاهدة نمرتي وهي تغرز أنيابها»، ترك ذراعيها وأبعدها عنه، وهو يقترب من خديجة وينظر لجسدها: «التقطي أنفاسكِ، فغريمتكِ قد تغيرت»، نظرت خديجة بكرهٍ لزمرد، ثم اقتربت من جسد سهيلة وضربتها بقدمها في معدتها ثم بصقت عليها، وابتعدت لتمسح آثار دماء سهيلة من على يدها، هرعت زمرد لسهيلة وهي تحتضن جسدها الهش وتهمس لها بحنان: «اهدئي يا صغيرة كل شيء سيكون على ما يرام أعدكِ».

رفعت زمرد جسدها الضئيل وأسندتها حتى وضعتها على أكوام من التبن التي كانت موجودة في جانب من الحظيرة، وعادت لتقف مجددًا أمام خديجة، فنظرت لها ثم نظرت لممدوح الذي يتابعهما بنظراته القذرة، فأعادت أنظارها مجددًا لها وهي تهمس لها: «أرجوك خديجة دعينا لا نفعل هذا، أنتِ تعلمين ماذا تكون النهاية أرجوك لنمتنع كلانا» ضحكت خديجة بسخرية وهي تجيبها: «هل تخشين الموت؟! أم تخشين على صغيرتكِ بعد موتك؟!»

«هل سنقضي السهرة في الثرثرة؟!» قاطع حديثهما ممدوح مع إشارته لهما بالبدء، ولكنه أجبر زمرد على أن تخلع معطفها، فنظرت له بكرهٍ وهي تخلعه لتغطي به جسد سهيلة وتحميها من البرد.

كان القتال عنيفًا بينهما، خديجة بجسدها الضخم ضد جسد زمرد النحيف الذي أصابته الإنفلونزا بالقليل من الإجهاد، ولكنها لم تخسر كل قوتها وما تدرّبته

على يد غُفران، كان ممدوح يتابعهما بتلذذ حتى وصل النزال لنهايته وزمرد تدفع بجسد خديجة على الأرض وتكيل لوجهها المكدوم لكمة قوية خارت بها قواها، فوقعت بجسدها فوق جسد خديجة الساكن على الأرض.

أخذت زمرد تلهث بقوة وازداد سعالها بينما نزيف عينيها لا يتوقف، نهضت بضعف وهي تنظر لجسد خديجة بألم، رفعت كُمّ منامتها ومسحت به دماء أنفها وملست على عينيها لتوقف نزيفها، شهقت برعب وهي تشعر بجسد ممدوح يلتصق بجسدها بعنف من الخلف، وهو يضع بكفها السلاح ويهمس بأنفاسه اللاهثة: «هيا أنهِ عملك».

هزت زمرد رأسها بالرفض وهي تبعد وجهها عن أنفاسه: «أنا لن أقتل مجددًا»، ابتعد ممدوح عنها وقد ضاع انتشاؤه ونظر لها ببرود وتحدث بهدوء مخيف: «حسنا لا تفعلي»، ليقترب في نفس اللحظة من جسد سهيلة ورفع السلاح، مشيرا به إلى جسدها، فصرخت زمرد: «لا.. أرجوك لا».

ابتسم ممدوح وهو ينظر لمنحنيات جسدها بشهوة: «هذا خيارك»، ارتعش ذقن زمرد وضمت شفتيها لتمنع بكاءها وهي تسأله بكرهٍ: «ما الذي ستستفيده؟!» اقترب ممدوح منها وهو يهمس أمام وجهها: «لذة القتل بين الإخوة لا مثيل لها، كما أن لا أحد يرغب في بضاعة فاسدة».

أغمض عينيها عن كم الكره والحقد الذي يشع من عينيه فهدر بصوته: «الوقت ينفذ يا نمرتي».

حملت زمرد السلاح بيديها ونظرت له للحظات كانت كفيلة ليتحرك ممدوح بعيدًا عنها فرفعت سلاحها له وهي تنظر له بغضب: «لن أقتلها، وإن كانت هناك بضاعة فاسدة فهي أنت أيها الوغد»، ضحك ممدوح بقوة وصدى ضحكاته يتخلّل هواء الحظيرة، وبعد أن هدأت ضحكاته، نظر لها بإعجاب واضح: «أعلم أن هناك شرًا رائعًا بداخلكِ، فقط في انتظار أحدهم أن يخرجه، وأنا على استعداد تام لإخراجه».

ارتعش السلاح بيد زمرد وهي تلمحه يرفع جسد سهيلة أمامه وسكينته الموضوعة على رقبتها قد أحدثت جرحًا كبيرًا.

انهمرت دموع زمرد وهي ترى نفسها عاجزة أمامه، فتحدث بسخرية: «لا، لا مجال للدموع نمرتي، ألا ترين لا مفر لكِ، أنا أفهم جيدا كيف تفكرين، ألا ترى كيف أستطيع قراءتك بسهولة، والآن سأعد لثلاثة، وأريد أن أرى جثة أمامي، إما خديجة أو سهيلة فاختاري».

«واحد اثنان ثلاثة» وكان صدى صوت الرصاصة يدوي في الحظيرة يخفيه أصوات الرعد بالسماء وأنوار البرق الساطعة.

سقط السلاح من يد زمرد وهي تنظر لجسد خديجة الساكن وهي تعلم أن سكونه ليس إلا سكون الموتى، مرت دقيقة فاثنتان فثلاث، ولمحت سمر وخلود تحملان جسد خديجة لإحدى الغرف المُغلقة، فرفعت أنظارها لتلمح ذلك الطبيب الذي تعرفه جيدا وتعرف غرضه، فأغمضت عينيها وهي ترى باب الغرفة يُغلق على جسد خديجة مع الطبيب.

«والآن الاختبار الثاني» التفتت زمرد بصدمة لصوت ممدوح وهي تراه يرفع جسد سهيلة مجددًا بينما هذه المرة سلاحه بيديه ومُوجها لرأسها فهتفت غير مُصدقة: «عن أي اختبار تتحدث! لقد انتهى الأمر»، تحدث ممدوح بعينين زائغتين وهو ينظر لجسدها: «ينتهي الأمر حينما أقول أنا»، همست زمرد: «ما الذي!»

قاطعها قبل أن تكمل: «أريدكِ مقابل حياتها».



مقر الأمن الوطني

تذكّرت تلك الجملة التي كانت تقولها ليلى دائما: «أنت لا تستطيع كسر شيء قد تم كسره من قبل» لماذا إذا تشعر بكل تلك الآلام؟!

يتابعها بعينيه وهي تحاول جاهدة ادعاء الثبات، عيناها على باب المكتب منذ أن فاقت من إغماءتها، وأخذت تتحدث بهستيرية عن هذا الملف الذي يخص قضية

قديمة يتابعها أحد زملائه، وعندما أخبرها بأن القضية على وشك أن تُقيد ضد مجهول بعد إعادة فتح التحقيق فيها للمرة الثانية لعدم وجود أدلة، وقد أصرت على الذهاب فورًا للمحقق المسؤول عن القضية، ها هي تتشبث بحقيبتها وهي جالسة على الكرسي كأنها طوق نجاة لها، اهتزاز حدقيتي عينيها يفضح توترها الشديد أو بالأدق خوفها! لا يستطيع أن ينسى ما قالته قبل إغمائها، لكنه لا يفهم معنى جملتها ويخشى أن يفهم، قاطع تفكيره طرق الباب ثم دخول صديقه المحقق بالقضية.

بادر محمد المُندهش بالسلام على يامن، وهو ينقل نظراته بينه وبين تلك التي انتفضت من مكانها وقت دخوله المكتب: «مساء الخير يامن، عذرا كان لدي تحقيق لذا تأخرت عليك، أخبرني العسكري أنك تريديني في أمر مهم»، أجابه يامن بهدوء: «عذرًا على تعطيلك، ولكن بالفعل الأمر مهم».

أخرج يامن الملف الذي بيديه وأعطاه لمحمد وهو يكمل: «لقد تركت هذا الملف في مكتبي وقت مأموريتنا الأخيرة حينما كنت تدرسه في مكتبي»، نظر محمد باستغراب للملف وهو يجلس على كرسيه، ثم لحظات وأعطى يامن كل انتباهه وهو يشعر أن هناك أمرًا ما يخص قضيته، فلم يخيب يامن ظنه وهو يكمل: «أظن أن ابنة عمي تعرف الضحية».

نقل محمد نظره سريعا لتلك المرأة التي لم تهتف بشيء منذ دخوله بينما شحوب وجهها يوحي له بمدى خوفها فبادر بسؤالها: «هل تعرفين من تكون؟!» أجبته زمرد وهي تشعر بأن روحها مُعلّقة بإجابة سؤالها: «كيف ماتت؟!»

ساد الصمت للحظات وكل من يامن ومحمد يتابع شحوب وجهها، فقطع محمد الصمت يتحدث بهدوء: «لقد ماتت إثر أزمة قلبية من شدة الهلع بعد أن تم اغتصابها».

اتسعت عيناها بصدمة، وشعرت كأن الهواء المحيط بها غير صالح للتنفس، شعرت كأنها تختنق فرفعت كفها لتحيط به عنقها وهي تحاول أخذ شهيق يتبعه زفير، ولكن لا شيء، لا شيء، شعرت بملمس كف يامن وهو يربت على ظهرها بحنان ويجلس على الكرسي بجوارها، فرفعت عينيها تنظر إليه باستغراب، وهي

تلمح شفتيه تتحركان، يبدو أنه يقول شيء ولكن صوته لا يصل إليها، لا تسمع سوى صفير حاد يتخلله صوت ضحكات رقيقة تعلم جيدًا صاحبتها سهيلة، أختها وصديقتها وابنتها.

«تنفسي زمرد.. تنفسي»

صوت يامن تخلّل لكل تلك الأصوات، يطلب منها التنفّس، شهقت بعنف والهواء يضرب رئتيها بقوة، فتمسكت بكف يده الآخر بقوة ودموعها تتساقط دون وعي منها.

«أحسنتِ، أحسنتِ، نعم هكذا تنفسي أنتِ بخير الآن».

أخذ يامن يتحدث بقلق وهو يأخذ كوب الماء من محمد ويعطيه لها: «اشربي قليلًا عزيزتي».

لم تنتبه بما ناداها بينما قرب الكوب من فمها لعلّها تملأ حلقها ببعض القطرات وهو يشعر بتيهها وصدرها يعلو ويهبط من قوة تنفّسها، ابتلعت القليل ثم أبعدت رأسها عن الكوب وهي تنظر مجددًا لمحمد، وساد الصمت للحظات وهي تقول: «أنا أعرف قاتلها، أعرف مَن اغتصبها، سأخبرك كل شيء، هذه القضية لم تعد ضد مجهول».

ساد الصمت مجددًا ومحمد يحاول أن يدرس حالتها، وهو لا يصدق حتى الآن الصدفة التي جعلته يترك الملف بغرفة يامن الآمنة ليجد أخيرًا حل القضية التي تم فتحها مرتين ولم يصل أحد لشيء بها.

تنحنح محمد وتحدث بهدوء: «يمكنكِ أن ترتاحي قليلًا، وسنبدأ التحقيق وكتابة المحضر بعد عشر دقائق، اعذروني لدقيقة»، نهض محمد وكاد يخرج من الغرفة حتى استوقفته بصوتها المُهتز: «من فضلك أريد أن يتم التحقيق دون حضور المُقدّم يامن».

نظرا لها بدهشة وهي تتابع بينما أسبلت أهدابها عن عين الذي يجلس بجوارها: «هذا هو شرطي لإبلاغك بهوية القاتل»، هز محمد رأسه من دون قول

شيء، ثم تحرك للخارج، نهض يامن من جوارها وهو ينظر لها بقوة يتابعها بعينيه، كيف تلملم شتات نفسها وتمسح دموعها وتحاول السيطرة على مشاعرها، مانعةً نفسها بقوة من الانهيار فتحدث بغصب مكتوم: «هل تظنين بعدم وجودي لن أعلم ما حدث، أنني لن أعلم ماذا كُتب في المحضر؟!»

أجابته بهدوئها وهي تدخل مجددًا لتلك القوقعة السخيفة التي تسجن نفسها فيها فلا تظهر أي من مشاعرها مما يزيد من غضبه: «يمكنك أن تعرف من أي شخص عما حدث، ولكن لن أكون أنا هذا الشخص»، قاطع حديثها وهو يهتف بغضب: «وما الفرق؟!»، رفعت عينيها له ولمحة ألم مرت بعينيها التقطها هو بوضوح قبل أن تمحيها فهدّأت من غضبه وهي تجيبه: «لأنني لا أريد أي نظرات شفقة منك، لن أتحمّلها أقسم لك».

لم يجبها يامن بشيء وهو يلمحها تسبل أهدابها، ودمعتان تسطران آلامها على وجنتيها، لتصل لقلبه آلامها مُضاعفة، كيف تكون بهذا الخليط المُذهل، كيف تكون بهذه القوة وهي أكثر من هشة بداخلها؟! كيف لها بكل هذه الكبرياء وهي؟! استغفر في سره وتوجه لباب المكتب وهو يجيبها: «كما تشائين، ولكنني لن أرحل من هنا اليوم دون أن أعرف علاقتكِ بالضحية وما معنى ما قلتِه قبل إغمائكِ».



وشعرت بأن في روحي ثقبًا، ثقبًا يتسع ويمتص كل ذكرياتي وحياتي وأحلامي، وددت لو كان شخص أعرفه بقربي أحكي له كل شيء أقص عليه حكاية الثقب

أحمد خالد توفيق

مرت ساعة وهي تحاول أن تستوعب ما قاله المحقق: «لقد وجدناها مدفونة تحت أرض صحراوية، كان هناك العديد من الكدمات والغرز بجسدها، تشريح جثتها أثبت أن وريدًا بالأنف انفجر، أي أن قلبها كان يتحرك حين أخرجوا عينيها، والطب الشرعي أظهر انتهاكًا في أجهزتها التناسلية كشف عملية الاغتصاب، دفنها وعثورنا عليها بعد أيام لم يساعدانا في إيجاد المجرم الحقيقي، أفراد العصابة التي ألقينا القبض عليهم كانوا يحفرون بالقرب من مكانها، كأنهم على علم بوجودها، فدورهم يقتصر على إلقاء جثتها بالبحر، ولكن يبدو أن مُخططهم قد فسد بقدومنا».

ماذا يمكن أن يحدث أسوأ من هذا؟! هل هناك نهاية لهذا الألم؟! هل تلك الغصة التي تخنقها الآن سترحل يوما؟! أم أصبح وجودها من المسلّمات، كأن من الطبيعي أن تختنق، من الطبيعي أن تتألم!

أغمضت عينيها وهي تتذكّر كم من المعلومات قد سردتها للمحقق، أخبرته كل شيء، بالإضافة لما يعرفه عن ممدوح، أخبرته عن الاتفاق الذي وضعته معه من أجل الحفاظ على سهيلة، أخبرته أنها ضحت بالكثير من أجل بقائها على قيد الحياة، بأنها كانت على علم برحيلها عن المزرعة، وكانت تعي أنها تكمل دراستها في بلد آخر، أخبرته عن اتصالها بها واطمئنانها عليها، إذا كانت سهيلة قد ماتت منذ سنتين، إذا من تلك التي تحدثت معها! ليجيبها بأن هناك الكثير من البرامج التي تسجل الأصوات، ويبدو أن ممدوح قد سجل لها من قبل وأخذ حذره، فتأكدت من هذه وهي تتذكر إصراره الدائم على التواجد في كل مكالمة.

أخرجها من أفكارها طرق على الباب، لتفتح عينيها وهي تعي أنها ما زالت بمكتب المُحقق الذي خرج من المكتب منذ مدة، لمحت يامن يقف أمام الباب يدقّق

في تعبيرات وجهها، نظرت للأرض وهي تحاول أن تتماسك حتى تعود للمنزل، يا إلهي كم تحتاج للعودة لسريرها الآن والبكاء فقط البكاء.

«سأعيدك للمنزل أولا ثم سأعود ليجيبني النقيب محمد عن أسئلتي».

هل عاد هذا مهما لها؟! لا لم يعد مهمًا إن عرف يامن الحقيقة أو لا، لم يعد أي شيء مهمًا بعد أن ماتت سهيلة، ارتجف جسدها فنهضت ببطء من على الكرسي وهي تشعر بأن ثقلًا كبيرًا يقيد حركتها، تشعر بنفسها تختنق، تريد أن تخرج من هنا، تريد أن ترحل.



منزل زمرد

أخذت تنظر للظلام من حولها، ظلام يشبه الذي اعترى روحها، خواء بالقلب والروح، صورة تأبى أن تفارق خيالها، صورة أخذت تدعو أن يستبدل بها الله صورة أخرى أفضل، هي تريد صورة سهيلة الضاحكة، لا سهيلة التي ملأ وجهها وجسدها الغرز السوداء، أخذت نفسا طويلًا زفرته بخفوت وهي تغمض عينيها، لا تشعر بأي شيء حولها، عشرة أيام مكثتها في غرفتها، لا تريد رؤية أحد، والدتها قلقة عليها وهي تدلف لغرفتها كل مساء تجلس بجوارها على السرير وتقرأ لها القرآن، تعلم أن ادعاءها النوم هو الذي يسمح لوالدتها بالجلوس بجوارها والاطمئنان عليها، فتتلمّس منها دفئًا تحتاجه وأمانًا تُفتش عنه، ما زالت والدتها تشعر بالألم بعد ما عرفته عن ابنتها التي فرّطت في شرفها، ترى ماذا ستفعل إن علمت أسباب ابنتها لذلك، ولكن ما عاد هذا مهما.

غصة ألم تقبض على قلبها كل فترة وأخرى سببها غياب يامن المُستمر عن المنزل، منذ أن أوصلها للمنزل ذلك اليوم دون قول شيء ليعود للمُحقق وهي لم تره، وتساؤلها الدائم ترى هل عرف الحقيقة؟! هل لهذا لم يعد للمنزل؟! أيخشى مواجهتها؟!

تنهدت بخفوت وهي تشعر بالصداع يداهم رأسها بقوة، استدارت لتبحث عن أي مُسكن فوجدته على طاولة المكتب، ولكن لسوء حظها لا توجد مياه، اتجهت لباب الغرفة وخرجت لتتجه للمطبخ، لمحت نور الحديقة مُضاء ووصل لأسماعها صوت مكتوم في الخارج، استغربت وجود أحدهم مُستيقظا حتى الآن وقد انتصف الليل منذ ساعة.

اقتربت من الباب لترى من بالخارج، لتتفاجأ بيامن وهو يجلس على أحد الكراسي يخفي وجهه بين كفيه.

خفق قلبها بقوة لمرآه هكذا، مرت دقيقة لتتبعها الأخرى وهو لا يتحرك، فانتابها القلق، غطت شعرها بحجابها وأحاطت جسدها بشالها الخفيف، ثم خرجت من المنزل، اقتربت من مكانه وهي تراه على نفس وضعه، حتى وصلت قريبة منه، لمحت ثيابه غير المرتبة، فأدركت أنه بالخارج منذ فترة، أخذت تتلفّت حولها لترى إن كان هناك أحد مُستيقظ من أهل البيت فلم تلمح أحدًا، تنهدت بخفوت وهي تعيد أنظارها إليه فشهقت وهي تتراجع خطوة للخلف وهي ترى عيون يامن مُسلطة عليها بقوة، أخذت تهدئ من تنفّسها السريع، ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تلمحه يقف بطوله الفارع أمامها ويبدو من هيئة ملابسه غير المُهندمة ولحيته النابتة واحمرار عينيه أنه مُتعب، أنه لم يحظ بقسط كافٍ من الراحة، شعرت بتشنّج جسده بأكمله وهو يضم قبضته بجواره كأنه يمنع غضبه من الظهور!

«هل أنت بخير!؟» همست بسؤالها وهي تشعر بمدى غبائها بأنه ليس بوقته الصحيح وهو ينظر لها بجمود، رمشت بعينيها وهي تستشعر برودة غريبة بالجو، فأكملت بهدوء: «لقد لمحتك وأنا في المطبخ فظننت أنك تريد شيئا، ما الذي أتى بك في هذا الوقت المتأخر؟! هل كل شيء على ما يرام؟!»

صمتٌ فقط، صمت يحيط بهيئته فتنهدت بتعب وهي تستشعر حالته غير الطبيعية فهمست بتعب: «أين كنت طوال تلك المدة؟!»

لمحة ألم مرت في عينيه سريعًا ليسبل أهدابه وينظر للأرض، قتله سؤالها بهذا الضعف، كان يجاهد بقوة لكي لا يحفرها في صدره، يجاهد بقوة لكي لا يؤذيها

بغضبه، لكي لا يخطفها الآن ويبتعد بها بعيدًا عن كل شيء، لا يعلم لمَ جاء الآن لها، لمَ لم يدلف لمنزله بدلًا من المرور بالحديقة الخلفية لمنزلهم، لا يعلم لمَ كان مُتيقنا من وجودها في انتظاره، كأنها كانت تعلم بقدومه أو بالأدق كأنها كانت تنتظره! أليس هذا معنى سؤالها الأخير؟!

لمحها وهي تبتعد خطوة وتهمس بـ«تصبح على خير»، خطوة خطوتين باتجاه الباب الخلفي للمطبخ حتى ناداها: «هل يمكنكِ تحضير كوب من القهوة لي؟!»

توقفت مكانها وهي مُتفاجئة بطلبه، فهمست دون أن تلتفت له: «لا أحد مُستيقظا في المنزل، أمي ورحاب نائمتان و...» قاطعها مُسرعا: «فقط لخمس دقائق أتناول فيها كوب القهوة، أنا في حاجة شديدة له».

أسبلت أهدابها لحظات ولمحها وهي تهز رأسها بالموافقة وتتقدمه لباب المطبخ.

كان يتابعها بعينيه الناعستين وهي تعد القهوة بهدوء يحسدها عليه، هذا النصل الذي بقلبه يتلوى بداخله؛ يؤلمه بقوة، يجعله يتمنى أن يصرخ بأعلى صوته، ما عرفه من أسبوع وأكثر كان فوق احتماله، كان فوق قدرته على الاستمرار، ما زال يتذكّر كيف تلقت أذانه حديث محمد لتظلم الدنيا من حوله وألم بأعلى صدره انتابه مجددًا ولكن هذه المرة أقوى، ليستيقظ بعدها في المشفى والطبيب يخبره بأنه تعرض لذبحة صدرية، لكن لم يستمع لما كان الطبيب يتحدّث به ولا لتنبيهاته، لم يخبر عائلته بما حدث ليخبرهم مُبررا غيابه بأنه مُضطر للبقاء في العمل من أجل القضية، كان ما زال تحت صدمة ما سمعه وما عرفه، تلك التي أمامه الآن قد تم اغتصاب براءتها من أجل أن تنقذ صديقتها، عانت لسنوات لاعتداءات جسدية من أجل سبب واهٍ، ظنا منها أنها تحافظ على حياة صديقتها التي اغتالها نفس الرجل الذي اغتال براءتها، أخذ يفكر كم عانت وهي بمفردها أمام هذا الوغد، كم تحمّلت وكم صمدت أمام الآخرين، كم استقبلت كلماته هو وإهاناته لها منذ أن وجدها، يا إلهي كم كان قاسيا معها.

ارتعشت بقوة وهي تراه ينظر لها بألم ودموع تترقرق بوضوح في عينيه، أشاحت بنظرها وهي تضع كوب القهوة أمامه بارتجاف فانتفضت وهي تراه يمسك يديها

بقوة، يخفي وجهه بين كفيها وهو يتنهد بتعب، ارتعش جسدها للمسته وأنفاسه التي تضرب كفيها تثير بداخلها كل مشاعر الضعف فشعرت بأن صمودها كل تلك الأيام قد أوشك على النفاد، لم تستطع أن تبكي، حاولت بقوة بعد أن عادت ذلك اليوم وهي تظن أنها ستنفجر بالبكاء، لكنها لم تستطع، شعرت بأن روحها ماتت في تلك اللحظة وهي لا تقوى على ذرف دمعة واحدة.

ارتعشت شفتاها وهي تضمهما بقوة، تمنع نفسها عن البكاء، عن الانهيار الآن وهي تراه يتلمّس بوجهه كفيها كطفل صغير يشتاق لحنان أمه، شهقة لم تستطع كتمها لتنفجر بعدها بالبكاء، أغمضت عينيها بقوة ودموعها تنهمر تغرق وجنتيها، تبكي آلامها، أوجاعها، تبكي براءة مُغتصبة، تبكي روحها المُنكسرة، تبكي فقد صديقة وابنة، تبكي اغتيال براءتها هي الأخرى، كلما تتذكر كيف عانت صغيرتها، كيف شعرت وهي تحت أيديهم، كيف ماتت من الهلع وهي تعي ما يفعلونه بها، كيف شعرت وهي تحت يد الطبيب الذي أخذ عينيها قبل أن يأخذ كبدها وكليتها وقلبها فتتوجّع أضعاف وجعها، حاولت جذب كفيها من بين يديه ولكنه لم يسمح لها وهو يتابعها بألم، لينهض ببطء ويجذبها لأحضانه من دون أي مقدمات، شعر بتشنّج جسدها فربت بكفيه على ظهرها بحنان وهو يهمس بوجع بالقرب من أذنيها: «ابكِ وجعكِ ووجعي، ابكِ فقدكِ، ابكِ آلامكِ وآلامي، ابكي طُهركِ، ابكِ شجاعتكِ، ابكِ يا حبيبتي».

لتتعالى شهقات بكائها ويرتعش جسدها من قوة انهيارها بين ذراعيه، دقائق وقد تحوّلت شهقاتها لنشيج مكتوم حتى لمح جسدها يرتخي بين ذراعيه، ليعلم أنها هربت مجددًا من عالمها القاسي مغشيا عليها.



مقر الأمن الوطني

في انتظار النقيب سامي، جلست غُفران تفكّر بهدوء فيما حدث، لقد اتصل بها آسر وهي باجتماع مع اللواء، هو اتصل باللواء نظرًا لأنه لا يعرف رقمها، تذكّرت حديثه عن أميرة وتطور حالتها وقبولها إياه، أراد أن يسألها عن أسئلة

معينة بخصوص الماضي، فأخبرته وهي مستغربة تلك الأسئلة، خاصة لتفهم فيما بعد أنها وتوءمها أكثر من مجرد توءم، فلديهما ذلك التواصل الذي يربطهما معًا، حانت منها ابتسامة وهي تفكر أنه لطالما كانت الغرابة متصلة بأميرة وحياتها، ولكن أليست متصلة بحياتهم جميعًا، آسر دائما ما يشعرها بالتوتر، تذكّرت نهاية الحديث وهي تحاول أن تمنحه الإجابات التي يحتاجها لكي تنهي الاتصال بعدها لتشعر بتلك الآلام المتفرقة في معدتها وهي تسمعه يقول: «اهتمي بنفسكِ غُفران» جملة من ثلاث كلمات أثارت زوبعة داخلها، ليكمل عليها وهو يقول: «أتمنى رؤيتكِ قريبًا».

تنفست بضيق وهي تتذكر آخر لقاء كان بينهما وإنقاذه حياتها، ارتعش جسدها للحظة وهي تتذكر الفيديو الذي أخذوه من كاميرات المراقبة حول المركز، لقد حاول الحقير تخديرها، وقد ارسل باتجاهها سمر وخلود لتحملانها بعد التخدير، وفور أن لمحتا آسر ابتعدتا عنها على الفور، سمر وخلود لم تستطع يومًا الوصول لدواخلهما، حاولت مع خلود، لكن سمر كانت تتشرّب كل شيء من ممدوح وبعدها تفسد كل ما تحاوله مع خلود، لقد كانتا معها منذ أيام الكهف، أول الفتيات التي التحقن بالعصابة، تنفّست بهدوء تحاول أن تبعد ذكريات ذلك المكان عنه، وهي تفكر في فعلة ممدوح، تكره أن تعترف أنه لولا وجود آسر لأصبحت الآن بين يديه، هي لم تخف من اختطافه لها بل خافت من عجزها أثناء اختطافه لها، الوغد لم يكن يومًا عادلا في أمور القتال، يجيد الخداع بسهولة.

عادت القوات برئاسة النقيب سامي الذي دخل مُكفهر الوجه ليخلع سترته وهو يبعد عينيه عنها ويجلس على كرسيه لتسأله دون مقدمات: «إذا؟!»

تحدّث بضيق وهو يعلم أنها لن تتوانى عن معرفة الحقيقة: «لقد ذهبنا للمكان غُفران، لقد وجدنا خلود غارقة بدمائها بعد أن قطعت شرايينها تاركة لكِ هذه الرسالة».

أتبع كلامه وهو يمد يديه بالرسالة المحفوظة في كيس الأدلة، لتنقل عينيها بينه وبين الرسالة بجمود، ثم لحظات والتقطت الرسالة لتقرأ ما سطر بها: «أعلم بأنكِ لن تقبلي بمسامحتي، فأنا أيضًا لن أفعل، لقد سمعته يخبرني بالحقيقة وهو ثمل،

لقد عرف والدي طوال تلك الفترة غُفران، عرفه جيدًا لأنه من قتله، لم أستطع غُفران، تلك الأصوات تقتلني، أنا لم أستطع لقد سلّمت نفسي لمن قتل والدي، أتظنينه سيسامحني غُفران، أتظنينه يقبل رؤيتي ومقابلتي؟!».

أخرجها من جمودها صوت سامي وهو يقول لقد وجدنا آثار مخدرات ومواد مُهدئة بغرفتها، حين سألنا عنها الجيران أخبرونا أنها تأتي للشقة مرة أو مرتين كل أسبوع، وآخر فترة استمرت على المداومة على الشقة لفترة طويلة، والآن تلك القضية أيضًا خرجت من يدي، سألته غُفران باستغراب: «ما الذي تقصده؟!» أجابها بضيق: «اللواء سامح راغب لقد تم إرساله إلينا منذ فترة، استلم قضية مقتل الطبيب وعائلته والآن تلك القضية، اللواء حسين يتحرّى خلفه الآن، فهذا الرجل سمعته ليست نظيفة، ومما أراه هو يماطل في التحقيقات حتى يصل لما يريد، أساليبه قذرة»، سألته غُفران: «هل تظن أن له علاقة بممدوح؟!» أجابه: «أنا لا أظن ذلك، الرجل كان في الصعيد بمكان آخر بعيد عن ممدوح منذ سنوات، ولكن هذا ليس رأي اللواء حسين»، صمتت غُفران تفكر في الكلام ثم عادت بتفكيرها لخلود لتقول: «إنها من كانت تراقبني بعد الحادثة، هي من كان توصل له المعلومات لا هؤلاء الرجال الذي أوهمني بوجودهم، لكن يبدو أن ممدوح كان على علم بتواصلي مع الشرطة طوال كل تلك الفترة، يبدو أنه لم يثق كفاية بعمران، السؤال الآن لماذا لم يتصرف تجاه هذا الأمر؟» صمت سامي ليجيبها بتوتر: «لقد فعل وما زال يفعل حتى وقتنا هذا».

نظرت له غُفران باستغراب ليقول: «لقد ألقى في طريقكِ الفتات الذي أرادكِ أن تتبعيه، فتات يوصلكِ لطريق يريدك هو فيه بعيدًا عن الطريق الذي رسمه لنفسه».

أتبع حديثه بملف أخرجه من مكتبه ووضعه أمام عينيها، لتفتح غُفران الملف بترقب لتتسع عيناها صدمة وهي ترى صورًا مختلفة لجثة سهيلة.

انتفضت من مكانها وهي تمسك الصور بين يديها، بينما تسمع سامي يخبرها: «لقد وجدها رجالنا منذ سنة مدفونة في مكان بالقرب من الصحراء، والقضية تم تسجيلها مرتين ضد مجهول قبل أن يستلمها النقيب محمد، لقد تم

دفنها بعد أن تم استخراج جميع أعضائها، وطبيب التشريح وجد انتهاكًا واضحا دليلا على اغتصابها. الأوغاد أخرجوا عينيها وهي على قيد الحياة.

قريبة يامن من اكتشفت من تكون وهي بمكتبه صدفة، ويامن حالته الصحية غير جيدة، بالأمس فقط خرج من المشفى، ويبدو أنه عرف الحقيقة، فزمرد قررت التحدّث أخيرا بكل شيء حدث في تلك السنتين، غُفران أنت في حاجة لتهدئي حتى أستطيع إخبارك بما عرفناه»، تنفّست غُفران بصعوبة ودموعها ترقرقت في عينيها تحاول السيطرة على مشاعرها، ومن هيئة سامي يبدو أن الصدمة الحقيقية لم تسمعها بعد.



منزل زمرد

أخرجتها من سباتها أصوات عالية مُتداخلة بالخارج، لتفتح عينيها ببطء، لمحت أشعة الشمس تتخلّل شرفة غرفتها، استغربت ما حدث، وأخذت تتذكّر كيف عادت لغرفتها ونامت هكذا، فعادت لها ذكرى عودة يامن وانهيارها بين يديه، ارتعشت مجددًا وهي تحاول أن تنهض من على سريرها، لتفزع من صراخ رحاب العالي وهي تنادي أمها، نهضت مُسرعة وخرجت للردهة لتلمح رحاب تصرخ ببكاء ويامن وسليم يحملان والدتها ويتوجهان للخارج ويامن يهتف برحاب: «ابقِ مع زمرد، سآخذ عمتي للمشفى».

تجمدت مكانها للحظة ثم اقتربت مُسرعة من رحاب، التي انتفضت للحظة، ثم مسكت ذراعها بقوة: «أمي زمرد، إنها تموت».

لا تعلم كيف جاءت هي ورحاب للمشفى مع سليم ابن عمها الذي انتظر بالمنزل بأوامر من يامن، فبعد أن هدأت من روع رحاب خرجتا لترى سليم بالخارج الذي رفض في البداية، ليوافق مصدوما من ردة فعل رحاب وهو يراها تصرخ في وجهه لأول مرة: «لتقم بأمر واحد صائب في حياتك»، لا تعلم كم مر الوقت وهي تنتظر مع رحاب وولدي عمها أمام غرفة العناية المُركزة في انتظار الطبيب الذي أخبر

يامن فور وصوله أن والدتها تعرضت لأزمة قلبية، بينما عضلة قلبها ضعيفة جدا في حاجة للمتابعة الدقيقة، ولا تحتمل أي تدخّل جراحي.

رفعت عينيها تنظر لرحاب فوجدتها تمسك بمصحفها وهي تقرأ بصوتٍ مُنخفض، بينما دموعها لا تتوقف عن الانهمار وجسدها لا يتوقف عن الانتفاض، كانت تظن أن قلبها لن يتعرّض لأي آلام مجددًا، ظنت أنها وصلت لأقصى حد من الوجع ولكن ما تشعر به الآن فاق كل حدود الوجع، والدتها الحنون، والدتها التي لم تتنعّم بحضنها بما يكفي، لن تحتمل أن يصيبها مكروه، لن تحتمل أن تفارقها!

«يا إلهي احفظها» همسة رجاء خرجت من فمها وهي تزيح عينيها عن أختها لتلتقي بعيون حاميها، سندها القريب البعيد، شعرت به يحاول أن يطمئنها بعينيه ولكن هي تعلم- كما هو يعلم- أن الوضع غير مُبشر، انتقلت أنظارهم جميعا للطبيب الذي خرج من العناية وهو يقول بهدوء: «تريد أن ترى ابنتيها».

دلفت للغرفة هي ورحاب فاستشعرت برودة غريبة حولها، أوصلتهما الممرضة لسرير والدتها وهي تخبرهما ألا تزيدا على خمس دقائق لحالتها الصحية، إذا هل الخمس دقائق كافية لوداع أحدهم؟! هل كافية لإخبارهم مدى حبنا لهم؟! هل كافية لنتمسك بطرف سترتهم ونتوسل لهم أن يغفروا لنا، أن يسامحونا، أن نخبرهم بمدى ندمنا عن انشغالنا لحظة من الزمن عنهم.

قاطع تفكيرها صوت شهقة صدرت من أختها وهي تندفع لكف والدتها وتقبلها بقوة بينما دموعها ما زالت تنهمر وهي تتحدث ببكاء: «أمي هل أنتِ بخير؟! أمي ماذا حدث؟! لمَ لم تخبريني بأنك مريضة؟!»

رفعت زمرد عينيها لوالدتها التي تُربّت بكفها بوهن على رأس رحاب بينما تنظر عيناها لها!

شعرت بلسعة في عينيها وهي ترى والدتها تنظر لها بألم كأنها تطلب منها السماح! همست داخلها: «يا إلهي»، وهي تشعر أنه قد وصلت الحقيقة أخيرا لوالدتها، سمعت صوت والدتها الضعيف: «سامحيني يا ابنتي، سامحيني لقلة حيلتي، سامحيني لأنني ظلمتكِ مع من ظلموكِ».

ارتعشت مجددًا وهي ترى والدتها تجاهد لتخبرها بكل ما بداخلها، كأنها تخشى الرحيل قبل أن تخبرها، اقتربت زمرد مُسرعة من والدتها عند هذه الفكرة، وأحاطت كفها الآخر بين يديها وهي تُربّت عليه بحنان، وتحدثت بمشاعر ظنت أنها فقدتها للأبد: «فقط ارتاحي حبيبتي، ارتاحي ولا تشغلي بالكِ بشيء، كل شيء سيكون على ما يرام، كل شيء سيكون بخير».

لا تعلم هل تُردّدها لتُطمئن والدتها أم تُطمئن نفسها، تحدثت والدتها بتعب وهي توجه أنظارها لرحاب: «كنتِ مُحقة رحاب، شقيقتكِ بريئة من آثام غيرها براءة الذئب من دم يوسف، شقيقتكِ شجاعة، ضحت بأغلى ما تملك من أجل غيرها، من أجل أن تنقذ روحًا يا ابنتي، كنتِ مُحقة ووالدتكِ من أخطأت، أنت التي لم ترِ شقيقتكِ من قبل ووثقتِ بروحها بينما لم أفعل أنا والدتها يا ابنتي».

لمعت عيناها بالدموع وهي ترى انهيار والدتها، أخفضت رأسها وقبّلت كفيها بحنان وهي تردف بهدوء: «هوني عليكِ أمي، أرجوكِ لا تهتم لشيء الآن سوى صحتكِ».

ابتسمت لها والدتها بحب صافٍ، لا يكدره أي شيء أخيرا، التفتت لرحاب وتحدثت بتعب: «حاوطي شقيقتكِ دائمًا بالحب يا رحاب، آمني على أسراركِ معها ولا تخفِ عنها حزنكِ، اهتمي بمستقبلكِ، وافصحي عن مكنونات صدركِ يا ابنتي، تمسكي بدينكِ وبمبادئكِ ولا تجعلي شيئًا يؤثر سلبيا عليها»، بكت رحاب بقوة وهي تقبّل كفها: «أمي أرجوكِ لا تقلقيني عليكِ».

ابتسمت لها والدتها ابتسامة اقشعر لها بدن زمرد، وشعرت بغصة تحكم حلقها وهي تعي أن والدتها تودّعهما الآن، سمعت طلب والدتها لرحاب بأن تتركهما قليلًا بمفردهما فنفذت لها رحاب طلبها وهي تودّعها بعينيها بعد أن قبّلت جبينها.



كانت لديها تلك النظرة بعينيها

أي نظرة

نظرة من ذاق مرارة الفقد وهو على قيد الحياة

الفصل الثالث عشر
الاعتراف

منزل أميرة

كانت جالسة تقرأ بصمت بينما أذناها تلتقطان الحديث الدائر بين أمير ووالدته عن الرحلة التي يرغب أمير في الذهاب إليها، تحدث أمير بحماسه المعتاد: «أمي، إنها تابعة للمدرسة قررتها في الإجازة الصيفية سيكون هناك مشرفون والكثير من الطلبة، يا إلهي لقد تبقى أشهر على دخولي الجامعة، لا أصدق قلقكِ حتى الآن»، تهرّبت جميلة من النظر لعين ابنها واتجهت لزوجها ونظرت له نظرة: «ساعدني» ففهمها على الفور فبادر محمد بالحديث: «حسنا هيا اجتماع طارئ، ناد على إخوتك»، تنهد أمير بضيق: «يا إلهي لا أصدق اجتماع طارئ لرحلة مدرسية» تركهم أمير ووقف أمام الدرج وناد بأعلى صوته على إخوته فارتبكت أميرة للحظة من الموقف فمسكت الكتاب بيديها ونهضت لتصعد غرفتها فأوقفها صوت محمد: «أنتِ أيضًا ليلى إنه اجتماع طارئ خاص بالعائلة»، رفعت أميرة عينيها بقوة لوالدها الذي كعادته مؤخرًا يتجاهل النظر لعينيها مُنشغلا بالنظر لمفرش الطاولة، ابتلعت أميرة ريقها ببطء وتحدثت بهدوء: «لا أظن أن...» قاطعتها جميلة قبل أن تكمل وهي تقترب منها لتحتضن ذراعها بحنان وتجذبها للطاولة: «هيا فقط ابقِ معي ستستمعين بالأمر، سانديني بقراري، لا رحلات من دون العائلة».

لم تجبها أميرة سوى بهزة رأس وتوجهت معها للطاولة فلم تلمح ابتسامة محمد التي أخفاها بسرعة.

دقائق ولمحت أميرة الجالسة بجوار جميلة قدوم آسر ويبدو أنه كان نائمًا لأنه يجفف وجهه بمنشفته ويجلس بتعب على الطاولة بينما أحمد وآدم المنشغل كالعادة بهاتفه يجلسان إلى الطاولة، وأمير أخذ الكرسي بجوار والده وأمام والدته، بادر آسر بالحديث: «حسنًا ما الأمر الطارئ لعقد الاجتماع؟ وأتمنى أن يكون سببًا كافيًا لاستيقاظي من نومي».

بدأ محمد حديثه بجدية: «الموضوع يخص أخاك أمير ورحلته المدرسية للعين السخنة، الرحلة لأربعة أيام، ووالدتك ترفض الأمر كله كالعادة»، نظرت جميلة له بتأنيب وهي تهتف: «محمد»، رفع محمد حاجبيه بدهشة مصطنعة وهو يجيبها: «ماذا؟! أنا أوضح لهم سبب الاجتماع لم أقل شيئًا»، ابتسمت أميرة داخلها وهي ترى بوضوح شديد موافقة محمد على سفر أمير. أكمل محمد حديثه: «والآن سنستمع أولا لأسباب رفض والدتكم قبل أن يخبرنا كل فرد برأيه».

استغربت أميرة لهذا الاجتماع وجدية الجميع في الحديث، هي لم تجتمع يومًا مع أحد من عائلتها الأولى، بل لم يهتم أحد منهم بأي أمر يخصها، إن كان لا يؤثر بشيء على القوانين الأساسية للمنزل.

بادرت جميلة حديثها: «الأمر لم يتغير منذ سنوات فلِمَ تحاولون تغييره، لا رحلات من دون العائلة، الموضوع لا علاقة له بأنك كبرت أو أني لا أثق فيك، الموضوع ببساطة هو قلقي وخوفي من سفر لأربعة أيام»، همس أمير بصوت مسموع: «وإن كان نصف يوم لن توافقي أيضًا»، أجابته جميلة بعتاب: «ارفع صوتك يا ولدي العزيز وأنت تتحدث، نعم وإن كان لنصف يوم لن أوافق، يا إلهي ألا يحق لي الخوف عليكم، أنا بكل بساطة لا أستطيع أن يبتعد عني أولادي، كفانا ما ذاقه قلبي في بعاد ليلى»، وأتبعت كلامها بالضغط على كف يد ليلى الموضوع على الطاولة.

ابتلعت أميرة ريقها بصعوبة وهي لا ترفع عينيها عن يد جميلة التي تحيط بكفها، لحظات ورفعت رأسها لها بعد أن سمعت آسر يقول: «أمي من دون دموع أرجوكِ» فلمحت عين والدتها تترقرق بالدموع، مسحتها جميلة مسرعة بكفها الآخر الحر وأكملت: «حسنا من دون دموع آسفة أنا أرفض سفر أمير».

تنهد محمد بهدوء وأكمل: «حسنا لنأخذ القرار آسر»، رفع آسر عينيه لوالدته فوجدها تتوسّل إليه أن يرفض، فرفع كفه يتخلل شعره وهو يضحك ويقول: «لا تنظري لي هذه النظرة أمي، أمير كبير الآن بما يكفي لندعه يسافر وحده، أنا موافق على سفره، قلقك يُحترم بالتأكيد، لكن هناك هاتف وإنترنت يمكنكِ أن تعرفي أخباره منهما، ولكِ الحق في الاتصال به كل ساعة».

رفع أمير يديه ووضعها على ذراع آسر مبتسما وهو يقول: «شكرا أخي»، بينما نظرت له والدته بضيق مصطنع، هي تدرك مدى صحة كلام آسر، ولكنه قلب الأم، ابتسم محمد وهو فخور بابنه الكبير وتفكيره العقلاني: «حسنا الآن ليلى».

رفعت رأسها مُجفلة بينما كانت شاردة في كلام آسر وتفهّمه الشديد لوالدته ومحاولاته عدم إيذاء مشاعرها، فنظرت لمحمد الذي ينظر لكف يديه المجموع على الطاولة ثم رفعت عينيها لأمير ونقلت أنظارها لآسر المبتسم بحنان وأحمد المنتبه للحديث بجدية وآدم الذي يبدو أنه يفكر في أمر ما، ثم والدتها التي تنظر لها نظرة: «أنتِ مع قراري أليس كذلك؟!» فابتلعت ريقها بصعوبة وأشاحت بأنظارها عن والدتها ونظرت مجددًا لأمير الذي يبادلها النظر بهدوء، ثم أخفضت أنظارها لمفرش الطاولة وتحدثت بهدوء: «أنا موافقة على سفر أمير هو على وشك أن يتم سنواته الثامنة عشرة، أي أنه كبير بما يكفي ليخوض تجربة السفر لأول مرة، ولا أظن أن الوضع سيكون خطرًا بما أن الرحلة تحت إشراف المدرسة».

أنهت أميرة كلامها حين لمحتهم ينظرون إليها باهتمام، وأمير يبتسم لها بامتنان، فأزاحت عينيها مُستغربة من رد فعله، تنحنح محمد بهدوء وأكمل: «حسنا أحمد!»، نظر أحمد لوالده ثم نظر لأخيه وأجاب: «أنا أسف أخي أنا مع رأي أمي، أنا غير موافق».

تنهد أمير بحزن ثم أكمل محمد كلامه: «آدم»، نظر آدم لأخيه بشقاوة وقال: «الكاب الأسود!» رفع أمير رأسه بضيق مصطنع: «يا إلهي لا أصدق هذا»، هز آدم كتفيه وهو يضحك بشقاوة محببة فتنهد أمير وهو يجيبه: «حسنًا» فأكمل آدم: «وحقيبتك السوداء الجديدة»، نهض أمير من على الكرسي وهو ينظر له

بحنق:«لا أصدق، الحقيبة لم أستخدمها بعد سأسافر بها» فأجابه آدم:«بعد السفر إذا هي لي».

جلس أمير مجددًا وهو يجيبه بتنهد:«حسنًا» فأكمل آدم:«إذا اتفقنا، أنا موافق على سفر أمير»، كان محمد يتابعهما مبتسما، بينما جميلة تنظر لطفلها الصغير بصدمة.

فأكمل محمد حديثه:«حسنًا بعد أن انتهت الصفقة التي أتممها آدم بنجاح...» قاطعته جميلة بقوة:«محمد» رفع محمد كفيه وهو ينظر لها ببراءة:«ماذا؟! ماذا قلت الآن؟!» فأجابته جميلة:«لا تشجعه، وأنت هل هذا كل ما يهمك؟! كاب وحقيبة!» فأجابها آدم ببراءة مصطنعة:«بالطبع لا يا أمي، كيف تقولين هذا؟!»

لم تستطع أميرة أن تخفي ضحكتها هذه المرة وهي تنظر لآدم الذي تحول في لحظة لنسخة أكثر براءة من أحمد توءمه، أكمل محمد حديثه وهو ينظر لآدم ضاحكا:«حسنا الآن لدينا ثلاثة موافقة ورفضان أما أنا ف...» قاطعته جميلة بصوت هامس:«حبيبي أرجوك».

رفعت أميرة عينيها لوالدتها حين سمعت همستها، فلمحتها تنظر لمحمد بنظرة حب خالصة يشوبها التوسّل، ثم لمحت تأوهات من الجميع فنظرت باستغراب لهم وآسر يضحك مستمتعا:«الآن أصبح لدينا ثلاثة موافقة وثلاثة رفض»، بينما أسند أمير رأسه على الطاولة وهو يتأوه باصطناع:«ضاعت الرحلة بكلمة حبيبي»، بينما ارتفعت قهقهات آدم واحمر وجه أحمد كعادته، فهتف محمد بجدية مصطنعة وهو لا يرفع عينيه عن وجه حبيبته:«ماذا؟! توقفوا عن هذا الآن لقد قمنا بالاجتماع الطارئ».

فأجابه آدم مازحا:«نعم أبي وتغيّر قرارك عن البداية بكلمة حبيبي»، وأنهى آدم كلامه وهو يقلّد والدته وهي تقولها بخجل فألقت جميلة المفرش الصغير الموضوع أمامها على وجه آدم الضاحك:«أنا لا أقولها هكذا»، كانت أميرة تتابع المشهد أمامها بانبهار كأنها تشاهد موقفًا مكتوبًا في احدى الروايات الخيالية، كانوا يبدون أمامها كعائلة حقيقية، شعرت بالدموع تحرق عينيها فرمشت أكثر من مرة

وهي تشعر بالامتنان لأول مرة لمحمد الذي طلب منها أن تحضر اجتماعهم، رفعت عينيها فلمحت آسر ينظر لها بتمعّن كعادته، فشعرت بأنها في حاجة لنظراته، تريد أن تنظر له وتتوسل إليه أن يخترقها، أن يكشف خبايا روحها.

قاطع نظراتهما صوت محمد الضاحك: «حسنا رفضي للأمر الآن بسبب أنني حجزت منذ فترة لرحلة إلى مطروح وسنذهب جميعا بها، وخمنوا المدة!»

نجح محمد في جذب انتباههم جميعًا فهتف آدم: «كم أبي أرجوك قل أسبوع» ابتسم محمد له وأجاب: «بل لأسبوعين كاملين هذا ما استطعت فعله لا إجازات كثيرة لنا للأسف».

تهلّل وجه أمير فرحا بينما نهض آدم وأحمد وأخذا يهللان بسعادة، ولمحت أميرة نظرات جميلة الممتنة لزوجها، فشعرت بمشاعر غريبة داخلها لا تعرف كيف تصفها.

تابعها آسر بعينيه وهو يرى تخبّط مشاعرها، تذكر كلماتها التي تسطرها كل فترة وأخرى في دفترها، كلماتها التي بدأت توحي بمدى الحزن والغضب الذي يعتريها خاصة بعد معرفتها بأمر هروب ممدوح وأنه على قيد الحياة، يتذكّر يومها رفضها التام للحديث وعدم حضورها الجلسة التي اتفقت عليها معه، ليجد الدفتر في نفس الليلة وكلمات كُتبت بألم في صفحاته تبوح بألمها وأنهتها بتوقيعها الذي حمل في نهايته أثر دمعة قد سقطت عليه.



مشفى المدينة

لمحت يامن وسليم عائدين بأكواب قهوة وبضعة ساندويتشات، تناولت مع رحاب القليل بعد إصرار يامن وتهديد سليم بأنه سيعيدهم للمنزل إن لم يستجيبا لهما، مر النهار عليهم بزيارات عائلتها وإصرار كبير منها على ألا يبقى أحد في انتظار والدتها سواها هي وأختها، ولكن لا يامن ولا سليم وافقا على تركهما وحدهما، كانت تشعر بوجع غريب داخلها، تلمح يامن وهو يتابعها بعينيه وكأنه يسألها عما

أصابها بعد خروجها شاردة جامدة من غرفة العناية منذ ساعات، تنهدت بتعب وهي تشعر أنها ما عاد باستطاعتها التحمّل مجددًا، انتفضت واقفة على صوت خروج أحدهم من الغرفة لتبوح ملامح وجه الطبيب بما أدركته مُبكرًا، بما أدركته وكذّبت صحته

«البقاء للّه».

صراخ رحاب العالي وارتماؤها في حضنها تبكي على صدرها وهي تنادي والدتها جعلها تُصدّق صحة ظنونها، عيناها ما زالت على باب الغرفة حيث تقبع جنتها على الأرض، حيث كانت ولم تعد، حيث احتاجت ولم تشبع حاجاتها في تلك الأشهر القصيرة، حيث تنشّقت لنسمات حنان وكان القدر بخيلا عليها، ماتت والدتها قبل أن تبكي بأحضانها وجعها الأخير، ولكن هل هناك وجع كوجع فقدها، رحلت والدتها، رحلت لأن والدها اشتاق لها، ألم تقل لها هذا! ولكن ماذا عني أمي؟!

رفعت ذراعيها وهي تهمس داخلها بآخر جملة لتحيط جسد رحاب الذي يهتز من بكائها ونشيجها باسم والدتها كنصل حاد ينغرز بقوة في قلبها، أسندت ذقنها على رأس رحاب وأغمضت عينيها ودمعة يتيمة فرت من سجنها لتختفي سريعا في حجاب شقيقتها.



منزل زمرد

دخلت بهيئتها الجاذبة لانتباه الجميع، كنزة سوداء على سروال جينز أسود يعلوه سترة سوداء، من يراها يشعر بالخطر المُحيط بها، عيناها المُشتعلتان بغضبٍ قادرٍ على إحراق بلدة كاملة، بينما أفلتت بعض الخصل المُتمردة من عقدة شعرها الغجري ليضيف جاذبية خطرة على ملامح وجهها، أخذت تبحث بعينيها عنها، تشعر بأن رأسها سينفجر مما عرفته عما حدث في غيابها عن المزرعة، لحظات ولمحتها تقف وسط السيدات ويبدو أن همساتهن وصلتها، استمر حوار النظرات بينهما للحظات، حاولت السيطرة على غضبها فأشارت لها برأسها بجمود لتقابلها بالخارج.

خرجت للحديقة الخلفية بغضب ولحظات ولمحت زمرد تدلف من الباب الخلفي، لم تمهلها غُفران لتصل إليها فاندفعت باتجاهها، خطوة خطوتين، لتتوقف زمرد وهي تعي حالة غُفران الغاضبة وتدرك أسبابها، لكمة لفكها ثم تبعتها أخرى لفمها لتسقط زمرد على أثرها على الأرض وقلة الطعام طوال الأيام السابقة تضعف من حالتها، أغمضت عينيها تحاول أن توقف ذلك الدوار بينما تستمع لكلمات غُفران الغاضبة: «كيف بإمكانكِ فعل هذا؟! لمَ لم تخبريني؟! أخبرتِني أنكِ تُحدّثينها كل فترة والأخرى، لمَ كذبتِ؟!، اللعنة عليكِ زمرد، واللعنة على أسلوب الكتمان بداعي الحماية الذي تتبعينه، لقد قتلها، لقد اغتصبوها أيتها الحمقاء قبل أن يدفنوها، لقد تركها حية وهم يقتلعون عينيها، زمرة دمها النادرة كانت السبب في المتاجرة بها، لمَ لم تقولي شيئًا عما يحدث معكِ؟! لمَ لم تخبريني أن ذلك الوغد قد اغتصبكِ، قد ساومك على شرفكِ وأنتِ وافقتِ أيتها الحمقاء، سذاجتكِ جعلتك تثقسن بوغد سافل مُغتصب».

أخذت تلهث من شدة انفعالها وصدرها يعلو ويهبط من الغضب، بينما تلمح زمرد تقف على قدميها وملامح الألم مرتسمة على وجهها.

أن تعي الحقيقة وتعيشها شيء، وأن يسردها أحدهم على أسماعكِ لشيء آخر، لشيء أكثر إيلاما.

مرت لحظات حتى تحدثت زمرد بضياع: «أمي ماتت غُفران»، تجمدت غُفران مكانها وهي تنظر بجمود لملامح زمرد المُتألمة، وجرح عميق لم يُشف بعد بقلب غُفران ولن يُشفى أبد الدهر، يسحب روحها من جسدها، هل تستجديها؟! الغبية ألا تعلم أنها تشعر بوجعها، أنها تتألم لألمها.

لحظة واحدة لتقترب غُفران منها وتجذب زمرد لأحضانها لتتشبث الأخيرة بها بقوة وهي تشهق بعنف وتتحدث من بين دموعها: «أمي ماتت غُفران لم أكتفِ منها، لم تكفني تلك الأشهر المعدودة، تركتني أمي ورحلت، قالت لي أن أبي اشتاق لها، ترى من اشتاق لسهيلة؟! لم يكن لها أحد، ولم نصل لأهلها، لقد حاولت كل ما بوسعي لأجعلها بعيدة عنه، أقسم لكِ أنني لم أعرف أنه ما زال يقيم النزال كما فعل معنا، أنا قتلت خديجة من أجلها وفديت بروحي مستقبلها، لم أكن أعلم، لقد كان

يجعلني أحدّثها كل فترة، يا إلهي غُفران لقد كانت تتصل بي على الهاتف وتخبرني بأنها بخير، بأنها سعيدة ولم أكن أعرف بأنها ماتت، آه غُفران من هذا الوجع، لقد فارقتني كما فعلت أمي، أنا فقدت الأم والابنة، فقدت أمي وابنتي، لقد كانت ابنتي، لقد كنت أرعاها، لقد كانت تناديني بأمي الصغيرة».

تشبثت بسترة غُفران وهي تبكي بقوة، لقد خارت قواها، لم تعد صامدة كما عاهدت نفسها، فقط لم تستطع.

سمعت صوت غُفران ذا البحة وكم بدا ضعيفًا مُهتزا: «أنا آسفة، آسفة لأنني لم أكن موجودة، آسفة لأنني لم أتابع الأمر وأتأكد بنفسي من صحته، آسفة لأنني خذلتكم ولم أستطع حمايتكم بما يكفي، يبدو أنه استخدم أحد البرامج ليقلد أحدهم صوتها ويُحدّثك كسهيلة، أقسم لكِ إن ابتعادي ما كان إلا للبحث خلفهم، لحمايتكم من خططهم المستقبلية لكم، لمعرفة حقيقتهم ومن وراءهم، كنت أجاهد من أجل أن أحافظ عليكم من الشر الخارجي ونسيت أن منبعه يتجول بينكم بقذارة، آسفة زمرد وليت لأسفي قيمة».

ابتعدت غُفران عنها مُسرعة وتحركت باتجاه البوابة الخارجية دون أن تلتفت لها، فهمت زمرد ردة فعلها، وأدركت مدى احتياجها للبقاء بمفردها، همست بوجع ودموعها ما زالت تنهمر: «ليت لأي أسفٍ قيمة، ليته يا عزيزتي».

لم تستطع أن تدخل لتكمل استقبال من جاء ليقدم واجب العزاء، فجلست على أرضية الحديقة بين الحشائش الخضراء، الظلام يحيط بها من كل جانب، ووحده نور القمر يكسر ظلمتها، فلم تلمح تلك التي استمعت لحديثها مع غُفران وسجلت كل كلمة سمعتها بعقلها.

التفتت على صوت أقدام لتلمح يامن من بعيد بوجه مُجهد وهو يدخّن بعيدًا عن مجلس الرجال، استدار على صوت حركة خلفه ليلمح جسدًا يغطيه الظلمة وسط الحديقة، ليدقق النظر للحظات ليتعرف عليها من وهج عينيها الحزينتين.

تخلّلت أصوات نبضات قلبيهما الصمت وهما ينظران لبعضهما حتى كسرت الهالة التي أحاطتهما للحظات، وهي تخفض بصرها لتتجه للباب الخلفي، فأسرع

ليعترض طريقها وكاد يسألها عما تفعله هنا، ليتجمد مكانه وهو يلمح الكدمات التي زينت وجهها وأظهرها انعكاس ضوء القمر على وجهها، بينما خط من الدماء ينهمر من أنفها.

اقترب خطوتين منها ورفع وجهها بكفيه فتأوهت بخفوت فهتف بغضب: «من الذي فعل هذا بكِ؟! ماذا حدث؟!»، أبعدت وجهها عن طريق كفه وتحدثت بهدوء: «لم يحدث شيء سأصعد لأرتاح قليلًا».

اعترض طريقها ثانية ثم مسك معصمها وجرّها خلفه لمنزله بدلًا من منزلها، أدخلها لردهة المنزل وهو يأمرها بالجلوس حتى يأتي، لم تستطع المجادلة فهي مُتعبة بشدة، جلست على أحد الكراسي وأسندت رأسها على ظهر الكرسي تغمض عينيها لعلَّ ذلك الألم يخبو.

انتفضت على صوت الكرسي الذي قرّبه يامن منها وجلس عليه، ولمحت بيديه علبة إسعافات، فتحدثت بهدوء: «لا داعي لذلك أنا بخير»، هدر بغضب مكتوم: «اصمتي زمرد، إنها تلك الساحرة أليس كذلك؟! صديقتك غُفران كانت هيئتها تنم عن الشر ولكن لم أصدق أن شرها يصل إليكِ».

«نحن كنا نتحدث فقط»، قالتها بصوت خافت وهي مبهوتة من غضبه، فنظر لها بدهشة غافلًا عن عيونها الباكية وهو يردد كلامها: «تتحدثان فقط! أهذا هو مفهوم الحديث لكما، إذا كيف تتشاجران؟!»

رغم الوجع الذي يملأ روحها قبل جسدها، إلا أن ابتسامة صغيرة شقت وجنتيها، لم تستطع كتمها لتخفت ببطء بعدها وتقول: «لم تقصد فعلها، هي فقط غاضبة».

كان يحدّثها وهو يعالج كدماتها ويستمع إليها بإنصات، حتى توقفت يده عن المتابعة وهو يلمح مقصد كلامها، فتحدث بنفس هدوئها: «غاضبة لأنها لم تعلم ما حدث لسهيلة؟»، أبعدت عينيها عنه وهي تكمل بخفوت: «نعم ولم تعلم ما حدث لي». تجمّدت ملامحه بأكملها وهو يتذكّر ما حدث فتحدث بخفوت: «لمَ لم تخبري أحدا؟! هل هددكِ؟!».

صمت لإدراكه مدى غباء سؤاله وعندم لمح جمودها، أخذ يلملم في علبة الإسعافات وهو يقول: «لا يوجد كسر، مجرد كدمة فقط».

نظر كلاهما للآخر طويلًا وقد باحت النظرات بما أخفاه القلب، حتى ارتعشت زمرد فأسبلت أهدابها وأحاطت جسدها بذراعيها لعلّها تبعث بعض الدفء فيه، ساد الصمت مجددًا ليقول: «أنا لست نادما لأنني أخبرت عمتي حقيقتكِ، ما أدى لتعبها الشديد».

لم تقل شيئًا، يكره صمتها وكيف تحيط نفسها بتلك الفقاعة الباردة، تحدثت بهدوء بعد لحظات: «أنا أؤمن بقضاء اللّه وقدره، أنا فقط أردتها أن تحبني دون أي حقيقة، دون أي أسباب».

هتف بغضب: «أتشكين بحب أمكِ لكِ، الحب لا يحتاج لحقائق يا زمرد، لا يحتاج لتبريرات، من يحب يثق، من يحب يخاف، وحب والدتكِ لكِ ليس كأي حب، لكن أنتِ تدركين صعوبة الموقف على الجميع فتخيلي الوضع على والدتكِ، لم تخرج من صدمة وجودكِ أخيرا بعد كل هذا العمر لتجد صدمة وضعكِ، هي لم تحتج لحقائق لتحبكِ، هي احتاجت لحقائق لتبرر لكِ ضعفها، لتبرر لنفسها عدم قدرتها على حمايتكِ، على الحفاظ عليكِ».

شحب وجهها وهي تنظر إليه وهو يتحدث بهذه الطريقة معها، وتنصت لمعنى كلماته، هل هو محق؟! إذا كان الحب ثقة فلماذا لم...؟!

ابتلعت تساؤلها وهي تبعد نظراتها المصدومة عنه، لتنهض من مكانها بهدوء، فوقف وقد فهم ارتباكها وتخبّطها فهمس لها بصوت حنون: «هناك فرق شاسع بين الغضب لانعدام الثقة وبين الشعور بالغضب للعجز لأننا لم نكن بجانبكِ».

رفعت عينيها مجددًا له لتترقرق بالدموع وهي تردف بوجع: «الغضب يأتي لمن يهتم يامن، وليس لمن أكمل حياته كأن شيئًا لم يكن».

ساد الصمت للحظة ليجيبها بجمود: «لا يحق لكِ أن تحكمي على الكتاب من صورة غلافه، من بان أمامكِ كأنه أكمل حياته ربما أكملها مُضطرا، أكملها لأن لا خيار آخر، أكملها لأن من غابوا لم يعودوا ومن معه لهم حق عليه بأن يكمل حياته

من أجلهم ولا يدركون أنه غاب مع من غابوا، لكنه أكملها وهو يستمد قوته من ذكرى، ذكرى لأيام كان فيها حيًا ولم يعد».

أسبلت أهدابها عنه لتتحول صفحة وجهها للوح جليدي وهي تجيبه بصوت واهن: «أنت مخطئ، أنا لا يحق لي أن أحكم من الأساس»، استدارت لتتجه لباب المنزل ثم توقفت للحظة وهي تكمل: «لا تقلق لن أحمّلك ذنب وفاتها، فهي ارتاحت وذهبت لمن اشتاق لها، على الأقل كان لديها أحد».



منزل أميرة

نزلت من سيارة الأجرة بعد أن أعطت للسائق أجرته، الذي كان يتابع هيئتها باستغراب، نظرت لبوابة المنزل وهي تتنفس بصعوبة، تعلم أن الليل انتصف منذ ساعة، ولكنها لم تستطع أن تأتي لهنا بعد حديثها مع زمرد، كان عليها أن تفرغ كم الغضب الذي يعتريها، وبعد السير في شوارع المدينة لساعات، استطاعت أن تصفي ذهنها ولكن وجدت نفسها أمام الملايين من الأسئلة ولم تستطع الانتظار للغد من أجل الحصول على إجابتها، رفعت هاتفها واتصلت على الرقم ليستمر الرنين حتى ينقطع الخط، فزفرت بضيق وهي تتحرك للبوابة وتضغط على الجرس، مرة مرتين، حتى لمحت نور المنزل يُضاء ليُفتح الباب ويخرج آخر شخص أرادت أن تراه همست بداخلها: «يا الله أعني».

أخرج نظارته الطبية من جيب سترته وارتداها بينما ارتسمت ملامح الدهشة على وجهه وهو يتحدث بصدمة: «غُفران!»، ليقترب في اللحظة التالية ليفتح البوابة الخارجية.

ارتجف جسدها على ندائه باسمها فابتلعت ريقها بصعوبة وهي تتحدث بجمود: «أعتذر عن مجيئي في هذا الوقت المُتأخر، لكن أنا أريد التحدث مع أميرة في أمر مهم، لا يحتمل التأجيل».

ارتفع حاجباه بدهشة وهو ما زال على وقفته يتمعن في النظر إليها، وكأنه لا

يصدق أنها أمامه، تنحنح بخفوت وهو يقول: «ولكن هي نائمة الآن فالوقت...» قاطعته بقوة: «أيقظها أرجوك، الأمر لن يستغرق سوى دقائق»، شعر آسر بأن الأمر بالغ الأهمية وإلا لم تكن لتتصرف هكذا، هز رأسه بتفهّم ليقودها للشقة.

وطرق الباب بهدوء، لحظة لحظتان لتفتح أميرة الباب وآثار النوم على وجهها، وهي تنظر له بدهشة تحولت لصدمة وهي تلمح غُفران خلفه ووجهها شاحب اللون.

آسر، غُفران

تحدث آسر بهدوء: «مساء الخير عزيزتي، غُفران تريدكِ في أمر مهم»، لم يكد يكمل كلامه حتى لمح تلك الشعلة تزيحه من طريقها وتمسك رسغ أميرة وتدلف بها الشقة وهي تقول لها: «يجب أن نتحدث».

حسنا يا شعلة إن ظننتِ أنك ستنفردين بها وأنتِ في تلك الحالة فأنتِ مخطئة، دلف خلفهما بإصرار لتلمحه غُفران وهو يدخل غرفة أميرة معهما، فوقفت أمامه وهي تتحدث بوقاحة: «أريدها بمفردها، لا يمكنك البقاء»، تحدث بهدوء وهو يتجه لأحد الكراسي ليجلس عليها: «إن أردتِ الحديث معها فتفضلي، لأنني لن أتحرك من هنا»، كادت أن تسبه وتلعن تدخّله، ولكن صوت أميرة القلق منعها وهي تسألها: «ماذا بكِ غُفران؟! ما الذي حدث؟!».

تنهدت غُفران بتعب وهي تستشعر جدية آسر في حديثه لتجلس على الأريكة الموجودة وتطلب من أميرة الجلوس هي الأخرى بجوارها، بادرتها دون أي مقدمات: «سؤال وأريد إجابته بصدق، هل أجبركِ ممدوح على النزال أو بالأدق اختبار الكفاءة؟!».

شحب وجه أميرة وهي تنظر لغُفران بصدمة، كيف لجملة واحدة أن تعيدك لأسوأ أيام حياتك، تجعلك تشعر بطعم الألم المر في حلقك، نفس الألم، نفس الخوف، نفس ال...، ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تبعد بعينيها عنها وتتحدث بهدوء يخفي الكثير من المصائب: «أي اختبار تتحدثين عنه؟!».

رفعت غُفران كفها لتطرق على الطاولة أمامها بقوة وهي تتحدث بغضب مكتوم: «جاوبي على سؤالي اللعنة»، ازداد شحوب أميرة وهي تلمح غضب عفران

عليها لأول مرة فترقرقت الدموع في عينيها وهي تجيبها بوجع: «ما الذي تريدين معرفته؟!، هل اقتحم غرفتي في منتصف الليل بعد يومين من اختفاء زمرد؟! هل أدخلني الحظيرة لأجد نفسي أمام فتاة لأول مرة أراها، لأجد سمر تجردني من ثيابي، لا شيء يسترني سوى ملابسي الداخلية وأنا أرتجف من البرد، لأجده جالسا أمامنا ويقر علينا القوانين، اختبار يجب أن نجتازه وإلا الموت يكون من نصيبنا، قتال بيني وبين فتاة لأول مرة أراها، قتال لا ينتهي سوى بالموت، وعندما اعترضت هاجمتني الفتاة لتبدأ قتالها فهي تريد الفوز، تريد اجتياز الاختبار، فهي لا تريد الموت ومن يريده!» هتفت أميرة بسؤالها الأخير بارتجاف لتنهض من مكانها وتدير ظهرها لهما تخفي ألمها وخوفها وارتجافة جسدها عن آسر المصدوم وغُفران الشاحبة، نظرت أمامها وكأن الموقف يتكرر، بنفس الأحداث كأنها تعيشه مجددًا أكملت بألم وهي تغمض عينيها بقوة ولم تعِ لدموعها التي انهمرت بضعف: «دقيقة، دقيقتان وأنا أجد الألم ينتشر في وجهي وصدري لأستشعر جدية الأمر، ليس مزاحًا ولكنه قانون من قوانينه، سمعته يصرخ باسمي وهو يقول: «أفيقي ليلى أنت على أعتاب الموت» هل أخبرتكِ أنني شعرت بالتقزز من اسمي ومن الهواء الذي أتشاركه معه، والفتاة التي لا أعرف حتى اسمها تتوقف قليلًا لتريح قبضتها لأجد نفسي أدفعها بعيدًا عني لأشعر بالغثيان ولحظة أخرى لأخرج كل ما بجوفي، نهضت ببطء بعدها، وكل جسدي يؤلمني لأتفاجأ بها تجدّد قتالها وفي لحظة وجدت أن ما تدربنا عليه طوال تلك السنوات يدي تحفظه فتنفذه وكأن عقلي لم يعد مسيطرًا عليها، شعرت أن عقلي منفصل عن جسدي وروحي واقفة من بعيد تشاهد، وقلبي تهشّم لشظايا وأنا أسمع تأوهات الفتاة، الأمر لم يستغرق دقائق لألمحها ساكنة على الأرض، فكها مُهشَّم ودماء تسيل من أنفها وعينيها، أدركت أن خوفي غلب غضبي فتراجعت بقوة وأنا لا أصدق أني استعملت قوتي لقتال أحد».

التفتت بقوة وهي تنظر لغُفران بنظرات غريبة وكأنها انفصلت بنفسها عنهما لذلك المكان مجددًا: «ولكن الأمر لم ينته بعد، هو لم يكتف، أراد الموت غُفران وأنا أعطيته ما أراد، أرادها جثة فكانت، أرادها مقتولة فكانت، لقد قتلتها غُفران، قتلتها ليس لأنه هددني باغتصابي، فأنا حتى وافقت على أن يغتصبني بدلًا من

أن اقتلها ليتحول تهديده لإيذاء زمرد التي لا أعرف عنها شيئًا، التي استيقظت من يومين لأجدها ليست بالمنزل، فأدركت أنه أخفاها، لأنه يعلم أنه سيستخدم مشاعرنا تجاه بعضنا كطُعم لنحقق له مطالبه وكان الأمر ثم ماذا؟! أنا قتلت من أجلها وهي كانت تلهو معه وهي كانت...».

رفعت كفها المضموم أمام فمها وهي تشهق بعنف: «لقد قتلت يا غُفران، لقد قتلت فتاة لا أعرف حتى اسمها، لقد حبسني معها في غرفة واحدة بعد أن انتهى منها، بعد أن تركها خاوية من أعضائها!، هل تدركين معنى أن تقبعي في غرفة واحدة مع ذنبكِ، تنظرين له بأعين ميتة، تستشعر برودته، يهيأ لكِ أنه سينهض ليقف أمامكِ ويفترسكِ، يغذي مخاوفك، ويسألكِ لماذا؟! لتصمتي وأنتِ لا تعلمين حتى الإجابة يا إلهي لقد أردتُ الانتحار ولكنني لم أقو على أن أنهض، لم أقو على أن أجد شيئًا أو سلاحًا أقتل به نفسي».

أخذت أميرة تضرب صدرها بقبضتها وهي تتأوه: «هذا الألم لا ينتهي، وجهها البارد لا يفارقني، دمها الذي سال على أرضية الغرفة لا يفارق مخيلتي».

اقتربت غُفران مُسرعة تمنعها من ضرب صدرها بقوة، وهي تجذبها لأحضانها لتتشبث فيها أميرة بقوة: «لقد جعلني أقتلها، أقسم لكِ لم أُرد، حتى عندما هددني بأنه سيغتصبني لم أرد قتلها استسلمت له ولكنه لم يفعل، لقد قتلتها من أجل لا شيء، هددني إن أخبرتكِ سيصل إليكِ، سيجبركِ كما أجبرني، آه غُفران تمنيت الموت ولم أجده، كيف أكفّر عن هذا الذنب، كيف أعيش به، كيف!» أغمضت غُفران عينيها بألم ودمعة يتيمة تهرب من محبسها وهي تشدد من احتضانها، بينما آسر ينظر لهما بعدم تصديق، لا يصدق عقله ما سمعه، لا يصدق إلى أي مدى ستنتهي تلك الصدمات، أخته الصغيرة صغيرته آذاها هذا القذر كثيرًا، آذاها بقوة، هذه هي الحلقة المفقودة، الحلقة التي كانت تلتف حولها أميرة دون أن تجرؤ على دخولها أو السماح لأحد بدخولها، همس بعدم تصديق: «يا إلهي»، أخرجه من صدمته هتاف غُفران باسمه ليجدها تنظر له برعب وتسند جسد أميرة المُرتخي، لحظة وهو ينظر إليها ليتجه مُسرعًا إليها ويحملها ليضعها على السرير، ويطمئن عليها

بعقل لا واعٍ، دقائق وغُفران تتابعه بعينيها وهو يقيس نبضها ليخرج لدقائق ويعود ليحقنها بحقنة مُهدئة، ويسود الصمت الغرفة، ظلت واقفة جامدة في مكانها، تتابع أنفاس أميرة المُنتظمة وشحوب وجهها يوحي بانهيارها هي الأخرى، بينما يجلس آسر على السرير بجوار أميرة ينظر لها بضياع.

لا تعلم كم مر الوقت وهي على حالتها، وآسر لا يتحرك من مكانه، لتتجه لباب الغرفة تنوي الخروج عندما سمعت همسه: «ابقِ»، أغمضت عينيها وهي تقاوم الانهيار، تمنعه من رؤية دموعها، همست بخفوت: «لا أستطيع» ليجيبها بنفس همسها: «ستكون في حاجة إليكِ عند استيقاظها، إنه انهيار عصبي».

لتهز رأسها بالنفي وهي تجيبه: «لا لم تعد في حاجة إليَّ، لقد خذلتهما، لقد فشلت في حمايتهما، لقد خسرتهما» نهض آسر ليقف أمامها وهي يراها لأول مرة محنية الرأس، هو يفهم، هو يعي جيدًا ما بها.

كانت تعلم أنها لا يجب أن تتهاون في دورها لأنهم لم يحيوا يومًا مع واقعهم من دون حمايتها، كانت هي لفظ: «الأمان» لهم، هي التي لم تحظ يومًا بأمان لها.

لم يكن من اختيارات حياتها أن تكون رهينة لمخاوفها، هذا ليس مسموحًا به وإن حدث وخافت، انهار كل شيء حولها، تلك الأسوار التي شيدتها طوال عمرها لتحمي نفسها من المشاعر ستنهار لتنهار روحها معها وتنتهي.

همس باسمها لكنها لم ترفع عينيها له ليلمح اهتزاز كتفيها ليعي انهيارها، مسك يديها بقوة وجذبها خلفه ليخرج من الغرفة وشعور غريب يعتريها بالاستسلام له، أدخلها الغرفة الأخرى وأجلسها على السرير ليدلف للخارج لدقيقة ويعود حاملا كوبًا من العصير: «تناولي هذا» وهو مصدوم من انهيارها.

لاستغرابه لمحها تنفذ كلامه من دون اعتراض، لم يعرفها خاضعة هكذا، جلس على الأرض أمامها ولمحها وهي تمسح دموعها بسرعة فلم يعلّق بشيء وهو يتنفس بقوة ليتحدث بجدية: «انظري إليّ».

لحظة، لحظتان ليضيع في لون عينيها الباهت، لا يرى النيران التي اعتاد رؤيتها ليتحدث بخفوت وآثار الصدمة ما زالت مرتسمة على ملامحه: «استمعي

لما سأقوله لكِ الآن، ولا تفكري بمقاطعتي، غُفران أنتِ الضوء لأخضر في حياتهما، أنتِ هي أرض الاستعداد لهما، ترتاحان عندكِ لتجدا القوة على الاستمرار، ستحتاجانكِ دوما، لم ولن تخذليهما، هل تسمعيني غُفران؟! إنهما في عز ضعفهما الآن، تحتاجانكِ بشدة، لم تخسريهما بعد فلا تسمحي لهما بخسارتكِ، هل لو كنتِ على علم بما يخطط له هذا الوغد كنتِ لتسمحي له بالمضي قدما في مخططاته؟!»

هزت رأسها بالنفي ليكمل بقوة وهي يشعر بالراحة لاستجابتها: «هل كنتِ لتسمحي له باغتصاب زمرد؟! هل كنتِ لتسمحي له بتشويه روح أميرة؟!»

لتهز رأسها بالنفي مجددًا ليسألها السؤال الأهم: «لماذا؟!» صمتت للحظات لتجيبه بعدها بوهن مدفون خلف أحزانها: «لأنهما قطعة مني، لأنهما من مسؤوليتي، لأنني أحبهما بشدة وأنا لا أتهاون في حماية من أحب»

مسك يديها ونظر لها بحب وهو يبتسم ابتسامة صغيرة: «بالضبط لأنكِ لا تتهاونين في حماية من تحبين لذا لا تفعلي، لا تتهاوني الآن، سأسمح لكِ فقط الليلة بالانهيار، لنعتبرها استراحة مُحارب، لكن غدا، أريد غُفران التي أَعرفها، تلك الشعلة المُتقدة التي لا تخفت أبدا، تلك التي تحمي أحباءها وتفديهم بروحها، تلك التي تهاجم بشراسة كل من يفكر بالاعتداء على ما تملكه وعلى كل عزيز لديها».

نظرت له عفران بضياع لتهمس ودمعة تفر من محبسها: «لكنني مُتعبة بشدة»، أجابها بحنان كأنه يهاود طفلة صغيرة: «أعرف يجب أن تكوني مُتعبة»، فسألته ببراءة ودموعها قد أفلت لجامها فانهمرت على وجنتيها بقوة: «هل سأرتاح؟! هل بإمكاني أن أعود قوية مجددًا آسر؟!» أجابها بقوة وهو يحيط يديها بين كفيه: «بالطبع أنا أعتمد عليكِ في هذا».

تأوهت بتعب وهي تميل بجسدها للأمام وتضع جبينها على كتفه ليتركها هو للحظات وهو يعي أنها ليست بوعيها، ولكن كم أسعده أنها تشعر بالأمان في وجوده، سمع همسها: «لم أرد منذ صغري سوى أن أعيش في بيت هادئ، بين أب وأم محبين، لم أرد أن يكون لي إخوة فأنا أنانية أريد حبهما لي فقط، ولكن الآن أريد أيضًا إخوة لي آسر، أريد من يرعاني فأنا تعبت من المراعاة، أريد أن أعود صغيرة لأعيش

طفولة أخرى غير طفولتي، أريد من يربت على وجهي بحنان ويحتضنني بأمان، أريد أن يكون لي أب، وأن يكون لي أم، وأن يكون لي أخ يناديني بصغيرتي كما تفعل مع أميرة أنا أريد أخًا مثلك آسر، أريد حبك هذا الذي تمنحه بسخاء لأميرة».

تركها تخرج كل ما بداخلها في انهيارها وكم أوجع قلبه كلماتها لتتألم روحه وهو يسمع نحيبها ويستشعر دموعها على كتفه، مر الوقت وهي تبكي بقوة لتهدأ شهقاتها وهي تدير جسدها عنه وتلتفت لجهة السرير الأخرى لتقول بخفوت: «اتركني وحدي غدًا سأكون ما تريده، سأقبل باستراحة المحارب هذه».

نهض مكانه وابتسامة صغيرة حزينة زينت ثغره لتخفت بعد لحظات وهو يخرج من الغرفة متنهدا بقوة، نظر لباب غرفة أميرة وآلمه قلبه لحالة أخته، فالوضع يزداد صعوبة مع كل تلك الصدمات، دخل للغرفة ووضع كرسيًا بجانب سريرها وجلس عليه يتابعها بعينيه، والكثير من الأفكار يطرق عقله بقوة، خلع نظارته ووضعها على الطاولة ليعدل من وضعيته على الكرسي وهو يهمس لنفسه: «ساعة واحدة آسر لتنهض مجددًا».



منزل أميرة

شعر بملمس يد تربت على كتفه بحنو، رمش بعينيه أكثر من مرة وشعر بآلام مُتفرقة في جسده سبّبتها نومته الخاطئة، فتح عينيه بدهشة وهو يرى غُفران أمام عينيه، ظل ينظر إليها للحظات مُندهشًا وهو غير مستوعب لمكانه وكيف هي أمامه، ابتسم لها بحنان وهو يرفع يديه ليحاول لمس وجهها فتحدث بصوت ناعس: «ما أجمل الأحلام التي تأتيني فيها».

رمش بعينيه مجددًا وهو يلمح باستغراب جمود ملامحها ويديها التي مسكت كف يديه الممدود بحنان ليتأوه بألم في اللحظة التالية وهو ينتفض من مكانه على الكرسي وغُفران تلوي كفه بقوة وهي تهمس بجمود: «هل استيقظت الآن؟!»

«نعم، نعم اتركي يدي».

فلتت كف يديه ليدلك موضع ألمه بقوة وهو ينظر لها شزرا ويتحدث بصوت حانق: «أهذه طريقتك لتوقظي أحدهم؟!» أجابته ببرود وهي تستدير لتقترب من سرير أميرة لتجلس بالقرب منها: «لقد ناديتك كثيرًا ولكنك لم تستيقظ، وعندما فتحت عينيك بدا كأنك ما زالت في أحلامك، فكان يجب على أحدهم أن يوقظك».

نظر لها بضيق مصطنع، وهو يتابعها بعينيه ليعي أن غُفران أمس قد رحلت وعادت الشعلة المُتقدة، نظر باتجاه الشرفة ليجد أنه ما زال الوقت مبكرا على شروق الشمس، فالتفت لها مُندهشا وهو يدرك أنها لم تحظ بوقت كافٍ للراحة، فلمح شحوب وجهها والإرهاق الواضح عليه، بينما احمرار عينيها يشي ببكائها الذي حتما استمر لساعات، رق قلبه لهيئتها الهشة التي تخفيها بجمودها، تلك التي تجلس أمامه الآن قد انهارت بين ذراعيه أمس، ناجته وناجت حاجتها للحب والرعاية، تلك المرأة التي تنظر لأميرة باهتمام بالغ ما هي إلا طفلة تبغي الحنان من أهلها، شعور قوي بداخله يدفعه دفعًا لأن يكون هو أهلها، لأن يكون والدها وأخاها وصديقها، وأخافته مشاعره أمس وهي تبكي بين يديه، وهو يكاد يتوسل لها أن يكون أيضًا حبيبها!

أشاح بعينيه عنها وهو يشعر بارتباك مشاعره أمامها، وبغباء أفكاره، فتحدث بخفوت: «أنا سأذهب لإحضار بعض القهوة لنا، فالوقت ما زال مبكرا على استيقاظ أميرة». قاطعته قبل خروجه وهي تنهض من مكانها: «لا داعي لذلك، أنا راحلة».

التفت لها وهو يسألها سريعا: «لماذا؟!» ارتبكت للحظات وهي تشعر بسخافة الموقف الذي وضعت نفسها فيه بمكوثها لساعات تبكي في الغرفة المجاورة للشخص الوحيد الذي لم ترغب يوما في الانهيار أمامه.

أجابته بهدوء: «أنا ما كان يجب أن أبقى بعد نوم أميرة، لذا يجب أن أرحل الآن وسأعود لها اليوم للتحدث معها في موضوع مهم»، اقترب آسر منها بهدوء وهو يلمح ارتباكها، بينما تبعد عينيها عنه وقال بهدوء: «لا داعي لكل هذا الارتباك غُفران، ما حدث بالأمس قد حدث وانتهى الأمر».

رفعت عينيها له بقوة وهي تجيبه ببرود: «أنا لست مُرتبكة، فتوقف عن إلصاق تلك الصفات التافهة بي».

اقترب خطوة أخرى وهو ينظر له بتمعن ليجيبها: «كونكِ مرتبكة أو لا ليس بالأهمية، ما حدث بالأمس هو ما يجب أن يحظى بالأهمية»، ردت عليه بقوة: «ما حدث بالأمس لا يحمل أي أهمية، كانت لحظة ضعف ولن تتكرر أبدا، خطأ ما كان يجب أن أقترفه».

ضيق عينيه وهو يتابع ردات فعلها واحتقان وجهها بغضب، فأجابها بهدوء: «البوح بما نحمل داخل قلبنا ليس بضعف غُفران وحتما ليس بخطأ».

ابتسمت له بسخرية لتجيبه بتهكم: «ها هو الطبيب يمارس عمله، لمَ لا تهتم بأختك وتدعني وشأني؟!»، أجابها بنفس تهكمها: «بالأمس كنتِ ترغبين بي أخًا لكِ»، أسرعت في الرد عليه غاضبة من سخريته: «أنت لست أخي».

ابتسم ابتسامة حقيقية جعلتها ترمش بعينيها للحظات وهي تراه ينظر لها نظرات أرسلت قشعريرة لذيذة لقلبها ليجيبها: «هذه حقيقة أنا لست أخًا لكِ، وأظن أنني لن أستطيع أن أكون فيما بعد»، قاطعته: «وأنا لم أطلب منك أن...» قاطعها هو بقوة وقد قطع الخطوة الباقية بينهما لتلفحها أنفاسه وهو يقول: «لن أستطيع أكون لك أخًا لأن ما أحمله داخلي لك لا يشبه الأخوة بشيء».

اهتزت حدقتا عينيها وهي تنظر له بصدمة ليتحدث بهدوء وهو يبتعد في اتجاه باب الغرفة: «ابقِ قليلًا يا شعلة، فالأفضل أن تستيقظ أميرة لتجدك بجوارها، فيبدو أن كلام أَمس لم ينته بينكما، سأحضر القهوة ولن أتأخر»، تركها وخرج لتنظر هي للمكان الذي شغله منذ لحظة وتهمس من دون تصديق: «لقد ناداني بشعلة».



بعد فترة

تنهدت بخفوت وهي تشعر باضطراب داخلها، أخذت تنظر لأميرة بحنان وهي تعيد في رأسها كلماتها التي ألقتها بالأمس عليها، صغيرتها عانت في صغرها، عانت

مثل ما عانت أو ربما أقل مما عانت، ولكن هي تعي جيدًا معنى اختبار الكفاءة، تعي كيف كانت قبله وكيف أصبحت بعده، لذا أن تتخيل صغيرتها وهي تعاني ما عانته كان مؤلمًا بقوة لها، تنهدت بخفوت وهي تنظر لكوب القهوة الذي بجوارها على الطاولة وهي تحمد الله أن آسر تركها بعد أن أحضر القهوة واحترم أخيرًا رغبتها في المكوث بمفردها بعد ما حدث بالأمس، همست داخلها وهي تخفي وجهها بين كفيها: «يا إلهي حتما يظن أنني حمقاء تتوسل الحب والحنان الآن».

«غُفران» همسة رقيقة ضعيفة وصلت لأسماعها لترفع رأسها بقوة لأميرة وهي تهمس لها بارتياح: «لقد استيقظتِ»، رمشت أميرة بعينيها وهي تشيح بوجهها عن غُفران فعندما فتحت عينيها أخذت بعد الوقت لتفكر أين هي وماذا حدث، وبعد أن لمحت غُفران تتنهد بتعب بجوارها، عادت سيل الذكريات كلها لها لتشعر بالحنق من نفسها لما باحت به.

«هل أنتِ بخير الآن؟!» سألتها غُفران بحنان اشتاقت له أميرة لترفع عينيها لها وترقرقت بالدموع وهي تنظر لغُفران التي تنظر لها بحب مختلف عن أي حب شهدته في هذا المنزل، حب غُفران لها هو طوق النجاة في حياتها، من دونه تموت غرقًا في بحور الحزن والألم، فشهقت ببكاء وهي تضع قبضتها على فمها وتهمس لغُفران: «أنا آسفة أرجوكِ لا تغضبي مني».

لتنهض غُفران مُسرعة من مكانها لتنضم لسرير أميرة وهي ترفعها من كتفيها لتحيطها بذراعيها وتضمها لجسدها بقوة وهي تهمس بقوة: «إياكِ أن تعتذري عن شيء ليس لكِ دخل به، من يجب أن يعتذر هو أنا، لأنني لم أكن أعلم، لم أكن بجوارِك وقتها ولم أحميكِ، لا شيء يجعلني أغضب منكِ يا صغيرة، فأنتِ ابنتي قبل أن تكوني أختي وصديقتي».

تشبّثت أميرة بحضن غُفران بقوة وهي تفضي بكل دموع الحزن والألم والضعف والقهر داخلها وتتحدث بين شهقاتها: «أنا لا أستطيع العيش من دون حبكِ هذا غُفران، أنتِ سبب حياتي حتى الآن، أنا لا أحمّلكِ ذنب ما حدث فكلانا لم يكن في وضع اختيار سليم، وكلانا لم يكن على دراية بمدى جبروتهم وظلمهم وساديتهم، أنتِ كنتِ وما زلتِ طوق نجاتي من الجحيم الذي عشت به».

أغمضت غُفران عينيها بقوة وكلمات أميرة تنزل بردا وسلاما على قلبها، تشفي آلام وجراح روحها لتزيد من ضم أميرة لها وهي تُربّت على ظهرها بدفء وصل بوضوح لذلك الذي وقف على باب الغرفة يتابعهما بعينيه بصمتٍ تام، وعدة مشاعر تجيش بقلبه وروحها وهو ينظر لأغلى امرأتين لقلبه بعد والدته.

تنحنح بعد لحظات بخفوت وهو يطرق الباب ويدلف وهو يتحدث بمرح: «وها هي أميرتنا قد استيقظت من نومتها في أحضان الشعلة».

غمز آسر لأميرة بمرح وهي يشير لها برأسه لغُفران لتهتف الأخيرة بغضب مكتوم: «توقف عن مناداتي بشعلة»، لتنظر أميرة لهما باستغراب وهي تمسح دموعها ثم عادت بأنظارها لآسر وهي تترقب ملامح وجهه لتتبين مدى تأثره بما سمعه أمس، لينظر لها آسر بحنانه المميز وهو يرفع بين يديه مائدة صغيرة تحوي فطورا لذيذا، وهو يقول واعيا لنظراتها المتسائلة المترقبة له: «والآن فطور ملوكي لأميرتنا بعد غفوتها ونرجو أن تسمح لخادمها ولشعلتها أن نشاركها الفطور».

لتنهض غُفران بغضب وهي تبتعد عن طريقه بينما تنظر له أميرة بدموع وهي تهز رأسها بالموافقة حامدة الله بداخلها على وجود آسر في حياتها، وتفهّمه الشديد لما تمر به.

كان الفطار لذيذا لا يخلو من إثارة آسر لغضب غُفران الذي استغربته أميرة وهي تعي مدى قدرة غُفران على السيطرة على مشاعرها، لتبتسم بداخلها وهي تدرك جيدا أن تأثير آسر قادر على تغيير العديد من الأشياء والمشاعر داخل أي شخص، تدرك أن هذا فطرة فيه وضعها الله به بعيدًا عن علمه ووظيفته.

دلف آسر بأكواب العصير وهي يضعها أمام غُفران التي نظرت له بضيق تبعه سؤالها: «لما أحضرت ثلاثة أكواب؟! أخبرتك أنني أريد التحدث لأميرة قليلًا!»

لينظر لها آسر بهدوء وهو يعطيها كوب العصير لتأخذه منه بغلظة بينما التفت ليمنح أميرة كوبها بابتسامة حنونة حركت شيئا داخل قلب غُفران، لترمش للحظات وهي تبعد عينيها عنه لتراه يحمل كوبه ويجلس على الكرسي الآخر المواجه

لها من الجهة الأخرى من السرير وهي يتحدث بجدية تناقض لمعة المشاكسة في عينيه: «تفضلي أكملي حديثكِ الذي لم ينته بعد».

ضمت غُفران شفتيها وهي تمنع نفسها بقوة من سبّه وضربه قبل أن تأخذ نفسا طويلًا محاولة منها لجذب الهدوء لروحها، الذي تفقده بسهولة في وجود هذا الغليظ الحنون، لتلتفت بعدها لأميرة التي تتابعهما بابتسامة لتبدأ حديثها المهم وتدعو داخلها أن تتحمّله أميرة: «أميرة هناك أمور لم تدركيها، أمور ربما تُغير بداخلكِ الكثير، أنا لن أتحدث معكِ فيما قلته بالأمس، ولكن هناك نقاطًا توقفتِ عندها لأتيقن أنكِ لستِ على دراية بكافة الأَحداث، وأن هناك الكثير من الأمور التي ربما وصلت إليكِ بالخطأ من خلال تحليلكِ للأحداث، أو ربما أوصلها لكِ أحدهم عن قصد».

نظرت لها أميرة باهتمام وهي تركز على كل كلمة تخرج من فم غُفران، وتشعر أن القادم سيعصف بدواخلها، لتسمع غُفران وهي تكمل مفسرة لها حقيقة ما حدث مع زمرد وممدوح وسهيلة.

ساد الصمت بالغرفة تخلّلته شهقات أميرة وهي تنقل أنظارها لآسر الواقف بجوارها وغُفران الجامدة في مجلسها، نظرت لغُفران بعدم تصديق وارتعاش شفتيها ينذر ببكاء لم يتأخر لتبكي أميرة في اللحظة التالية وهي تسبّ ممدوح.

زفرت غُفران بتعب وهي تقف لتجلس بجوار أميرة على السرير وتتحدث بقوتها المعتادة وهي تمسك ذراعيها: «استمعي لي جيدا أميرة، ممدوح وغد قذر سادٍ مُغتصب وكل الصفات السيئة في العالم، لا تحمّلي نفسكِ ذنبًا لم يكن لنا يد به، كل هذا كان مُخططا منه يا عزيزتي أراد أن يخلق منّا وحوشًا تشبهه، أراد أن نكبر على البغض والكره والحقارة والقذارة، أرغمنا على دخول جامعات معينة حتى يستفيد منّا في عملياته وتجارته، أراد ولم يصل لغايته، والسبب هو أننا معا حتى هذه اللحظة، نعم وصل مع كل واحدة منّا لمرحلة صعبة فكان على خطوة من هدفه الأخير المنشود لكنه لم يفعل، لم يسعفه الوقت في الماضي ولن تسمح له قوتنا الآن وفي المستقبل، نحن ما عدنا ضُعافًا وكل شيء قد وضح أمامنا الآن، أميرة زمرد لم تكن مُذنبة كما ظننتِ، هي كانت مُجبرة فقط يا عزيزتي لقد هددها بكِ كما

هددها سابقا بسهيلة، علم أن نقطة ضعفنا هي علاقتنا ببعض فاستغلها لصالحه أسوأ استغلال وكتمان كل واحدة منّا على مصابها أبعدنا عن بعض وجعلنا نفقد تركيزنا وتضيع الحقيقة من أمامنا بسهولة، أنا لا أريدكِ بهذا الضعف سأسمح لكِ الآن بالانهيار هكذا لأنني أعرف أن الحقيقة صعبة، ولكن أنا في حاجة لمساعدتكِ فيما بعد كما تحتاجكِ زمرد فهي لا تقوى على النظر إليكِ، ولا التحدث معكِ، لتبرر ما فعلته ونحن لا نريدها أن تبعد عنّا، نحن يجب أن نكون معًا في كل خطوة سنخطوها مستقبليًا، ما زال هناك الكثير لنفعله، ما زال أمامنا العديد من ذيول ممدوح في كل مكان يجب أن نمحوها».

رمشت أميرة بعينيها لكلمات غُفران وروحها تتشرّب كلماتها محاولة بث روح المقاتلة بداخلها ولكن هذه المرة في الطريق السليم، رفعت غُفران عينيها لآسر لتراه ينظر لها بانبهار مسّ شغاف قلبها لتهرب نبضة منها له مباشرة.

كادت أن تخرج من البيت بعد أن اطمأنت على أميرة، لتسمعه يناديها، فالتفتت لتجده يرتدي سترته ويقترب منها بهدوء قائلا: «أريد أن أتحدّث معكِ»، سألته باستغراب: «بخصوص ماذا؟!»، كاد أن يجيبها حين قاطعه رنين هاتفها، فتحت الهاتف لتجد رقمًا غريبًا فقامت بالرد ليصلها آخر شخص كانت تتوقع أن تسمعه.

«إذا فلقد قتلت عزيزتنا خلود نفسها في النهاية، خسارة ولكن لم أتوقعها يومًا شجاعة ليست مثلك عزيزتي غفران»، هتفت بغضب غافلة عن ذلك الذي يقف بالقرب منها ويراقب ملامحها: «أيها الوغد الحقير، لقد ماتت بعد أن عرفت بأنك من قتلت والدها»، ساد الصمت من الطرف الآخر ليقول بعد لحظات: «إذا إنه مجرد انتقام ولكن انتظري هذا انتقام من نفسها».

سمعته غُفران وهو يضحك بسخرية لتقول بصوت مكتوم: «أين أنت؟! إن كان لديك الجراءة أخبرني بمكانك»، تأكد آسر من هوية المتحدث بعد أن لمح الغضب الكامن بكلماتها.

قال ممدوح وهو يمدد ساقه المصابة على الأريكة أمامه: «آه يا غُفران لقد اشتقت إليك حقًا، كيف هو اللواء حسين، أما زال يبحث عن خطوط لإيجادي، أخبريه ألا يجهد نفسه فمن المستحيل أن تجدوني».

«سأجدك ممدوح، أقسم لك سأجدك وحين أفعل لن أتوانى عن جعلكِ تذوق طعم الألم بمرارة لم تكن تتخيّلها، تذكر هذا جيدًا»، قاطعها ممدوح وهو يقول: «دعينا من تلك الثرثرة وأخبريني أين عمران، فأنا لدي معه حساب لم ينته».

ارتعش جسدها وهي تسمعه يذكر عمران لتجيبه بحذر: «أنا لا أعرف أي شيء عن رجالك ممدوح، ولا تظن أن...» قاطعها قبل أن تكمل: «غُفران هيا، توقفي عن الخداع، أنا أعلم بحب ذلك الأحمق لك منذ سنوات، وأنه ليفعل المستحيل من أجل حمايتكِ، فقط لم أتخيل أن يكون عميلًا للأمن الوطني».

جمدت غُفران مكانها وهي تسمع كلماته حب! ما الذي يهذي به، لتسأله بصوت حاولت أن يبدو طبيعيا: «أنا لا أعرف عنه شيئًا» ليجيبها بعد تنهّد: «خسارة فأنا ظننت أنكِ تعرفين مكانه، فأنا لدي عنوانان الآن، ولا أريد أن أجازف بالذهاب لواحد فقط فيهرب من الآخر».

شعرت بالرعب وهي تسمعه ليأتي في عقلها هنية (والدة عمران) لتقول بغضب: «استمع إليّ جيدًا يا ممدوح، أنا لا أعلم أي شيء يخص عمران أو غيره و...» قاطعها قبل أن ينهي المكالمة: «حسنًا، شكرًا لعدم المساعدة».

نظرت غُفران للهاتف بيديها وهي تشعر ببرودة في أوصالها، وكل ما يدور بعقلها هو قدرة ممدوح للوصول لوالدة عمران، سمعت آسر يناديها: «غُفران أجيبيني.. ماذا بك؟! وهل كان ذلك ممدوح؟!»

نظرت له بتيهٍ للحظات وهي تقول: «سيقتلها إن عرف بمكانها سيقتلها»، شعر آسر بالتوتر وهو يقول: «من؟ سيقتل من؟!»

أدخلت الهاتف بحقيبتها وهي تقول:«عليّ الذهاب»، كادت أن ترحل حتى شعرت بقبضة قوية تمسك بذراعها، فرفعت عينيها لتجد آسر ينظر لها بجمود قائلًا:«عليك الهدوء وإخباري ما يحدث معكِ، وبعدها سنقرر إلى أين نذهب، ونذهب أقصد بها أنا وأنتِ، لأن بحالتكِ هذه أنا لن أسمح لكِ بالذهاب وحدك فانسِ الأمر»، رمشت بعينيها وهي ترى آسر بهالة الغضب التي تحيط به لأول مرة لتبلع ريقها بصعوبة وهي تقول:«لا شأن لك بي، اترك ذراعي»، زاد من الضغط على ذراعها ليقول:«لا داعي للجدال غُفران فأنا لن أسمح لكِ بالذهاب حتى أفهم».



الفقدان فجوة يصعب رتقها

واسيني الأعرج

الفصل الرابع عشر
أخوة

منزل عمران

طرقت الباب وانتظرت بتوتر وهي تنظر بعينيها لذلك الذي يقف بجوارها صامتًا، تذكّرت اختصارها لما حدث له ليصمت للحظات وهو يعرض عليها توصيلة بسيارتها، لعلّهما يوفران بعض الوقت وها هو الآن بعد أن وصلت أصر على القدوم معها قائلا بجمود أنه لن يطمئن عليها وهي وحدها.

فُتح الباب لتتنهد غُفران بارتياح وهي ترى سعاد ترحب بها وتنظر باستغراب للرجل الذي معها، دلفت غُفران لتسأل على أم عمران فأخبرتها سعاد أنها بغرفتها، سألتها بخفوت عن عمران فأجابتها أنه لم يعد من الخارج بعد.

دلفت غُفران أولا للغرفة ثم دقائق بعد أن عدّلت من جلسة أم عمران سمحت لآسر بالدخول، تنحنح آسر وهو يدلف للغرفة ليرق قلبه لتلك العجوز الصغير التي تجلس في هدوء ورزانة على سريرها وتنظر باتجاه الباب بابتسامة قائلة: «أهلا بصديق غُفران مرحبا بك يا بني»، اقترب آسر ومسك كفيها ليقبّله في حركة عفوية منه جذبت أنظار غُفران وهو يقول: «أهلا بكِ يا أم عمران، كيف حالكِ» أجابته: «في رضا يا بني، إذا أخيرًا جئتِ غُفران، سأشكوها لك يا بني، هل يصح أن تغيب لشهر وأكثر ولا تأتي لتراني؟!» أجابها آسر بابتسامة: «هي هكذا دائما يا أم عمران، تغيب لفترات طويلة لتختبر غلاوتها بقلوبنا»، ضحكت أم عمران لجملته بينما نظرت له غُفران بغير تصديق لتقول مغيرة الموضوع: «أنتِ تعلمين يا أم عمران عن أسباب انشغالي، أخبريني عنكِ وعن صحتك وكيف هو عمران؟!»

تنهدت بتعب وهي تقول: «حاله لا يعجبني يا ابنتي، منذ فترة وهو يبقى بالمنزل لفترات طويلة وأحيانا كثيرة أجده بغرفتي وأنا نائمة فقط جالس بجواري ممسكًا بيدي، قلبي يحدّثني أن هناك أمرًا جللا معه ولكنه مثلك لا يخبرني بشيء إلا ما يريد قوله فقط».

شعر آسر بتلك النغزة مجددا التي أصابته وقتما تحدثت غُفران عن عمران، وقلقها لاحتمال أذية ممدوح له ولوالدته، سمع غفران تقول: «لا تقلقي، حتمًا أمور الشغل هي ما تشغله لا أكثر ولا أقل، أنتِ فقط لا ترهقي نفسكِ بالتفكير كثيرا».

دخلت سعاد في تلك اللحظة بكوبين من العصير، فنهضت غُفران قائلة: «لا داعي يا سعاد فنحن راحلان»، نظر آسر لها باستغراب وهو يقول: «هل لديك مشكلة مع العصائر؟!» رمشت بعينيها وهي تنظر له غير مستوعبة سؤاله ليكمل: «في أي مكان يُقدم أحدهم لكِ أي عصير تهربين على الفور! هل لديك مشكلة معه؟!»، نظرت له ببرود دون أن تجيبه بشيء، لتقترب من أم عمران الضاحكة لتقبّل كفيها في بادرة جعلت الدموع تترقرق في عينيها لتقول: «حفظكِ الله يا ابنتي، حفظكِ الله لي»، اقترب آسر وقام بالمثل لتزيد أم عمران من الضغط على كفيه وهي تطلب منه أن يقترب لتهمس في أذنه: «اهتم بها جيدًا فلقد عانت الكثير، لا تتركها يا بني حبًا في الله».

ابتسم آسر وهو يهمس لها: «لا أستطيع تركها يا أم عمران، لا تقلقي هي بقلبي قبل عيني»، شعر بارتعاشة وهو يرى كف أم عمران يمسد على رأسه لتجيبه بسعادة: «أسعدكما الله يا بني»، ليعتدل في وقفته مُستغربًا من جملته التي خرجت من فمه دون أن يفكر فيها، رفع أنظاره لها ليراها مشغولة مع سعاد في رؤية الأدوية التي تتناولها أم عمران، فنظر إليها بتركيز هذه المرة، هو ليس غبيًا لينكر شعورا غريبا اجتاحه، هو فقط مستغرب من اضطراب مشاعره وجد نفسه يؤمّن على دعاء أم عمران وجزء كبير داخله قد ظهر فجأة وهو يتمنى حقًا أن يسعدهما الله معا.

بعد ساعة

اتصل به أحد رجاله فأجابهم على الفور: «أخبرني» أجابه رجله: «لقد وقعت في الفخ بسهولة، لقد تبعناها كما قلت لنا بعد اتصالك بها، لقد خرجت منذ ساعة مع ذلك الطبيب من إحدى الشقق في نفس الحي الذي تسكن فيه لكن ليست شقتها»، ساد الصمت للحظات ليجيبه ممدوح: «حاول أن تعرف أي الشقق دخلتها، هناك حتما تخفي شيئًا عن عمران، وحاول ألا تترك آثارًا خلفك، سأنتظر اتصالك».

أنهى ممدوح اتصاله وهو يفكر بابتسامة أنه كاد أن يصل لما يريد دون أن يتم اكتشافه، أمسك جهاز الثريا الخاص به وأجرى اتصالا ليأتيه صوت يتكلم بلهجة عربية ليسأله ممدوح: «هل انتهى تحضير المخدر؟!» لتأتيه الإجابة من الطرف الآخر ليقول بابتسامة أسد تناول فريسته: «جيد جدا سأستلمه منك غدا في المكان المعتاد».

أنهى المكالمة ليلتفت على صوت خلفه: «هل بدأ الأمر؟!» ليجيبها بابتسامة تعكس خبثه وهو يقترب منها: «نعم عمليات البيع التي لم تتم حان وقتها، الزعيم لن يعفو عنا إلا إذا نفذنا له ما أراده، المعلومات التي أحضرتِها لي، ساعدتنا كثيرا، دوما كنتِ المميزة عندي» رفعت ذراعيها وهي تحتضنه لتقول بهمس في أذنه: «حسنًا دعنا الآن من العمل فلقد مللت وأثبت لي كم أنا مميزة لديك».



مساء

رن هاتف ممدوح ليجيب بهدوء: «حسنا» أجاب رجله: «لقد دخلنا الشقة ولم يكن بها سوى امرأة شابة وأخرى عجوز عمياء تجلس على كرسي متحرك» سأله ممدوح: «هل أنت متأكد من أنها نفس الشقة التي دخلتها؟» أجابه: «لم أكن متأكدا حتى سمعت العجوز تنادي ابنها وقد ظنته نحن وقالت: «بني عمران هل عدت؟!»

تجمّد ممدوح مكانه وهو ينصت لرجله ليقول بصوت جامد: «اوصفها لي»، استغرب الرجل سؤال سيده ليجيبه بعد لحظات: «امرأة عجوز يبدو أن عمرها تعدى السبعين، جسدها ضئيل بالإضافة إلى أنها عاجزة وعمياء»، تحدّث ممدوح وهو يشعر بانسحاب الدماء من جسده: «اقترب منها واكشف عن جسدها هل هناك أي أثر لحروق؟!»

ساد الصمت للحظات على الطرف الآخر ليجيبه الرجل: «نعم سيدي» ليغمض ممدوح عينيه بقوة وهو يقول بصوت لا حياة فيه: «إنه البيت، لا تتحركا أنا قادم»، أغلق ممدوح الهاتف ليفتح عينيه التي تشع غضبا ليقذف بالكأس التي بيديه على الحائط فتسقط متهشمة، وهو يهتف بغضب: «أيها الوغد الحقير».

«حسنا لقد وصلنا، أرأيت المنزل قريب كما أخبرتك»، أجابته غفران بضيق وهي تشعر به يكسر جميع الحواجز التي وضعتها لتعاملها مع من حولها، نظر آسر حوله بهدوء وهو يتفحص العمارة التي بها والمنازل من حولها، لمحت نظراته فأساءت فهمها وهي تقول بسخرية: «عذرا فالمكان لا يناسب الأمير»، أعاد آسر نظراته إليها ليقول بهدوء وعيناه في عينيها: «أنتِ تعلمين جيدًا أنني لست مثل أولئك الذين يولون انتباههم للأماكن والناس وهيئتهم»، وهي تصدقه فهو لم يرفض الذهاب من منزل أم عمران حتى شرب العصير، يا الله إنه حتى مازح سعاد ولم يرحل حتى جعلها تضحك وهي التي كانت صامتة منذ حضوره.

خرجت من أفكارها الغبية على سؤاله: «في أي دور تسكنين؟» سألته باستنكار: «لماذا تسأل؟!» أجابها بتنهد: «فقط أجيبي على سؤالي»، صمتت للحظات وهي تقول: «في الدور الأخير»، لمحته يسبقها ليدخل المبنى وهو يقول: «حسنا هيا»، لحقته مسرعة وهي تسأله باستنكار تام: «إلى أين تظن نفسك ذاهبا؟!» التفت إليها لينظر لها للحظات طويلة جعلتها تتململ في وقفتها لتسمعه يقول بهدوء: «أعلم أنك تظنيني غريب الأطوار ولكن أنا أرى أن هناك سببا لوجودي معك، وقتما تلقّيتِ الاتصال من ذلك الحقير وهناك سبب لقدومي معكِ لمنزل أم عمران، وهناك سبب لقدومي معكِ لمنزلكِ، صدقي أو لا تصدقي غفران ولكن أنا لدي إحساس قوي يشدّني للصعود لشقتك، كأن هناك شيئا يجذبني،

بالخارج حين أسئتِ الظن بنظراتي أنا لم أكن أرى ما حولي من أناس معدومي الحال أو ذوي حال متوسط، أنا كنت أكتشف العالم الذي يُحيطكِ، كنت أريد أن أراه بنظرتكِ كل يوم وأنتِ تعودين إليه وحيدة لتصعدي لشقتكِ وحيدة وتقضي ليلتكِ وحيدة، لذا سواء جئتِ معي أو لا أنا سأصعد لشقتكِ هناك خطب ما ولا أعلم ما هو».

نظرت له بجمود وهي تصدّق كل كلمة يقولها، آسر من الأشخاص الصريحين الذين لا يخفون الحقيقة لأي سبب، جزء من روحها تأثر باهتمامه حتى لو كان مجرد فضول منه، تخطته لتصعد الدرج ليتبعها بهدوء وشعور غير مريح ينتابه.

وصلا للدور المنشود فتوقفت غفران مكانها مندهشة من باب شقتها المفتوح، دلفت مسرعة ليدلف خلفه آسر وهو يرى محتويات الشقة البسيطة مُلقاة على الأرض كل شيء فوق بعضه، دليل واضح على اقتحام أحدهم للشقة، كادت أن تدلف لغرفتها فمسك آسر ذراعها مانعا إياها ليدلف هو بدلا منها ليطمئن أن لا أحد موجود، أولا لمح مقتنياتها على الأرض وكتبها مرمية بإهمال، دلفت خلفه لترى منظر الغرفة فشعرت بالغضب يتخللها فسألها آسر: «هل هناك شيء مهم أخفيته هنا قد يجدونه؟» أجابته بتيهٍ: «لا لقد قدمت كل الأوراق التي معي للواء، أنا لا أفهم لمَ تحدّث عن منزل عمران إن كان يقصد منزلي، وعمَّ كان يبحث»، شعرت بالتيه لتشهق فجأة وهي تقترب من خزانتها لتفتحها وتنظر أسفل أحد الأدراج فمدت يديها لتغمض عينيها بارتياح وهي تجد ما تبحث عنه، لمحها آسر تعتدل وبيديها سلسلة قديمة يبدو أنها غالية لها، لم يستطع منع نفسه من سؤالها: «هل هي ملك لأحد غالٍ لك؟!» فتحت عينيها فجأة وكأنها نسيت وجوده لتضع السلسلة بجيبها وهي تعيد انتظام أنفاسها قائلة: «من الأفضل أن ترحل الآن ما عاد لوجودك معنى، ها قد اتبعت حاستك السادسة ورأيت ما رأيته وكما ترى لا أحد بالمنزل لذا ارحل».

«نرحل» نظرت له بعدم فهم ليقول: «لا تظني أنني سأسمح لك بأن تمكثي ساعة هنا». قالت من بين أسنانها: «ومن أنت لتسمح لي ولا تسمح، تلك الأوامر تلقيها على إخوتك أهلك زوجتك أصدقائك لا أنا».

تحدّث آسر بهدوء: «حسنا إن لن تذهبي معي فسنبقى هنا معًا»، لمحته يخلع سترته ليجلس على أحد الكراسي بالخارج، نظرت له بعدم تصديق وهي تقول: «أنت تمزح أليس كذلك، أنا لن أسمح لك بالبقاء أتفهم هذا؟ والآن ارحل».

سألها فجأة: «هل تسكنين هنا وحدك منذ سنتين أم هذه الشقة منذ أيام الجامعة؟» نظرت له غير مستوعبة لما يقول لتهتف بصوت عالٍ: «ارحل، ألا تفهم ما أقوله، أنا لا أريدك هنا، لا أريدك بالجوار».

صراخها به أعاده فجأة لذكرى طمرها عقله ولم تظهر إلا في تلك اللحظة ليبرق في عقله فجأة منذ ثلاث سنوات في احد الأيام حين وجد جسد إحداهن على الطريق ليسرع بها إلى أقرب مشفى ليقابله طاقم الطوارئ الذين أسرعوا بإسعافها ليتبعهم لغرفة الكشف فعادت ذاكرته لتلك التي كانت تعتلي جسد المرأة، لتنعش قلبها بعد توقفه، وتتذكر ذلك الصراخ العالي وهي تهتف: «اصمدي، ابقِ معي»، ليتحول صراخها لتوسل: «أرجوك ابقِ أرجوك»، ليتوقف الزمن بأكمله فجأة بتوقف الطبيبة على نداء احدى الممرضات: «لا فائدة لقد فقدناها».

تذكر ابتعاد الطبيبة عن جثة المرأة وتذكر ارتجاف جسدها، تذكر خروجها السريع من الغرفة لتصطدم به فيحيل بين وقوعها لتنظر له بضياع ودموعها تنهمر بغزارة على وجهها لتهمس ببكاء: «لقد ماتت.. لقد ماتت»، لتبعده بقوة عنها وتركض خارجة من المبنى.

عاد بذكرياته ليلمحها واقفة أمامه غاضبة، ويبدو أنها وجهت له حديثا ولكن بحكم ذكرياته لم يكن معها، الآن فقط تذكّر وجهها المألوف: «هل سمعت إن لم ترحل سأرحل أنا»، اعتدل في وقفته وهو ينظر لها بشرود ليقول فجأة: «لقد كان شعركِ قصيرا».

رمشت غفران بعينيها للحظات، وكأنها قد بوغتت بحديثه: «ماذا؟»، ليكمل شاردًا: «لقد قصصت شعرك من قبل أليس كذلك؟ أنا أتذكر رؤيتك وقتها بشعر قصير».

ساد الصمت في الشقة، ليلمح ارتباكا طفيفا في ملامحها، ليقول بتأكيد: «أنتِ عرفتني من قبل أليس كذلك؟ ذاكرتك التصويرية لم تخنكِ في هذا الأمر أنتِ تذكّرتني قبل أن أتذكّركِ».

أشاحت بوجهها عنه وهي تدير جسدها لتلتقط أشياءها الملقاة أرضا، وهي تقول: «لم يكن من الصعب تذكّرك» سألها: «لطالما أردت سؤالك منذ ذلك الوقت إن كانت تلك المرأة تعني لكِ شيئا».

لمح تشنّج جسدها ليراها تلتفت إليه لتزجره بغضب وجسدها يرتجف: «أنت لا تطاق هل تعلم ذلك؟!»

ليقول دون الانتباه لما تقوله: «هي لم تكن قريبتكِ، ربما هي ذكّرتكِ بشخص عرفتِه» أجابته بارتجاف: «حسنا حان وقت رحيلك فلتذهب» ليكمل: «أو ربما هي ذكّرتكِ بشخص لم تستطيعي إنقاذه».

صرخت بأعلى صوتها: «اخرج من الشقة»، ليكمل ضاغطًا على أعصابها: «أو شخص مات دون استطاعتك مساعدته»، لتهتف من دون وعي وقد أصابها انهيار من ضغطه عليها: «بل شخص قتلته اللعنة عليك آسر»، جمد في مكانه ليلمحها تنظر له بغضب وصدرها يعلو ويهبط من انفعالها، لتهمس بألم: «لأخرج أنا من هنا بما أنك لن تفعل».

كادت أن تمر بجواره حتى أمسك بذراعها لتلتفت إليه بقوة محاولة جذب ذراعها، وبعد محاولاتها بدأت في ضربه على صدره بقبضتها وهي تصرخ: «اتركني اترك ذراعي».

- تحدثي غفران
- ابتعد عني
- بوحي بما يكتم أنفاسك
- ابتعد قلت لك ابتعد

تذكّر اختبار الكفاءة، غفران لم تكن لتسأل أميرة عليه لو لم تخضه بنفسها: «هل ندمت على قتلها؟! هل قتلتِها بدم بارد؟! هل تألمتِ بعد أن واجهتكِ حقيقة موتها، هل يُطاردكِ شبحها؟! هل تجسّمت روحها أمامكِ؟!»

تجمدت غفران في مكانها وهي تلهث من قوة انفعالها لترفع عينيها بصدمة وهي تنظر إليه متسعة العينين ليقرّبها منه بهدوء وهو يقول: «أهذا سبب شرودك أحيانًا ثم شحوب وجهك بعدها، أهذا سبب نومك المستمر في النور كما قالت أميرة، هل تظهر لك في شكل بشع؟! هل تُخيفك؟! هل هناك أخيرا شيء يُخيف غفران القوية؟! أخبريني غفران ما هي أكبر مخاوفكِ؟!»

لتجيبه غير مصدقة معرفته بسرها: «أن يتحرك ظلها الساكن في الظلام، أن تواجهني وجها لوجه لتبصق في وجهي ما تهمس به وهي بمكانها، أن تسألني السؤال الوحيد الذي أخشى إجابته لماذا؟»

آلم قلبه شحوبها ليسألها هو: «لماذا غفران؟!»

لتقول والدموع تترقرق في عينيها: «لأنني كنت خائفة، أنا كنت خائفة آسر وفعلتها حملت سكينها وغرزته في قلبها، أنا كنت خائفة من الموت لتموت هي وأعيش أيامي ميتة أرغب في موتة تريحني من الحياة، ما زالت هنا تنظر إليّ من ذلك الركن المظلم تبتسم لي بسخرية كأنها تعلم كأنها تعرف أنها بموتها كانت أكثر شجاعة من حياتي».

صمتت قليلًا لتهمس له: «أنا أستحق هذا الخوف البشع، أنا أستحق هذا الألم، كان عليّ أن أقول لا، كان على أن أتركها تقتلني، هذا الألم لا أريده أن ينتهي، ولكن أريد لظهورها أمامي أن يتوقف، أريد التوقف عن الشعور بوجودها حولي، أريد التوقف عن رؤيتها بذلك المظهر البشع كما رأيته آخر مرة وقت شجارنا وبعد طعنها بالسكين».

قربها آسر منه وهو يلمح ارتجافها الشديد وهو يبعد يده عن ذراعها الممسك بها ليحيط بظهرها وهو يهمس أمام وجهها: «عليكِ التوقف عن لوم نفسك يا غفران حتى تتوقفي عن رؤيتها، إن سامحتِ نفسك فلن تريها فلن تشعري بوجودها، ذنبك

الذي تتمسكين به يداوم الظهور أمامك في أبشع صورة، سامحي نفسكِ يا غفران»، سألته بهمس: «كيف أسامحها وأنا قتلتها من أجل أن أعيش بينما هي تموت؟!».

أجابها بتأكيد: «هذا كان وقتها يا غفران ولم يكن هذا قراركِ، لقد كنتِ مُجبرة، هذا اللعين أجبركِ، لقد كان السبب الوحيد لموتهم، وهو السبب لوحيد لأسركم أنتِ وزمرد وأميرة».

«لا أحد غفران، لا أحد على وجه الأرض يستحق الأذية، فلا تظني أنكِ استثناء».

نظرت له بصدمة وهي غير مُصدّقة ما جعلها تبوح به بسهولة، أدركت قربها منه دون أن تشمئز، فابتعدت عنه بقوة وهي تقول: «من الأفضل أن ترحل»، نظر للسلسلة التي تقبض عليها في كفها ليسألها بهدوء: «أهذه لها؟!» أغمضت عينيها وكادت أن تقول شيئا حتى رن هاتفها، التفتت لتخرجه من حقيبتها لتجد رقم العم جلال صاحب البقال في الحي، أجابته بهدوء يناقض ما كانت تشعر به من قبل لتسمعه يقول بارتباك: «دكتورة غفران، إنها أم عمران»

جملتان استطاعتا أن تشعلا نيران الخوف داخلها، لم تستطع أن تكتشف إن كان الطريق طويلًا بينها وبين المنزل أم لا، كل ما هي متأكدة منه أنها ركضت فور أن سمعت العم جلال يهتف في الهاتف بصوت غريب باسم أم عمران.

لمحت تجمعا كبيرا للشرطة وعربة إسعاف لتخترق الجموع وخلفها آسر ينظر حوله بجمود حتى صعدا للشقة فأوقفهما أحد رجال الشرطة مانعين إياها من الدخول لتهتف بأحدهم أنها طبيبتها، سمع أحد الضباط حديثها ليقترب سائلا إياها: «أنت غفران ممدوح؟» أجابته بقلق: «نعم».

سمح لها بالدخول وهو يعلم عنها من النقيب سامي الذي أخبره بأنه في الطريق إليه، قال برسمية: «لقد أتانا اتصال من امرأة اسمها سعاد، تخبرنا بارتكابها جريمة قتل في هذا العنوان وحين وصولنا كانت قد اختفت».

هي لم تسمع أي كلمة بعد جريمة قتل، صفير عالٍ برأسها، وهي تشعر بأن الأرض تميد بها، كف مسكت بذراعها لتنظر لصاحبها فوجدته يناظره بشحوب فتحدّث آسر بصوت بدا تأثره: «ربما ما عليك الدخول».

هزت رأسها بلا لتدلف للغرفة التي تركتها منذ فترة قصيرة ولا تدري أنها ستعود إليها مجددا، كل شيء كان بمكانه، كل شيء حتى الضحية! شهقت وهي تنتفض مكانها وهي تنظر لجسد أم عمران المسجى بالدماء، شعرت بأن كل شيء توقف حولها، كأن كل تلك الأصوات بالغرفة من أصوات ضباط للطبيب الجنائي، للهمسات اختفت فجأة ولم تسمع سوى صمت، صمت لم تتخلله الأنفاس الغالية لقلبها.

صوت جاء من بعيد انتشلها من الهاوية التي سقطت فيها وهي تسمعه يقول: «لقد تم كتم أنفاسها بالوسادة قبل نحر عنقها».

كادت أن تصرخ بأعلى صوت، وذلك الألم يتفشى في جميع خلايا جسدها، حتى أتاها صراخ آخر جريح، عويل رجل فقد أمه.

خرجت من الغرفة مسرعة لتجده واقفًا يتشاجر مع رجلين من الشرطة وهو يهتف: «إنها أمي عليكم اللعنة»، تجمّدت مكانها وهي ترى رئيس المباحث يتخطاها ليتحدث إليه، وفي لحظة التقت عيناهما ليهتف بها: «لقد قتلها، لقد قتلها للمرة الثانية لقد فعلها».

ازداد شحوب وجهها وهذه المرة تهتز الأرض من تحتها ليسندها آسر وهو يراها فاقدة اتزانها.

لا يعلم كم من الوقت مر حتى أنهوا الإجراءات ورحل الجميع، كل ما يشعر به هو الخواء، لا يحدث أحدًا ولا يجيب عن أسئلة أحد، كل ما يتردد بعقله تلك المكالمة التي أتته وهو عائد للمنزل.

«لقد أجدت إخفاءها جيدا كل تلك السنوات، لم أصدق حتى رأيت بعيني، لطالما أحبّتك أكثر، كنت طفلها المفضل، حتى وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة نادت

اسمك، تلك المرة أنا لم أقتلها بل حبيبتك الصغيرة، فلقد أرشدتنا إليها بسهولة، آه هذا الحب يستطيع أن يقتل من يريد وقتما يريد».

أغمض عينيه وهو يشعر بنيران داخل روحه، نيران قادرة على إحراق الأخضر واليابس جائه صوتها وهو يزيد من إغماض عينيه، لا يريد التواصل معها كرفضه للتواصل مع اللواء حسين الذي أخبره أنه لن يهدأ حتى يجده! هو لن يهدأ حتى يقتله، سمع صوتها مجددا ويبدو أنها عازمة على ألا ترحل لقد بقيت حتى انفض الجمع بأكمله مع ذلك الطبيب، هو لا يريدها بجواره وفي نفس الوقت يرغب بشدة في أن تُطيّب جراحه.

«ارحلي»

ارتعشت شفتاها وهي تقول بصوت مُتألم: «عمران أنا لم...» لينهض مكانه وهو يلقي بكرسي بجواره عرض الحائط ليهدر بها: «ارحلي قبل أن أقتلكِ غُفران».

لتقف أمامه وهي تقول بدموع: «اغضب.. افعل كل ما ترغب به.. اقتلني.. لعلّ ذلك الألم يختفي».

ناداها آسر بخفوت وهي يعي حالة عمران غير المتزنة: «غُفران» فلم تجبه وهي تنظر لعمران في عينيه لتقول بجمود وعيناها تحكي آلامه: «أقسم لك بأنني لم أعرف أنهم يتبعوني، دائما ما أتأكد قبل قدومي لهنا، ولكن لم أر رجاله المعتادين، لم أعلم أنه يستطيع فعل هذا»، وكأنها قالت كلمة السر ليقبض على مقدمة قميصها ويلكمها في وجهها وهو يصرخ: «لقد فعلها من قبل فلمَ لا يفعلها مجددا؟» تراجعت غُفران خطوات للخلف من قوة ضربته وآسر يسندها من الخلف لتبعد ذراعها وهي تريد أن تفهم منه السر وراء تلك الجملة التي كررها لتسأله بتيهٍ: «ما الذي تقصده؟ هل ما حدث لها بسببه؟، تلك الحادثة!» أدار عمران جسده وهو يشعر بالنار تسير في أوردته ليقبض على كفيه بقوة وهو يقول من بين أسنانه: «ارحلي.. ارحلي أنتِ لا تعلمين شيئا».

اقتربت غُفران وهي تقول غير واعية لحالة عمران: «لقد أخبرتني أن ما حدث كان انفجارا بالمنزل ولكنها لم تكن داخله، أخبرتني أن قوة الانفجار دفعتها بقوة

وهي عائدة باتجاه المنزل لتضرب سيارة جسدها فأثر عليها وجعلها كما كانت فما علاقته بها».

التفت عمران وهو يقول بألم وصوته الجريح آلمها بقوة: «ولكنها لم تخبركِ أن من فجّر المنزل هو ابنها، ابنها الذي عاد بعد سنتين من غربة لم نعرف عنها بهيئة إرهابية، ويبدو أن جماعته قد أمرته بتنفيذ عملية ليكتشف أخوه الأصغر أدواته التي سيستخدمها ويبلّغ عنه الشرطة ولكنه اكتشف الأمر، وعندما واجه أخاه أمام والدته بما فعل، دافعت الوالدة عن ابنها الأصغر وهي تقول أنها من بلّغت عنه الشرطة فمنزل عبد الواحد الطيب لا يحوي إرهابيين، هل أخبرتكِ أنه أخذ أدواته وهرب، هل أخبرتكِ أن قبلها ترك جزءا من متفجراته ليشعل بها المنزل حين تأتي الشرطة ليوهمهم بموته غير آبه بأنه ترك خلفه أمه وأخاه؟! هل أخبرتكِ أنها خرجت خلفه تحاول أن تعيده لعقله مستخدمة قلب الأم ولا تعلم أنها فقدت قلب الابن منذ زمن؟! هل أخبرتكِ أنها لم تكد تخرج من المنزل حتى وقع الانفجار الذي دفعها هي وابنها الأصغر بعيدًا ليصاب الابن ببعض الحروق في جسده بينما تصاب هي بالشلل وحروق متفرقة بجسدها ودموعها وقهرها على حالة أبنائها جعلها تفقد نظرها، ألم تخبركِ أنها أجبرت أن تترك حياتها وذكرياتها في منزل دوما احتواها بأمان لتنتقل لمكان آخر بعيد، بعيد كل البعد عن ابن لن يتوانى عن إعادة الكرة لو اكتشف أن والدته ما زالت على قيد الحياة، ألم تخبركِ بأن الابن الآخر أراد أن ينهي عذابها، أن ينتهي من السبب الذي يمنعها من العودة مجددًا للأرض التي احتوت جسد زوجها، فعاد لأخيه ليخدعه ويرسم خطة متقنة مع أحد رجال الشرطة بالعمل جاسوسًا مع أخيه، سنوات وأنا أفهمه أنني فقدت أمي بسبب الشرطة التي فجرت المنزل لاحتوائه على إرهابي، خادعًا إياه بجهلي لمعرفته بأنها فعلته، وأنا أقنعه أنني أريد قتلهم جميعًا والانتقام منهم لما فعلوه لأمي وقبلها لأبي، وأنا أقنعه أنني أريد أن أكون مثله»، اقترب منها عمران في غضبه وهو يمسك ذراعيها ويجذبها بقوة وهو يكمل بكره: «وهل تعلمين ماذا فعله الأخ؟ احتضن أخاه بخبث وهو يخبره أن يسير خلفه دائماً وهو سينتقم من كل من آذوه؟! هل تعلمين ما الذي حاولت فعله لأمنعه عن معرفة الحقيقة، أنتِ تعرفين جيدًا فأنتِ في النهاية

ابنته، شبيهته، تعلمين جيدا أساليبه، كلاكما قتل والدته بدم بارد، لكن هنيئا لكِ أنا وأنتِ شاركناه في قتلها للمرة الثانية».

أبعدها عنه بقوة لتترنّح مكانها وهي تراه ينظر إليها باشمئزاز غير مُصدقة ما تسمعه، عمران وممدوح إخوة، ممدوح ابنها؟ كيف! لتراه وهو يجذب سلاحه مُصوّبا إياه تجاهها قائلا بغضب: «والآن اخرجي قبل أن أفعل ما نندم عليه جميعا».

أسند آسر جسدها وهو يشعر بها تتهاوى، ليجذبها من ذراعيها ويخرجها من الشقة قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه، أنزل عمران سلاحه وهو يجلس على الأرض ليضم ساقيه لجسده، ولحظات وأجهش بالبكاء على أم كانت له كل شيء.

«وتحزن كأنه أول كسر لك!

وأنت الذي لم يعد فيك شيء مُلتئم»

واسيني الأعرج

ساد الصمت في السيارة طويلًا وهو يراها تحاول لملمة شتات نفسها لكن تفشل في كل مرة، سمعها تقول بصوت جامد بعد فترة: «لنذهب لمنزلك»، رمش بعينيه وهو يقول: «منزلي؟!» هزت رأسها بنعم ليقود السيارة باتجاه المنزل مُنفذًا طلبها رافضًا أن يسألها عن السبب وهو يعي حالتها.



«أيها الحزن القابع في حنايا قلبها غادر بصمت، وأنا سأتكفّل بزرع دروبك العارية وردًا»

الرافعي

الفصل الخامس عشر
قلبك يؤلمني

بعد ساعتين

توقفت السيارة أمام المنزل وهو يراها تنظر بشرود أمامه لتقول بعد لحظات: «أخبر أميرة أن تستعد، سنرحل بعد قليل، سأكون بانتظارها هنا» سألها آسر باستغراب: «ترحلان لأين؟!»

أجابته: «سأطلب من اللواء حسين أن يؤمن لنا مكانًا نعيش فيه بهويات جديدة بعيدًا عن هنا، لقد بدأ ممدوح مخططه ولن يتوانى عن تنفيذه، سنرحل عنه لأبعد مكان يمكن أن يجدنا فيه».

سألها آسر بضيق: «وهل هذا هو الحل؟ الهروب وأنتم لم تفعلوا شيئًا؟» أجابته بتوتر: «إن لم أفعل خسرتهم مثلما خسرتها»، هز آسر رأسه بنفي وهو يشعر بالإحباط من رد فعلها أهكذا تفكر الهرب: «لا غفران، هم من يجب عليهم الهرب لا أنتم».

أجابته بارتباك: «أنت لا تفهم آسر، إن بقينا أنا لن أتوانى عن قتله بأبشع الطرق، وإن فعلت ذلك سأجازف بتعريض حياة زمرد وأميرة للخطر، يكفي ما حدث لسهيلة»، ليجيبها بغضب: «وأنتِ لا تفهمين أنكِ هكذا تسمحين له بالانتصار بتذوّق طعم الفوز عليكِ، أنتِ ستبقين هنا معنا حتى يجد اللواء طريقا للوصول إلى ذلك الوغد والقبض عليه»، التفتت له وهي تقول من بين أسنانها: «إن وصلنا إليه سنقتله لا نقبض عليه».

نزل آسر من السيارة وهو يشعر بالاختناق من أفكارها لتنزل خلفه وهي تقول: «سنعيش حياة جديدة، لقد عرض عليّ الفكرة منذ فترة وأنا اقتنعت بها، سنكون في بلد آخر بهوية أخرى، سنبتعد عن كل هذا القتل والدماء، سنكون آمنين».

كانوا قد دخلوا المنزل حين التفت إليها ليهدر بغضب من سلبيتها رافضًا أمر هروبها وهروب أميرة، فهي ستنتكس مرة أخرى ليفقدها وتعيش عائلته مرارة الفقد للمرة الثانية: «أنت تتوهمين غفران، لن تكونوا آمنين طالما هو حي، يجب أن تبقي وأميرة لن تتحرك من هنا».

أجابته وهي تحاول بيأس إثبات وجهة نظرها: «أنت لا تفهم آسر، هو ربما لن ينفذ مخططه، والاحتمال الأكبر أن يقتلنا، ألا ترى؟ لقد قتل والدته، لذا لا تظن أنه سيفكر مرتين قبل أن يفعل».

جاءت أميرة وأحمد وآدم على صوتهما العالي، وقد كانا يتدربان بالحديقة الخلفية لتسمع آسر يقول: «مهما كان مخططه أميرة آمنة هنا، وأنتِ أيضًا يمكنك أن تكوني آمنة هنا»، هتفت به بغضب وكل المشاعر السلبية تجمعت داخلها وهي ترى نفسها تفقد زمام الأمور: «أنا لا أحتاج لحمايتك، وسيكون خطؤك إن أصابها مكروه»، ليهدر بها دون وعي: «إنه خطأكِ أنتِ غفران، ابتعادكِ طوال تلك السنتين أنهى كل ما فعلتِه طوال عمرك، لو اكتفيتِ بما لديكِ من معلومات وطالبتِ بإلقاء القبض عليه، ما كان ليحدث ما حدث، وما تعرضت أميرة لكل هذا وربما ما قتلت سهيلة وما تم اغتصاب زمرد».

تجمد مكانه وهو يلمح شحوب وجهها ليلتفت على صوت أميرة وهي تقول بقلق: «ما الذي يحدث؟ ولماذا تتحدثان عن ممدوح مجددًا؟!»

نقلت غفران أنظارها بينه وبين أميرة لتقول بصوت مكتوم متأثرة بما قال آسر بعد ما قاله عمران لها: «جهزي ثيابك أميرة سنرحل بعد قليل»، هتف آسر بغضب وهو يشعر بألم بقلبه بسبب جرحها: «أميرة لن تتحرك من هنا طالما هذا الوغد على قيد الحياة ويخطط لاختطافكم»، شهقت أميرة برعب وهي تقول: «أما زال على مخططه؟!»

هتفت غفران متجاهلة صدمة أميرة: «أميرة سترحل معي آسر، أنا قادرة على حمايتها جيدًا، وإياك أن تُشكّك في مشاعري تجاهها، إياك أن تُشكّك في حبي لها، أنا كنت وما زلت على استعداد تام بالتضحية بروحي لأجلها فلا تُشكّك بهذا الأمر، إياك وأن تتدخّل بيننا».

تنفست بقوة وهي ترى ما يحدث بينهما لتناديها غُفران فالتفتت لها وهي تأمرها: «ارتدي ملابسكِ سنرحل من هنا»، قاطعها آسر بغضب: «أميرة لن تتحرك من هنا لأي مكانٍ هذا بيتها»، هتفت غُفران: «هذا لم يكن بيتها لثمانية عشر عامًا، بيتها معي بجواري وأنا قادرة على حمايتها لا نحتاج إليك».

وقف آسر بينها وبين أميرة التي تنتفض خلفه وهو يكمل حديثه لغُفران الثائرة: «اخرجي من المنزل غفران طالما لا ترغبين بالبقاء فيه».

نظرت غُفران له بجمود وقد جرحها بطرده لها، كتمت غضبها لتقول بعد لحظات وهي تهدئ ثورتها: «حسنا سأرحل، ولكن أقسم لك بأنني سأعود مجددًا لأخذها، سأجد مكانا أولا يناسبنا وسآخذها بعدها على الفور».

لم يجبها آسر بشيء بينما شيّعت غُفران أميرة بنظراتها الحزينة وهي تخرج من بوابة المنزل الخلفية، تنهد آسر بتعب هو لم يرد لهذا الأمر أن ينتهي هكذا ولم يقصد ما قاله فهتف بين أسنانه: «اللعنة»، قبل أن يتبع غُفران ركضا، لمحها في نهاية الشارع وهي تبتعد بسرعة وهالة الغضب تحيط بها من كل جهة، فركض باتجاهها وهو يوقفها من ذراعها لتلتفت إليه وتدفعه بعيدًا عنها بغضب لتهدر فيه بعد أن أدركت هويته: «ما الذي تريده الآن؟!» تحدث وصدره يعلو ويهبط من الركض: «إلى أين ستذهبين؟!» صرخت بوجهه: «إلى الجحيم فلتتركني وشأني».

قبض على ذراعيها بقوة وهو يقترب منها ليهتف بغضب: «توقفي، فقط توقفي، يا إلهي ألا تتعبين من كل هذا الغضب، ستأتين معي الآن غُفران، وأقسم لكِ بأنني لن أتوانى عن ضربكِ إن لم تتبعيني».



أخذت تنظر للمكان بجمود، وجسدها في تأهب لأي حركة يصدرها ذلك الذي دلف لغرفة مكتبه، لا تدري كيف طاوعته لتأتي معه، هي لم تهتم بتهديده بضربها ولكن هي تعبت فقط، تعبت وهي ترى نفسها فاقدة لأولئك الذين غزوا حياتها فجأة لتجدهم يرحلون فجأة، بعد أن خرجت من منزله أو بالأدق بعد طرده لها وهي تشعر بمرارة في حلقها، وكأن هناك جرحا غائرا داخلها لا يُشفى وكلماته الغاضبة تنسكب عليه لتزيدها وجعًا غريبًا لأول مرة تشعر به في قلبها، حديثه وحديث عمران وخسارة الأم التي أشعرتها أنها تستحق ولو جزءا بسيطا من الحب كان فوق احتمالها، لمحته يخرج من الغرفة وفي يديه حقيبة مليئة بالعديد من الأوراق، وضع الحقيبة بجوار باب الشقة والتفت إليها ليراها تنظر له بجمود، تنهد بتعب وهو يقول: «اهدئي غُفران، أنا لن آكلك الآن، اجلسي قليلًا فأريد الحديث معك قبل رحيلي».

أشار لها لكرسي من الكراسي الموضوعة في صالة الاستقبال، وجلس على الكرسي المقابل له، ثانية ثانيتان حتى تحركت وجلست بترقب وهي تهمس بصوت وصل لأسماعه بوضوح: «لا تستطيع».

ارتفع حاجباه بدهشة ولمحته وهو يبتسم ابتسامة صغيرة وهو يرفع نظارته من على عينيه ويمسح وجهه بإرهاق: «أنا لا أستطيع الجدال معك في أي شيء الآن، فأنا حقًا متعب من أحداث هذا اليوم الطويل».

شعرت بوخزة ألم في قلبها وهي ترى ملامح الإرهاق واضحة عليه، لكنها لم تجِبه بشيء، أردف في حديثه: «لا يأتي أحد اليوم للعيادة من بعد الساعة العاشرة مساء، لذلك لا تقلقي فالمكان آمن، سأنبه على العم محمود ألا يأتي بالغد وسآتي إليك غدًا بكل ما تحتاجينه، فقط أخبريني به، وهذا هو مفتاح العيادة ليس الوحيد فالآخر مع العم محمود، لذا كما أخبرتك سأنبه عليه عدم مجيئه غدا، وللأمان اتركي المفتاح في الباب»، مدت يديها لتمسك المفتاح من بين كفيه ثم لحظة ولمحته ينهض تحت دهشتها وهي تراه يدلف لغرفة أخرى بجوار غرفة مكتبه، لحظات بعدها ولمحته

يخرج ويحمل معه كشافا كهربائيا ووضعه في الصالة ثم تحدث بهدوء: «في المكان الذي ستنامين فيه ضعيه بجانبك في حالة انقطاع التيار الكهربائي».

نظرت له بانشداه بينما فعلته بعثرت نبضات قلبها، لتهرب منها وهي تتفوه بأول ما جاء لخاطرها: «أهكذا تعتذر عن حماقتك وما تفوهته به؟» لم يجبها بشيء متجاهلا نظراتها التي تشبه الطفلة الصغيرة ونظر حوله كأنه يتأكد من كل شيء على ما يرام وكأنه تذكر شيء فالتفت باتجاه الباب ووصل للأكياس التي أحضرها معه في الطريق ثم عاد إليها ووضعها بالكرسي الذي يجاورها: «هذا طعام فلتتناولي شيئا قبل النوم فيبدو عليكِ التعب الشديد، والآن أنا سأرحل، معكِ رقم هاتفي إن احتجتِ لشيء والآن أغلقي الباب خلفي».

قال جملته الأخيرة بتردد كأنه لا يرغب لي في تركها، ظل واقفًا مكانه للحظات يرغب في الاعتذار عما قاله، ولكن هو لا يريد التحدث في الأمر مجددًا، لأنه يعلم أنها ستنفعل مجددًا لترفض المكوث بالعيادة في نهاية الشجار وهو لا يريد ذلك، توجه نحو الباب فالتقط حقيبته وكاد أن يخرج حتى سمع نداءها له باسمه، فالتفت ليلمحها واقفة أمام طاولة الاستقبال وهي تنظر لنقطة بعيدة عنه: «لقد أردت أن...» قاطعها وهو يبتسم لها بحنو: «لا داعي لشكري يا غُفران فما بيننا قد تعدى مرحلة الشكر والاعتذارات».

شحب وجهها لجملته التي قالها لتجيبه مُسرعة: «ليس هناك شيء بيننا»

صمت للحظات وشعرت بشروده وهو ينظر إليها ولكن عقله ليس معها ليقول بهدوء: «قصدت ما مر من أحداث طوال الفترة الماضية، ارتاحي غُفران فما مررت به اليوم ليس سهلًا، أنا أعلم مما حدث أن تلك المرأة كانت تحتل مكانة مهمة داخل قلبكِ لذا فقدانها ليس بأمر سهل، لقد قابلتها اليوم فقط وقلبي يؤلمني لفراقها».

لمح ارتعاش شفتيها وهي تضمهما وتلف ذراعيها حول جسدها تقيه من الرجفة التي أصابته وهي تنظر للأرض، لحظات وسمعها تقول بألم: «في آخر لقاء بيننا أخبرتني أنني ابنتها التي لم يحملها رحمها، كانت تدرك كل شيء قبل أن أحدّثها به، وعندما أسألها كيف لها أن تعرف، تخبرني بأنه قلب الأم، أنا لست جبانة آسر

فقط جملتها تتردد داخلي منذ عرفت بأنه من قتلها، لقد كانت دومًا تقول لي الغضب كوحش ضارٍ لا يشبع أبدًا، فإياكِ أن تستسلمي لغضبك فوحده من يلتهمك دون أن يشبع، أولئك الذين يسعون للانتقام يحققون هدفهم ولكن لا يعودون كما كانوا من قبل.. جملتها تتكرر بعقلي باستمرار تليها جملة عمران أنني مثله شبيهته، أنا لا أشبهه بشيء آسر».

رفعت عينيها له ولمح ترقرق الدموع بها ولمحة ألم أخفتها ببراعة وهي تبلع ريقها وتأخذ نفسًا قويًا كأنها تمنع نفسها من الانهيار بالبكاء لتهمس له بصوت وصله مجروحا: «أستطيع القول إن أمي التي لم تحملني في رحمها ماتت اليوم».

آلمه قلبه وهو يراها تواجه نفسها بالحقيقة التي تجاهلتها طوال اليوم، ليتحدث بهدوئه وهو يراها تلملم من شتات روحها: «بل تستطيعين القول إن والدتك التي لم تحملك في رحمها ارتاحت اليوم، ارتاحي غفران وحاولي النوم قليلا، أنت لا تشبهينه بشيء غفران، وأنا وعمران وكل من يعرفك يعرف هذا، عمران فقط رجل فقد والدته على يد أخيه فعليك أن تعذريه على ما تفوه به».

تغضنت ملامحها بألم لم تستطع إخفاءه وهي تهز رأسها تأييدًا لما قاله، هي ارتاحت بالفعل، ارتاحت من آلام كانت لتقتلها مئة مرة باليوم لو عاشت بعد اختطافها، ارتاحت من معرفة حقيقة ابنها وأنه السبب في كل ما حدث لها، سمعته يقول بحنو أرسل القشعريرة في جسدها: «غُفران لا تجعليني أقلق عليكِ، أنا لا أريد أن أتركك منهارة هكذا، ولكن أعلم أنك سترفضين بقائي، لذا أرجوك تماسكي وكوني بخير».

لمحها وهي تتنهد بقوة وهي تبعد ذراعيها عن جسدها، ثم أجابته بصوت يكاد يكون متماسكًا: «لا تقلق سأكون بخير، أنا فقط أريد الراحة قليلًا وغدًا سأكون بخير».

لم يضف أحد منهما شيئًا بعد حديثها، ليهز آسر رأسه بالموافقة ويتحرك حاملًا حقيبته ليخرج من الشقة ويسمع صوت إغلاق الباب خلفه بالمفتاح.

كانت تجلس في مكتبها تشعر بالغضب الشديد من كل شيء، رئيسها تشاجر معها لأن لم تغطِّ الأخبار الخاصة بالقضية، يامن لا يحادثها منذ فترة وهي ذهبت لمنزله شعرت به غريبًا في تعامله معها، لا تستطيع نسيان تلك اللحظة التي رأته فيها يطيب جراح زمرد بمنزله وقت عزاء والدتها، تلك الخبيثة الماكرة تجذبه إليها، نفخت بضيق لتنهض من مكانها وهي تعيد الاتصال به للمرة التي لا تعلم عددها، تذكّرت الحوار الذي سمعته بين زمرد والفتاة الأخرى التي تدعى غُفران، عليها أن تبحث أكثر بخصوص تلك الفتاة، خرجت من مبنى الجريدة وهي تحمل حقيبتها وتخرج مفتاح السيارة لتصطدم بأحدهم لتقع حقيبتها، شتمت بغضب وهي تلتقط الأشياء التي وقعت منها بينما من اصطدمت به يقف مكانه دون أدنى مساعدة، وقفت وهي تقرر أن تتشاجر معه أو بالأدق معها، لتلمحها تعتذر بهدوء سائلة إياها: «هل أنتِ سالي منصور؟!» أجابتها سالي باستغراب بنعم، لتجدها تمد يديها لتصافحها قائلة: «أنا سهيلة ممدوح، ولدي أخبار بخصوص قضية الفتيات التي قلبت الرأي العام»، نظرت سالي بحذر ليديها ثم لحظات وصافحتها وهي تقول: «ومن تكونين؟ وكيف وصلتك الأخبار عن تلك القضية؟» لتجيبها: «أنا الفتاة الرابعة التي هربت من المزرعة وأريد مساعدتك في إلقاء القبض عليهم كي أستطيع أن أعيش حياتي آمنة» لتجيبها سالي بشك: «ولماذا لم تذهبي للشرطة؟» أجابتها بهمس وهي تتلفت حولها: «لأنهم يبحثون عني، وهناك رجال لهم يراقبون أقسام الشرطة في حالة وصولي إليهم، أنا أعرف أنك صحفية وأعرف أنك زوجة لمقدم بالأمن الوطني، سمعت زملاء لك يتحدثون عنكِ»، رفعت سالي ذقنها وهي تشعر بالغرور كل مرة تسمع فيها عن أنها كانت حديث من حولها وتفكر في كلامها إنها فرصتها الذهبية، تستطيع كتابة تقريرها ثم إخبار يامن بما لديها، نظرت لها بابتسامة لتقول بهدوء: «حسنا دعينا نرحل لمكان آمن نستطيع الحديث فيه»، فتحت سيارتها وركبت غافلة عن ابتسامة نصر خبيثة من رفيقتها.

منزل محمد الأسيوطي

لمح آدم وأحمد شرود آسر عنهما وهو ممسك بكتابه لا يقرأ فيه شيئا، فأدركا أن السبب هو ذلك الشجار الذي حدث مع غفران، حتى أميرة لم تكمل التدريب مع آدم لتصعد لغرفتها رافضة الخروج منها.

نظر آدم لأحمد نظرة ذات معنى، ليقترب الاثنان من آسر الذي لمح جلوسهما بجواره فابتسم لهما بهدوء، تحدّث آدم:«إنها ترفض النزول، أمي حاولت معها أكثر من مرة ولم تستطع إخراجها، وأمير يتصرف كأن أحدهم قام بعضه دون أن يكتشف من هو»، حانت من آسر ابتسامة وهو يعتدل في جلسته مستشعرًا حديث في عين أحمد ليسأله:«وأنت ماذا لديك من أخبار؟!» نظر أحمد له بهدوء ليقول بحرج:«لا شيء فقط أردت أن أخبرك أمرا» ليسأله آسر:«وما هو؟!»:«إنها تي كاي»، قالها أحمد بتركيز ليرفع آسر حاجبيه وهو يقول:«تي ماذا؟!».

قلب آدم عينيه وهو يقول بملل:«إنه يتحدث عن تلك التي تسمى غفران، ويشبهها بالفيلم يا إلهي كم أنت ممل، فيلم:«موانا» فيلم كرتوني مشهور».

نظر له آسر باستغراب ليقول أحمد بجدية:«فيلم كرتوني عن ابنة زعيم تذهب لإنقاذ بلدتها بعد أن ناداها المحيط لتعيد القلب المفقود ل تي فيتي».

حانت من آسر ابتسامة وهو يرى أحمد يعدّل من عويناته كأنه يناقش أمرا مهما ليقول له:«اذا غُفران هي ابنة الزعيم» ليقول آدم:«لا إنها الشرير الثالث بالفيلم الذي يتوجب على ابنة الزعيم محاربته»، نظر له آسر ليعقد حاجبيه مستغربا حديثه ليوضح أحمد له قائلا:«انظر آسر تي كاي هي تي فيتي ولكن دون القلب، ما أقصده أن غُفران تبدو من الخارج ك تي كاي، ولكنها في الحقيقة تي فيتي، لقد أخذوا منها القلب، ما يصدر منها نتيجة الأذية التي تعرضت لها، لو لم يبادروا بإيذائها ما أصبحت بتلك الهيئة الغاضبة الشريرة، إنها تريد قلبها فقط الذي سلبوه منها».

بهتت ملامح آسر وهو ينظر إلى أحمد الذي اكتشف ما اكتشفه هو منذ أيام، أكمل وهو يقول:«في نهاية الفيلم استغرق من موانا لحظات بعد أن اكتشفت عدم

وجود تي فيتي لتعي أنها تحولت لتي كاي ولم تتحول لذلك الشرير الناري إلا لأنهم أخذوا منها القلب».

رمش آسر بعينيه وهو يرى آدم يقترب منه لينظر إلى عينيه بتركيز: «لا تستغرق وقتا طويلًا في اكتشاف الحقيقة أخي حتى لا تخسر، فموانا كانت من بداية رحلتها تتخذ تي كاي كعدو لها يمنعها من الوصول ل تي فيتي».

ساد الصمت للحظات وآسر يعي حديثهما ليرى آدم يقلب بعينيه وهو يقول: «يا إلهي لا أعلم كيف بغبائك هذا اجتزت سبع سنوات دراسة طب ولا تستطيع فهم الأمر بهذه البساطة».

كتم أحمد ضحكته وهو يرى آسر ينظر له بغضب مصطنع: «هل تنعتني بالغبي أيها الأحمق؟!» لم يستطع أحمد كتم ضحكته وهو يرى آدم يتأوه بينما يمسكه آسر من أذنيه بقوة ليقول آدم بهتاف: «أهكذا تعاملني بعد أن حللت لك اللغز الذي جعلك تجلس كمن مات له ميت؟! وأنا من كان ينتظر المكافأة!، أمي آسر يضربني».



مساء

شعرت بصوت غريب حولها في الغرفة فارتعش جسدها للحظات ويديها تتحرك ببطء لتلمس سكينها، فانتفضت مكانها وهي تلمح مكان السكين فارغًا، شهقت برعب وهي تنهض من على السرير ثم لحظات وهدأت بينما جسدها ما زال يرتجف وهي تلمح أمير أمامها مُمسكًا بالسكين، وينظر له بهدوء ملاحظًا آثار البكاء على وجهها وعينيها المتورمتين، حاولت السيطرة على ارتجافة جسدها وهي تبتلع ريقها بصعوبة وترمش بعينيها، أخذت تتنفس بانتظام وأجلت حلقها وهي تتحدث بهدوء: «ما الذي تفعله هنا؟!»

أجابها أمير بهدوء بينما يقلب السكين في يديه: «نتيجة الامتحانات ستظهر اليوم»، رمشت بعينيها وهي تجيبه بغباء: «ماذا؟!» رفع عينيه لها ببرود: «ماذا ألم تكملي دراستكِ؟!»

اقتربت بضيق وسحبت السكين من يديه بقوة وهي تجيبه بفظاظة: «بلى أكملت دراستي، أعطيني هذا حتى لا تصيب نفسك وتؤلم كلانا»، نظر لها أمير بنظرة حنان أخفاها سريعا وهي تلتفت لتواجهه بعد أن وضعت السكين أسفل الوسادة لتقول بجمود وهي تشعر بانهيار روحها بعد ما عرفته اليوم من أن الوغد يخطط لاختطافهم مجددًا: «اخرج، أريد أن أنام».

أجابها باستنكار: «أخبركِ أن النتيجة اليوم وأنتِ تريدين النوم» لتجيبه بصوت مكتوم: «لا شأن لك، أنا متيقّنة من نجاحي، هيا أريد النوم».

ضحك ضحكة مُتهكّمة وهو يشعر بحزنها ليقول: «لا داعي لادعاء التفوّق فأنا لم ألمح أي ذرة ذكاء منكِ منذ قدومكِ» لتنظر له أميرة وتجيبه باستفزاز: «كيف تلمح شيئا لم تره يوما؟!»

نظر أمير لها للحظات ولم يستطع كبت ضحكته وهو يجيبها: «يا إلهي لقد قصفتِ جبهتي».

حانت منها ابتسامة صغيرة وهي تتذكّر حواره الأخير معها حين دلف لغرفة المكتبة وهي تقرأها، ليخبرها من دون مقدمات أنه لن يبتعد عنها وسيطالبها بحبها ومشاعرها تجاهه وعندما غضبت من مناداته لها بأميرة سألها هل ترغبين بحمل اسم صاحبكِ في أقسى أيام حياتكِ، أم ترغبين بحمل اسم يرغب بأن يمنحكِ المميزات التي تأتي معه من بيت وعائلة تتمنى أن تمنحيها نظرة حب؟ تنهدت بخفوت ولم تكد ترفع رأسها حتى وجدت نفسها تطير في الهواء ثم ارتطمت بطنها بكتفه لتشهق بصدمة بينما هو يجري بها للأسفل ويهتف بصوته العالي مقيدًا قدميها بذراع ومحيط جسدها بذراعه الآخر: «آسر أشعل أضواء الحديقة» أخذت تتلوى من قبضته وتهتف صارخة: «كيف تجرؤ؟! اتركني أيها الأحمق».

خرج من الشقة ووصل لنهاية الدرج ليرى والدته تخرج من المنزل وتشاهد أمير يحمل أميرة على كتفه لتشهق بصدمة بينما أميرة تتلوى بين يديه وتسبّه بأفظع الألفاظ بينما آسر ينتظرهما مُبتسما وأحمد وآدم يهللان بسعادة على أسفل الدرج.

تحرك باتجاه المسبح الصغير فشعرت أميرة بخطواته تجاهه فهتفت بصراخ: «لا لن تجرؤ».

لم تكمل جملتها لتجد نفسها تطير في الجو للحظة ثم ارتطام جسدها بمياه المسبح لتشهق من برودة المياه، وهي تسعل بقوة من دخول الماء في فمها، ثم رفعت أنظارها وهي تلمح ضحكات أمير العالية فنظرت له بغضب لتهتف وهي ترتعش من برودة الماء: «أنت ميت» لم يكد يجيبها أمير حتى لمح نفسه يسقط بقوة في الماء نتيجة دفع آدم له وهو يضحك عليهما، شهق أمير بقوة وهو يهتف ضاحكًا رغم برودة المياه: «يا إلهي إن الماء بارد».

لم يكمل كلامه وهو يتلقى لكمة قوية في بطنه فتأوه بألم وهو يرى أميرة تنقض عليه بقوة وهي تصرخ به، أخذ أمير يبتعد عنها مُسرعًا وهو يضحك على هيئتها ويتأوه من ضرباتها التي لا تتوقف، بينما آسر يتابعهما باستمتاع، وجميلة تأتي مُسرعة بمنشفة كبيرة وهي تقول: «آسر سيصيبهم البرد هكذا، فليخرجوا من المسبح».

ليجيبها آسر بترّقب: «انتظري قليلًا أمي حتى نصل لما نريده».

تابعته جميلة باستغراب وهي لا تعلم أنه اتفق مع أمير على أن يخرجوها من حالة الحزن التي أصابتها منذ الصباح، نظرت باتجاه أميرة التي تجاهد لضرب أمير الذي يهرب من قبضتها بسرعة ساعده عليها جسده الرياضي، لحظات وأخذت أميرة تلهث بقوة وغضب وهي تراه يتفادى ضرباتها ويضحك بقوة، فصاحت بغضب وضربت بقبضتها الماء فازداد ضحك أمير بهستيريا جعلتها تتوقف للحظة وتتابعه بانبهار لتنتقل في لحظات عدوى الضحك لها لتجد نفسها تبتسم ثم تضحك ثم تزداد ضحكاتها صخبًا، وهي تشعر بشعور جديد من السعادة لأول مرة تشعر به، توقف كل شيء حولهم وهم يسمعون ضحكاتها الصاخبة النابعة من القلب، ابتسم آسر بسعادة بينما رفعت جميلة كفها تغطي فمها بأعين دامعة وهي غير مُصدقة سماع ضحكات صغيرتها بينما تجمد أمير مكانه للحظات وهو يتابعها بعينيه.

مرت لحظات وهي تحاول وقف ضحكاتها بعد أن لمحت نظراتهم فأخفضت بصرها حرجا من هيئتها، ولا تصدق حتى الآن أنها ضحكت هكذا بينما سمعت صوتا تحرك في الماء فلم تكد ترفع عينيها حتى قابلها صدر أمير القوي وشهقت غير مُصدقة وهي تكتشف أنها بحضنه.

أغمض أمير عينيه وزاد في احتضانها وقد تبع إحساس داخلي يخبره بأنه في حاجة لهذا الحضن قبل أن تحتاجه هي، اتسعت عين آسر بدهشة وهو يراها بعد لحظات ترفع ذراعيها لتبادل أمير الاحتضان بقوة، احتضنته بقوة مُضاعفة لقوته وهي تشعر بأنها عادت لوطنها، وجدت راحتها وأمانها التي كانت تفتقده منذ زمن، لم تسمح لعقلها بأن يرتب أفكاره وتبعت قلبها وهو يتلهّف لاحتضان توءمها هكذا لعلّها تجد راحة بعد كل هذا الترحال الذي كانت فيه، لعلّها تجد أمانا تبحث عنه ليطرد الخوف الذي استولى عليها منذ الصباح، عاد الطير المُهاجر لعشه أخيرا.

لم يلمحوا محمد وهو يتابعهم بعينيه خلف باب الحديقة ودموعه تغرق وجهه وهو يردد هامسا: «الحمد لله».

لحظات وسمعوا بكاء أميرة بقوة، بكت في أحضان أخيها وهي تستشعر نفسها ضعيفة لأول مرة، بكت وهي ترمي كل أفكارها خلف ظهرها وتتعلّق بكتف أخيها، لا تريد أن تفكر، لا تريد أن تظهر قوية، لا تريد أن ترفض المشاعر، هي تريد هذا الحب، هذا الحنان، تريد أن تنهل منه حتى الموت، هي تريد أن تكون أميرة لا ليلى. شاركها أمير البكاء وهو يضمها بقوة ويهمس: «فقط لو تعرفي، لو تعرفي كم اكتملت الآن بوجودكِ، لو تعرفي مدى اشتياقي لكِ».

مرت لحظات على بكائهما ثم ابتعد أمير قليلًا وهو يمسح دموعه ويمد يديه ليمسح دموعها بحنان بينما هي تنظر له بدهشة من كلماته، نظر إلى عينيها بحب وهو يقول بقوة: «لن نفترق مجددًا، لن أسمح لكِ بالابتعاد، سنكون دومًا معًا، سنفعل كل شيء فاتنا لن أسمح لكِ بأن تبقي بعيدة عني، سنسامح بعضنا البعض وسنتخطى آلامنا، اتفقنا»!

ساد الصمت للحظات وأميرة تتابعه غير مُصدقة لما يقوله فهتف بها وهو يرتعش: «يا إلهي أجيبي أميرة إننا نتجمّد»، ضحكت أميرة بين دموعها وهي تهز رأسها بالموافقة فضمها أمير له وهو يشاركها الضحك سعيدًا من قلبه لما وصله إليه معها.



بعد أسبوع

منزل زمرد

زيارة أرادت أن تقوم بها لكنها تأخرت، لكنها أصبحت مستعدة، بعد تلك المواجهة التي كانت بينها وبين أمير أصبحت تمتلك القوة لفعل ما ترغب به، ابتسمت وهي تتذكّر حديثه الدائم معها ورغبته في مشاركتها ذكرياته والحديث عن كل ما فاتها، لمحت زمرد تنزل الدرج وهي بهالتها الملائكية الجديدة التي جعلتها تحبها أكثر، زمرد التي جاءت لزيارتها منذ يومين لتعزّيها في والدتها، كانت تشعر بالحرج منها لمعاملتها السابقة لها، ولكن أمير شجّعها على الذهاب والحديث معها وقد سردت له ما حدث، زمرد التي احتضنتها فور رؤيتها دون أن تقول شيئًا، قضت معها اليوم بأكمله لتعرفا في نهاية اليوم بأمر زلّزلهما معًا، لقد وجد المُقدّم يامن عنوان عائلة سهيلة، رغم شحوب وجه زمرد وصمتها دون أن تعلّق بشيء، إلا أنها اتصلت بها في اليوم التالي تطلب منها أن تأتي معها لتلك الزيارة وها هي الآن تنظر إليها لتجد انهيارا بعينيها تحاول جاهدة مقاومته.

نظرت للمنزل البسيط أمامها وهي تنتفض بداخلها، لا تستطيع أن تصف شعورها الآن، خوف، هلع، حزن، حزن شديد، شعرت بلمسة يد أميرة بجوارها فنظرت لها لتسألها الأخيرة وشحوب وجهها أظهر ما تحاول تخفيه داخل قلبها: «هل أنت جاهزة؟»

أعادت أنظارها مجددًا للمنزل لتأخذ نفسا طويلًا قبل أن تزفره بارتجاف لتهز رأسها بنعم، التفتت لذلك الذي يقف أمام سيارته وجهه جامد ولمحت من مكانها تشنّج جسده، لمحت قلقه الذي أخافه سريعًا وهو يحاول أن يطمئنها بعينيه، لقد

أبدى رفضًا قاطعًا لزيارتها عائلة سهيلة لكن عندما توسّلته لم يستطع أن يرفض وهو يرى رجاء بعينيها وضعف يريد أن يمحيه.

تحركت هي وأميرة لتطرق باب المنزل، دقائق وسمعت صوتا لعجوز، صوتا واهنا بما يكفي ليدل على سنوات من الهم، فتحت سيدة ذات ملامح هادئة الباب لتنقل أنظارها بين أميرة ورحمة قبل أن تبتسم ابتسامة حنونة وهي تقول: «كيف أساعدكم؟!»

تجمّدت زمرد مكانها وهي تتأمل ملامح العجوز حتى شعرت بالطعنة التي سببها نصل قديم كان وما زال يسكن صدرها، وهي تكتشف أن عين العجوز أكبر دليل على أنها والدة سهيلة ابنتها وصغيرتها وصديقتها.

كان المنزل دافئًا حميمًا هدأ من وطأة الشعور بالألم الذي ملأ قلبها ولكن كان السبب في جلب الدموع لعينيها، رمشت أكثر من مرة وهي تلمح السيدة تقترب منها حاملة أكوابا من العصير حملتها منها أميرة وهي تضعها على الطاولة الصغيرة أمامها لتبتسم لها العجوز بحب وهي تجلس أمامهما لتقول بهدوء: «أشعر بأنني أعرفكم منذ مدة خاصة أنتِ وجهكِ مألوف لي».

ارتجفت زمرد عندما وجّهت لها الحديث فأجابتها وهي تحاول الحديث بصوت ثابت: «عذرًا لأننا جئنا دون موعد، لكن نحن هنا لأننا لدينا معلومات عن ابنتك وجب أن نخبرك بها».

نظرت لها العجوز بتلك النظرة التي تجعل كل الأسوار التي أحاطت بها قلبها تنهار وكأنها تعلم أنها تتألم وكأنها ترى ذلك النصل وهو ساكن بقلبها وهي تقول: «عندما أخبرتموني أنكما صديقات ابنتي اتصلت بها على الفور، هي قادمة إذ إنه يفصل بيني وبينها شارع فقط، ولكن أنا لم أراكما في زفافها».

شحب وجه أميرة بينما نظرت زمرد لها بجمود لتقول بصوت ميت: «أنا لم أقصد ابنتكِ زينب».

نظرت لها العجوز باستغراب دام للحظات قبل أن تتسع عيناها وهي ترفع كف يديها لصدرها وقد فهمت ما تعنيه زمرد لتهمس بصوت خافت يحمل كل

آلامها: «عائشة»، حانت من زمرد ابتسامة حزينة وهي تقول: «هل كان هذا اسمها؟».

لم تجبها العجوز وهي تحاول السيطرة على مشاعرها، أحدهم يعرف شيئًا عن صغيرتها، يا الله كم انتظرت هذه اللحظة، لأكثر من ثمانية عشر عاما كانت تنتظر، كانت تتلهّف لأي شيء، لأي شيء.

سمعت صوت زمرد مُرتجفا وهي تقول: «لديها نفس عينيك، لوهلة عندما قابلتك ظننتكِ هي».

ارتعش كف يديها الذي تضمه لصدرها لتقول بارتجاف: «هل تتحدثين عن عائشة صغيرتي؟».

ارتجفت شفتا رحمة وهي تحاول كبت دموعها لتقول لها بخفوت: «سهيلة عرفناها بسهيلة لقد عاشت معنا لمدة ثمانية عشر عامًا لقد كانت ابنتي وصديقتي وكل شيء جميل»

اتسعت عين العجوز وهي تتلقى كل هذا الكم من المعلومات لتعقد حاجبيها باستغراب وهي تسألها بخوف: «كانت!» لم تستطع زمرد منع دمعة قد فلتت من عقالها لتسقط بألم على وجنتيها يعادل الألم الذي ينهش بقلبها لتغمض عينيها وهي تهمس داخلها: «يا الله لن أستطيع».

لتسمع صوت أميرة خاويا وهي تقول: «أم زينب سهيلة أقصد عائشة ابنتكِ توفيت منذ سنة قبل أن تستطيع رؤيتكِ».

سكون عم المكان بأكمله، تتخلّله شهقات بكاء زمرد المكتومة وأنفاس العجوز المضطربة وهي تنظر بصدمة لأميرة، هي كانت تعرف أن في النهاية سيصلها أخبار عنها، ولكن لم تتخيل أن تكون الأخبار عن وفاتها، هي لم ترها، لم تلمسها، لم تحتضنها، هي لم تنظر لعينيها التي تشبهها كما يقولون، لقد دعت طوال حياتها أن تعرف عنها أي شيء، وأن يحفظها الله أينما كانت، ترى هل كانت سعيدة، هل عاشت طفولتها، هل كانت تشتاق لأمها كما كانت أمها تموت شوقًا لها سألتهم

بصوت واهن مجروح: «هل كانت سعيدة؟ هل كانت بخير؟! هل اشتاقت لي كما اشتقت لها كل لحظة؟ هل تساءلت يومًا عن أمها أم لم تكن تعرف؟»

ضمت أميرة شفتيها تمنع نفسها بقوة من الانهيار بينما اهتز جسد زمرد وهي تكتم بكاءها لتجيبها بين شهقاتها: «لقد كانت سعيدة، جميلة، حنونة، كما أنها كانت مُتفوقة بتميّز في دراستها لقد كانت بخير هي الآن بخير».

أغمضت العجوز عينيها لتتساقط دموعها بصمت بهدوء لتنهض من مكانها وهي تتجه لسجادة صلاتها لتفرشها على الأرض، فسألتها أميرة التي كانت تتابعها بانشداه: «ماذا تفعلين؟»

مسحت العجوز دموعها وهي تنظر لأميرة بابتسامة حزينة حملت كل معاني الألم: «ربما كنت أدعو بطريقة صحيحة كل تلك السنوات، إلا أنني لم أدعُ لها دعاء سليما منذ سنة يا ابنتي، كنت أدعو بأن يحميها الله ويحفظها أينما كانت، والآن يجب أن أدعوه بأن يرحمها وهي عنده وقد استرد أمانته».

«الله أكبر»

رفعت أميرة قبضتها لتضعها على فمها وهي تشاهد والدة سهيلة وهي تصلي ودموعها تنهمر بصمت، لتشعر أميرة بالانهيار والانبهار وهي ترى مدى قوة إيمانها بينما سمحت زمرد لنحيبها بالعلو بعد أن فقدت السيطرة عليه لتتعالى شهقاتها.

فتح باب المنزل لتدلف منه امرأة تبدو في منتصف الثلاثينات فرفعت رأسها لهما وهي تجفل من صوت شهقات بكاء زمرد لتنظر لها باستغراب، بينما سمعوا صوت رجل خلفها وهو يقول: «آه زينب هل جئت يا ابنتي، جيد ادخلي فأنا أيضًا عدت باكرًا من المسجد».

دخلت المرأة وخلفها رجل عجوز يتشابهان في الملامح ليجفل هو الآخر بوجود زمرد الباكية وأميرة الجامدة مكانها، فنقل أنظاره بينهما باستغراب بينما لفت انتباهه زوجته وهي تنهي صلاتها في الجانب الآخر من الصالة، وتجمّد مكانه وهو يلمحها تلتفت له ودموعها الغالية تنهمر على وجنتيها لتمسحها وهي تنظر له بحنان

ليخفق قلبه بعنف وهو ينقل أنظاره بينها وبين الضيوف، ليسمع ابنته تقترب من والدتها تسألها بقلق: «أمي هل أنت بخير؟ ماذا حدث؟ لمَ تبكِ هكذا؟» بينما لم تجبها والدتها وهي ما زالت تنظر لزوجها بحنان لتقول له بصوت هادئ به سلام أدهش زمرد التي نظرت لها برهبه: «لقد استرد اللّه أمانته يا أبا زينب»، رمش الرجل بعينيه أكثر من مرة، وكأنه لا يفهم ما تقوله زوجته لينظر مجددًا للضيوف ويسمع ابنته تقول بجزع: «أمي من مات؟»

ليترنّح مكانه وهو يستند على باب المنزل والإدراك أصابه على الفور ليرفع عينيه الدامعة وشحوب وجهه الذي لمحته زوجته أعلمها بأن زوجها قد أدرك من مات لتقترب منه وهي تجيب ابنتها: «عائشة يا زينب، صغيرتنا عائشة»، لتتغضن ملامح زوجها وهو يشعر بأن روحه تفارقه لتحتضنه زوجته بحنان أم وهي تُربّت على ظهره لتقول بخفوت: «لقد استردها يا أبا زينب، صغيرتنا عاشت لثمانية عشر عامًا سعيدة حنونة جميلة كما تمنيت، وماتت دون أن نراها».

لتكتم شهقاتها في صدر زوجها الذي ما زال يستوعب ما قيل له، ليشهق بقوة وكأنه نسي أن يتنفس ليضم زوجته له وهو يغمض عينيه بقوة وملامحه تعبر عما لا يستطيع قوله ليشارك زوجته دموعه وهو يردد: «إنا للّه وإنا إليه راجعون، إنا للّه وإنا إليه راجعون، عائشة صغيرتنا».

الكم الهائل من الألم الذي اجتاحهم والدموع التي سطرت وجوههم كانت كفيلة بانهيار أميرة التي خرجت على الفور من المنزل لتنظر حولها وهي تشعر بالتيه، بالغربة، بالوجع بالكثير من الوجع، رفعت كفها تمسد على قلبها وهي تغمض عينيها بألم لتخفض وجهها وهي تجاهد بقوة لئلا تبكي، لا تريد أن تبكي لا تريد.

«آنسة ليلى»

التفتت على صوت يامن القلق لتلمح شحوب وجهه وهو ينقل أنظاره بينها وبين باب المنزل، لتقول بصوت مُرتجف: «لقد عرفا.. لقد انتهى الأمر»

مرت دقائق وهو يلمح زمرد تخرج من باب المنزل ليتجه إليها، وهو يلمح انهيارها وآثار البكاء على وجهها الحبيب، ليقترب منها وهو يسألها بقلق: «زمرد هل أنتِ بخير؟»

نظرت له بتيه وكأنها لا تراه فأخذت تتأمل ملامحه وهي تعي معنى أن يموت الإنسان من الألم، فقدان أي عزيز هو موت بعد موته.

همست بصوت مُشبع بالبكاء: «يريدون الذهاب لمكان دفنها، أنا لن أستطيع يامن، أنا لست بتلك القوة أنا...»

ارتجفت شفتاها وهي تمنع نفسها من الانهيار مجددا ويا الله كم هي في حاجة لأن تنهار، اشتدت قبضتاه بجواره وهو يمنع نفسه من جذبها لحضنه، من جعلها تخترق روحه فيمتص منها كل أحزانها كل آلامها، أجابها بصوت أجش مُحمل بعواطفه: «سآخذهم أنا، سأعيدكم للمنزل أولا ثم أعود لأخذهم انتظري هنا حتى أعود».

تركها وهو يتجه للمنزل بينما هي أحاطت ذراعيها بجسدها وهي تلمح أميرة التي تتجنب النظر لها هي الأخرى فهي تعلم أن نقطة تلاقي نظراتهما سيكون انهيارهما.



وقد كان للقاسي تجربة قاسية مرّ بها لكنها لم تكن مُبررًا لقسوته، فقط كانت دفعة لجانبه السيئ القوي ليغلب الآخر الطيب الضعيف، وما أكثر أولئك الذين ينتظر الجانب السيئ فيهم الفوز بينما نجا من كان جانبه الطيب أقوى.

الفصل السادس عشر
الخديعة

مقر جريدة الحرية

«أنا لا أريد أن أتحدث حتى أرى رحمة، أقصد زمرد، لقد اشتقت لها بشدة، كنّا أكثر من إخوة، حسنًا إن استطعتِ جعلها مقابلتي سأخبرك بكل ما لدي وسأعطيك الأدلة التي معي، حتى تكشفي خططهم جميعًا، أنا أعتمد عليكِ، اجعلي زمرد تقابلني في ذلك العنوان، وأنا سأنتظركما بالأدلة، هي أيضًا تستطيع أن تبوح لكِ بالكثير، أستطيع أن أقنعها فهي تصدق كل ما أقوله لها».

كلمات تتذكّرها باستمرار في آخر حوار معها مع تلك الفتاة، إن صدقت تلك الفتاة فستكون هي الصحفية الأولى التي سيتذكرها الناس بأكملها وستتهافت الجرائد لطلبها في العمل وسيكون ذلك السبق الصحفي لها في النهاية، مسكت الورقة التي تحتوي على رقم هاتف لتتصل على الفور، رنة فأخرى أتبعها صوت لتجيبه: «حسنًا أنا موافقة، غدًا سآتي بزمرد إليكِ».

وعلى الجهة الأخرى

ابتسمت بنصر وهي جالسة على السرير، لتلمحه يدلف للغرفة وهو يسألها: «ما سر ابتسامتكِ؟!»

لتجيبه بدلع: «غدًا ستلتقي بها»، جمد مكانه وهو يسألها: «غفران؟!» لتنهض من على السرير وتقترب منه بمكر وهي تقول: «لا خطوة خطوة عزيزي، نمرتك أولا يليها غفران يليها صغيرتك».

«اجلس سليم» قالت هذه الجملة وهي تجلس على الأريكة بغرفة المكتب بينما جلس سليم على الكرسي أمامها وهو متفاجئ باتصالها الصباحي وطلبها رؤيته من أجل أمر مهم، فسألها بفضول وهو يرى سكينة غريبة على وجهها: «ما الأمر يا ابنة العم؟!» ابتسمت له وهي تجيبه: «ابنة العم تريد الحديث معك بصراحة فهل تسمح لها؟!»: «بالطبع زمرد» أجابها بصدق متوجسا قليلًا من حديثها، أسبلت أهدابها ثم صمتت للحظات لتسأله بهدوء: «ماذا تمثل رحاب لك؟!»

ارتبكت ملامحه للحظات ثم أخفى توتره بإتقان اكتسبه من سنوات عمره الثلاثين وأجابها برزانة: «سؤالك يحمل معانى كثيرة يا ابنة العم، رحاب هي ابنة عمي الأخرى وصغيرة العائلة»، تمعنت زمرد في ملامحه وهي تجيبه بنفس هدوئها: «لم تعد صغيرة، إنها في الثامنة عشرة»، أجابها بنفس هدوئها: «هي صغيرة بالنسبة لي».

ساد الصمت للحظات وكلاهما ينظر للآخر بهدوء، فحانت من زمرد ابتسامة صغيرة، ابتسم على أثرها سليم وهو يتنهد بخفوت: «ما الذي تريدين الوصول إليه يا ابنة العم؟!»، أجابته والابتسامة ما زالت تزين ثغرها: «مشاعرك، ربما»

تنهد بتعب وهو يشعر بثقل على صدره: «مشاعري ليست كافية زمرد، أنا سبق لي تجربة الزواج وكانت فاشلة تماما، أنا في الثلاثين من عمري، لا يجب أن أنحاز لمشاعري الآن، كما يجب أن أحكّم عقلي فيما يراه قلبي» سألته من دون مقدمات: «هل تحبها؟!» فرفع عينيه لها وهو يشرد في ملامحها التي تشبه ملامح زوجة عمه رحمها الله وتختلف كثيرًا عن محبوبته التي تشبه والدها رحمه الله، أجابها بهدوء: «وإن كنت أفعل، فما الفائدة؟!»

ضحكت زمرد بخفوت وهي تجيبه: «أمي كانت محقة»، نظر لها مُتسائلا لتردف بلمحة حزن في عينيها: «أخبرتني عن مشاعركما، قالت لي إنها قد تموت قبل أن يعترف أحدكما بحبه للآخر، وربما تموتان قبل أن تفعلا، كلاكما خائف من أمر ما يعيق عليه التقدّم تجاه الآخر».

نظر لها مُندهشا من كلامها ومن معرفة زوجة عمه بمشاعرهما ليسألها: «هل مشاعرنا واضحة لهذه الدرجة؟! انتظري هل قلتِ يعترف أحدنا بحبه للآخر؟! هل تقصدين أنها!»

اتسعت ابتسامة زمرد وهي تجيبه: «نعم تحبك يا ابن العم، تحبك وتخشى حبك»، شبح ابتسامة زيّن ثغره وهو ينظر إليها غير مُصدق ليستغرب بقية حديثها: «إن كان ما تقولينه صحيحًا فلمَ تخشى حبي؟!»

«لأنك لا تناديها سوى بصغيرة ولا تعاملها إلا كصغيرة»، أجابته بغيظ لينظر لها مصدوما: «أنا أناديها هكذا لأنها.. يا إلهي زمرد الفرق بيننا اثنا عشر عامًا، إنه عمر آخر، بالطبع هي صغيرة، نشأت على حب مراهقة، ماذا إن مر بنا الزمن؟! ماذا إن اكتشفت أن مشاعرها لي زائفة وليست بحقيقية؟!»

أجابته بهدوء: «إذا كلامك هو تأكيد لمشاعرك؟!»، نظر لها مُندهشا وهو يرى كيف جعلته يعترف بكل مشاعره وكل مخاوفه التي أخفاها عن أقرب الأقربين له، عادت ابتسامته لوجهه وهو يجيبها: «أنا لم أعرف العشق إلا معها، ربما عرفته مُتأخرًا، إلا أنني فعلت في النهاية، كيف جعلتني أعترف لكِ بكل هذا يا مُشاكسة؟!»

ابتسمت له بحنان ولقبها القديم يعيد لها حنين الطفولة وذكرياتها معه ومع يامن منذ أن كانوا صغارا: «لم أسمع هذا اللقب منذ سنوات عديدة» بادلها البسمة وهو يقول: «ما زلت أرى العبث في عينيكِ البريئتين»

ضحكت من قلبها وهي تجيبه: «دوما كنت أنجح في الوصول إلى دواخلك رغم أنك أكبر مني، ورغم قرب السن بينك وبين يامن إلا إنك لم تستطع يوما الوصول لدواخله» أجابها بابتسامة: «يامن دوما كتوم».

هزت رأسها من دون أن تقول شيئًا ليقول هو بتردد: «لقد قلتِ يا زمرد حتى أنا أكبر منكِ فكيف سأكون لها».

أجابته بصدق: «أنت سألتني عن مخاوفها ولم أخبرك بكلها، هي لم تعتقد أنك لمحتها يوما كأنثى كشريكة لحياتك، أعلم أنه حتى لو كانت كبيرة فهذا لا يصح لأننا

من العائلة ودِيننا لا يسمح بذلك التقارب، لكن هي اكتفت بحبها لك من الطرف الواحد ومن دون أي مقابل منك، لم تخبر أحدا بمشاعرها حتى أمي اكتشفت ذلك وقت زواجك الأول، وأخبرتني كم تألمت بعد زواجك».

شرد للحظات ولمحات ألم تكلّل عينيه: «لقد آذيتها بأكثر قرار خطأ اتخذته في حياتي، وأدركت أنني فقدتها كما فقدت الكثير»، سألته باستغراب لتخمينه لمشاعر أختها: «ومتى أدركتَ أنها توقفت عن حُبك؟!»: «عندما توقفت عن الانبهار بأصغر الأشياء التي أقوم بها علمت أنني فقدتها للأبد»، أجابها بشرود وهو ينظر لنقطة في الفراغ، ليكمل وهو يقول: «لقد ظننت أن دعوة والدتي بأن يحبّب الله خلقه في تحققت مع الجميع إلا هي يبدو أنني كنت مخطئًا»

نظرت له زمرد بحنان وهي تلمح حزنه لتقول: «لا تجعل أخطاء الماضي ترسم حاضرك، ما حدث قد حدث، وبخصوص السن إن كنت تظن أنها ما زالت صغيرة فأنا لدي اقتراح أرجو أن ينال إعجابك».

ركز عقله وتفكيره معها ليسمع اقتراحها: «رحاب» لديها منحة لتكمل دراستها بالخارج، نظرا لأنها من المتفوقات، كانت ترغب بها ولكن تنازلت عن الفكرة منذ فترة قصيرة وأنا سأحاول بجهدي لأفهم أسبابها وأقنعها بالسفر، إن سافرت رحاب وأكملت دراستها فهي لن تعود إلا بعد ٤ سنوات على الأقل، خذ وقتك كله لتفكر خلال هذه الأسابيع، إن أردتها لك فتقدم لخطبتها وأنا سأوافق بكل سرور، لكنها ستكون مجرد خطبة حتى تعود مجددًا بعد سنوات المنحة، وإن ما زلت مترددا، فلا داعي للحديث في الأمر مرة أخرى»

صمت سليم للحظات وهو ينظر لنقطة في الفراغ: «أربع سنوات! كم تبقى في العمر لبعاد أكثر يا ابنة العم» أجابته بتأكيد: «إنه مستقبلها سليم، أنا أعلم أنك لن تتنازل على إكمال تعليمها بالطبع».

أجابها سليم مؤكدا كلامها: «بالطبع يجب أن تكمل تعليمها وتبني مستقبلها الذي تريده، ولكن ليكن عقد قران بدلًا من الخطبة»، نظرت له زمرد للحظات لتتعالى ضحكاتها بعدها، وهي تنظر له غير مُصدقة سرعة قراره: «حسنًا يا ابن العم، لن تكن سوى خطبة فقط»: «هيا زمرد اجعليه عقد قران حتى أستطيع

أن أتحدث معها بحريتي وهي بعيدة عني»، ابتسمت له بسعادة وهي تنهض من على الأريكة لتقول: «حسنا بقي أمر واحد» تساءل باستفسار لتجيبه بعبث الطفولة: «بقي أن تعترف بمشاعرك لتلك التي تحبك في صمت وتجهل حبك، فلكي تعقد قرانك يجب أن تخبرها أولا بأن الصغيرة ما عادت صغيرة في نظرك».

ابتسم سليم بسعادة وهو يلمحها تخرج من غرفة المكتب ولا يصدق أنه على بعد خطوة من حلم حياته وما أصعبها من خطوة ولكن سيفعل المستحيل من أجلها، خرجت من غرفة المكتب لتتجه للحديقة الخارجية وما زالت آثار ابتسامتها على ثغرها وهي تتذكر حديث والدتها وتوصيتها على رحاب وما تعانيه المسكينة في صمت.

«زمرد، اعتنِ بأختك فهي ما زالت صغيرة، لديها منحة للدراسة بالخارج ولكنها ترفض من أجلي، اجعليها توافق، اجعليها تهتم بمستقبلها يا بنيتي، كوني لها ما لم أستطع أن أكونه لكِ، وإن لزم الأمر فسافري معها من يعلم ربما تكون فرصة جديدة لكما»

«لا تقلقي أمي، سأفعل كل ما تريدينه فقط ارتاحي»

«بقي أمر واحد، أمر قلبها المُعذب يا بنيتي، فيبدو أنه قدّر لكما أن تعشقا وتكتما عشقكما بداخلكما، أختك تحب سليم يا ابنتي، وأنا بإحساس الأم أشعر بمشاعره تجاهها، كلاهما خائف من أن يتقدّم خطوة فيخسر كل شيء، ساعديهم يا بنيتي، وسامحيني لأنني لم أستطع مساعدتكِ، اغفري لي جهلي»

«أرجوك أمي لا تهتمي بشيء الآن سوى صحتكِ فأنا في حاجة إليكِ»

«يا ليتني أفديك بعمري حبيبتي، ولكن اشتاق والدكِ لي واشتقت له، جاء الوقت لأذهب له»

شردت في كلام والدتها لتدمع عيناها وابتسامة حزينة تكلّل ثغرها، كانت أمها دوما من تشعر بكل شيء، كانت تعرف أدق الأسرار من دون حاجة للبوح لها، تذكّرت أمس وهي توقع رحاب في حديثها لتتأكد من مشاعرها، رحاب التي فور أن

أخبرتها بأن سليم ينوي خطبة إحداهن حتى لمحت جمود ملامحها وتوقّفها عن ترتيب الغرفة لتكمل بعد لحظات كأن زمرد لم تقل شيئًا ثم لحظات ولمحت دموعها التي تحاول أن تخفيها لتصارحها زمرد بمشاعرها لتنهار رحاب في بكاء مرير وهي تخبرها أنها لن تستطيع الكتمان بعد الآن خاصة بعد وفاة والدتها لتبوح لها بمكنونات صدرها، لتنوي العزم على أن تدخل السعادة لقلب أختها كما حاولت أن تفعل وقت عودتها منهارة من زيارة أهل سهيلة، تلك الزيارة التي بقدر ما آلمت قلبها بقدر ما شعرت بالراحة وهي متأكدة أن سهيلة بخير الآن، تذكّرت محاولات رحاب لإخراجها من حزنها بعد أن صنعت لها حلوى تحبها، توقفت مكانها وهي تلمح ذلك القريب البعيد، تاهت في ملامحه للحظات، عينان عسليتان تعكسان أشعه الشمس الذهبية، ملامحه الجدية التي لا تعرف طريق الابتسام، بعض شعيرات بيضاء تتخلّل شعره الأسود، ذلك القريب البعيد الذي لم يتوقف عن السؤال عنها كما أخبرتها رحاب قلقًا على حالتها خاصة بعد أن رأى انهيارها.

ارتفع حاجباها بدهشة وهي تلمح تشنّج جسده، وقبضتيه المضمومتين، كان ككتلة غضب على وشك الانفجار، قاطع أفكارها صوته الهادئ الذي يتخلّله شرارات غضب: «فيمَ كنتما تتحدثان لنصف ساعة كاملة وأصوات ضحكاتكِ تصل لسكان البيت بأكمله؟»

نظرت له مُندهشة من كلامه وهي تجيبه بلا وعي: «ماذا؟!»، اقترب حتى وقف أمامها وهي تلمح الغضب على شفير الانفجار فيها وحدها: «إن أردتِ الحديث معه فعلي الأقل تحدّثوا في مكان عام وسط أشخاص، لا بمفردكما في غرفة المكتب»

نظرت لعينيه بجمود وهي تحاول أن تجده فيها خيط اتهام، ولكن فاجأها أنها لم تجد سوى غضب لا ينبع إلا من غيرة!

أسبلت أهدابها وهي تكذّب ما رأته لتقول بهدوء: «كنت أريد الحديث معه في أمر يخصه ولم أرغب في أن تسمعنا رحاب، فطلبت منه الجلوس في غرفة المكتب والباب كان مفتوحا كما أن سليم مجرد أخ لي»

أجابها بغضب لم يستطع كتمه وهدوؤها يزيده غضبا: «وهل أنتِ لسليم مجرد أخت؟! على الأقل اخفضي صوت ضحكاتكِ فلم يمر سوى أسابيع على وفاة والدتكِ»

رفعت عينيها له ولعن نفسه لرؤية هذا الألم بداخلها ولكنه لم يقصد إيلامها هو فقط شعر بنار غريبة تكوي صدره وهو يراها تتحدث بسعادة مع سليم، يا إلهي كم كانا متلائمين معا!

شعر بأنها تريد أن تقول شيئًا لتتراجع في الثانية التالية وتتسلّح بهدوئها مجددًا وهي تجيبه: «أعتذر للفكرة الخاطئة التي وصلت إليك ولكن لست في حاجة لأبرّر لك شيئًا والآن اعذرني فلا يجب أن نقف لنتحدث بمفردنا حتى لا تصل أي فكرة خاطئة لأحدهم كما وصلت إليك»



منزل زمرد

أجابت رنين الهاتف لتجد على الطرف الآخر صوت سالي تقول: «كيف حالكِ زمرد؟! أتمنى أن تكوني بخير» أجابتها بارتباك مستغربة اتصالها بها: «بخير، شكرًا لسؤالكِ»

«اسمعيني زمرد أنا أردت أن أعتذر عن آخر لقاء بيننا في مكتب يامن، هل بإمكاني مقابلتكِ؟! أعلم أنكِ ممنوعة من الخروج إلا بحماية ولكن أنا في حاجة للتحدّث معكِ، أنا ويامن على خلاف كبير هذه المرة، وأريد أن أخبركِ بتفاصيله فوحدكِ من يستمع إليها»

ارتبكت زمرد وهي تضغط بكفيها على الهاتف لتقول: «أنا لا أستطيع الخروج سالي كما قلتِ أنا لا أخرج إلا بحماية وأحيانا آسر من يوصلني، أريد أن أساعدكم حقًا ولكن أنا فقط لا...»

قاطعتها سالي وهي تقول: «أعرف حبيبتي، حسنًا إن رغبتي بأن تأتي بالحراسة لا مشكلة، فقط لا تخبري يامن أنكِ ستقابلينني لأنه سيعرف أنني من طلبت منكِ

القدوم وسيزيد من غضبه فهو لم يخبر أحدا بشجاره معي، أرجوكِ زمرد أنا.. أنا في حاجة إليكِ، لمَ لا تخبريه أنكِ ستزورين إحدى صديقاتك أميرة تلك الفتاة التي كانت معكِ»

استغربت زمرد للحظات معرفة سالي بأميرة، ولكن ظنّت أن يامن من تحدّث عنها معها، صمتت قليلًا وهي تربط غضب يامن وحزنه هذه الأيام بخلافه مع سالي فشعرت أنه ربما إن قدمت له المساعدة يخف ذلك الألم الذي بقلبها، بالرغم من أنها تقرّبهما من بعضهما إلا أنها تشعر بأن ذلك أفضل، تنهدت لتجيبها في النهاية: «حسنًا سالي، سأطلب الحراسة وآتي إليكِ، ما هو العنوان؟!»

علي الجهة الأخرى تنهدت سالي بخوف وهي ترى تلك الفتاة التي حدّثتها تبتسم بنصر للرجل الذي معها وهو يقول: «أحسنتِ سالي.. ربما من الأفضل أن تتركي الصحافة لتتجهي للتمثيل فأنتِ بارعة»

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تقول: «ها أنا ساعدتك، فكيف ستساعدينني؟!» نظر لها ممدوح ببراءة مصطنعة وهو يقول: «هذا ما أفعله عزيزتي أنا أساعدكِ، سأجعلكِ تكتبين عن سبقكِ الصحفي وسأخلّصكِ للأبد من زمرد»

سألته بتوتر: «ماذا ستفعل بها؟!» ابتسم ممدوح بشر وهو يقول: «آه هذا الأمر يخصني وحدي، نفّذي دوركِ بالاتفاق حتى تحصلي على ما تريدين»

ارتعش جسدها من ابتسامته، وهي تتذكّر زيارة يامن لبيت أهلها يخبرها بأنه لن يستطيع التكملة في ارتباطهما، شعرت بالإهانة وهو لا يريد ذكر أسبابه لكنها عرفت، عرفت أن تلك المخادعة زمرد هي السبب، لقد أتقنت حيلتها حتى أخذته منها، تذكّرت بعدها اتصال تلك الفتاة سهيلة بها لتجيبها بغضب أنها لن تساعدها ولا تريد شيئًا منها لتجد نبرة مختلفة بحديث مختلف باتفاق مختلف، وكله في صالحها هي فقط، تلك الفتاة والرجل الذي يجاورها يريدان زمرد بأي طريقة ممكنة، هي لن تتساءل عن أسبابهما لا يهمها طالما أنهما سيزيحانها من طريقها وهي ستعيد يامن لها بطريقتها.

تحدّثت إليها رحاب بقلق:«أنا لا أشعر بالارتياح، لمَ تتصل بكِ ولا تتصل بحماتها، والدة يامن دائما من تصلح بينهما، لا تذهبي زمرد، كما أن تلك الغبية لا تناسب يامن»، ابتسمت لها زمرد بهدوء وهي تشعر بقلقها الحبيب لتجيبها:«لا أعلم أسبابها رحاب ولكن إن كان هناك فرصة لتدّخلي فأنا لن أتركها لأساعدهما».

زفرت رحاب بخفوت لتقول:«حسنًا على الأقل أخبري يامن» أجابتها:«أنا بالفعل أخبرته بخروجي ولكن لزيارة أميرة» تحدّثت رحاب:«سيغضب زمرد، أنتِ تعرفين هذا» شعرت زمرد بالقلق لتقول بعد تفكير:«حسنًا سأخبره ولكن إن منعني سأذهب»، حاولت الاتصال به لتجد هاتفه مغلقا، فقررت إرسال رسالة تخبره فيها بزيارتها لسالي لا لأميرة.



منزل محمد الأسيوطي

صوت ارتطام قوي وتهشّم زجاج أخرجها من دوامة أفكارها، عقدت حاجبيها باستغراب ونهضت من على السرير لتخرج من غرفتها، تنظر حولها حتى تجمّدت مكانها وهي تنظر بصدمة لجسد جميلة المغشى عليها على الأرض وأكواب العصير مُشهمة بجوارها.

دقيقة اثنتان ثلاث وهي جامدة مكانها حتى سمعت أصوات أقدام على الدرج وباب الشقة يفتح وآسر ينظر لها بدهشة تحوّلت لرعب في اللحظة التالية، وعيناه تلتقط جسد والدته على الأرض فهتف بقوة:«أمي»، اقترب من جسدها مُسرعًا ورفع وجهها له وأخذ يفحص نبضها وهو يتساءل بقلق:«ماذا حدث؟!»

لم تجبه أميرة الجامدة في مكانها بشيء ولحظات ووجدت محمد يدلف من باب الشقة ويهتف برعب:

«جميلة» قبل أن يهرع باتجاهها ويسحبها من بين يد آسر الذي فاق من صدمته بمهنية وهو يحدث والده:

«أبي ابقَ معها، نبضها ضعيف سأحضر علبة الإسعافات»

تركه آسر دون أن يسمع رده، وركض للخارج بينما أحاط محمد جسدها بقوة وهو يتحدث بقلق: «حبيبتي ماذا حدث؟! هيا انهضي جميلة، ماذا بكِ يا عمري؟!»

أخذت أميرة نفسًا قويًا من صدرها وكأنها نسيت أن تتنفس في صدمتها وارتجف جسدها بقوة وهي تلمح جميلة ساكنة في حضن محمد الشاحب الوجه.

وصل آسر بعد لحظات حاول أن يوقظ والدته من إغماءتها ولكنها لم تفق ففحص نبضها وجده منخفضا جدًا: «أبي يجب أن ننقلها للمشفى»

شهق محمد برعب حين شعر بملمس لزج وهو يرفع يده لآسر فاتسعت عين آسر بقلق وهو يلمح كف والده تُغطيها الدماء وهو يقول: «إنها تنزف!»

كان آسر الأسرع من الإفاقة من صدمته وهو ينهض حاملًا والدته بقوة وأخذت الصدمة من محمد دقيقتين حتى نهض مسرعًا خلف آسر وهو يهتف به أن ينتظره، فلم تشعر أميرة سوى بقدميها وهي تتبعهما ركضا.



مشفى المدينة

كانت لا تسمع أي شيء حولها كأن عالمها أصبح خاويًا، لا تعلم ما هذا الألم الفظيع الذي ينهش في قلبها، منذ مدة وهي تُمسّد بيديها على قلبها لعلّ الألم يخفف ولكن دون جدوى، رفعت عينيها بجوارها حينما لمحت آسر يجلس جانبها يسألها بهدوء: «ماذا حدث ليلى؟!»

نظرت له بضياع وهي ما زالت تُمسّد على قلبها فنقل نظراته لموضع يديها ثم أعاد نظره لها مجددًا ليسألها بهدوء خالف شحوب وجهه: «هل يؤلمكِ قلبكِ؟!»

هزت أميرة رأسها كطفلة صغيرة فرقّ قلبه لها، مد يديه يمسك بيديها الموضوعة على ساقها وهو يحتضنها بحنان بين كفيه: «لا تقلقي ستكون بخير يبدو أنها غيبوبة سكر» أجابته بتيه: «أنا لم.. لقد..» تنهّد آسر وهو يقول: «اهدئي حبيبتي»

تجمعت الدموع في عين أميرة لتقول بصوت مُتألم: «لقد سمعت أصوات ارتطام وتهشّم زجاج، خرجت من الغرفة لأجدها.. يا إلهي قلبي يؤلمني بقوة»

تغضنت ملامح أميرة بالألم فاقترب آسر بجسده منها وجذبها لحضنه وهو يُربّت على ظهرها بحنو قائلا: «لا تقلقي.. هي ستكون بخير هي ستكون بخير».

لا يعلم هل يردد كلامه ليطمئنها أم يطمئن نفسه، استسلمت لحضن آسر لعلّ هذا الألم يخف، لم تصدق للحظة أن تشعر بالرعب على شخص كما تشعر الآن.

تجمد كلاهما أمام الطبيب بعد أن خرج وهو يخبرهما أنها غيبوبة سكر ولكن نتيجة السقوط قد سبب لها نزيف اكتشفوه بعد إجراء بعض الأشعة، واضطروا أنها يضعوها في العناية المُشدّدة، ليهرع آسر بعد سقوط والده منهارًا وأميرة لا تصدق ما تسمعه ولا ما رأته من شحوب وجه السيد محمد وانهياره بعد أن أغشي عليه، وآسر يحاول طمأنته ممازحًا إياه أنهما أطباء ويعلمون جيدًا أن الأمر ليس خطيرًا ليجيبه والده وقتها: «أنا أنسى كل شيء في مصابها» ارتعش جسد أميرة وهي لا تصدق منظر انهيار والدها وذلك الصوت داخلها الذي أخبرها أن روحها لن تسامحها إن أصابه شيء هو الآخر، لتشعر بالصدمة وهي ترى دموعه وهو يخبر آسر أنه سيموت إن أصابها شيء، زفرت بتعب وكأنها في سباق أجهدها بقوة، تريد الراحة من كل هذه الحروب التي تجعل نيران قلبها لا تخمد أبدا.



مبنى الجريدة

أوصلتها السيارة إلى وجهتها وهي تنظر للمكان الذي أرسلته لها سالي، ويبدو أنه مكان عملها، انتظرت للحظات بالسيارة والحارس الذي يرافقها في أي وقت خارج المنزل ينظر حوله بهدوء يحاول اكتشاف أي خطر قد يصيبهما.

لحظات ووصل لأسماعها صوت شجار على مقربة منها، فتلقائيا أغلق الحارس قفل السيارة الآلي وأخذ ينظر بحذر حوله، لمحت اقتراب الرجلين من السيارة ليدفع أحدهم بالآخر مُصطدما بالسيارة، هتف السائق بهما بأن يبتعدا عن هنا ولكن لم يستمع إليه أحد، فتح قفل السيارة ونزل ليجد أحدهم يدفعه بقوة تجاه الأرض، شهقت زمرد لتجد حارسها يلتفت إليها محاولا طمأنتها فلمحت فوهة سلاح تظهر من الزجاج الخاص بالسائق وفجأة انطلقت رصاصة صامتة لتقبع برأس الحارس

فتناثرت الدماء على وجهها، صرخت بأعلى صوتها وهي تراه فاقد الحياة لينكسر الزجاج بجانبها فأخفضت رأسها وصراخها لا يتوقف، وفجأة حرقة خفيفة أصابت ذراعها لتشعر بثقل في كل مكان بجسدها، حاولت أن ترفع جسدها لتميل تجاه باب السيارة الذي فُتح أخيرا وتلقّفتها ذراعان قويتان ليسود الظلام فجأة من حولها.



مشفى المدينة

كان كل شيء يسير بروتين مُمل، مر يوم كامل وهي ترفض الابتعاد عن باب العناية الخارجي، لم يسمحوا لأحد برؤيتها، شعرت بغصة مؤلمة وهي تتخيل أسوأ الأحداث رفعت رأسها عندما لمحت السيد محمد قادما من أول الممر مع آسر بعد أن تركوها ليصليا الفجر اقترب آسر ينظر لها بحنان: «ليلى.. أنتِ لم تنامي حتى الآن، دعيني أوصلكِ للمنزل، على الأقل تبقين قليلًا مع الصغار وأمير يأتي بدوره، فهو قلق أيضًا».

نظرت له أميرة بشرود وكأنها تراه لأول مرة، تذكّرت مواقفه معها، كم مرة ساندها، كم تحمّل برودها ونفورها منه، كم عانى معها في محنتها وما زال، كم احترم خصوصيتها ولم يجبرها يومًا على شيء، كان دومًا خلف ظهرها يحميها من المجهول، اطمئنان يسري في أوردتها بمجرد رؤيته، هو التعريف المناسب للسند.

همست له بصوت مُرتجف: «أميرة»، نظر لها آسر دون فهم، وسألها ماذا تقصد لتقول: «أنت لم تناديني أميرة أبدًا، لقد احترمت رغبتي حتى هذه اللحظة».

ازداد استغراب آسر من حالة أميرة، فأكملت كلامها وهي تبتسم له بحزن: «سأكون سعيدة إن ناديتني بأميرة»

اتسعت عين آسر بدهشة وهو لا يصدّق ما سمعه منها، بينما التفتت تنظر لمحمد الجالس على المقعد أمام باب غرفة العناية وعيناه متعلقة به، كأن جميلة ستخرج منه في أي لحظة، فرق قلبها بمشاعر لأول مرة تعرفها.

اقتربت من محمد الشارد، الذي زاده الحزن سنًا، وجلست بجواره تحت أعين آسر المصدومة فخرج محمد من شروده على صوتها الهادئ، جعله ينظر بجواره بدهشة هو الآخر: «هي شجاعة ستكون بخير، لم أعتد رؤيتها ضعيفة أبدا لذا أنا على يقين بأنها ستكون بخير، ستصمد أمام آلامها وتستيقظ لتكون معك ومعنا»

ترقرقت عين محمد بالدموع وهو ينظر لصغيرته التي تحدّثه لأول مرة بحنان نابع من قلبها، فضم شفتيه بقوة يمنع ارتعاشها ولم يستطع أن يقل شيئا سوى أن هز رأسه بالموافقة على كلامها، اتسعت عيناه بصدمة وهو يسمع سؤالها: «أخبرني عن قصة حبكما».

بعد لحظات بدأ يسرد لها قصتهما وكل الصعاب التي واجهتهما ليكونا معًا في النهاية، أخبرها عن تضحياتها وتضحياته أخبرها عن حبه وعن حبها.

لم تُصدّق ما سمعته، لم تُصدّق تلك اللمعة التي أسرت قلبها في عين محمد وهو يتحدّث عن جميلة، شعرت بأنهم في عالم آخر غير العالم الذي تعيش فيه، شعرت بصدق مشاعره فلم تشعر سوى بنفسها وهي تضع رأسها على كتف محمد وتُربّت على ذراعيه بكفها وتهمس له: «ستكون بخير أبي»

ضم آسر قبضته أمام فمه يكتم شهقته وهو ينظر بأعين مُتسعة لأميرة التي تشارك والدها البكاء وتناديه لأول مرة بأبي، بينما تجمّد محمد مكانه وهو يشعر بملمس الورود على ذراعه من كف ابنته، صغيرته التي نادته بأبي يا الله، كم تضخم قلبه من هول المشاعر التي أصابته في تلك اللحظة فلم يشعر بنفسه إلا وهو يتلفت تجاهها ويجذبها لأحضانه بقوة ويهمس بين شهقات بكائه.

«يا قلب أبيكِ، يا روحه، يا عقله، يا فلذة كبدي، يا صغيرتي، يا أميرتي، يا عالمي كله، يا حبيبة أبيكِ، يا حبيبة أبيكِ»

أخذ يردد آخر جملة باستمرار وهو يشدد على احتضانها وأنهار من الدموع تنهمر على وجهه بينما لم تستطع أميرة الصمود أمام كم المشاعر التي شعرت بها في أحضان والدها لأول مرة فأجهشت بالبكاء وهي تهمس له: «آسفة أبي سامحني أرجوك أنا لم أقصد أذيتك أنا لم أستطع كرهك أنا أحبك أبي»

انهمرت دموع آسر وهو يرى أجمل مشهد أمام عينيه وتنهدت بخفوت وهو يهمس داخله: «الحمد لله».

دلفت لغرفة العناية في اليوم الثاني بعد أن سمح لها الطبيب تحت إصرار آسر وهو يشعر داخله أن وجودها بجوار جميلة سيكون له أثر إيجابي كبير لها، فوالدته لم تستيقظ بعد خروجها من العمليات صباحًا وقد تم إيقاف النزيف.

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تلمح جسد جميلة الهزيل ساكنًا على السرير والعديد من الأسلاك مُتصلة بجسدها وصوت نبضات قلبها المُنتظمة يخترق صمت المكان على الجهاز الموجود بجوار سريرها، اقتربت بهدوء وهي تشعر ببرودة تسري في جسدها من الغصة التي اعتصرت قلبها ألمًا، وقفت بجوار السرير وأخذت تتأملها طويلًا حتى مدت يديها لتلمس كف يد جميلة البارد وتحتضنه بحنان، جلست على أرضية الغرفة تقترب بوجهها من جميلة وهي تهمس لها في أذنها بينما تجمعت دموع في عينيها لتقول: «هيا انهضي فأنا خائفة أمي نعم أنا أميرة ابنتكِ أميرتكِ يا أمي»

ضحكة خافتة خرجت منها مع دمعة يتيمة على خدها وهي تكمل همسها

«كنت خائفة من قولها، خائفة من إخباركِ بكم أحبكِ، أخبروني منذ صغري أن الحب ضعف وإن تعلّقت بشيء فسيصبح نقطة ضعف لي، خفت أن أتعلّق بكِ فأحبكِ فتصيرين نقطة ضعفي فيحرموني منكِ، كنت خائفة يا أمي ولكن أدركت شيئًا مهمًا أن تصيري نقطة ضعفي وأنتِ معي أفضل من أن أكون قوية من دونكِ.

انهضي أمي وأعدكِ بأني لن أتوقف عن مناداتكِ بأمي أبدًا ولن أسمح لكِ سوى بمناداتي أميرتكِ، انهضي وسوف أكون ابنة مُطيعة أنا خائفة أمي وأنا لا أحب أن أخاف».



عصرًا

كانت في طريقها للعودة للمنزل بعد إصرار آسر على عودتها لتغيّر ثيابها وترتاح قليلًا فنفّذت طلبه وهي عائدة مع أحمد الذي قرر أن يرافقها بدلًا من آسر، رسالة وصلت على هاتفها لتفتحها لتجدها رسالة من غفران: «أميرة أنا في حاجة لرؤيتكِ، قابليني في بعد نصف ساعة، الأمر مهم جدًا»

شعرت أميرة بالقلق لتطلب من أحمد أن يرافقها للعنوان الموجود بالرسالة، فوافقها ليوقفا سيارة أجرة نظرًا لبعد المكان عنهم.

«أنا لا أشعر بالارتياح، ما كان يجب أن نخرج قبل عودة أمي»، تنهّد أحمد بضيق وهو يوجّه حديثه لأميرة بينما هي مشغولة بهاتفها وترفعه لأذنها تعاود الاتصال بغُفران فأجابته شاردة وجزء صغير في قلبها يوافق أحمد رأيه فهي أيضًا لا تشعر بالارتياح منذ أن تلقّت الرسالة من غُفران لتقابلها هنا في هذا المكان النائي، مُحاولة الاتصال بعدها بهاتفها لتجده مُغلقًا: «لا تقلق أحمد لن نتأخر، سنرى فقط ما الأمر المهم الذي طلبتني غُفران بسببه ثم سنعود، نحن لن نتأخر»

«أميرة هناك شيء خاطئ، انظري»

أنزلت أميرة الهاتف من على أذنها وهي تتبع بعينيها إلى ما يشير إليه أحمد بيديه فلمحت سيارتين سوداوين رباعيتي الدفع على بعد ليس بكثير عنهما، نزل من إحداهما رجلان قويا البنية، ضخما الهيئة يرتدي كل منهما حلة سوداء، دققت أميرة النظر فيهما لتتسع عيناها بدهشة وهي تلمح أسلحة تحت سترتيهما ويسيران في اتجاهها، نقلت أنظارها بينهما وبين السيارة الأخرى الساكنة وزجاجها الأسود لا يظهر من بداخلها، لحظة فارقة وهي تمسك ذراع أحمد بقوة وأخرى وهي تضرب أحد أزار الهاتف لتتصل بأحدهم وهي ترى باب السيارة يُفتح لتتجمد مكانها للحظات وهي تزيد بالضغط على ذراع أحمد لتهمس تحت الصدمة: «أحمد اركض».

وقبل أن يستوعب أحمد كلامها جذبته بقوة وأخذا يركضان بأقصى سرعة وهو يحاول أن يواكب ركضها فتوقفا فجأة والسيارة السوداء تعترض طريقهما

بقوة، فلم تكد أميرة أن تغير طريقها حتى لمحت أحد الرجال خلفها يقبض على سترة أحمد ويرفعه عاليا في لحظة ليقذفه على مسافة قريبة حتى ارتطم بجذع شجرة على جانب الطريق، تحت صدمتها كادت أن تلتفت للرجل الآخر وتلكمه بقبضتها حتى شعرت بحرقة في ساقها أرسلت برودة لجسدها بأكمله، نظرت بصدمة لساقها فلمحت حقنة تنغرز في ساقها بقوة، رفعت عينيها لتجد ممدوح يقف أمامها ويسحب الحقنة من ساقها وهو يبتسم ابتسامته الكريهة لها، شعرت بارتخاء غريب في كل أوصالها فدب الرعب لقلبها، التفتت برأسها لأحمد لتجد الرجلان يكيلان له اللكمات، تحدثت بلسان ثقيل وهي تشعر أن الكلمات تخرج بصعوبة من فمها: «توقفا»، ارتخى جسدها بأكمله فتلقفه ذراع ممدوح وهو يهمس بأنفاسه الكريهة بالقرب من أذنها: «كل شيء يسير على ما يرام، أفضل مما خططت له، استرخي فتاتي، هذا المُخدر كلفني الكثير لأجعل جسدك يستسلم لي هكذا بينما أنتِ تشاهدين بعينيكِ كل ما يحدث حولكِ، سأجعلكِ تشعرين بكل همسة من فمي، كل لمسة من يدي، سأجعل جسدكِ يتلذذ بملمس جسدي قبل أن ألقي بكِ لمن يستحق أن يستمتع».

شعرت أميرة بالغثيان من أنفاسه القريبة من وجهها وجسدها الخائن لا يناضل ولا يقاتل تحت رحمة هذا المخدر، شعرت بالعجز عن تحريك أطرافها، دارت بعينيها لأحمد لتجد وجهه المكدوم مُغطى بالدماء وجسده مرتخيا بين ذراع أحد الرجال بينما الآخر يكيل له اللكمات فدمعت عيناها بألم وهي تهمس بصوت ثقيل: «أتوسل إليك أن اتركه»

نادى ممدوح على أحد الرجال ليستلم منه أميرة فأمره بوضعها في السيارة، بينما اتجه هو لأحمد وجذب شعر رأسه بيديه للخلف ليرفع وجهه وتمعن في النظر فيه قليلًا وفي ثيابه فلمح نظارة طبية في جيبه الأيسر من سرواله فابتسم بسخرية وهو يأمر الرجل الذي يمسك أحمد أن يتركه قائلا: «إنه الأخ المسالم، ليس تلميذها في الكاراتيه خسارة».

ضحك ممدوح بتهكّم وهو يتحرك باتجاه السيارة بينما ألقى الرجل بجسد أحمد على الأرض وقد امتزجت دماؤه بتراب الأرض، ساكنًا بلا حراك.

«كل شيء يسير على ما يرام، أفضل مما خططت له، استرخِ فتاتي، هذا المخدر كلفني الكثير لأجعل جسدك يستسلم لي هكذا بينما أنتِ تشاهدين بعينيكِ كل ما يحدث حولكِ، سأجعلكِ تشعرين بكل همسة من فمي، كل لمسة من يدي، سأجعل جسدكِ يتلذذ بملمس جسدي قبل أن ألقي بكِ لمن يستحق أن يستمتع».

ضرب بقبضته على السيارة بغضب وهو يستمع لتلك الكلمات، بينما غصة ألمت قلبه وهو يشعر بالعجز، لا يستطيع أن يصرخ ولا يستطيع أن ينهي المكالمة، أوقف سيارته بسرعة أمام مبنى الأمن الوطني وركض لمكتب يامن بينما هاتفه على أذنيه مُمسكًا به بقوة، دخل مكتب يامن الذي كان يقف هو الآخر بحالة من الفزع لليوم الثاني هو وفتحي متفاجئين من اندفاع آسر الشاحب الوجه، تجمد آسر مكانه وهو يتنفس بصعوبة ينصت لما يسمعه على الهاتف وهو ينظر بقوة ليامن ليهتف بجمود: «يامن لقد اختطفت أميرة ويبدو أن معها أحمد أخي، أرجوك افعل شيئًا، تعقّب المكالمة أو افعل شيئًا أرجوك».

قبل ساعة

خرجت من اجتماعها مع اللواء حسين مُسرعة وهي تنظر كل فترة وأخرى للهاتف، اللواء حسين طلبها صباحًا من أجل اجتماع طارئ معها ومع الأقلية الذين يثق بهم، لقد أثبت هو ورجاله صلة اللواء سامح راغب بجرائم ممدوح وقدرته على إخفاء الأدلة وشراء أمناء الشرطة وغيرهم من العاملين بالطب الشرعي بالمال، أخذوا يفكرون في الإيقاع به دون أن يشعر حتى يثبتوا التهمة عليه بالأدلة هذه المرة، هي استأذنت اللواء بعد أن أخبرته بإرسال عمران رسالة لها من رقم مجهول، هي لا تصدق حتى الآن رغبة عمران بالحديث معها، لقد أرسل لها رسالة يسألها أن تقابله فهو يريد أن يتحدّث معها.

حاولت أن تُنظّم من أنفاسها وهي تحاول أن تجد سيارة أجرة لتتوقف واحدة أمامها، تركبها على الفور غافلة عن المرأة التي كان تركب بجواره مُرتدية ما يخفي ملامحها، أخبرت السائق بالعنوان لتحيد بعينيها للحظة بجوارها وهي تنظر للمرأة، لتلتفت في اللحظة التالية مصدومة من رؤية سمر لترفع غُفران كفها ضاغطة على

عنق سمر وقبل أن تقول شيئا، حقنة أصابت ساقها منعتها من استمرار الضغط على عنق سمر لتشهق الأخيرة وهي تشعر بأصابع غفران تسقط من على عنقها.

لتبتسم بنصر وهي تقول بين أنفاسها: «لن يصدّق ممدوح السرعة التي حصلت فيها عليكِ»، لتكمل وهي تلتقط هاتف غُفران وهي تحدّث السائق: «أسرع قبل أن يلاحظ أَحد اختفاءها»



والفرق بين السقوط والصمود لحظة، ممر ضيق، وهذا ما ينساه أو يتناساه الكثيرون!

عبدالرحمن منيف

الفصل السابع عشر
المزرعة

المزرعة

أصوات أقدام وصلت لأسماعهم جعلت ثلاثتهن يترقّبن بآذانهن عن أصحابها، وفي لحظة تم إزالة الغمامة من على أعينهن ليرمشن لحظات لتتسع أعينهن من الصدمة مُدركات أنهن وقعن في الفخ، وقد جاء يوم المواجهة.

حاولت غُفران التحدّث والكمامة التي تغطي فمها تمنع خروج صوتها، ليضحك ممدوح بصوت عال قائلا: «آه ما أحلى رؤيتكن معا مجددًا في بيتنا الحبيب بناتي الغاليات» دمعت عين زمرد وهي تشعر بالنهاية القادمة لا محال.

اقترب ممدوح من جلستهن وهو يقول مُوجهًا كلامه لزمرد: «آه يا نمرتي لكم اشتقت لكِ خاصة...» أتبع كلامه بلمس وجنتيها لتغمض عينيها وهي تهز رأسها بعيدة عنه ليجذب حجابها في لحظة وهو يمسك شعرها بكفه قائلًا بصوت شيطاني: «ماذا؟ ألم تشتاق لي أم أن حبيبك الجديد أنساكِ ما مضى؟! اعذريني لم أستطع تخديركِ كإخوتكِ فمن يريدكِ يريد شراستكِ معكِ كهدية تعويض».

تساقطت دموعها وهي تعي مقصده، وصوت غُفران المكتوم يصل إليه ليعتدل في وقفته، وهو ينظر تجاهها ثم اقترب ليسألها باهتمام: «ماذا؟! ماذا تقولين؟! أنا لا أسمعك» ليضحك وهو يهمس أمام وجهها: «هل أكل القط لسانكِ؟! دعيني أخبركِ أنه لم يكن قط بل مجرد حقنة، حقنة بحجم عقلة الإصبع قادرة على فعل ما لا يمكنكِ تخيّله، اعذريني كان عليّ تحجيم الغضب الذي ينبض منكن، وأنا على يقين بأن غضبكن الآن يستطيع تدمير بلد كامل، على الأقل أنتِ وأميرة فزمرد

حبيبتي لم تعد نمرة كما كانت بل أصبحت مجرد قطة الآن» اقترب من غُفران ليمسك شعرها بكفيه وهو يهتف بغضب: «ماذا؟ هل ظننتِ أنه ليس لدي خطة بديلة؟! أتدرين ما الخطأ الذي وقع فيه أصدقاؤه في الأمن الوطني!؟ أنهم أبقوا على حياة مجرم مثلي، بل ووضعوني في غرفة فاخرة يحرسني شرطي مُكافح وفيّ لبلده وداوموا على علاجي جاهلين بحالة النوم التي أصابت مريضهم، فهم كانوا بانتظار استيقاظي الذي لم يحدث على الأقل في وجودهم، مُنتظرين إجابات لأسئلة لن تفيدهم بأي شيء، آه هل غفلت عن إخبارك بما حدث، تلك اللحظة التي أتت فيها خلود ليلة بيع رحمة لم تلمحي تلك الحقنة التي حقنتني بها خفية وقد علمت أن الشرطة على وشك الوصول، حقنة صغيرة قادرة على تخدير جسدي بأكمله لفترة لا بأس بها فأبدو في غيبوبة مؤقتة، ذكي أليس كذلك؟!»

ضحك بقوة ليلتفت لأميرة وهو ينظر إليها بتركيز وهو يراها تنظر له بأعين غاضبة ليقول بتسلية: «آه من عينيكِ يا صغيرتي العزيزة، لولا أن هناك من دفع أكثر لكانت الآن في جسد أحدهم».

ارتعشت عيناها ليضحك باستمتاع شاعرا بنشوة وهو يلمح خوفهن الشهي وهو يقول: «لقد استمتعت بمعرفة أخباركِ وتألفكِ السريع مع إخوتكِ، الحياة كانت وردية أليس كذلك؟! حسنًا سأكون مُستمتعًا بتأدية دور الشرير في هذه القصة، سأدعكن تقضين القليل من الوقت لتُودّعن بعضكن قليلًا».

التفت على دخول سمر حاملة حقيبة بيديها لتهز رأسها له في إشارة بأن كل شيء جاهز، ليصفق بيديه وهو يأخذ منها الحقيبة ثم لحظات وفتحها ليخرج ثلاث حقن ووضع واحدة في حقيبة وأخرى في حقيبة، ناول رجاله الحقيبتين وهو يقول لهم: «واحدة للميناء وواحدة للمطار».

التفت إليهن وهو يقول: «حسنا حان الوقت، هل انتهيتن أم لا؟! حسنا غُفران يمكن قضاء القليل من الوقت مع رحمة حتى أنقل صغيرتكِ لمكان خاص بها»، انتفضت زمرد مكانها تحاول التحرر من قيدها وهي تراه يقترب من أميرة يفك الكمامة على فمها ليوجه حديثه لسمر: «أريدها جاهزة بعد عشر دقائق»، أشارت

سمر بأصابعها لرجلين تبعاها ليحملا جسد أميرة، وغُفران تحاول الصراخ بقوة عاجزة عن الحركة بينما تنتفض زمرد بمكانها بقوة وهي تراهم يأخذونها محاولة الصراخ هي الآخر ليخرج صوتها مكتوما غير مسموع.

أغمضت غُفران عينيها تشعر بالآلام في روحها عاجزة عن فعل أي شيء يحمي صغيرتها، بينما شعرت زمرد بنيران تسري بجسدها وهي تتحرك مكانها حتى وقعت بالكرسي أرضا ليقترب منها ممدوح جالسا على الأرض جانبها وهو ينظر لجسدها ليفك الكمامة عن فمها ليسمعها تصرخ بأعلى صوتها: «أيها الوغد، أيها الحقير، اتركها، اتركها أيها القذر»

ليضع كفه على فمها وهو يقرب أنفاسه منها لتشمئز منه باعدة وجهها عنه وهي تتنفس بقوة صدرها يعلو ويهبط من الغضب، قائلا بجنون: «يا إلهي حافظي على غضبكِ هذا وصراخكِ للقادم فمن يريدك سيعطيني علاوة على كل تلك الطاقة التي تعتريك الآن، هل ترين هذا الغضب إن سمحتَ له بالعبور ستشعرين بلذة لا مثيل لها، اغضبي واشعلي كل ما حولك، هل تشعرين بتلك القوة؟! أمم لا مثيل لها، نعم نعم» أغمض عينيه وهو يقرب أذنه من فمها المُكمم بيديه ليشعر بأنفاسها الغاضبة تزيده شهوة ليفتح عينيه وهو ينظر إليه باستمتاع قائلًا بهمس: «كنت أتمنى أن أحظى بالقليل من كل هذا، لكن من يريدكِ يرغب بكِ بأسرع وقت، فلن أستطيع التأخر عليه أكثر، هذه المرة سأخبركِ بوجهتكِ، هل تتذكرين ذلك الرجل الذي كاد أن يتذوق شهدكِ قبل أن تفسد غُفران الأمر؟! توقفت عن الحركة وكأنها حقنت بمخدر هي الأخرى لتتسع عيناها رعبا وهو ينظر لها بقوة وابتسامته تتسع ليقول بصوت عالٍ: «نعم يا نمرتي هو نفس الشخص فأنا ربما لن آخذ مقابلا بعد أن أخذت الحكومة حصتي يوم أن أفسدوا الأمر، وهذا بالطبع ليس خطئه ليعاود الدفع ولكن تستطيعي القول أن الأمر شخصي بما أنكِ أطلقتِ النار علي دون ذرة ندم».

أنهى جملته وهو ينظر إليها بجمود وقد اختفى جنونه فجأة لينهض من مكانه وهو يعيد تكميم فمها ينادي على رجاله: «أخبروا عبده أنها جاهزة، لن تحتاج لشيء فهم يريدونها هكذا» هز الرجل رأسه له وهو يقترب مع صديقه لينبهه

ممدوح: «حاذر فهي غير مُخدرة ولكن أنا على ثقة بأنها لن تجهدكم بعد أن علمت وجهتها» لينظر إليها ممدوح بسخرية وهو يرى ضياعها بوضوح.

التفت لغُفران وهو ينظر إليها يرى الغضب الكامن بعينيها، أحضر كرسيا وجلس عليه أمامها وهو ينظر لساعته ليقول: «لم يتبق لي الكثير بما أن موعد طائرة ليلى بعد ساعة، لكن لدينا حديثا لم ينته، أشك أن أسئلة راودتكِ كثيرًا ربما لم تجدي إجابة وافية لها، لكن سأحاول تفسير القليل لكِ ففي اللحظة التي تنتهي فيها صفقاتي لن أبقى بهذا البلد، لقد نفدت فرصي هنا، ورئيسي ما عاد بحاجتي هنا، تستطيعين القول إنني وفيت ديوني له» أكمل وهو يبتسم بسخرية: «ديون كلّفتني عمرا كاملا في أكثر مكان كرهت الوجود فيه، فكما تعلمين أو ربما لا تعلمين، لا أدري عما أخبركِ به عمران أو عما أخبرتكِ به»، ارتعشت عيناها وهي تعي مقصده والدته ووالدة عمران، سمعته يكمل بشرود: «خطأ قمت به مع والدتك لننفصل عن الجماعة التي كنا بها بعد أن سرقنا منهم ثروة من آخر صفقة قاموا بها، لكن لم يحالفنا الحظ وقتها لأعود مجددًا لهنا لأرد ديني لهم وإلا الموت».

أنا لم أستطع الاستمرار كما فعل عمران، كانت لدي نزعة قاتلة تجاه أي شرطي يحمل شارة، حتى لو كان شرطي مرور هل تتخيلين؟! في النهاية هم السبب في وفاة أبي، وأبي كان على النقيض منها، أبي كان صارما قويًا لا يخشى شيئًا، وفي نفس الوقت لديه حب غريب لوطنه وبلده، حب جعلني أكرهه بعد أن اكتشفت أنه لم يقتل أبي سوى هذا الوطن الذي أحبه بقوة، قتلوا أبي وهو بينهم، أخذوه أثناء حملة تفتيش لسيارة يبدو أنه كان بها أحد المُهربين، فقبضوا على من بالسيارة جميعا، أسبوع واحد فقط ليرسلوا أبي لنا جثة، أخبرونا أنه مات فجأة، يظنون أننا جهلة بما يحدث داخل مراكز الشرطة، لم أستطع البكاء، رغم حبي الشديد له إلا أنني شعرت بالغضب منه، لم أكد أتم عامي السادس عشر لأفقد أبي وأجدني مسؤولا عن أم وأخ وذلك لأن أبي أحب وطنًا قتله، حسنا لن أكذب عليكِ أنا لم أحتج لذريعة لكي أنتسب لإحدى الجماعات بليبيا فأنا وجدتها فرصة مناسبة بعد أن خرج أحد الرجال الذين قبضوا عليهم بالسيارة التي كان بها والدي، خرج ليأتي لمنزلي ويبدو أنه سأل عن أهل الرجل الذي مات بالسجن وعندما قابلني وجدني فرصة

له ولجماعته، جملتين منه على الغضب المكتوم داخلي فلم أحتج الكثير لأهرب من المنزل وأرحل معه لبلدة أخرى، حسنا وقتي لا يمسح لي بسرد تاريخي لكِ، ربما فعلت ما فعلته مُرغمًا، ولكن ليس معناه أنني لم أستمتع، خسارتي الوحيدة أنني لم أستطع الحصول عليكِ كما رغبت بكِ، جسدا وانتماء لي، صدقي أو لا والدتك كانت لديها ذرة أمومة تجاهكِ، ولكن كانت لكِ فقط فهي منعتني عنكِ وسمحت لي بالتقرّب من أخواتك».

ضحك بسخرية وهو يلمح ملامحها الجامدة لينهض مكانه ويقترب منها لينظر لملامحها: «أنا أعرف جيدا أنك تعلمين الحقيقة، أنني لست والدكِ، أخبريني غُفران إن أخبرتكِ أنني أعرف من هو والدكِ الحقيقي فماذا تمنحين لي في المقابل؟! ذلك الكهف الذي مكثنا فيه لسنوات نخفي فيه آثارنا شهد على الكثير والكثير، وأنا كنت مجرد شاهد وقتها ومستمع لذا ماذا تمنحين لي مقابل تلك المعلومة؟!»

اهتزت عيناها وهي تستشعر الدموع في عينيها لتغمض عينيها بقوة لتسمعه يقول بتهكم: «أعلم أن كبرياءكِ اللعينة لن تفاوضني أبدا على شيء، حسنًا سأكون كريمًا معكِ في آخر لقاء لنا معًا وأخبركِ بوجهتكِ أنتِ الأخرى، فطريقكِ سيكون الأطول، من هنا للميناء ثم لقبرص ثم يتم نقلك في يخت خاص صاحبه يرغب في بضاعة نادرة، يعلم عنكِ الكثير والكثير، لذا دفع مبلغًا كبيرًا من أجلكِ، إذا استمتعي بالرحلة»

التفت ليرحل ثم توقف للحظات وهو يقول بسخرية: «رجلنا الذي أوهمكم بمساعدته أخبرني أنك تنتظرين الفرصة المناسبة للقبض على الزعيم، آه غُفران كم أنتِ ساذجة لتضعي ثقتكِ في الرجال الخطأ»، ابتسم لها بتهكم ليرحل بعيدًا عن أنظارها وهي تراه يلوح لها بيديها، مصدومة من كل ما سمعته منه.



مقر الأمن الوطني

نزل الخبر عليهم جميعا كالصاعقة، وعيد تم تهديدهم به وتم تنفيذه في وقت قصير.

خواء هذا كل ما شعر به داخل قلبه في مجلسه، خواء رهيب احتله ويشعر بأنه ميت منذ اللحظة التي قرأ فيها رسالة زمرد الأخيرة وهي تخبره أنها ذاهبة لسالي لا لأميرة، شعر بالقلق وقتها ليتصل على رجل الأمن الذي يرافقها ليجد شخصا غريبا يخبره بضرورة تواجده في أحد مراكز الشرطة فصاحب الهاتف قد تم إطلاق النار عليه، لا يدري كيف وصل وقتها ليعلم بالحقيقة التي دومًا أخافت قلبه، لقد وصلوا إليها، لقد أخذوها، أخذ دقائق وهو يحاول تخطي الصدمة والتفكير بتركيز حتى وصل لأول الخيط- سالي- تلك الحقيرة التي كذبت في البداية بخصوص تواصلها مع زمرد ليكشف سجل المكالمات كذّبها، بعد تهديد ووعيد استطاع أن يصل للحقيقة منها، لقد ساومت ممدوح في زمرد، اتفقت معه على أن يحصل على زمرد في مقابل إخلاء الطريق أمامها، عرفت حقيقة أن تلك الفتاة ليست بسهيلة بل هي الفتاة الأخيرة الهاربة وذراع ممدوح اليمين، ولكن هذا لم يمثل لها شيئًا فقد ظنت أن بالأوراق التي معها ستمكنها من القيام بالسبق الصحفي الذي تريده وفي النهاية تحصل على يامن، ابتسم بسخرية وهو يقطع كل طموحها وأحلامها وهو يلقي القبض عليها بتهمة المشاركة في اختطاف امرأة والتواصل مع رجل عصابات كبير، فلم ينس نظرة الصدمة التي اعتلت وجهها وصراخها المجنون وهي غير مُصدقة فعلة يامن، خاصة بعد أن ألقى عليها يمين الطلاق، أغمض عينيه وهو يتذكّر كيف هرع في كل اتجاه من أجل الوصول لمكان رقم التليفون الذي كان يتواصل مع سالي حتى يصل لنقطة يستطيع الانطلاق منها، منظر الدماء التي ملأت السيارة التي كانت بها زمرد لا يفارق عقله فأخذ يبحث وهو يدعو الله ألا يصيبها أي أذى ليفاجئه دخول آسر عليه يخبره باختطاف أخته هي الأخرى. تنفس بغضب وهو يفكّر أن يفقدها مرتين أمر يفوق تحمّله، يشعر هذه المرة بأن قلبه توقف وانتهى الأمر.

أخرجه من أوجاعه صوت آسر القلق: «لم يأت أحد حتى الآن، أنا لا أستطيع الانتظار أكثر من هذا، جميعا نعلم من الفاعل فلمَ لا نذهب إليه الآن؟»

كاد أن يموت قلقًا على أخته وهو لا يعرف بما تخطط له الشرطة، خاصة بعد معرفته باختطاف غُفران هي الأخرى بعد أن أتتها رسالة من عمران يطالبها

برؤيته فانقبض قلبه، وتلك الغصة التي تؤلم قلبه لا تذهب وهو يتذكّر آخر مرة قابلها فيها ليلة وفاة والدة عمران، ليذهب للعيادة في اليوم التالي فيجدها فارغة مع رسالة تحتوي على كلمة واحدة فقط: «شكرًا»، رافضة بعدها أي تواصل بينه وبينها ولا يعرف أين تسكن، كاد أن يجيب يامن عن تساؤله حين لمح اللواء حسين يدخل المكتبة وخلفه سمير وعمران!

انتفض آسر مكانه وهو يلمح عمران ليذهب إليه في لحظة ويقبض على مقدمة قميصه ليهدر به بغضب: «أين هن؟! أخبرني الآن لقد وثقت بك، أيها الوغد هل كنت على علم باختطافهن؟» بعد كل ما عرفه عن أبعاد القضية من يامن والنقيب سامي وأدرك ثقة غُفران به رغم شكها الدائم، هو أيضًا فكّر أن عمران هو حلقة الوصل بينهن وبين ممدوح.

أبعده سامي مسرعًا وهو يهتف به: «دكتور آسر اهدأ، عمران أحد رجالنا هو هنا ليساعدنا في وضع الخطة لإيجادهن في نفس الوقت حتى لا نخسر إحداهن، أرجوك اهدأ»

«إن كان أحد رجالكم فكيف تم خطف غُفران دون أن يفعل شيئا، بعد أن أرسل لها تلك الرسالة، هو يخدعكم»

تحدث اللواء حسين: «هو لم يرسل تلك الرسالة آسر، عمران كان في مكان آخر وقتها، أنت بنفسك قلت غُفران تثق به»

تنفس آسر بغضب وهو ينظر إليه يحاول اكتشاف صدق كلامه بينما عدّل عمران من هندامه يحارب ألمه من جملة آسر ليوجه حديثه إلى يامن: «هل كان هناك أي شهود عن الحادثة أو هل علمت أي مواصفات لرجال أو حتى للسيارة التي نقلت ابنة عمك؟!»

أجابه يامن بعد لحظات: «لقد رأى أحد الشهود صادف وجوده وقت المشاجرة التي حدثت رجلين يحملان امرأة يبدو أنها مغشية عليها ولكن بعد ما سمعته من آسر يبدو أنها كانت مخدرة وركبوا جميعًا سيارة جيب سوداء وكانت مغطاة بزجاج معتم لا يظهر ما بداخله»

جلس عمران على أحد الكراسي يلقي قنبلته: «إذا ابنة عمك سيتم بيعها على الحدود وغُفران سيتم ترحيلها في احدى الحاويات من ميناء العريش، وأختك سيد آسر سيتم ترحيلها جوا عن طريق مطار العريش، ولكن ربما يبدأ بترحيلها أولا قبلهما ببضع ساعات لأنه جهز أوراقها المزورة».

صمت قاتل ساد في الغرفة ليجلس آسر على أقرب كرسي وشحوب وجهه أكبر دليل على حالته، بينما تساءل آسر برعب: «الحدود! حدودنا مع من؟!» ليصدق ظنونه وعمران يجيبه: «حدودنا مع إسرائيل، عملية البيع التي سارت من قبل لم تتم بعد»، سأله سامي: «كيف عرفت كل هذا عمران؟! ومن المحتمل أن يغير مخططه بعد ما عرفه عنك؟»

نظر إليه عمران بجمود وهو يقول: «ما أخبرتك به هو التغيير الذي قام به بعد معرفته بخيانتي له، المعلومات وصلتني من مصدر قريب، تستطيع القول أن أحدهم رد دينه لي بهذه المعلومات وأخرى في غاية الأهمية، سأقابله من أجل الحصول عليها»

تمالك اللواء حسين نفسه ليفكر مُسرعا: «عمران على حق، فهذه هي الخطة البديلة التي تأكدنا منها من الجاسوس الذي كان يعمل بيننا لصالح ممدوح، جاسوس زرعه اللواء سامح لمعرفة خطواتنا، وهو من أخبرهم بكل ما نعرفه وبوجود غُفران بالمقر وقت إرسالهم الرسالة لها، فكانت العربة بانتظارها في الخارج، تتبعنا أرقامها بعد أن رأينها في كاميرات المراقبة المحيطة بالمقر ولكننا وجدناها فارغة على قارعة الطريق، وهذا الجاسوس لم يكن سوى سكرتير مكتبي الذي كنت أوكل له كل أمور القضية، والآن بعد أن اكتشفناه واستعملنا معه بعض طرقنا فقد منح الكثير من الأخبار التي تأكدنا منها بكلام عمران، فلدينا الآن خط بداية وهو المزرعة بالعريش، فهي حتما ستكون نقطة انطلاقه فما قلته الآن يا عمران قريب من العريش الحدود والميناء وحده المطار هو البعيد ولكن ممدوح لن يغامر بتغيير طريقه المعتاد وأخذ طريق مختلف قد يواجهه فيه صعوبات ومخططه القديم الذي أخبرتني به لم يشمل المزرعة».

تساءل عمران باستغراب: «ولكن هل سيجازف بالعودة للمزرعة وهو يعلم أنها مغلقة بسبب التحقيقات، كما أن هناك عناصر من الشرطة تحرس المزرعة؟! وهو لن يبقى بها طويلًا على حد علمي بتفكيره»

أجابه اللواء بتأكيد: «نعم سيفعل، إنه ماكر يختبئ في المكان الوحيد الذي لن نبحث عنه فيه، كما أن من يحرس المكان هناك مجرد حارسين سهل القضاء عليهما، وبمساعدة سامح راغب فكل شيء سيكون ميسرا له، سامي أريد توفير اتصال آمن بالهيئة العامة لموانئ بورسعيد لدينا رجل هناك، لا أريد أي اتصال بميناء العريش الآن حتى لا يشك ممدوح بشيء، اطلب من رجلنا حصر السفن التي ستتحرك اليوم أو غدا من الميناء لقبرص، وأوصلني باللواء فريد، أريد تجهيز الرجال ليقوموا بعملهم أسرع من السابق على الحدود، ولكن بهدوء تام، وبالنسبة للمطار يجب أن ينطلق رجالنا هنا إليه، من كلام عمران سيولي ممدوح اهتمامه الكامل به لأنها ستكون مجازفة أن يرسلها لطائرة وسط العديد من الأشخاص، لكن حتما هناك خطة بعقله».

قاطعه يامن في هذه اللحظة: «إلا إذا كانت هناك طائرات خاصة ستقلع من المطار»، نظر له اللواء بتفكير: «تقصد...» قاطعه يامن: «نعم عملية البيع والشراء ستتم هنا في مصر، والترحيل سيكون في طائرة المشتري الخاصة»، هتف عمران بتفكير: «يا إلهي! إحدى دول الخليج، كان هناك ورق بمكتب ممدوح يخص أحد الأغنياء القائم بالإمارات».

تحدث اللواء حسين وهو يقول: «حسنًا، في هذه الحالة يجب علينا الانطلاق جميعا، ولكن ما اتفقنا عليه هنا وما قررناه لن يخرج خارج هذه الغرفة، حتى أوامرنا ستكون لرجالنا الذين نثق بهم لذلك طلبت منكم الاجتماع بمكتب يامن لا مكتبي».

نغز قلب آسر رعبٌ وهو يقول: «سأذهب معكم تلك الأحداث ربما تسبب نكسة أخرى لأميرة، يجب أن أكون موجودًا» أجابه سامي: «لا نستطيع أن نُعرّض العملية للخطر بوجودك»، هتف آسر بغضب: «إنها أختي، اللعنة» هتف اللواء

حسين: «حسنًا لنهدأ جميعا، وجهة انطلاقنا ستكون المزرعة أولًا، وبعد ذلك سنقرر إلى أين يتجه كل فريق، أنا سأتحدث مع اللواء فريد حتى يرسل دورية سرية لهناك يستطلع بها ما يحدث وبعدها نقرر، فقط لنأمل جميعًا ألا يكون هناك تحرّك بعد لأي من بناتنا لجهتهن».

تحدث يامن بجمود: «إن لم نجد زمرد هناك سأرحل للحدود»، نظر له اللواء بتفهّم ليتحدث عمران بعدها: «وأنا سأسعى خلف غُفران»، ارتعشت شفتا آسر وهو ينظر لعمران الذي فهم نظراته وأدرك معناها جيدًا، ليخبره بهدوء: «أعدك بألا يُصيبها أي أذى حتى لو كان الثمن حياتي»، قال آسر بألم: «أنا لا أستطيع أن، أختي ستكون في مكان آخر وهي»، أجابه عمران: «أتفهّم جيدا وهي أيضًا ستتفهّم جيدا بعد أن ينتهي كل هذا، في النهاية أختك تحمل مكانة كبيرة داخل قلب غُفران، وحتما ستقدّر ما فعلته»، ولكن هذا لم يكن شعور آسر وهو يعي أن بفعلته هذه سيتخلى عن البحث عن غُفران، دعا الله في سره ألا يكون هناك تحرّك من المزرعة بعد، كما قال اللواء.

ساعتان هي كل ما مضت، وهم يعون أن أمنيتهم لم تتحقق، وصلت القوات للمزرعة ليكتشف خلوّها من أي شخص، واتصل اللواء فريد باللواء حسين ليخبره بعدم وجود أثر للفتيات ولا لممدوح، لينقبض قلوبهم جميعًا وهم يعون أن هذا معناه أن بالفعل بدأت عمليات البيع، بدأوا في توزيع المهام على بعضهم كما اتفقوا فتحرك آسر مع النقيب سمير وبعض القوات لمطار العريش، وتواصل اللواء فريد مع بعض الأشخاص الذين لهم علاقة بالحدود، خاصة من فلسطين، حتى يستطيعوا الوصول لزمرد بمساعدتهم ليامن بعد أن أخبره اللواء حسين أن الأمر سيتم بطريقة غير قانونية، لأنه حتى يسمح لهم بدخول الحدود فستستغرق الأمور المكتبية والأوراق الكثير من الوقت حتى يصلوا إلى زمرد، لذا أوكل المهمة له وحده دون أي قوات مساعدة بينما انطلق عمران مع الرجل الذي ساعده بالمعلومات في طريقهم للميناء بعد أن وصلت المعلومات من رجل اللواء حسين هناك بأنه بالفعل توجد ثلاث سفن تحمل حاويات في طريقها لقبرص، وميعاد انطلاقها بعد منتصف الليل، فوصلوا لرقم الحاوية بعد جهد كبير، وفي سرية تامة، ليخبرهم اللواء حسين بأن رجال الشرطة سيصلون على الفور بعد وصوله.

قابل يامن الشيخ عابد وابنه الذي تولى الحديث على الفور بلهجته الفلسطينية: «على مقربة من هنا كيرم شالوم، وفيها ستجد الرجل الذي تبحث عنه دانييل أوري، وهو ضابط بالجيش الإسرائيلي، هناك منطقة عمله على الحدود وثكنته، مما سمعناه عنه دائما ما يحضر نساءه هناك، وبعد أن ينتهي منهن يمنحهن لرجاله»، أتبع حديثه بصورة للضابط حتى يستطيع يامن التعرف عليه.

شحب وجه يامن وجهد السفر والطريق تركوا آثارهما على وجهه ليربت الشيخ على كتفه وهو يقول: «لا تقلق يا بني، لندعو ألا يمسها هذا الوغد حتى نصل إليها، هيا يا عامر أوصل المُقدّم للمكان مع رجالك فالوقت يمضي منّا واحذر من الأفخاخ يا بني».

حاول أن يهدئ من انفعاله وهو حتى الآن لا يصدق ما يحدث، لكن لا وقت للانهيار، تذكر منذ يومين فقط قد أجبره ابنه عمه على الاعتراف بحبه لها، بعد أن خدعه وهو يخبره بخطبتها، ليتأكد بعد أن لكمه وتشاجر معه أنه بالفعل سيخطب لكن رحاب لا زمرد، لينتزع منه اعترافًا بحبه لها بعد أن لكمه مجددًا، وبعد يومين فقط تنسل من بين يديه، قبض على كفيه بقوة يمنع غضبه وهو يسير مع عامر وصلوا بعد مسافة ليست ببعيدة كالتي قضاها يامن في طريقه من المزرعة للحدود، تحدّث إليه عامر بهمس وهم يختبئون خلف أحد الصناديق الكبيرة: «نستطيع أنا ورجالي أن نشتت انتباههم من الجهة الشرقية، ولكن ليس لوقت طويل، هناك في ذلك المبنى الأزرق اللون يقضي دانييل وقته، المبنى ليس عليه حراسة قم بفتح ممر لك بين الأسلاك المحيطة بالثكنة وستجد المبنى على بعد أمتار منك، ابقَ دائما منحني الجسد حتى لا يلمحك أحد من الكشافة، عندما تسمع أصوات إطلاق النار تحرك على الفور، ولكن حين تنتهي الأصوات اعلم جيدًا أنه تبقى لك القليل فقط»

هز يامن رأسه وهو يتأمل محيطه بجمود ويكتشف طريقه الذي وصفه له عامر، بينما قلبه ينتفض برعب وهو يعي أنه على بعد خطوات منها، ووحده الله يعلم كيف حالها الآن، أخرجه من أفكاره ربتة على كتف عامر وهو يقول له بينما يستعد

للانطلاق مع رجاله: «على بركة الله، أدعو من الله أن يوصلك سالمًا لها ويبقيها سالمة لك».

تحركوا جميعًا من أماكنهم بهدوء شديد وعندما سمع يامن أصوات إطلاق النار وتبادل الجنود الإسرائيليون النار معهم قام بقطع السلك الشائك مُسرعا ليركض مُنحنيا كما أخبره عامر، حتى وصل إلى المبنى المنشود، كاد أن يدخل من باب المبنى حين لمح أحدهم ينزل الدرج فاختفى خلف إحدى الشجيرات الموجود بجانب المبنى، لمح بعض الرجال يركضون مُسرعين باتجاه إطلاق النار مع أسلحتهم، فانتهز الفرصة ودخل المبنى، لمح بابا يفتح على ممر، فدخله بحذر، ليجد أكثر من غرفة على يمينه ويساره، أنصت بسمعه لعلّه يلتقط بأذنيه أي شيء حتى سمع صراخا مألوفا له من آخر غرفة، أتبعه صوت جهوري لأحد الأشخاص، اقترب من الباب وسلاحه بيديه في نفس اللحظة التي فُتح بها الباب فجأة ليلمح يامن دانييل يقف بجسده الضخم أمامه غاضبًا بقميصه المفتوح وهو يغلق أزراره، ويبدو أنه كان هامًّا بالرحيل حين سمع أصوات النار، عقد دانييل حاجبيه باستغراب ليتحول لغضب وهو يدرك هيئة يامن الغريبة عن رجاله، وقبل أن يقوم يامن بأي حركة قبض دانييل على عنق يامن بقوة بينما كان يهدر بغضب بكلام غير مفهوم ليامن، حاول يامن أن يحرر رقبته من قبضة دانييل بقوة بينما فرق القوة والطول بينه وبين دانييل واضحة للعيان، شعر يامن بالاختناق بينما في لحظة شعر بجسده يطير ليصطدم بقوة في الحائط خلفه، حاول يامن التنفّس بينما جسده يئن من الضربة ليجد في اللحظة التالية قدم دانييل في جانبه وفي بطنه وفي وجهه، شعر كأنه أمام مطرقة لا تتوقف عن الضرب.

«يامن» صرخة انتشلته من دوامة آلامه ليلمحها أخيرا واقفة بضعف تستند على باب الغرفة بينما وجهها ممتلئ بالكدمات وشعرها مبعثر حول رأسها، ليتوقف قلبه في اللحظة التي لمحها تضم طرف بلوزتها من الأمام بيديها.

ابتعد دانييل عنه وهو يلمح صراخا خلفه، ليقترب في لحظة من زمرد ويصفعها بقوة جعلتها تسقط على الأرض دون أي مجهود.

شعر يامن بالغضب ينتشر في جسده، فقاوم آلامه ونهض ببطء مُمسكًا بأحد الكراسي الحديدية التي لمحها في الممر بجانبه، مستغلًا انشغال دانييل لينقض في الثانية التالية على ظهره ضاربًا إياه بالكرسي.

سقط دانييل على الأرض مُتأوهًا وهو يضع كفه على خلف رأسه ليشعر بالدماء، هز رأسه يستعيد تركيزه، ولكن يامن لم يتمهل لينقض مُسرعا عليه، رادا الضربات له بقوة وزمرد تراجعت زاحفة للخلف بقوة تراقب المعركة الطاحنة أمامها برعب حتى الآن لا تصدق أن يامن هنا.

لمحت دانييل وهو يدفع يامن بقوة بجسده، فتراجع يامن عنه للحظات كاتما ألمه ليجد دانييل في اللحظة التالية مُمسكًا بشعر زمرد، ويسحبها على الأرض ليجعلها تقف ليرفع سلاحه في اللحظة التالية تجاه يامن، وهو يقرب زمرد منه مُقبلا عنقها بتقزز وصدره يعلو ويهبط من المجهود يتحدث بكلام لم يفهمه يامن الذي وجد فعلته هذه مجرد تفسير لما يقوله الحقير، لم يستطع يامن الصمود وهو يرى دانييل يتلمّسها بتلك الطريقة ليقترب منه في اللحظة التي عضت فيها زمرد كفه المُمسك بالسلاح بقوة ليصرخ دانييل من فعلتها، وهي لا تتنازل عن الابتعاد عنه، تشعر بأنها إن تركت أسنانها كفه سيموت يامن فأغمضت عينيها وهي تستشعر دماءه بفمها لتسمع صوت رصاصة، أوقفت الصراخ لتجد جسد دانييل يقع للخلف وهي تقع معه، اعتدلت بعيدة عنه وهي تنظر له برعب لتجد حفرة في أعلي رأسه، فتراجعت حتى التصقت بالحائط تنظر برعب له ثم صرخت بقوة وهي تلمح أحدهم يمسك بذراعها، فلم يكن سوى يامن الذي جذبها بقوة لحضنه يتمتم بهمس: «لقد انتهى الأمر، لقد وجدتكِ، اهدئي».

لحظات وهي تستوعب همسه لترفع ذراعيها في اللحظة التالية لتحتضن يامن بقوة وهي تهتف بهستيرية: «لم يستطع، لم أسمح له بأن يحصل على ما يريده، لقد أتيت، لقد أتيت»، لتشهق بعدها ببكاء مرير، وهو يغمض عينيه مُغالبًا دمعه ليبتعد عنها وهو ينهض ليجذبها خلفه قائلًا: «هيا يجب أن نرحل الآن» انطلق بها باتجاه الممر ليجدها تجذب ذراعها من كفه وهي تتلمس رأسها: «غطاء رأسي، حجابي، لقد انتزعه مني، لا أريد أن أرحل دون غطاء».

دمعت عين يامن وهو ينظر لها بألم في اللحظة التي لمحت يديه تفك أزرار قميصه بارتعاش لتجده في اللحظة التالية يغطي رأسها بقميصه، لتتمهل يداه على جانب رأسها وهو ينظر لها هامسا: «لنرحل زمردتي الغالية»، قبض على كفها بقوة وهو يسحبها خلف يشعر بقلبه ينتفض خوفا وهو يلمح توقف أصوات النار بينما صوت صفارات الإنذار في الثكنة تدوي بعنف.



الميناء

أصوات مكتومة تصلها من كل جانب، ساكنة مكانها لا تقوى على الحراك، دموعها تهطل منها بغزارة وهي لا ترى شيئًا حولها، فقط ظلام من كل جانب، أغمضت عينيها تخشى أن ترى ذلك الظل يتحرك فتواجهه أخيرًا، حاولت إشغال تفكيرها في أي شيء فازداد انهمار دموعها وهي تفكر في أميرة وزمرد، لقد فشلت في حمايتهما، بعد كل ما فعلته وبعد كل تلك السنوات الحقير ممدوح نفذ مخططه لهن، ذلك العجز الذي يحيطها تكرهه، أن تعي بأنها غير قادرة حتى على الدفاع عن نفسها ألم قلبها أكثر، أخذت نفسًا طويلًا تحاول تهدئة نفسها، كان دائما لديها خطة بديلة إلا أنها لم تفكر أن ممدوح قد أخذ احتياطاته في كل شيء، كأنه يعي تفكيرها جيدًا، ازداد تنفسها من الغضب الذي يعتريها، وكأن العتمة التي بها والهواء المكتوم حولها غير كافٍ للتسبب في اختناقها، حاولت تهدئة أنفاسها ووجه طالما زار أحلامها مؤخرًا يبتسم لها كأنه يخبرها أن كل شيء على ما يرام، همست داخلها والغمامة التي تغطي فمها تكتم همستها: «آه آسر كل شيء لن يكون على ما يرام، لقد فشلت، لقد انتهى كل شيء».

وصل لأسماعها صوت تأوهات وحركة خارج الحاوية التي تحتويها على إحدى السفن، أنصتت السمع ليأتي صوت ضربات على باب الحاوية كأن أحدهم يحاول فتح القفل!

أخذت تصدر أصواتًا مكتومة عاجزة عن الحركة بسبب المخدر الذي أعطاه لها ممدوح مجددًا، لحظات ولمحت الأصوات تتوقف فجأة لتجد الباب يفتح

ببطء وأحدهم يدخل بمصباح يدوي يضيء النور من حولها، حاولت التحرك، الصراخ ولكن لا شيء مسموعا حتى سمعت صوتا لم تظن للحظة أنها ستسمعه مجددًا: «غُفران أنتِ هنا».

بكت بصمت ودموعها تنهمر من عينيها لتسقط بجانب رأسها وهي نائمة على الأرض خلف أحد الصناديق الكبيرة، تشعر بالعجز لعدم قدرتها حتى على الرد على عمران والصراخ بأنها هنا.

لمحت أصوات أقدام تقترب منها تزيح الصناديق من مكانها، صندوق وراء آخر وهو يطلب المساعدة من آخر معه حتى وجدها!

في أقسى خيالاته لم يكن يظن أنه سيراها في حالتها هذا، رقدتها على الأرض مُكممة وجسدها بأكمله ملفوف بحبال عريضة وغطاء أسود يغطيها، يبدو أنه تحرك قليلًا فأظهر وجهها له، وجهها الحبيب.

صدمة شلت جسده للحظات ولم يخرجه منها إلا عندما لمح دموعها، دموع غُفران الغالية.

اقترب مُسرعا منها وأخرج السكين من جيبه وأخذ يقطع من الحبال التي تربطها بعد أن أزاح الغطاء الأسود، صدره يعلو ويهبط من الغضب وهو ينظر لعينيها تارة وينظر لمكان عمله تارة أخرة حتى فك الحبال من على جزئها العلوي وأزاح الكمامة من على فمها ليجذبها في اللحظة التالية ويحتضنها بقوة هامسًا بصوت مسموع: «لقد وجدتك، الحمد لله لقد وجدتك».

مرت دقائق وشهقاتها تصل إليه مكتومة وهو لا يقوى على تركها، صوت الرجل الواقف على مقربة منه ينبهه بأن يسرع حتى لا يجدهم أحد أو يلمح أحدهم الحارسين المقتولين بالخارج.

أخرج من جيبه حقنة ومحلول بعد أن لمح ارتخاء جسدها، حامدًا ربه وشاكرًا آسر على إعطائه ترياقًا يخرجها من حالة الخدر التي بها، بعد أن عرف منه أن أخته قد تم حقنها بمخدر يشل أوصالها لساعات، وفي لحظات جهز الحقنة وحقن ذراعها بها وهو ينظر إليه مُطمئنا إياها: «سيبدأ الترياق بعمله، دقائق وستكونين على ما يرام».

أكمل فك وثاق جسدها بأكمله ثم نهض وأسند جسدها بجسده وهو يساعدها على السير، وحين لمح بأنها لا تستطيع حتى السير حملها والرجل الذي معه يؤمن الطريق أمامهم، خافيًا أجساد الرجال الذين قتلوهم داخل الحاوية.

لسعات برد أصابت جسدها من الهواء لحظة خروجها من الحاوية لتأخذ نفسًا طويلًا مُتلقفة هواء البحر النقي، وكأن عمران شعر بها فضمها له بقوة علّ دفء جسده يدفئها، نظر بعينيه لها لتقتله نظراتها له، نظرات امتنان وشكر كأنها حتى الآن لا تصدق أنه جاء من أجلها، ربما لم تكن النظرات التي كان يرغب في أن يحصل عليها منها لكن وحدها تلك النظرات تكفيه، تابعوا السير مُتخفين عن العاملين في المكان حولهم، وفي لحظة وصلت لأسماعه أصوات أقدام باتجاههم ليلتفت هو وصديقه ليلمح رجلين أمامه يعرفهما جيدًا، وقف الأربعة متأهبين وعمران ينظر لهم بجمود في حين هتف أحدهم: «ما الذي تفعله هنا عمران؟!» تحدث عمران بهدوء يُحسد عليه وهو يزيد من ضم جسد غُفران له: «حصل تغيير في الخطة ألم يخبركم ممدوح؟! لقد أمرني بالقدوم لإحضارها، عملية الشراء ستتم على اليخت الخاص بالمُشتري».

دعت غُفران داخله أن يصدقوا كلامه، ويماطل بالحديث معهم وهي تشعر بآثار الترياق الذي أعطاه لها عمران يأتي بمفعوله.

ضحك الرجل بسخرية وهو يقول: «غريب عمران! فالرئيس لم يبلغنا بشيء ونحن المسؤولان عن توصيلها، وقد حذّرنا جيدًا من أي محاولات لإفشال المهمة ومنك خاصة».

صمت ساد للحظات لينادي عمران على صديقه في لحظة ليبدأ إطلاق النار في اللحظات التالية، ركض عمران حاملًا غُفران إلى ممر جانبي ليجلسها على الأرض وينظر لها باطمئنان وهو يعطيها مسدسًا: «هذا مسدس بجانبك، في حالة عدم عودتي أطلقي النار على الفور على أي شخص يقترب منكِ، لن أتأخر».

«عمران» همسة خرجت منها ليبتسم لها واضعا كفيه على وجنتيها ودون أي كلام تحرك على الفور بسلاحه الإضافي، وصلت لأسماعها طلقات نيران وأصوات

إنذار قد انطلقت على السفينة، نظرت للمسدس بجانبها وهي تحاول جاهدة تحريك يديها تشعر بأن دماءها التي تسري في عروقها ثقل جاثم في جسدها، بعد لحظات وصلت بيديها للمسدس وحاولت الضغط بأصابعها عليه علّها تستطيع حمله لتشعر ببدء حركة جسدها، تحاملت على نفسها لتجلس مُستندة على كفيها وساقيها لتتنفس بصعوبة وهي تشعر بأنها قامت بمجهود كبير، رفعت ذراعها تستند على الحاوية بجوارها وهي تنظر حولها في انتظار أي شخص وهي تشعر بالرعب بعد أن ساد الصمت حولها، أخيرًا استندت بجسدها على الحاوية تتنفس بقوة وبدأت السير باتجاه نهاية الممر، رفعت المسدس في اللحظة التي دخل فيها رجل من الرجال الممر وأطلقت النار لتصيب ذراعيه بدلًا من صدره مُسقطة سلاحه، سبّت وهي تستشعر عدم قدرتها على التصويب جيدًا، ضحك الرجل لها بشرٍ وهو يقترب منها قائلًا: «لم يشتر رئيسي المخدر بآلاف الدولارات هباءً»، رفعت سلاحها مجددًا وهي تأخذ نفسًا طويلًا بينما كاد الرجل أن يمسك بها في لحظة أطلقت النار مُصيبة رأسه هذه المرة ليسقط بعد لحظة على الأرض مُدرجًا بدمائه، تأوهت بألم والسلاح يسقط منها، تشعر بنار في كفها كأنها استعادت القدرة بالتحكم في أعصابها بسرعة عن المفترض به، شهقت بقوة لتكمل سيرها إلى نهاية الممر داعية الله أن يكون عمران ورجله قد قتلا الرجل الآخر.

تجمدت مكانها وهي ترى أمامها ثلاثة أجساد على الأرض مُدرجين بدمائهم، ارتعشت شفتاها واتسعت عيناها رعبًا وهي تنظر لجسد واحد فقط منهم، انتفضت مكانها وأسرعت باتجاه جسد عمران لتجلس بجانبه وهي تقرب كفيها منه لتبعدهما فجأة وهي تشهق بقوة تلمح الدماء التي غطت صدره وآثار طلقتين ينهمر منهما الدماء بغزارة، قربت أصبعها من وريد عنقه وحين لمحت نبض ضعيف، زفرت بقوة وهي ترفع رأسه من على الأرض، تضرب بكفها على وجنتيه منادية إياه: «عمران أرجوك افتح عينيك، عمران عمران لا تتركني أرجوك، أتوسل إليك أتوسل إليك».

لحظات ولمحته يرمش بعينيه ليفتحهما ينظر إليها وهو يشعر بالألم في جسده بأكمله، احتضنت رأسه لجسدها وهي تهمس بالحمد لله، ثم أبعدته عنها وهي تنظر له محاولة طمأنته: «ستكون بخير، هل معك هاتف أتصل ب...» وقبل أن تكمل

جملتها وصلت لأسماعها أصوات أقدام تقترب منها بقوة، فأسندت جسده بذراعها لتحمل المسدس بالذراع الآخر مُصوبة إياه تجاه الأصوات وهي لمحت عناصر الشرطة حولها ورئيسهم يطمئنها أن كل شيء على ما يرام، فهتفت بقوة: «اطلبوا إسعاف بسرعة» لينفذ الشرطي طلبها على الفور، ألقت السلاح أرضًا والتفتت لعمران فوجدته ينظر إليه ودمعة من عينيه تفر من مرقدها، فهمست له مجددًا: «كل شيء على ما يرام، ستصل الإسعاف فورًا وسيتم نقلك للمشفى»

ابتسم لها بضعف وهو يقول بصوت مُتقطّع: «لا تكذبي أبدا على المريض أيتها الطبيبة»

هتفت بضعف بعد أن رأته يسعل بقوة: «عمران»، هدأ سعاله وهو ينظر إليها رافعا كفيه يلمس وجنتيها هامسًا: «كنت قادما إليكِ وأنا أعي جيدًا أنني لن أتوقف حتى أجدكِ حتى لو كلفني هذا حياتي»

تساقطت دموعها مُمتزجة بدمائه وهي تسمعه يسألها: «هل تظني بأن من الممكن أن يكون لمشاعري تجاهكِ فرصة معكِ لو لم يُصبني الرصاص؟!» أجابته بصدق: «أتمنى لو كان لي قلب نظيف يحوي حبك هذا، أتمنى لو أنني التقيت بكِ في حياة أخرى ربما وقتها كنت حصلت على قلبي من أول جملة - مرحبا - تلقيها على مسامعي».

ابتسم لها بحب وهو يجيبها هامسا: «تكفيني أمنيتكِ»، سعل بقوة وهي تهتف اسمه برعب لامحة دماء تخرج من فمه فصرخت حولها تطلب الإسعاف مجددًا، نظر إليها ونظره بدأ في التشوش وهو يرى وجهها الجميل قلقا جاذبا انتباهها وهو يقول بضعف: «اسمعيني غُفران جيدًا، في غرفة مكتب ممدوح بالمزرعة هناك صندوق مُلصق بأسفل مكتبه ستجدين فلاشة بها معلومات عن كل شيء، هناك طرف آخر بالوزارة بوزارة الخارجية اللواء حسين سيساعدكِ لقد أخبرته بمساعدة أحد الرجال لي».

هزت رأسها وهي تقول: «حسنا توقف عن الكلام الآن، اللعنة أين هي الإسعاف» ابتسم لها وهو يقول بحب: «لطالما كنتِ شخصًا غاليًا بقلبها ولطالما كنتِ الشيء الوحيد الجميل بحياتي».

بكت وهي تعي مقصده فهو دائما ما كان هناك بجانبها منذ أن وُلدت في ذلك الكهف البغيض، طالما كان يعاملها بلطف ويحميها من كل سوء، حتى انتقلوا جميعا لذلك البيت فتغير كل شيء، بغضها له كان من بغضها لمدوح، ولكن وقتها هي لم تفهم أفعاله ولم تُصدّق المغزى منها، حتى قابلت والدته الحبيبة وأحبتها من قلبها قبل حتى أن تعرف أنه ابنها، هي تعي كلامه جيدا، سمعته يقول بصوت ضعيف: «إنها تنتظرني غُفران، تمد يدها لي وأنا لا أقوى على رفض ندائها، لا أقوى على الحياة بدونها غُفران هي وأنتِ كنتما...».

وقبل أن يكمل جملته لمحت عينيه ترتجفان ليتوقف كل شيء حولها وهي ترى روحه تخرج من جسده كأنه كان في انتظار ندائها ليرحل، شهقت بقوة وهي تجذب رأسه لحضنها، ارتعشت شفتاها ودموعها تنهمر بغزارة لتصرخ بصوت جريح باسمه وهي تعي أن كل شيء، كل شيء حقًا انتهى.



أنا أقاتل لذا أبدو ضعيفًا والناس لا يُريدون النظر لي، الناس لا يُريدون النظر للضعيف لأنه يُذكّرهم بضعفهم هم ولكن الشيء الذي لا يفهمونه أنه عندما يقاتل شخص ما فهذا يعني أنه قوي لأن الضعيف لا يقاتل فقط يموت، لذلك أيًا كان ما تظنينه عني أنا حي.. أنا حي.

#Horace_and_pete

الفصل الثامن عشر
النزال الأخير

«لقد كان مُختبئًا في قبو بالمزرعة، لم تره قواتنا في البحث الأولي بالمنطقة، عندما عدنا للبحث مجددًا لمحه رجلنا يجهز حقائبه في سيارته، يبدو أنه كان مُستعدا للهرب مع امرأة أخرى، نحن لم نخرج به من المنزل كما أمرنا اللواء حسين، وطلبنا دعمًا من سيادته، فكما تعلم رجال الحقير كثيرون في المنطقة، حاولت المرأة إطلاق النار فأرداها رجالنا على الفور، ونحن في انتظار أوامر اللواء حسين»

كلمات وصلت لأسماعها من هاتف الضابط الذي أرسله اللواء لنجدتها، كلمات خزّنتها داخلها جيدا وهي واقفة تستند بكفها على عربة الإسعاف التي تحمل جسد عمران، الغضب بداخلها قادر على إحراق ما حولها، ذلك الألم طغى على كل ما شعرت به من قبله، اطمئنانها على زمرد وأميرة لم يقم إلا بإشعال نيران الغضب الكامنة بداخلها أكثر لتأخذ تلك السيارة التي تركها الشرطي وترحل بكل أشباحها لوجهتها الأخيرة.



مطار العريش

هي لم تفكر أنها شجاعة كما أخبرها آسر، كل ما تفكر فيه الآن غُفران، هي تفهمها جيدًا وتعي أنها لن تهدأ حتى تشوه الباقي من روحها بقتلها للحقير ممدوح، كان يجب أن تُغامر وتعود مجددًا للمزرعة، لكنها غير مُرغمة الآن بل بإرادتها الحرة، إصابة النقيب سمير هي ما منعت آسر من القدوم معها مما زاد من غضبه، تعلم أنه قام بالكثير من أجلها ويكفيها أنه كاد يخسر حياته ليفديه النقيب سمير

بتلقي الرصاصتين بدلًا منه، لذا اضطر للذهاب معه لأقرب مشفى بما أنه الطبيب الوحيد الموجود وقتها للقيام بالإسعافات اللازمة حتى يصلوا للمشفى، الصراع الذي رأته في عين أخيها آلم قلبها وهو يخبرها أنه للمرة الثانية تخاذل عن مساعدة غُفران باختياره لإنقاذها هي أولا ثم إنقاذ النقيب سمير ثانيًا، هي تعلم ولربما هذا السبب الذي أجبره على تنفيذ رجائها وتوسلاتها بالعودة للمزرعة من أجل غُفران.

آسر أخوها الحنون الذي لا تصدّق حتى الآن أنه حقًا أنقذها، بعد أن انتهى ممدوح من صفقته الخسيئة مع هذا العجوز الوغد المُتصابي، تركها ورحل، تركها تعاني من لمسات الوغد طوال الطريق لطائرته الخاصة، تركها عاجزة والمخدر الذي أعطاه لها ممدوح يمنعها من المقاومة، من خدش وتهشيم وجهه لتبكي بعجز وهي تلمح رجاله يحملونها للطائرة، شعرت بأنها ماتت في تلك اللحظة وهي تعي أنه لن ينجدها أحد ولن يجدها أحد، دمعت عينيها وهي تتذكّر أنها فكرت في عائلتها وحالة أحمد بعد أن تركته مُدرجا بدمائه وكيف سيكون أمير بدونها، ارتعشت بجسدها وهي في المقعد بالطائرة الهليكوبتر التي توصلها للمزرعة مع بعض رجال الشرطة بعد أن أخذت الترياق المُضاد للمخدر بعد أن وجدوه في حقيبة مع أفراد العصابة وقد أصرت على العودة في محاولة منها لمنع غُفران من تنفيذ تهديدها بعد أن أخبرهم اللواء حسين بهروبها من رجاله بالميناء.



المزرعة

وصلت السيارة أمام المزرعة ليستقبلهم بعض رجال الشرطة التي تحيط بالمكان، نزل يامن من السيارة بعد أن أبلغ الرجال بهويته، التفت لزمرد وهو يساعدها للنزول ليجذب انتباهه حديث أحد الرجال الذي كان معه بالسيارة مع عامر، ليلتفت لهما فقابله عامر بترحاب وهو يضم لجسده قائلًا: «أحسنت أيها البطل، لقد انتشر خبر موت ذلك الحقير» انتبه يامن لذراع عامر المُصاب ليسأله بقلق عن حالته ليجيبه بشجاعة: «لا تقلق مجرد جرح بسيط بجوار إخوته، أجسادنا تحمل آثارا نفتخر بوجودها، ربما الله لم يكتب لي الشهادة كإخوتي ولكنني في انتظارها»

ربت يامن على كتفه السليم وهو يقول: «كما قلتها لك سابقًا لقد كان الشرف لي بالقتال بجانبك» ابتسم له عامر وهو يقول: «سأرحل أنا ورجالي الآن، فالأمور في قمة التأهب ببلدنا، فما حدث الليلة بالثكنة لن يمر مرور الكرام، استودعك اللّٰه»، ودعه يامن بعد أن شكره للمرة الثانية ليلتفت بعينيه بحثًا عن زمرد ليجدها تستند على السيارة واقفة مكانها، تنظر للمكان حولها بشحوب، اقترب منها وهو يفسّر شحوبها بالخطأ: «لا تقلقي لن نمكث كثيرًا هنا، سأطلب من اللواء فريد أن يرسل لنا سيارة تقلنا على الفور».

ابتلعت ريقها وهي تهمس بخوف له: «يامن إنه هنا، لقد ألقوا القبض عليه واحتجزوه بالداخل، سمعت أحد الجنود يقول ذلك».

نظر لها يحاول أن يستوعب حديثها لينقل أنظاره للمزرعة وهو يحاول أن يحتوي مشاعر الغضب داخله، في المرة الأولى التي جاء فيها هنا لم ينظر للمكان جيدًا وكل تفكيره كان مُنّصبًا على إنقاذها فقط، ذلك المكان القاتم الذي ينظر إليه الآن كان مسكنًا لها لثمانية عشر عامًا، ذلك المكان الذي يحيطه سواد بما يحويه من أرواح قد تم أخذها غصبًا من أجساد أصحابها، ذلك المكان الآن يقبع داخله الرجل الذي كان السبب في كل ما أصاب زمردته، التفت إليها وهو يجذبها لتدخل السيارة وهو يخبرها أن تبقى حتى يعود، نهض من مكانه فجذبت كفه بكفها وهي تقبض عليه بقوة لتقول بألم: «لا تذهب إليه، دعنا نرحل، دعنا نذهب أرجوك»، جلس مجددًا أمامها وهو يمسك كفيها بحنان محاولًا عدم النظر لدموع عينيها ليقول بهدوء: «عليكِ أن تفهميني زمرد، أنا لن أستطيع الاستمرار إن لم أواجهه، لا أستطيع أن أنظر لعينيكِ دون الشعور بالذنب، دعيني أواجهه ولو لمرة لعلّ ذلك الألم يخبو قليلا» همست له ببكاء: «أنا لم أطالبك بشيء ولن أطالبك أبدًا بأي شيء، ما حدث لم يكن ذنبك يامن، أنا لم أفكر ولو للحظة أنه ذنبك» لمحته يأخذ نفسًا طويلًا ليقول لها بألم: «وأنا لم أتوقف للحظة في حياتي عن اعتباره ذنبي الوحيد في الحياة زمرد فدعيني أكفّر عنه أتوسل إليكِ، سأطلب المساعدة لكِ وأرجوكِ لا تخرجي من السيارة».

ترك كفها لينهض مبتعدًا عنها بينما لم يتوقف بكاؤها وهي تلمحه يخطو بخطواته بعيدًا عنها.



بعد نصف ساعة

أوقفت السيارة التي أخذتها أمام المزرعة وهي تنزل منها وهالة الغضب تحيط بها من كل جانب، منعها رجلان من الشرطة من الدخول لتخبرهم كاذبة أنها هنا بأوامر من اللواء حسين، فسمحا لها بالدخول، أوقفها نداء زمرد، فالتفتت غير مُصدقة وجودها هنا، اقتربت منها لتحتضنها بقوة وهي تهتف: «زمرد أنتِ بخير، يا اللّه أنتِ حقًا بخير»

بكت زمرد بقوة وهي تقول بين أحضانها: «لقد أنقذني يامن، أنتِ بخير أيضًا، الحمد للّه الحمد للّه لقد دعوت اللّه كثيرًا أن ينقذكِ أنت وأميرة»، ابتعدت غُفران عنها وهي تحيط كفيها بوجنتيها لتقول لها بحب: «لقد أنقذتنا إذا عزيزتي، أميرة أيضًا بخير لقد أنقذها أخوها آسر» لمحت زمرد حزنا بعين غُفران لتسمعها تقول: «آسفة لأنني لم أستطع مساعدتكما، آسفة بشدة»، مسحت زمرد دموعها وهي تقول بحنان: «لقد انتهى الأمر حبيبتي، لا داعي للاعتذار فلقد نال منّا ذلك الوغد بأسوأ الطرق»، تنفست غُفران بغضب وهي تقول: «لن تمر الليلة عليه بسهولة جزاءً لما فعله بنا، فاليوم سيكون حسابه النهائي معنا».

كادت زمرد أن تجيبها بشيء حين لمحوا طائرة هليكوبتر تابعة لقوات الأمن تهبط في مكان قريب من المزرعة، لحظات ولمحتا أميرة تركض باتجاههما لتتلقّفها غُفران بين أحضانها، وهي تزيد من ضمها لها، ابتعدت قليلًا عن غُفران لتلتفت لزمرد محتضنة إياها هي الأخرى، فجلبت الدموع لأعينهن وهي تقول: «لقد كنت خائفة من ألا أراكما مجددًا، أنتما بخير».

ابتسمت زمرد لها بحنان وهي تقول: «نحن بخير يا صغيرتنا»، ربتت غُفران على رأسها بحنان وهي تقول: «لمَ جئت لهنا أميرة؟! لمَ لم تعودي لمديرية الأمن فهناك أكثر أمانًا من هنا»

ابتسمت أميرة لها وهي تقول: «لقد جئت بدلًا من آسر، فلقد ذهب مضطرًا مع النقيب سمير للمشفى، فلقد تلقي رصاصتين بدلًا منه»، ارتعش قلب غُفران وهي تعي أن الخطر كان يحيط بآسر وحزنت لما أصاب النقيب سمير، لتكمل أميرة: «اللواء فريد في طريقه لهنا هو واللواء حسين، لقد كان آسر قلقًا عليكِ كثيرًا، فأخبرته أنني سآتي لأطمئن أنكِ بخير غُفران».

أبعدت غُفران أنظارها عنها وهي تتجاهل مغزى كلماتها لتقول بجمود: «أنا لن أكون بخير حتى أنتهي من هذا الأمر»، قاطعتها أميرة وهي تقول: «لن يفيدنا هذا بشيء غُفران دعي القانون يتولى القضية من البداية هذه المرة»، ارتعشت شفتا غُفران وهي تقول: «لقد حاول تخديركما وبيعكما دون أي تردد منه، الوغد قتل عمران» شهقت زمرد بينما التمعت الدموع بعين أميرة، وكلاهما قد علم بأمر مساعدة عمران للشرطة طوال تلك المدة.

حاولت أميرة ثنيها عن قرارها لتقول: «غُفران، دعينا لا نخسر ما تبقى من روحنا، دعينا لا نخسر من يحاولون مساعدتنا حقًا»، حاولت أن توضح لها أن قرارها هذا سيخالف ما يريده آسر واللواء حسين وكل من حولها، لتكمل زمرد: «أنا لن أستطيع معاقبته والانتقام منه، حتى لو أردت أنا.. أنا لن أفعلها».

نظرت غُفران بجمود لزمرد الشاحبة فأجابتها: «أتفهمكِ»

حاولت أميرة معها مجددًا: «غُفران لا داعي لذلك، أنت تعلمين يجب ألا نخالف القانون لنترك الأمر لهم أنا واثقة أن يامن ورجال اللواء حسين سيتولون الأمر باهتمام كبير»

نظرت لها بجمود وساد الصمت للحظات قبل أن تجيبها غُفران بصوت أرسل قشعريرة في جسدهما: «أنا سأترك القانون يأخذ مجراه، لكن بعد أن أنفذ عليه أحكامي، أنا أريد رؤيته مُتألما، ولن أتوقف حتى أفعل، اعتبريني سادية أو بلا قلب،

أو حتى قد حظيت ببعض من صفاته، فأنا ما عدت أبالي بشيء، دماء عمران ما زالت بكفي، ما زلت أشعر بها ساخنة، عجزي وأنا بلا حول ولا قوة في تلك الحاوية، اختطافه لكن كل هذا لا يجب أن يمر بسهولة، عليه أن يُعاقب والقانون لن يوفيه حقه في العقاب»

أغمضت زمرد عينيها ودموعها تنهمر بصمت وهي تتوسل غُفران: «أرجوك لا تفعلي، ستندمين فيما بعد، سيملأ السواد روحك ولن تجدي منفذا للنور، الانتقام سيدمر ما تبقى من روحك وما حافظتِ عليه طوال عمركِ من إنسانيتكِ»

مرت لمحة ألم في عين غُفران قبل أن تخفيها بمهارة، وهي تتذكّر كلمات مشابهة سمعتها من والدة عمران لتقترب من زمرد بهدوء وأسندت جبينها على جبين زمرد وهي تهمس بألم مُغمضة العينين: «هل تظنين أن هناك ما تبقى من إنسانيتي بعد قتلي أمي زمرد؟! لم يكن هناك إنسانية بداخلي من الأساس، فأنا ابنة أمها في النهاية، وكما قتل والدته بدم بارد فسأجعله يعاني، أقسم أنني لن أرتاح حتى أجعله يعاني»

ابتعدت غُفران عنها بعنف وهي تدلف لباب الحظيرة مخلفة وراءها روحًا تيتمت وقلبا مات مُتأثرا بجراحه، أجهشت زمرد في البكاء حتى أحاطت بها أميرة الباكية وهي تهمس لها بخفوت: «لقد كانت الأكثر تعرضا للأذية مِنّا جميعًا، لقد قتل كل من تعلّقت بهم، سأدلف معها لعلني أكون استجابة لذلك البريق الذي ناجاني في عينيها وقد ألجمت مناجاته بقسوتها».

هزت زمرد رأسها وهي ما زالت تجهش بالبكاء متفهمة كلام أميرة التي قبلت رأسها بحنان ثم تركتها ودلفت خلف غُفران.

لمحها يامن وهي تدلف بإعصارها المُرافق لشخصيتها فتوجه ناحيتها وهو يلمح بوضوح ما توصلن إليه في الخارج من قرار، حمد الله في سره أن زمردته لم تستجب لهذا القرار، ربما يبدو تفكيره مُتناقضا مع مشاعره، فالله وحده يعلم كم يرغب في تعذيب هذا الوغد حتى تزهق روحه، ولكن روح بهشاشة روح زمرد وما مرت به لن تصمد، حبيبته الصغيرة لن يدفعها قلبها لأخذ قرار بهذه القسوة.

أخرجه من تفكيره صوت غُفران الجامد: «أحتاج لأن أكون بمفردي معه»

هز رأسه وهو يجيبها: «سيصل اللواء حسين خلال نصف ساعة، الرجال بالخارج لا تقل رغبتهم عن رغبتنا بتعذيب الوغد لجرائمه التي طالت زملاءهم أيضًا، لكن القرار في النهاية للواء، وأنتِ تعلمين أنه لم يكن ليرغب بذلك، لديكِ نصف ساعة هذا كل ما أستطيع توفيره لك»

ألقت نظرة خلفه ووجهها قد استحال لجليد قاس، ونظرات شر خالصة تنبع من عينيها لتقول بصوت ميت: «يبدو أنك قد نفذت جزءا من انتقامك»، جمد للحظات قبل أن يجيبها: «لم أستطع منع نفسي»

ابتسمت بسخرية أخافته للحظة وهو يشعر بأنها ليست في حالتها الطبيعية وهي تقول: «على الأقل قد حللت مكان ابنة عمك ولو لبضع دقائق»، كادت أن تتحرك عند أوقفها بكلامه بعد أن لمح تيهها: «ربما آسر لن يوافقكِ إن علم بتنفيذ رغبتكِ بالانتقام»

التفتت له بقوة وهي تنظر بضياع للحظة وكأن ذكر اسمه كفيل بإظهار غُفران الطفلة الصغيرة قبل أن تتحكم في مشاعرها وتعيد لها جمودها وهي تجيبه بقسوة: «أنا لا أبالي برد فعل صديقك فليذهب للجحيم بتفكيره المثالي».

شعر بالألم يجتاح وجهه بقسوة، ففكر ساخرا أن الضابط الجيد ليس بجيد في النهاية، تذكّر دخوله العاصف ليبادر بضربه دون أن يقول كلمة واحدة، حتى فهم من بين آلامه أنه ذلك الشرطي قريب نمرته فأدرك فشله في صفقتها.

حاول أن يفتح عينيه وهو يلمح أحدهم على بعد خطوات بسيطة منه أو الأصح إحداهن، ضحك بسماجة وهو يتأوه من كدمات وجهه والألم الذي يعصف برأسه وسيل الدماء على وجهه يمنعه من النظر دون تشويش: «ها هي الابنة البارة تعود لبيتها، وقوفك هنا يخبرني بأنني فشلت في صفقتكِ أنتِ الأخرى، وهذا يفاجئني بقوة لأنني وضعتكِ بنفسي في تلك الحاوية»

لم تجِبه بشيء بينما يدقق هو النظر في ملامحها، مُكملا حديثه التهكمي في محاولة لشغل نفسه عن الصداع الذي انتابه نتيجة للكمات ذلك الوغد ومُحاولاً فهم حالتها: «هيا فاجئيني، وأريح تساؤلات والدك»

«عمران»

كلمة واحدة قالتها ببرود وهي تخلع سترتها وتلقيها بلا مبالاة على الأرض، بينما أخذ يفكر في كلمتها قبل أن يظلم وجهه بقسوة وهو يهتف بحقد: «الوغد الحقير»، أصدرت صوت اعتراض على شتائمه وهي تجيبه ببرود: «لا، لا كيف تنعت أخاك بهذا!؟»

شحب وجهه فجأة وهو ينظر لها وهي تكمل حديثها بنفس البرود، وقد اعترى حديثها لمحة سخرية: «تظل سنوات عمرك كلها تزرع بداخلنا بذرة الكره بين الإخوة وتدفعنا دفعًا لقتل بعضنا لتُغطي على فشلك لمحاولة قتلك أخاك الأصغر، لتفشل معنا وتنجح في قتله في النهاية، يا لسخرية القدر!»

رمش للحظات قبل أن يستوعب كلامها، لينفجر في الضحك بهستيرية بينما هي تتابعه بجمود وهو يتحدث بين ضحكاته: «لا تخبريني أنه ضحى بروحه فداء لكِ، هذا هو الأحمق الذي مات بسبب الحب»

ارتعش جسدها وهي تتذكّر مجددًا ملمس دماء عمران بين يديها وقبل أن تتحدث سمعت صوتًا مُترددا يناديها، التفتت لتلمح أميرة واقفة بشحوب تنقل نظراتها بينها وبين ممدوح المُقيد بالكرسي، الذي توقف عن الضحك وهو ينظر لأميرة بدهشة للحظة قبل أن يكمل ضحكه وهو يقول: «فشل ثلاث صفقات يجرح كبريائي كثيرًا، هيا غُفران احملي سلاحك واقتليني كما قررتِ»

نظرت غُفران لأميرة نظرة واحدة أدركت أن الأخيرة جاءت لمساندتها حتى توقفها وقت أن تفقد سيطرتها، فالتفتت ببرود وهي تجيبه: «ومن قال أي شيء عن القتل!؟»

اختفى تهكّم ممدوح وهو ينقل نظراته بين غُفران وأميرة الشاحبة وابتسم بسخرية قائلًا: «ماذا هل ستسلمانني للشرطة حتى تتحقق العدالة!؟ هذا يبدو أفضل لي على أي حال»

اقتربت غُفران حتى وقفت أمامه لتنحني قليلًا وهي تتحدث بابتسامة تهكّم: «نُسلمك للعدالة حتى يساعدك أصدقاؤك الأعزاء بالوزارة في الخروج من البلاد بأكملها بعد أن يُهربوك من السجن! لا لا هل ظننتني غبية لهذا الحد، فأنا في الآخر كما تقول تربيتك وابنة أمي».

ارتعشت عيناه للحظة وهو ينظر للخواء الذي لمحه في عينيها الجامدتين، فتحدّث بحذر وهو يحاول أن يستوعب ما تقوله له، خاصة ذكرها للوزارة: «اذا فقد اقتنعتِ أخيرًا، هل جاء الاقتناع قبل أم بعد أن أفرغتِ الرصاص في جسدها!؟»

إن ظن أن سخريته قد سببّت ضررا بداخلها فهو مخطئ ليشعر بالاضطراب وهو يراها تبتسم بسخرية وتجيبه: «ماذا إن قلت لك بأنني شعرت بالنشوة وأنا أفرغ الرصاص في جسد أمي التي لم تشعر بذرة ندم وهي تسبب الأذية لابنتها الوحيدة!؟ هل سيُخيفك هذا!؟!»

بريق إعجاب لمحته في عينيه التي ظللتها الدماء وهو يجيبها بدون تردد: «لم أحسبكِ يومًا أقل من هذا، أنتِ ساقطة بالفطرة مثل أمكِ، ولكن لم تصبحي بتلك الهالة من الشر سوى على يدي، فأثبتي أنكِ تربيتي يا صغيرتي»

انطلقت شرارات الغضب لتنفجر بقوة فلم يلمح ما أخرجته من جيب سروالها وهي تعتدل في لحظة لتنحني في اللحظة التالية وهي تغرز سكينا في فخذيه الاثنين وصوت صراخها يغطي على صراخه وهي تقول: «أنت مخطئ، فأنا أسوأ منك، وسيسعدني أن أريك هذا»

ودون تردد لفت بيديها السكينتين المغروزتين في فخذيه بقوة وهي تشعر بتحرك اللحم فيهما قبل أن تسحبهما في اللحظة التالية.

ابتعدت بهدوء وهي تراه يتلوى ألمًا لاعنًا إياها بأسوأ الألفاظ، فتحدثت بصوتها البارد وصدرها يعلو ويهبط من انفعالها: «لا لا، نحن ما زلنا في بداية الطريق، تحمّل قليلًا يا رجل»

أخذ يلهث بقوة وهو ينظر إليها بغضب يشوبه الألم، ثم تحدث بين لهاثه كأنه يبصق الكلام من فمه: «أهذه هي خطتكِ إذا!؟ التلذّذ بتعذيبي قبل أن تُسلميني للشرطة أيتها الساقطة»

«لا أعلم لمَ تصر على ذكر الشرطة كثيرا، لا تشغل بالك بهم، فأنت لن تحيا حتى تراهم، أميرة فكي قيده»

أجفلت أميرة مكانها من نبرة غُفران الميتة، فتحدثت دون وعي وهي ما زالت تحت تأثير صدمة ما رأته من حالتها: «ماذا؟!» أجابتها وهي تتحرك في مكانها: «لقد سمعت ما قلته» ارتبكت أميرة وهي تقول: «ولكن غُفران»

هدرت فيها بغضب وهي تقطع حديثها: «اللعنة عليك أميرة، أنتِ لم تأتِ من أجل المُشاهدة، إما أن تنفذي ما أقوله أو تبقي بالخارج»، ابتلعت أميرة صراخ غُفران وهي تعي أنها مجرد مُحاولة منها لإبعادها، غُفران لا تريد لروحها أن يُصيبها الأذى مما تراه من غُفران، ما زالت تحميها حتى في أقسى لحظات حياتها.

اقتربت بهدوء وفكت قيد ممدوح الذي كان يلهث من الألم وهو ينظر بغضب لعين غُفران التي ابتسمت له بتهكّم وهي تُحدّثه ببرود: «والآن لدينا نزال أخير لم ينته، انهض»

تنفّس ممدوح بغضب وهو يضغط بكفيه على فخذيه مكان النزيف وهو يجيبها باستفزاز: «أنتِ لستِ عادلة في نزالكِ الخاص يا عزيزتي، تتسبّبين في العجز لقدمي وتُطالبيني بقتالكِ ودون سلاح كم أنت جبانة؟»

دنت غُفران منه في لحظة ومسكت ذراعيه بقوة لتجعله ينهض من على الكرسي ليكتم تأوهه وهو يلمحها تزيح الكرسي بقدميها بقوة وتضع سكينا في كف يده!

ابتعدت وهي تسحب أميرة خلفها لتقف على بعد مناسب منه وهي تقول ببرود لا يتناسب مع كم الطاقة العنيفة الصادرة منها: «والآن ما عاد هناك حجج، ساعد نفسك بنفسك فلقد أرغمتنا على القتل ونحن لم نكمل الرابعة عشرة بينما أجسادنا لم تكن في ربع حجمك هيا أيها العجوز»

تحامل على ألمه الشديد واستطاع التحرك ببطء في البداية ليقترب منها وسكينها في يده، اندفع فجأة مُتحاملا على آلامه ليوجه السكين لصدرها لتفاجئه بابتعادها في آخر لحظة، وقد بوغتت بهجومه فجأة لتلتف خلفه في اللحظة التالية وتغزر السكين في أعلى كتفه من الخلف لتمررها بقوة في ظهره لتسحبها بقوة، زئيره العالي بالألم لم يمنعه من الالتفات وإصابة ذراعها بجرح طولي بسكينه، منعت تأوهها بقوة وهي تبتعد عن مرأى تصويبه، لم تعر انتباها لصراخ أميرة باسمها، بينما تلمح بعينيها ترنّح جسد ممدوح ومُحاولته الفاشلة في الاتزان، استند بجسده بسرعة على الحائط خلفه حتى لا يقع وهو يلمح اقتراب أميرة السريع من غُفران، إن كان سيخسر فليكسب شيئا قبل خسارته النهائية، سيتلذّذ باستمتاع وهو يرى نظرة الألم في عينيها، رفع سكينه في نفس اللحظة وقذفها بمهارة باتجاه أميرة، عين غُفران التي كانت تتابعه لم تغفل عن حركته لتعترض بجسدها طريق السكين وهي تبعد أميرة عن مرماها بعد أن دفعتها بقوة، وقعت أميرة أرضًا لتشعر بالدوار للحظات وهي تحاول أن تركز بأنظارها عما حدث لتشهق برعب وهي ترى غُفران تنزع سكينا من كتفها الأيمن، لتُظلم عيناها في اللحظة التالية وهي تهتف بصوت جمد الدماء في جسد ممدوح: «وكان هذا خطأك الأخير فأنا لا أتهاون في حماية أحبتي»

رفعت سكينها في لحظة لتقذفها بمهارة أتقنتها بالتدريب حتى انغرز في كف يد ممدوح وثبته في الجدار خلفه ليزأر مجددًا من الألم بينما هي تقترب بهدوء غير عائبة بنزيف كتفها، حتى وقفت أمامه وهي تسحب سكينها الأخرى من كفه ليسبّها مُتأوها ليزداد صراخه وهو يراها تدفع السكين بقوة مجددًا لتثبت بها كفه الأخرى في الحائط، مد كفه المُصابة الحرة ليمسك بعنقها فأوقفته يديها وهي تتحدث بشرود غريب بينما تتأمل ملامحه وهو مصدوم من قوتها الغريبة: «لثمانية عشر

عاما شر لم ينته، أصبت أرواحنا بعطب لا يمكن أن يُعالج، تلذذّت بلمس أجسادنا وشهوتك الحيوانية تدفعك لتُدمر المُزهر في قلبنا، أردت أن يُصيبنا العطب فنصبح أشباحا شبيهة بك، ولكن هل تعلم أنت لم تنجح، ربما أرواحنا معطوبة لكنك لم تستطع الوصول لتلك البذرة التي وضعها الله فينا، ربما نحتاج الكثير لنصل لتلك البذرة، ربما سنزيل الكثير من العشب الفاسد حول قلوبنا لكننا سنحيا بقلب نظيف، بقلب غير مُلوث مثلك، أتعلم لماذا؟! لأنه رغم كل ما مررنا بنا لم تقتل إنسانيتنا وأنت لن تحيا لترى تلك اللحظة التي سنكمل فيها حياتنا دون النظر للماضي ودون حتى أن نتذكّرك، أنت فشلت في أهم صفقة في حياتك، وهي تحويلنا لأشباح تشبهك، يسعدني أن أخبرك أن ظلام روحك سيشملك وحدك وستغرق فيه للنهاية دون أي طوق نجاة لإنقاذك».

ارتفعت ضحكات ممدوح البغيضة واستمرت للحظات قبل أن يقول من بين أسنانه بشر واضح وآلامه أظهرت مدى قبح روحه وظلامه الذي ارتسم على ملامحه: «وهل أنت متأكدة يا عزيزتي بأنكن تستطعن نسياني والأهم هل أنت متأكدة من أنني لم أقتل إنسانيتكن، انظري لنفسك عزيزتي وتذكّري في كل مرة تُعري روحكِ أمام المرآة ستجدينني وجهًا آخر لكِ فكلانا يحمل نفس الروح المُظلمة فها أنت واقفة أمامي على بعد خطوة من قتلي بروح باردة وشعور بالنشوة يعتريكِ، أؤكد لك يا عزيزتي أنه نفس شعوري في كل مرة كنت أقتل فيها روحا أو أتلذذ برؤيتكن تقتلن مُرغمات من أجلي أنا وأنت نفس الشخص»

ابتسمت بتهكّم وهي تسحب السكين من كفه المُقيدة بها وبيديها الأخرى التي تحتجز كفه الأخرى تضغط بقوة على مكان الجرح وهي تقول ببرود: «غريب أمرك ففي اللحظة التي قررت فيها تسليمك للشرطة ترغب في الموت»

ابتسم وهو يشعر بالقليل من الارتياح لتحقيقها في النهاية هدفه قبل أن يتجمد مكانه وهو يراها ترفع سكينها وتمررها على صدره وهي تقول بهدوء: «ولكن أخبرني بخبرتك كيف هو الحال في السجن عندما يدخل سجين جديد يحمل في تاريخ سجله الكثير والكثير ولكن التهمة الأخطر هي الخيانة، فقد اعترف بكل ما يعرفه عن أسرار عصابة كبيرة كان يعمل لديها بعد تعذيب الشرطة له أثناء

التحقيق معه، اعترف على لواء كبير بالأمن الوطني واعترف على آخرين يعملون بالوزارة فاضحا أسرارهم»

توقف عن التنفس وهو يراها تكمل: «آه ألم أخبرك؟!عذرا هو خطئي يا لي من غبية، نسيت إخبارك بأن عمران منحني فلاشة تحمل الكثير والكثير من المعلومات التي كان أخوه الأحمق يجمعها من أجل وقت الحاجة إليها ليضمن بها حياته»

شحب وجه ممدوح وهي يعي معنى كلامها، بينما أكملت هي بشر رغم كذبتها، فهي ربما لم تر الفلاشة بعد، لكنها تمسكت بما قاله لها عمران: «مجرد رسالة صغيرة تحوي إحدى المعلومات المهمة للرجل الكبير ليفهم منها خيانتك، ترى ماذا سيحدث لك في السجن، لا لا يا لك من غبية يا غُفران بالطبع لن يصل ممدوح للسجن، فمن يعمل لديهم سيُهربونه أم لن يفعلوا؟!»

هتف بغضب وهو يشعر بها تغلق كل منافذ الحياة أمامه، مسك ذراعيها ودفعها للحائط وقد غلب خوفه على غضبه فأوقع السكين من يديها وهو يدفع جسدها للحائط ليبعدها عنه ثم يدفع جسدها مجددا ليرتطم بالحائط ليُكرر الأمر مرارًا وقد أعماه غضبه، لتشعر بالأرض تميد بها وسيل دافئ من الدماء يسري من رأسها لظهرها فلم تشعر سوى بابتعاد ممدوح عنها لتجده يتلوى على الأرض من الألم في اللحظة التالية وأميرة واقفة جامدة بجواره بينما سكين مُنغرزة في ظهر ممدوح، وقد غرزتها أميرة أكثر من مرة ليُصيب في مرة من المرات كليته لتسمع غُفران صوتها المُرتجف وهي تهتف بغضب: «أبعد يديك عنها أيها الحيوان، لتتعفن في آلامك فلتمت عليك اللعنة»

ارتعش جسدها بأكمله وهي تلهث بغضب وشعور بالراحة يعتريها وهي تلتفت لغُفران لتراها صامدة مكانها رغم الدماء التي غطت جسدها من كل جانب لتقترب منها مُسرعة وتسندها قبل أن تخور قواها، لتلمح في اللحظة التالية دخول اللواء حسين وهو مكفهر الوجه مع رجاله، ومن خلفهم آسر الذي صرخ باسمها بعد لحظة من الذهول التي اعترت جميع من دخل ورأوا منظر ممدوح المُدرج بالدماء وعواؤه يتردد في جوانب الحظيرة كحيوان نتن.

كانت جالسة في سيارة الإسعاف بهدوء غريب عليها وهي تتلقّى العناية لجروحها قبل أن تنتقل للمشفى، نظرت للمكان حولها ومشاعر مضطربة أصابت روحها، لقد مات ممدوح فور قبل وصوله للمشفى، مات مُتأثرًا بجراحه، مات وانتهى شره في هذه الدنيا، تقبّلت الخبر من اللواء بهدوء لتسأله دون مقدمات: «هل مات حقًا هذه المرة؟!» ليجيبها بصدق: «نعم غُفران لقد مات»

هي لن ترتاح حتى ترى جثته أمام عينيها، طلب المسعف أن يعالج جروحها ولتنتقل بعدها للمشفى لتقطيب الجروح التي في حاجة للغرز.

أفاقت من شرودها على صوت المسعف وهو يخبرها أن العربة ستتحرك بها الآن للمشفى، رفعت أنظارها لأميرة وزمرد الواقفتين على مقربة منها تتابعانها بقلق، حانت منها ابتسامة لهما تُطمئنهما أنها بخير وحتى لو كان كذبًا، أخفضت أنظارها وهي تحاول جاهدة إخفاء مشاعرها، هي لأول مرة ترغب في الانهيار ولأول مرة ترغب فيه مع شخص واحد فقط، شخص تجنّب النظر إليها بعد أن رأى ما حدث، تجنّب النظر لعينيها حتى لا ترى منه نظرة عتاب عما قامت به، وما أجبرت أخته على القيام به، لن تنسى احتضانه أميرة وإخراجها من المكان دون أن يلقي نظرة واحدة عليها، وكأنها نادته

«هل أنتِ بخير؟!»

ارتعش جسدها بأكمله وهي ترفع عينيها لتلتقي أخيرًا بعينيه، حاولت ادعاء الجمود أمامه وهي تخفي مشاعرها بقوة فرمشت بعينيها وهي تجيبه: «نعم»

ساد الصمت بينهما للحظات ليقترب آسر ويجلس بجوارها داخل العربة فتحركت قليلًا من مكانها وهي تحيط كفها بذراعها المصاب لتلمحه يتنهد بقوة وهو يقول: «أنا لن أتحدّث معكِ فيما حدث لكن أنا كنت على أمل أن تختاري الاختيار الصحيح ووحدكِ من كان لديه الاختيار غُفران، لكن ليس كل ما نأمله نجده أمام أعيننا»

تحدثت بجمود: «ما أختاره أو ما لا أختاره لا شأن لك به، أنت تتحدث عن الأمر من خارجه، أنت لم تعش ما عشته، لم تخسر ما خسرته وبالطبع لم تخسر أحبتك

بسببه، أنا كان لدي كل الحق ﯙ ما فعلته، وإن عاد بي الزمن مجددًا لن أتردد للحظة ﯙ فعله مجددًا».

أدار آسر نظره لها وهو يراها تجاهد لئلا تنهار لينظر لها بحزن وهو يقول: «ظننتكِ تحاولين إثبات أنكِ لست مثله» أدارت عينيها له وقد امتلأت بدموع الحزن لترتعش شفتاها وهي تقول: «أنا لست مثله»

حانت من آسر ابتسامة حزينة وهو يقول: «لقد خذلتِني بما فعلتِه غُفران، وخذلتِها هي الأخرى»

شحب وجهها وهي تحاول فهم مقصده ليفسر لها مستخدمًا جملة صاحبتها: «أولئك الذين يسعون للانتقام يحققون هدفهم ولكن لا يعودون كما كانوا من قبل»، ارتجفت مكانها وهي تسمع جملة والدة عمران لتهمس بضعف: «ليس عدلًا أن تقول هذا الآن»

التمعت الدموع بعينيه وهو يقول بنفس همسها: «أخشى أن أكون تأخرت كثيرًا عليكِ فأكتشف أنني خسرتكِ غُفران» أدارت وجهها وهي تحاول منع دموعها من التساقط لتقول بجمود ﯙ محاولة منها لإبعاده عنها: «أنت لم تحصل عليّ لتخسرني آسر»

هز رأسه دون قول شيء لينهض من مكانه وهو يعدّل من ثيابه ليقول بهدوء: «إذا فأنا خسرتكِ قبل أن أحصل عليكِ، اعتنِ بنفسكِ غُفران وسأدعو الله لكِ كثيرًا بأن ينتشلكِ من ظلمات نفسكِ وأن يُعيدكِ لأولئك الذين ينتظرون عودتكِ»، أنهى حديثه ورحل تاركًا إياها مشتتة من كلماتها خاصة جملته الأخيرة قبل أن يغلق المُسعف باب السيارة وترحل للمشفى.



كطفل هرول إلى أمه باكيا لتحتضنه، فتلقّى صفعة ليكف عن البكاء هكذا الخذلان

أحمد خالد توفيق

بعد أسبوعين

مقر الأمن الوطني

«كان لدي استفسار»، نظر لها اللواء حسين بتركيز وهو يراها جالسة أمامه هزيلة وآثار إصاباتها لم يختفِ حتى بعد مرور أسبوعين عن الحادث، ليفهم ارتباكها قائلا: «عمران!»، ارتعشت شفتا غُفران وهي تسمع اسمه لتقول بتيه: «كيف؟! لقد كان هناك دائما، كان في كل شيء، أنا لا أفهم»

تنهد اللواء وهو ينظر إليها للحظات قبل أن يقول: «لقد جاءني كما جئتِ إلى تلك الليلة غُفران، كنت وقتها في مديرية شمال سيناء، كان مجرد شاب في بداية العشرينات على ما أعتقد، أجبرني على سماع قصته كما فعلتِ، لا أدري ما قصتكما بالتهديد تحت السلاح، ما زلت أتذكر اللحظة التي رفعتِ فيها مشرط عمليات الذي كنت تحملينه في جيبكِ لتجبريني على الاستماع إليكِ ومساعدتكِ»

حانت منها ابتسامة بحزن وهي تتذكر ضياعها تلك الفترة لتجد حلها في رجل جاء يبحث في المشفى التي تعمل فيه على ابنه الذي جُرح في أحد الأكمنة، وجدت الحل في عميد بالشرطة يسألها بقلق عن ابنه النقيب، كان يقف أمامها بهيبته التي تخلّلتها لحظات من الرعب لأب يحاول الاطمئنان على حياة ابنه، تذكّرت وقتها حديث المُمرضات عن النقيب الذي جاء في الحادثة وإنه ابن لعميد مشهور بقوته واحترام الجميع له والتزامه في أداء عمله بإتقان وجدتها فرصة لتجيبه مُطمئنة إياه لتخبره بعده دون مقدمات أن يتبعها في غرفتها للحديث عن حالته لتجبره على الاستماع إليها وما لديها من معلومات مهددة إياه بمشرط لينصت إلى كل كلمة تقولها وتركيزه وهدوئه يخبرانها أنه يُصدّقها وأنه تعرّض لذلك الموقف من قبل، لتتوالى مقابلاتهم بالمشفى مُستغلين ظرف ابنه الذي بالعناية المُشددة بحجة أنه

ما زال تحت الرعاية رغم إفاقته، رافضا نقله لمشفى الشرطة حتى يستطيع الاتفاق على خطة مع غُفران تبعدها عن أي شكوك من الرجال الذين يراقبونها.

أخرجها من ذكرياتها وهو يقول: «كان يبدو عليه الضياع وهو يقول أنه لديه أقوال للقضاء على منظمة كبيرة، يقول أنه عمل مع رجل يعتبر اليد اليمنى لزعيم تلك المنظمة، أخبرني أنهم عادوا منذ أيام من ليبيا ويبدو أنهم يعدّون العدة لخطة جديدة تضم الكثير من تجارة أعضاء، تهريب مخدرات وقتها كان هذا ما اشتهرت به تلك المنظمة قبل أن يبادروا بتجارة البشر خاصة النساء والأطفال، وقتها لم يملك الأدلة لزجهم داخل السجون وكنا وقتها في عصر اشتهر بالرشاوى في كل شيء، فكان من السهل شراء شرطي ببضعة أوراق نقدية من أجل ضياع أدلة أو شراء من هو أعلى منه لمساعدة المجرم للإفلات من العقاب، ساعدته ولم يأخذ وقتا طويلًا بالتدريب مثلكِ ليكون عينا وأذنا لنا هناك، أنتِ تظنين أنه ساعد أخاه في الكثير من الأمور ولا تعلمين أنه ساعدنا في إفساد الكثير من المخططات، حتى ممدوح لم يعلم عنها أي شيء، كنا نتحرى الدقة في تصرفاتنا حتى أخبرني أن هناك رجلا كبيرا ذا سلطة في الشرطة يعمل مع ممدوح، رجل في أمن الدولة، بحثنا كثير ورجال ذوو ثقة عملوا على هذا الأمر، ولكن وقتها لم نجده ونحن نحتاط أكثر في مقابلة عمران حتى لا يتم اكتشافه، حتى اكتشفنا أنه سامح، أعلم أنه كانت حوله الكثير من الشكوك أثناء عمله بأمن الدولة، وإنه بالفعل كان سيحظى بمكانة في الوزارة، ولكن بعد أحداث الثورة نقلوه لشمال سيناء نقلا تعسّفيا، توقعت غضبه وثورته ولكن لم أتوقع خمود ثورته بعدها بأيام كأنه رضى بالأمر وهكذا، لم يخطر بعقلي أنه من المؤسسين لتلك المنظمة وأنه من يدير الفرع الرئيسي في مصر، كلاكما قد ساعدنا بالكثير، الآن أستطيع الاطمئنان على بقائكِ بمصر دون أي قلق أو أذى وقد انتهى أمرهم للأبد».

صمتت غُفران دون قول شيء تتمنى لو أن باستطاعتها تأكيد ما يقوله بأن أمرهم انتهى للأبد لتقول بعدها: «ربما من الأفضل ألا أبقى هنا تلك الفترة، ما أعرفه أن هناك حركة في الوزارات وتغييرات كثيرة، اسمعني سيدي، هناك أمر لم

أخبرك به، أمر تركه معي عمران وأنا أريد استخدامه بحذر من أجل الانتهاء من جذور تلك العصابة بمصر».

نظر لها اللواء باستغراب وهو يقول: «ولكن بعد قبضنا على سامح بالأدلة التي معنا ظننت أن هكذا انتهينا من جذور تلك العصابة للأبد، عمران أخبرني عن أن هناك أدلة أخرى لكن لم يسعفه الوقت ليحكي لي التفاصيل» نظرت غُفران له بهدوء لتقول: «ما زال هناك جذر ضخم لم نقتلعه بعد وهذا الجذر يحتاج من كل وقتنا وقوتنا وتركيزنا لاقتلاعه بحذر دون ترك أي آثار له»



منزل أميرة

دخلوا المنزل جميعًا ومحمد يسند جميلة بينما خلفه آدم وهو يسند أحمد أخاه، تحدّث آسر بسعادة: «عودًا حميدًا يا آل البيت وأخيرًا اجتمع شملنا من جديد»، ابتسمت جميلة له وهي تنظر لعائلتها بحب، لأميرة التي تقف بجوار أمير الذي يرفض أن يترك كفها كأنه حتى الآن لا يُصدق أنه هنا معهم بعد كل ما حدث لها، ارتعش قلبها وهي تتذكّر تلك الفترة التي استيقظت فيها في المشفى لتعرف ما حدث من محمد، ساعات قضوها في رعب حتى اتصل بها آسر يُطمئنهم بأن أميرة بخير وهما في طريق عودتهما لمصر ليحمدوا الله على عودة أبنائهم سالمين لهما، آسر تلك الهالة الحزينة التي تحيط بابنها لا تعرف سببها حتى الآن، يحاول جاهدًا إخفاءها عنهم بابتسامته ومزاحه مع إخوته لكنها تشعر به، ابنه يحمل آلاما داخل قلبه، آلاما تجعل الدموع تترقرق في عينيه أثناء شروده عنهم، تنهدت وهي تفكر بأنها في حاجة لأن تجلس معه قليلًا بمفردهما، آسر في حاجة هذه المرة للتحدّث، وهو الذي ظل طوال عمره يستمع فقط، أدارت رأسها لولديها العزيزين وهي ترى آدم يُعدّل من وضع الوسادة خلف ظهر أخيه، أحمد الغالي الذي عانى من كسور كثيرة في جسده سبّبها أولئك الأشرار الذين اختطفوا أميرة، تذكّرت حالة آدم وهو يبكي منهارًا لأول مرة وهم بانتظار خروج أحمد من غرفة العمليات، وتذكّرت انهياره الثاني بعد أن خرج أحمد وفاق في غرفته ليجلس آدم بجواره على

السرير ويحتضنه بقوة ودموعه لا تتوقف عن الانهمار، آدم الفظ اللجوج يحمل بقلبه مشاعر تماثل مشاعر توءمه الذي لا يستطيع إخفاءها كما يفعل آدم بشقاوته وقد أثبتا أن كليهما لا يستطيع العيش دون الآخر.

دخلت لغرفته بعد أن طرقت الباب وسمعت سماحه لها بالدخول، رفع آسر أنظاره لوالدته لينهض من مكانه وهو يقترب منها مقبلًا جبينها قائلا: «تعالي حبيبتي، هل تريدين شيئًا؟!»

مسكت جميلة كفه وجذبته ليجلس بجوارها على الأريكة لتنظر له بحب وهي ترى آثار سهاده على وجهه لتقول بهدوء: «ما الذي يشغل قلب بكري ويمنعه عن النوم هكذا؟! في البداية ظننته قلقًا على أميرة ولكن بعدها شعرت بأنه ربما أمر آخر»

أسبل آسر أنظاره عن والدته وهو يقول بهدوء: «لا شيء حبيبتي مجرد إرهاق من كل الأحداث السابقة، تعبكِ وإصابة أحمد واختطاف أميرة، الأمر فقط لم يكن هينًا»

ابتسمت له والدته وهي تحتضن وجهه لتقول بحب: «دومًا حملت على كتفك أحمالنا جميعًا دون أن تشتكي، لذا اسمح لي بحمل القليل من حِملك هذه المرة»

رمش بعينيه وهو ينظر لوالدته الحنونة ليسرد لها مخاوفه وأوجاعه ليخبرها بكل شيء عن اضطراب مشاعره تجاه غُفران بداية من انجذابه لها لتأكده من حبه لها بعد أن اشتاق لها كل تلك المدة وأخيرًا خوفه من تلك المشاعر.

تنفّست والدته بقوة وهي تقول له بحكمة: «إذا ما الذي تفعله هنا الآن؟!» رفع أنظاره لها لتكمل: «أي أم يا بني ترغب بالأفضل دومًا لأبنائها، لطالما تمنيت أن تحظى بأفضل فتاة بالعالم، أن تحظى بمن تحتويك وتمنحك ما لم أستطع منحه لك في أقسى أيام حياتي، بأن تحبك لأنك تستحق الحب، بأن تسعدك لأن تستحق السعادة، ربما لدي القليل من المخاوف تجاه غُفران، نظرًا لنشأتها ولحالتها، لا أقول إنه ذنبها، لا يا بني حاشاه أنا أقول ذلك وقد كانت أختك في نفس المكان الذي نشأت به لكن مخاوفي في ألا تكون بالقدر الكافي لك، بألا تمنحك ما تحتاجه، بأن

تتعب في طريقك إليها فتخسر نفسك لكن كل تلك المخاوف تذهب أدراج الرياح وأنا أراك بهذه الحالة التعسة وأنا أرى فيها سبيل سعادتك، فكّر جيدًا آسر، فكّر في حياتك القادمة، أنت ستحارب أشباحها ومخاوفها، ستعاني معها من أجل أن تمنحها هوية هي ترفضها وأن تثبت لها حقائق لم تؤمن هي يومًا بها، أنت ستثبت لها أن هناك حياة خلف كل الموت الذي يحيط بها، لذا إن كنت على قدر كافٍ من القوة لتقاتل فافعل يا بني وتأكد أنني دومًا خلفك، أنا ووالدك وإخوتك، إن تأكدت من مشاعرك ومشاعرها فقاتل من أجلكما حتى لو لم يكن حبها بالقدر الكافي، امنحها من حبك حتى تستعيد حبها كاملًا».

دمعت عين آسر وهو ينظر لوالدته بحب ليقبّل كفيها بقوة وهو يقول: «لا حرمني الله من دعمكِ لي يا أمي، شكرًا لكِ، شكرًا لك»

في غرفة أخرى مجاورة، كانت تجلس بهدوء ممسكة بإحدى رواياتها المفضلة، تقرأ السطور بشرود وهي تفكر في كل ما حدث معها حتى الآن، ذلك اليوم بالمزرعة تشعر بأنها خسرت جزءا من روحها لكن كسبت الباقي كله، ربما هي ساعدت غُفران في انتقامها، ربما هي غرزت سكينها في جسد ذلك الحقير دون توقف ولكنها تخطّت بها خوفها، ما زالت حتى الآن ترتجف كلما تذكّرت طريقة غرزها للسكين وكلما تذكّرت دماءه الساخنة على كفيها، لكن هي الآن أقوى، أقوى بدعم عائلتها، بحب توءمها الذي يرفض تركها ولو للحظة منذ ذلك الحادث، رفعت عينيها في هذه اللحظة لتلمحه ينظر إليها بحنان لتترك الكتاب من كفها وهي تعتدل في جلسته لتسأله: «لماذا تنظر إليّ هكذا؟!» لمحت ترقرق الدموع في عينيه لتسمعه يكمل: «أنا لا أصدق حتى الآن أنكِ هنا أميرة» تفهمه، تفهمه جيدًا وهي تعي مقصده بوجودها هنا بعد اختطافها الثاني، عرفت من آسر انهياره وهو يتصل به بينما كان في مكتب اللواء حسين بعد اختطافها وهو يهتف ببكاء في الهاتف: «أميرة آسر، لقد أصابها أذى أنا أموت آسر»، ليعي آسر أنه شعر بما حدث لها من خلال ذلك الرابط بينهما، لقد نادته أميرة هذه المرة ولبّى أمير النداء.

ابتلعت ريقها وهي تحاول طرد دموعها لتقول له: «أنا هنا أمير، لقد ناديتك ولبّيت ندائي»

طرفت عيناه بالدموع ليمسحها وهو ينهض من مكانه مديرًا ظهره لها لتقترب منه وهي تقول محاولة إخراجه من حزنه: «لا تحاول الهروب من أمر الصور فلدينا صور لم نلتقطها بعد، هل أصبحت تخاف الآن؟!» التفت إليها وهو يضحك بينما يمسح دموعه وهو يقول مجاريًا مزاحها: «إنه دورك في الصور، هذه المرة سنضع ربطات الشعر برأسكِ وسنصوركِ بالحلوى إذا من الخائف الآن؟!»

ابتعدت عنه وهي تقول بخوف مصطنع: «لا لن تضعوا أي ربطات شعر برأسي انسي الأمر»، اقترب أمير وهو يضحك على هيئتها ليكمل بين ضحكاته: «يسعدني أن أقول لكِ أنكِ سترتدين فستانا أيضًا»

صرخت أميرة بلا وهي تهرب منه بينما يركض خلفها بعد أن فتحت الباب وهربت منه وهي تضحك بين صرخاتها وهما يتذكّران وعدهما أن يلتقطا معًا صور طفولة لهما مثل صور آدم وأحمد، وقد تعاهدا أن يعيش كل لحظة طفولة معًا ليملآ ألبوم الصور الخاصة بهما.



منزل زمرد

جلست على الكرسي بالصالة وهي تنظر أمامها باستمتاع لرحاب وسليم وهو يحاول الحديث معها بينما هي تتجاهله وهي ممسكة بهاتفها حانت منها ابتسامة وهي تتذكّر ذلك اليوم حين عادت للمنزل واستقبلتها عائلتها بالدموع بينما احتضنتها رحاب بقوة وهي تبكي مرددة الحمد لله وهي لا تصدق عودتها إليها مجددًا.

تلك المرة شعرت حقًا أنها عادت لمنزلها، جلست تلك الليلة وهي تنظر لأنحاء غرفتها مُستعيدة ذكرياتها كلها شاعرة بروح والدتها ووالدها بالمكان، تذكّرت مكوث العائلة بأكملها في منزلها هي ورحاب ومحاولتهم لإسعادها بكل الطرق، فقط أحدهم كان غائبًا، بعيدًا، لطالما كان بعيدًا رغم قربه من قلبها.

ارتعشت وهي تتذكّر لحظات وصولها لتلك الثكنة العسكرية وانتظارها المميت لأي شخص يدلف للغرفة التي وضعوها بها، تذكّرت وقتها مشاعرها وهي تدعو الله أن ينجدها مما هي فيه، دعت الله وقتها أن ينجدها فقط لتعود ولو للحظة لمنزلها فتخبر رحاب بمدى حبها لها وتخبرها بأنها لطالما أحبته دون أن تعرف، لطالما غفلت عن مشاعرها بوجوده ولم تع معناها إلا بعد أن افترقت عنه للمرة الثانية ربما أول مرة كانت صغيرة، لكن لطالما كانت مشاعرها مُتعلقة به.

أخرجها من أفكارها حديث سليم لها: «زمرد اقنعي هذه الحمقاء بضرورة قدومها معي لشراء الخواتم، أنا أريدها أن تختار لكنها كعادتها تعاند فقط، هي تحيا في هذه الحياة لكي تعاندني فقط»

ضحكت زمرد على هيئته وهي تنظر خلف رحاب التي تركتهما ودخلت لتُعد الغداء، رحاب التي صُدمت بطلب سليم يديها في ليلة عودتها للمنزل واجتماع العائلة كلها لتصمت رحاب دون أن تعطيه إجابه لتنظر لوالده وتخبره برغبتها في مهلة أسبوع لتفكر، ضحكت وهي تتذكر رد فعل سليم غير المُصدق وانهيار رحاب في تلك الليلة غير مُصدقة طلبه، أخبرته زمرد بأنها ستحدثها، نهض سليم وهو يقول: «أنا أعتمد عليكِ في هذا، آه هل تحدثتِ مع يامن؟!»

ابتلعت زمرد ريقها وهي تقول بارتباك: «لا لم يأت الوقت المناسب لذلك» صمت سليم ليقول لها بعد لحظات: «إذا سألني لن أستطيع أن أخفي الأمر عنه زمرد، يجب أن يعرف بأمر سفركِ مع رحاب، لا تدعيه يعرف من أحد آخر غيرك»

هزت رأسها دون قول شيء، ليتركها سليم على وعد بزيارة أخرى الليلة من أجل شراء الخواتم مع رحاب.

التفتت زمرد لتدلف للمطبخ وهي تفكر في أمر يامن، لقد تحدّثت مع رحاب بأمر السفر بعد عودتها بأيام في ليلة وجدت رحاب نائمة بجواره تبكي في صمت فنهضت قلقة عليها، لتبوح لها رحاب بما يحمله قلبها وهي تخبرها صراحة بشعور الغيرة الذي أصابها وهي تراه تلك الليلة التي عاد فيها من سفر ليقابل زمرد أمام غرفتها، وكم بدوا مناسبين ضحكت زمرد وقتها لتشاركها الدموع وتحتضنها بقوة محاولة

طمأنتها أن سليم لم يحظ سوى بمكانة الأخ لها، لتبوح لها بمكنونات صدرها وما تحمله تجاه يامن وتخبرها زمرد بوصية والدتها لهما، نامتا تلك الليلة ويداهما بيد بعض على وعد بالتفكير في أمر السفر من رحاب، خصوصا بعد أن طمأنتها زمرد بسفرها معها، تذكّرت تلك الجملة التي قرأتها في كتاب كانت تقرأه رحاب

إني رأيت في معاشرة الحزين للحزين شيئًا من الفرح يتنفّس به الحزن على الحزن

الرافعي



بعد أسبوع

مقر الأمن الوطني

طرقت الباب لتدخل مكتب اللواء بعد أن سمح لها، تجمّدت مكانها وشحب وجهها وهي تراه أمامها، كم مر من الوقت، أسبوعان ثلاثة منذ آخر لقاء لهما، رمشت بعينيها وهي تحيد بأنظارها عنه وهي تلمح لمعة غريبة في عينيه، سمعت صوت اللواء وهو يقول: «تعال غُفران، لقد اتصل بي الدكتور آسر طالبًا رؤيتكِ وأنا لم أستطع إخبارِك تحت طلبه، يبدو أنه خمن رفضكِ، والآن سأترككما معا، فلقد حظيت بوقتي معه لنصف ساعة اطمأننت منه على حالة أميرة المستقرة والآن اعذروني»

لمحت بطرف عينيها خروج اللواء من مكتبه لتنظر للباب للحظات وهي تفكر أنها لو هربت الآن لن يحدث شيء سمعته يقول: «سأركض خلفكِ إن هربتِ» رفعت عينيها له لتلمح ابتسامته وهو يقول: «بدأت أشعر بالإحراج من اللواء حسين وأنا أخرجه من مكتبه كل مرة أريد رؤيتكِ فيها»

لم تقل شيئًا ليتنهد بخفوت وهو يقول دون أي مقدمات: «اشتقت لكِ بشدة»، شحب وجهها لتتسع عيناها بصدمة ليكمل متجاهلا صدمتها وهو يقول: «اشتقت لكل شيء بكِ، للون عينيكِ الباهت الذي يشتعل كلما شعرت بالغضب، اشتقت

لربطة شعركِ المتراخية وللسواد الذي تحبين الاتشاح به، اشتقت حتى لصمتكِ هذا وأنا أعلم أنكِ لن تجيبيني بشيء»

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تشعر بنار تخرج من وجهها لتبتعد بأنظارها عنه وتتخطاه لتجلس على أحد الكراسي بتوتر واضح، ليجلس أمامها وهو ينظر لها بعين مختلفة، ينظر لها بنظرة رجل اختار امرأة لتسكن قلبه.

سألته بعد صمت دام للحظات: «لماذا طلبت رؤيتي؟!» أجابها: «أظنني أخبرتكِ بإجابتي للتو» لم ترفع نظراتها له كأنها غير مقتنعة بأن هذا سببه الوحيد لرؤيتها ليجيبها: «ربما لم يكن السبب الوحيد، لكن أنا رغبت بشدة في رؤيتكِ، الأيام السابقة كانت من أقسى أيام حياتي، رغبت بشدة برؤيتكِ والاعتذار لكِ وطلب السماح منكِ والاعتراف لكِ»

رفعت أنظارها له باستفهام ليجيبها وهو ينظر لها بنظرات أرسلت قشعريرة لذيذة لقلبها وهي تراه ينظر لها بحنان لطالما لمحته في عينيه لأميرة: «رغبت بالاعتذار عما قلته في آخر لقاء لنا وطلب السماح منكِ لأنني أنا من خذلتكِ، لقد جئت بعد أن وجهني قلبي لكِ، رسم لي طريق لأول مرة أمشي فيه وسعيد بأنه أوصلني لكِ وهذا يوصلني للاعتراف الذي أريد أن أخبركِ به»

نهضت من مكانها وهي تشعر لأول مرة بالخوف من قلبها ومما يريد قوله لتقول: «لست في حاجة لقول شيء، وأنا غير مُرغمة للبقاء والاستماع لما لديك، بما أن أميرة بخير كما قلت للواء فهذا يكفيني»

كادت أن تلتفت حين شعرت بكف آسر يقبض على ذراعها بقوة ليجبرها على الالتفات والنظر إليه ليقول بقوة: «توقفي»

رفعت عينيها له وهي تنظر له بدهشة مُستغربة غضبه لتسمعه يكمل من بين أسنانها: «ستجلسين الآن وستستمعين لاعترافي اللعين وسأجبركِ على الاستماع لكل كلمة فيها وإلا سترين مني وجهًا آخر لن يسركِ غُفران والآن اجلسي»، ازداد شحوب وجهها وهي لا تصدق حديثه لتجلس على الفور بعد هتافه الثاني بها لتجلس، لمحته يتنفس بقوة وهو يتحرك أمامها في الغرفة ليقف أمام الكرسي

المقابل لها ليجلس عليه وهو يتنهد رافعًا كفيه يمسح بهما وجهه بقوة لينظر لها بغضب ثم لحظات ولانت ملامحه وهو يرى الطفلة التي بداخلها تسترق النظر له بخوف من عينيها، استغفر في سره وهو ينظر لها مجددا ليقول بتعب: «أنا متعب للغاية غُفران، لأول مرة أشعر بكل هذا التعب كأنني كنت على سفر لمسافة طويلة جدًا، أشعر بالغربة مجددًا داخل منزلي، غربة تجاوزتها في بداية عملي بانشغالي به، وعادت لي بعد رحيلكِ عني»

ارتعشت لحديثه ليكمل آسر ساردًا كل مخاوفه أمامها من أن يكون أمرًا مُسلّمًا لها كما كان لكل شخص في حياته ليعيد مجددًا اعترافه لها بحبه وتهرّبه من مشاعره بعد أن ظن أنها مجرد حالة دفعته لحمايتها رغم الاختلافات التي بين شخصيهما إلا أنه أخبرها: «قوة حبي لكِ تكمن في اختلافنا، شخصية مُملّة مثلي مع شُعلة مُتقدة مثلكِ سيخلق مزيجًا لا مثيل له، أنتِ الألوان الخلابة في حياتي الباهتة يا غُفران، منحِتني ما كنت دومًا أبحث عنه.. الحياة»

شعرت بالصدمة من الكم الهائل من المشاعر التي لمعت بعينيه، ليكمل مفسرًا حديثه: «نعم الحياة يا غُفران، طوال سنوات عمري كنت دومًا أحيا من أجل ما يريده مني الآخرون، كبرت في أسرة مُحبة اهتزت رابطتها بفقدان الابنة لأجد نفسي أمام أمر لم أفهم جيدًا مقدار الألم المصاحب له لصغر سني، ولكن وجدت أبي يريد مني البقاء بجانبه وفي ظهره حتى لا يقع وهو يسند أمي، وفي نفس الوقت أبث الحب وكل مشاعر الحنان لأمي حتى أعوضها عما فقدته، ثم أخي الرضيع الذي لم يمر على ولادته أيام ويجب على أحدهم أن يراعيه لتيه أمي طوال الوقت في موضوع البحث عن توءمته.

كان يجب أن أكون ما يريدونه لأنه ليس هناك خيار آخر حتى أصبحت ما أنا عليه الآن، لكن جرحا صغيرا لا يندمل بداخلي طوال تلك السنوات، لأن لا أحد سأل عن الطفل الكبير وعن مشاعره وقتها، لم يسألني أحد عن آلامي التي شعرت بها بعد أن بدأت أعي ما حدث، لأدفن تلك الآلام داخل هذا الجرح الغائر وأكمل حياتي بها كما يريدون، ما شعرت به داخل قلبي تجاهكِ أحيا هذا الطفل من جديد لأجد أن اختلافنا في الرجل الذي أصبحت عليه ولكن التشابه مع هذا الطفل بداخلي

الذي يلعق آلامه ليُطيّبها، أنتِ دوائي من الداء الذي لازم حياتي، لا أعلم أنا أيضًا لم أخبرتكِ بهذا السر الذي لا يعلم به أحد ولكن أردت حقًا أن أبوح لكِ به»، طال الصمت بينهما لتخبره غير مُصدّقة قدرته على إخراج ما بداخلها عن مشاعرها تلك الليلة التي انهارت فيها في منزله، وبقي بجانبها يقويها بكلماته لتعود لخوفها وهي تقول: «أنا لم أعتد أن أكون ضعيفة يا آسر، وهذا الأمر هذا الأمر يخيفني، دومًا كنت أفكر في الخطوة وتبعاتها قبل أن أخطوها وأتبع كل الآثار المُترتبة عليها لأرى إن كان هناك ضرر أم لا، إلا معك أنا أخطو في طريق مجهول لا أعلم ملامحه فقط أتتبّع أثرك وكأنه الصواب، أنت تقول أنك خائف من أن تكون من المُسلّمات لي وأنا لم أعتبرك يومًا من المُسلّمات، كل مرة أستسلم فيها لمخاوفي، لعُقدي والعطب الذي بروحي أجدك واقفًا كالصخر تجذبني إليك جذبًا، تنجدني من ظلماتي التي لا نهاية لها، فكيف أعتبرك من المُسلّمات وأنا لا أشعر بالاطمئنان إلا بوجودك وهذا يخيفني» سألها: «أهذا ما يبعدكِ عني، ما يمنعك من الشعور بما أشعر به؟!» أغمضت عينيها بقوة وهي ترفع قبضة يديها وتضعها على قلبها وهي تجيبه: «يا إلهي كم أردت الابتعاد، كما رغبت بشدة في دفعك بعيدًا عني ولكن هذا القلب لا أستطيع، كل من يبقون حولي يرحلون وأنا.. أنا أحببت ماما هنية أم عمران وعندما ماتت آلمني قلبي بقوة آسر شعرت أنني أموت، وبعد موت عمران أنا.. أنا لن أتحمّل إن...»

نهضت من مكانها تشعر بأنها باحت بالكثير، شعرت بالاختناق لتلتفت إليه لتقول أول كلمة خطرت على بالها: «أنا سأسافر، لقد جهزت أوراقي، أنا لن أعود قريبًا، لن أستطيع أن أمكث هنا بعد الآن».

ارتجف قلب آسر وهو ينهض من مكانه ليقف أمامه ليسألها بتوتر: «تسافرين»!

هزت رأسها وهي تبتلع ريقها بصعوبة لتقول بجمود: «نعم لقد أخبرت اللواء حسين وجهزت الأوراق معه، أنا يجب أن أرحل، لا مكان لي هنا ولا أحد لي هنا، لقد تقرر موعد سفري، ولم أقرر بعد إن كنت سأعود أم لا، هل ترى آسر ربما أنت تركت أثرك بداخلي ولكن هذا القلب لا يحمل أي شيء بين جنباته في الوقت الذي كنت تشتاق أنت لي، أنا كنت أكمل حياتي وأفكر في مستقبلي، أنا يجب ألا أبقى هنا،

لا أمل لنا معًا، في الحقيقة لا أمل لي مع أحد، أنا لم أتخط بعد فقدان عمران وهو حسنًا لقد حملت في قلبي مشاعر له بحكم عيشنا معًا لسنوات عمري كلها، لذا تلك المشاعر التي تتحدّث عنها ربما شعرت ببعضها ولكنها لم تكن قوية كفاية لأجتاز بها آلامي أعتذر منك ولكن بما أنكِ رغبت بالصراحة فها أنا أخبرك بها، ربما من الأفضل أن تفكر في أخرى، لا تحمل عقدا بحياتها، لها هوية تفتخر بها، ففي النهاية هي من ستشاركك حياتك وتحمل لك أطفالك».

كان عليها أن تقول كل هذا حتى لو كان بعضه كذبًا، هي لا تستطيع أن تتقبّل أي مشاعر مهما كانت، روحها المُعتمة وقلبها الأسود لا شيء قادر على إزالة ما به وملؤه بالمشاعر الجيدة، هي تعي أن بعد كل ما أجرمته يداها لا تستحق السعادة، لا تستحقها بعد موت فيروز وعمران ووالدته، لا تستحقها بعد أن قتلت كلا من والديها مهما كان ما فعلوه بها.

حملت حقيبتها ورحلت وهي تعي أنه لن يمنعها هذه المرة فلقد قالت كل ما قد يجرحه بداية برفضها مشاعره واعترافها بحمل مشاعر لعمران الذي لم تستطع تجاوز موته حتى الآن، جعلته يظن أنه خسر أمامها وهو صدّقها.



عِدّي مين باقي لي وأنتِ مش هنا

هلاقي مين في بعدكِ يمنع البُكا!

محمد سعيد

الفصل التاسع عشر
الرحيل

دلف لغرفته وهو يشعر بآلام متفرقة في كل أنحاء جسده، أخرج الظرف الذي أعطته والدته له عند عودته بعد صدمته بمعرفته بسفرها، هو لم يسأل، لم يكلّف نفسه السؤال عنها، كان يحتاج لبعض الوقت في إنهاء عمله المكتبي والتقارير الكثيرة وكان يحتاج لبعض الوقت من أجل إنهاء أمره مع سالي بعد أن تم الحكم عليها، كان يحتاج لبعض الوقت حتى ينسى كل ما حدث وقت اختطافها، أغمض عينيه وهو يقبض على الظرف بقوة وهو يهمس بغضب: «جبان وكاذب أنت لم تحتج لأي وقت سوى لهروبك من مشاعرك، أنت خفت، خفت وأنت تكتشف كل لحظة أنك تهيم بها عشقًا، خفت حتى خسرتها، لقد رحلت هذه المرة بإرادتها».

فتح عينيه وهو ينظر للظرف أمامه الذي أعطته له والدته وهي تخبره أن زمرد تركته، قربه من أنفه يحاول أن يلتقط أي رائحة لها، أي شيء تركته ليبكي عليه فراقها، فتح الظرف وبدأ يقرأ رسالتها

«يامن، يامن مان

سامحني لأنني لم أخبرك بأمر سفري مع رحاب، لكن صدّقني هذا الأفضل لنا.

أحيانا يجب علينا فقط الرحيل لا لشيءٍ سوى أنَّنا تعبنا، وأنا تعبتُ، طريق حياتي حتى الآن لم يكن يومًا مُمهدًا، ليس لي ذكريات تُعينني على المضي قدمًا، وجراح قلبي قد تقيّحت، سيداويها الزمن نعم، ولكن حتى يفعل يجب أن أرحل لا استطيع أن أبقى معكَ، أن أقتات من قُوَّتِكَ، أن آخذ منكَ دون عطاء وأنت الوحيد الذي لم يبخل عليّ يومًا بشيءٍ، رحيلي ليس كُرهًا في أن أبقى معكَ ولكن كُرهًا في أن

أخسر نفسي أكثر وأنا معكَ، يصر القدرُ على أن يضعنا في مفترق الطريق، ولأول مرة أرفض أنا هذا المفترق لأختار طريقا آخر بعيدًا عنك، فقط كن على يقين أنَّني لن أنسى طريقي يومًا إليك وسأعود حينما أجد نفسي التي تهواها لا نفسي التي لا أنا ولا أنت نعرفها، ما فعلوه معنا جعلنا نخسر الكثير، أنا لا أريد خسارة نفسي أكثر، لا أريد خسارة روحي والأهم لا أريد خسارة إنسانيتي، ما فعلوه كان بشعًا، قادرًا على أن يطمس كل جميل فينا لذا دعني أجذب حبال إنسانيتي ببقايا قوتي حتى لا تنقطع الحبال وتخور قوتي ويُغلّف روحي ظلام القسوةِ، لأول مرة سأطلُبها منكَ اُترك يدي حتى أجدني.

زمردتك الغالية»

أغمض عينيه وهو يقبض على الظرف بكفيه بقوة ودمعة يتيمة خرجت من عقالها ليتنفس بقوة وهو يفتح عينيه يبحث عن هاتفه، فتحه وضغط على بعض الأرقام.



في منزل بكندا

نظرت من النافذة وهي ترى العائلات مجتمعة في المنتزه الكبير الذي تطل عليه الشقة التي تسكن فيها مع رحاب، اليوم عطلة لذا جميع العائلات في الحي الذي تسكن فيه يجتمعون في المنتزه الكبير لقضاء يوم العطلة بالخارج، لمحت بعينيها رجلا يحمل ابنته فوق كتفه لتبتسم بحنين لذلك الذي حملها دومًا وأغدق عليها بحنانه، ترحّمت عليه هو ووالدتها لتعود بذاكرتها لرجل آخر يشبهه في الحنان.

«لا ترحلي» أغمضت عينيها وكلمته التي خرجت بنبرة توسل حزين تجلدها لتتذكر تلك المكالمة الأخيرة بينهما مكالمة أمرها فيها بألا تذهب لتتوالى اعتذاراته لتخبره أنه وجب أن تبتعد تذكرت غضبه وهو يظن أنها لم تغفر له لتخبره بما فكرت به طوال تلك الفترة بأنها في حاجة لأن تعيد الروح التي فقدتها من زمن لنفسها لتكون المرأة التي يستحقها، غضبه الكبير منها وهذره بما قاله باكتفائه به واحتياجه لها لقد ذكر كل الأسباب إلا السبب الوحيد الذي كانت تتمناه، توسلته أن

يتركها ترحل لكي تكون ما ترغب وتحاول بناء نفسها مجددًا ولتساعد رحاب التي في حاجة إليها، عنادها معه ورفضها لأن تبقى رغم احتياجه جعله يهدر بها في نهاية المكالمة وهو يقول: «إذا ارحلي زمرد ولا تعودي إياكِ أن تعودي».

سأتخيل ألف ألف مرة إلى أي درجة تستطيع أنت أن تقسو، وإلى أي درجة تستطيع أنت أن ترفق لأعرف إلى أي درجة تستطيع أنت أن تحب وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بحورًا لأنك أوحيت إليّ ما عجز دونه الآخرون

أتعلم ذلك، أنت الذي لا تعلم؟

أتعلم ذلك، أنت الذي لا أريد أن تعلم؟

مي زيادة لـ الرافعي

دلفت للصالة ليصل لأسماعها صوت شجار بالداخل لتبتسم وهي تعي أنه شجار آخر أحمق بين رحاب وسليم، حتى بعد مرور سبعة أشهر على سفرهما وكل تلك المسافات بينهما إلا أنهما ما زالا يتشاجران لتنهض من أمام حاسوبها دون إغلاق المكالمة لتأتي زمرد وتهدّئ من الوضع بينهم فتعود رحاب لتتحدّث معه كأنهما لم يتشاجرا منذ دقائق رأت الحاسوب بالفعل مفتوحا ورحاب بالمطبخ ويبدو أنها تفرغ غضبها على الأطباق بالداخل، جلست زمرد على الكرسي أمام الحاسوب بعد أن ارتدت حجابها لتقول بهدوء: «حسنًا ماذا حدث هذه المرة؟!»

تعال نخون الغياب ونلتقي

محمود درويش

ارتعش جسدها وانتفض قلبها مكانه ليدوي صوته في أذنها وهي تراه أمامها، لم تتحرك من مكانها وهي تشبع عينيها بالنظر إليه، كم مر منذ أن رأته آخر مرة أو تحدثت معه؟! سبعة أشهر! ابتلعت ريقها وهي تراه ينظر إليها بحزن وهو يتأملها هو الآخر ليقطع الصمت وهو يقول: «لقد زادتكِ المسافات جمالا يا ابنة العم» ارتعش جسدها لسماع صوته بينما لم تستطع أن تبعد عينيها عنه وهي تهمس: «يامن»

انتفض قلبه شوقًا لها ليقول بهدوء: «مرحبًا» أجابته بهدوء مماثل وهي تحاول السيطرة على مشاعرها: «مرحبًا» سألها: «كيف حالكِ؟!» أجابته: «بأفضل حال الشكر للّه وأنت كيف حالك؟!» أجابها: «بخير الآن بعد رؤيتكِ» لم تستطع التفوه بشيء وهي تشعر بشخص مختلف أمامها، سمعته يقول: «سمعت من رحاب أنك تُدرّسين في مدرسة لرياض الأطفال» حانت منها ابتسامة وهي تقول: «نعم، أجد نفسي في هذا العمل مع الأطفال، إنهم طاقة لا تنضب أبدًا» أجابها بابتسامة: «جيد، سعيد من أجلكِ كما سعيد بمتابعتكِ مع الطبيبة» تحدثت بعد لحظات بهدوء: «مُبارك لك ترقيتك» أجابها: «شكرًا لكِ»

ساد الصمت لدقائق شعرت بها ساعات وهي جالسة أمامه تشعر بالارتباك رغم كل تلك المسافات التي بينهم ليقطع أخيرًا الصمت: «زمرد أنا لم أستطع القدوم في المطار» لم تستطع قول شيء سوى: «أعلم» ليكمل: «أعلم أنني كنت قاسيًا في مكالمتنا الأخير ولكن أقسم لك بأنني لم أكن لأحتمل ابتعادك عني مجددًا ولو جئت للمطار لكنت منعتكِ بالقوة» ابتلعت ريقها لتقول بهدوء ألم قلبه: «أعلم».

ساد الصمت مجددًا وهي تشعر بقرب انهيارها لتقول بارتباك: «أنا يجب أن».

قاطعها مُسرعًا وهو يقول بصوت مرتفع قليلًا: «أنا أحبكِ ولطالما أحببتكِ، أحببتكِ وأنا طفل في العاشرة من عمري وشاب في العشرين منه اشتاق لمحبوبته الغائبة عن عينيه ورجل في الثلاثين عثر عليها أخيرًا ولنهاية العمر الذي يكتبه اللّه لي سأظل دومًا أحبكِ» شهقت بخفوت وهي تهمس باسم: «يامن» ليكمل دون أن تمنعه: «زواجنا سيكون مع رحاب وسليم، واتفقت معه على أن يكون بعد عودتكما في الزيارة الأولى على الفور» لا تصدّق ما يتفوّه به لتهمس مجددًا باسمه: «يامن».

ليكمل وكأنه كان في انتظار أن يتفوه بأول كلمة لتأتي الكلمات وراء بعضها: «أنا لا أوافق على فترة الخطوبة فأنا لا أحتاجها لأتعرّف عليكِ فأنا أستطيع قراءتكِ كخطوط كفي لذا سنتزوج على الفور».

هتفت به: «يامن توقف» ليهتف هو الآخر: «لا لن أتوقف ولا أوافقكِ على أي اعتراض».

ساد الصمت بينهما بينما يعلو صدرها ويهبط من الصدمة لتراه يتنفس بصعوبة وهو يقرب الحاسوب منه ليقول بهمس: «أنا أحبكِ ولا أطيق صبرًا على رؤيتكِ وإن اضطررت لتوسّلكِ الموافقة سأفعل، سأتوسل إليكِ وأطلب عفوكِ، قولي أنكِ موافقة، أو حتى لا تقولي، لقد اتفقنا وانتهى الأمر أتوسل إليكِ كفانا بعادا، أنا أموت شوقًا إليك، وألعن نفسي كل يوم لأنني تركتكِ ترحلين دون أن أُطيب جراحكِ، دون أن أطلب منكِ المغفرة، أتوسل إليكِ دعينا نقضي ما تبقى من عمرنا معًا، دعينا نفعل».

كادت أن تجيبه لتقاطعها رحاب بصراخها ليتدخل سليم هو الآخر يصرخ بوجهها لمقاطعتها الاعتراف الذي كانت ستبوح به زمرد فتنظر للأخيرة بندم معتذرة ليضحكا على موقفها وسليم يعنفها وهي حمل وديع أمامه.

شاركت رحاب زمرد الضحك بعد أن أغلقت الحاسوب والأخيرة تقول: «أتوق لرؤيتكما معًا في بيت واحد، يا الله لن يمر يوم دون إشعال المنزل» ضمت رحاب لصدرها وهي تقول: «فكّري أرجوكِ، إنه يتعذّب زمرد، من بعد رحيلكِ وهو يتعذّب».

جلست تلك الليلة تفكر في ما أخبرته به رحاب عن عذابه الذي كان طوال فترة غيابها واستمر بعد سفرها

تذكرت ما كتبه لها

«لقد كان فراقًا لسنين يا فؤادي، ما أوجعنا فيه أنه لم يكن مُخططًا له، لم نفكر فيه للحظة، أتظنين أن الأمر مُؤلم، بل الأمر فاق حدودَ الألم، ولكن الأكثر إيلامًا أنه منذ اللحظة التي افترقنا فيها وأنا أعلم أن حياتنا لن تكن يومًا كما كانت، منذ اللحظة التي أخذوكِ فيها مني وأنا أجلد نفسي بسياط الندم، بسياط الخوف، أتساءل كيف تشعر الآن؟ ومن يهتم بها؟ هل تشعر بالأمان؟ هل تشتاق؟ ولكن كل تلك الأسئلة لم تُؤلم قلبي، سؤال واحد فقط جعلني كل تلك السنوات ألهث خلف دليلٍ يُوصلني إليك، هل تظن أنني تركتها؟! هل تعتقد أنني ما عدتُ أبحث عنها؟! ما عدت أريدها!

كنت خائفًا بشدة من أن تسألي هذا السؤال وتكوني على يقين بالإجابة الخاطئة، فأنا أدرك أنكِ لا تريدين لأحد إيجادكِ سواي.

حتى اللحظة التي وجدتكِ فيها وأول ما أخبروني به أصدقاؤكِ أنكِ كنتِ تناديني كل ليلة، كُنتِ تهمسين في أحلامكِ باسمي، تحلمين باليوم الذي أجدكِ فيه.

هل تظنين أن هذا أراحني؟! لا لقد زاد من آلامي كنصل مُسمم انغرز في قلبي ولم يُخرجه أحد، آلمني بشدة أنني أخذت كل تلك السنوات لأجدكِ لقد تأخرتُ وكم أنا نادم لتأخري، لأنني الآن أدرك أن ما كان بيننا لن يكون شفيعًا لتأخري الشديد عليكِ، هناك شيء فُقد بيننا كانت سببه كل تلك السنوات، ربما هي لم تُغيّر ما كان بيننا ولكنها غيّرتنا، جزء بداخلي تحطّم لفقدانكِ ولعجزي على إيجادكِ وانا أعلم أنك تنتظريني، وجزء تحطم بداخلكِ لا تستطيعين إنكاره أنني لم أكن موجودًا وقتما احتجتِ إليَّ.

ربما يستطيع الوقت جبر حطامَ قُلوبنا وربما لا يستطيع ولكن خوفي من عدم استطاعة الوقت يهزني بشدة فقلبي لا يريد خسارتكِ مجددًا، قلبي على استعداد تام بأن يدفع ثمن أخطائه ولكن وأنتِ هنا بجواري، لن يستطيع أن يطلب السماح منكِ وأنت بعيدة عنه»

خرجت من أفكارها على رسالة بهاتفها ففتحتها: «وافقي يا فؤادي»، أرسلت له رسالة: «ما قصتك مع الفؤاد؟!» انتظرت لحظات حين رأت أن رسالتها قد قرأه لتجده يكتب: «من لطائف اللغة العربية أنه لا يُقال عن القلب (فؤاد) إلا إذا كان الحب مُستقرًا فيه»، ارتعش جسدها ولم تقوَ على قول شيء لتجد رسالة أخرى منه: «إذا هل أعتبر صمتكِ موافقة يا فؤادي؟!»



بعد يومين

كانت تركض على الشاطئ بسرعة حتى وصلت لمكان اللقاء لتسمع صوت طبيبتها تتحدث باللغة الإنجليزية: «في الوقت المناسب، دومًا تحافظين على مواعيدكِ»

حاولت تنظيم أنفاسها وهي تخرج زجاجة مياه من حقيبتها لتشرب القليل منها وهي تقول: «لا أستطيع التأخير وأنا أعلم أن وقتي محدود معكِ»، ابتسمت لها الطبيبة وهي تقول: «أنتِ تعلمين أن وقتي مُتاح دائما لكِ غُفران»، ابتسمت غُفران لها بامتنان وهي تقول: «اذا هل نبدأ؟!» أجابتها الطبيبة وهي تعدّل من حقيبتها في استعداد منها لمشاركتها الركض: «لمَ لا؟ أخبريني أولا ما سر تلك البسمة على وجهكِ أهي رسالة جديدة من ذلك الـ آسر؟!»

اتسعت ابتسامة غُفران وهي تقول: «اليوم أستطيع الحديث معكِ عنه»

بدأتا في الركض وغُفران تسرد لها أحداث يومها ولأول مرة ستُحدّثها عن آسر، الطبيبة جاكلين، طبيبة نفسية قابلتها زمرد بعد رحيلها لكندا بشهرين، قررت بعد وصولها لكندا واستلامها العمل الذي ساعدها في اللواء حسين في احد المستشفيات الخاصة أن تُشفى مما هي فيه، لذا بدأت في رحلة العلاج ووجدت الكثير من التطور في حياتها وفي التعامل مع الغرباء من حولها، ربما لم تقم بأي صداقات هنا ولكنها ازدادت قربًا من زمرد وأختها رحاب، تضحك معهما على طرائف سليم مع رحاب وتستمع باهتمام لأسرار زمرد وشوقها الكبير ليامن، لكنها حتى الآن لم تستطع البوح لمشاعرها مع أحد سوى الطبيبة جاكلين التي تفهّمت كل ما حدث بحياتها في مصر ولم ترفض مساعدتها، بل على العكس ازدادت الروابط بينهما فأصبحتا كصديقتين مُقربتين.

بدأت حديثها عنه وهي تسرد لها ما حصل قبل سبعة أشهر يوم سفرها حين تفاجأت بانتظارها أسفل سكنها بدلًا من الرجل الذي أخبرها اللواء بإرساله لإيصالها، تذكرت صدمتها برؤيته هادئًا على غير عادته يداري بابتسامته الحنونة حزنه كان كما وصفته أميرة لها في آخر مكالمة بينهما، أخبرها بأنه جاء ليودعها لتظن وقتها أنه فقد الأمل بها لتسمعه يخبرها بما لم تصدق وجوده يومًا ورأته بصدق في لمعان عينيه، لم تستطع التفوه بكلمة وهي تنهل من كلماته التي أودع فيها صدق مشاعره بينما يقود سيارته للمطار في هدوء.

«لقد فكّرت في حديثنا الأخير معًا، فكّرت في كل كلمة قلتِها، وتوصلت لعدة حقائق أريد مشاركتها معكِ، غُفران أنا لا أمانع أن تحبي شخصًا آخر غيري،

يؤلمني قلبي لذلك نعم، وأشعر بالمرارة داخل حلقي وأنا أتذكّر مشاعركِ تجاهه نعم، ربما هو ما عاد بيننا وهذا جعلني أفكر في أول حقيقة، أنا لا أمانع مشاعركِ تجاهه لأنها لا تمنعني من حبكِ، أنا ما زلت أحبكِ حتى ولو لم تحبيني ثم جئت للحقيقة الثانية وهي أنني باستطاعتي أن أجعلكِ تحبيني، ذلك الحب الذي يملأ قلبي أستطيع منحكِ ما تريدينه منه طالما سينعش قلبكِ ويجعلكِ في النهاية معي، تريدين الرحيل عني مُبتعدة حتى تلعقي جراحكِ وحدكِ حسنًا أنا لن أمانع رحيلكِ ولكنني سأقف دائما بوجهكِ إن شعرت بكِ تهربين مني ومن مشاعركِ تجاهي، وهذا يوصلني للحقيقة التالية، أنا لا أريد أي امرأة أخرى بهوية أفتخر بها أو تكون أمًا لأولادي أو أي كان الهذر الذي أخبرتِني به، أنا لا أهتم بأي أولاد إن لم تكوني أنتِ والدتهم وهذا يوصلني لحقيقة أنني لا أريد أي امرأة أخرى، أنا أريدكِ أنتِ فقط، بعقدكِ، بأشباحكِ بأحزانكِ بكل ما أخبرتِني به، حتى لو استمر بي الحال أتعبكِ بقلبي وروحي وعقلي العمر كله دون أن أصل إليكِ لا يهم، يكفيني أنني معكِ حتى لو لم تكوني معي»

ضحكت بخفوت وهي تسرد على طبيبتها حالتها وقتها والخرس الذي أصاب لسانها، أخبرتها على اتفاقه معها أو بالأدق أوامره لأنها لم تجبه بشيء وهو يأخذ منها هاتفها ليسجل رقمه وبريده الإلكتروني ويفعل المثل معها، ثم أخبرها بوضوح أنه سيرسل لها رسالة كل يوم، سيبوح لها بكل ما يحمله سيسرد لها ذكريات طفولته لتعيش معه الماضي والحاضر آملًا في أن تشاركه المستقبل.

سألتها الطبيبة وقتها عن رد فعلها فأخبرتها أنها تركت السيارة بمجرد وصولهما للمطار بدون التفوه بكلمة لتنهار دواخلها كلها بعد سماعها لحديث زمرد مع يامن على الهاتف وهو يتوسل عودتها وهي تخبره برغبتها في الشفاء من أجله فقط، انهارت بعد أن سمعت من زمرد النقيض مما هي تفعله زمرد هربت لأنها تريد أن تكون شخصًا أفضل من أجل نفسها أولا ثم لتكون جديرة بالحصول على قلب يامن، إنما هي هربت من كل ما هو جميل حتى لا تحصل فقط عليه، هي فقط جبانة خائفة.

سألتها الطبيبة بابتسامة عما فعلته لتخبرها بانهيارها وهي تتصل به على الرقم الذي سجله على هاتفها وتخبره بكل وضوح أن الأمر لن يكون سهلًا عليها وأنها ستنتظر رسائلها كل يوم، أخبرته أنها ستشتاق وتوسلته أن ينتظرها وألا ينسى، تذكرت اللهفة في حديثه وهو يخبرها بكلمته المشهورة لها: «دومًا» ليختم حديثه معها بـ» أحبكِ غُفران».



مساءً في بيتها

فتحت عينيها ترمق السقف بوجوم وهي تتذكرها انهيارها الثاني اليوم وجاكلين تعريها أمام نفسها لتوصل لها الحقيقة التي لطالما خافت منها: «أنتِ تُحبين آسر غُفران، ولكن هذه ليست مشكلتكِ، مُشكلتكِ أن آسر يحبكِ أو بالأَدق يهيم بكِ عشقًا، أنتِ خائفة من مشاعره والتطور الذي يحدث بها، إن أَردتِ أن تمضي قدمًا في حياتكِ يا غُفران عليكِ أن تقبلي مشاعر آسر وتعيشينها، عليكِ أن تتقبّلي فكرة أن هناك رجلا يرغب بكِ، لا بجسدكِ كرغبة جسدية لكن بروحك، يرغب بمشاركتكِ أيامه، يرغب بمشاركتكِ مشاعره، يرغب بكِ كامرأة تُكمّله».

بالفعل هذه كانت الحقيقة الأخيرة التي خافت منها، آسر بالفعل يرغب بها كامرأة تشاركه حياته لكنها خائفة بل مُرتعبة! تنهدت بخفوت وهي تمنع دموعها من الانهيار لا تريد العودة هي تريد التقدم في حالتها فيكفي ما عانته خلال أول شهرين منذ سفرها، شهرين عانت فيهما من أشباحها، لم يكن يخرجها شيء من ظلماتها سوى رسائل آسر، آسر الذي لم يتوقف يومًا عن مراسلتها، لم يتوقف يومًا عن إخبارها بمدى اشتياقه لها، بمدى حبه لها طوال السبعة أشهر لم يتوقف للحظة، لم يمل، لم ييأس ولم ينسَ.

رغم أنها لم تجِبه ولو برسالة واحدة، رغم أنها كانت في أقسى لحظات حياتها تمسك هاتفها وتكاد تتصل به فتغلق الهاتف على الفور لتتراجع عن رغبتها، حتى تلك المرة التي اتصلت فيها ولم تغلق الخط بفترة كافية فوصل إليه اتصالها لتتفاجأ بعدها باتصالاته التي لا تتوقف ورسائله وهو يطالبها بالرد ويتوسّل إليها أن يسمع

صوتها، لم يتوقف بعدها عن الاتصال وإرسال الرسائل وهو يخبرها بإرهاقه بعد يوم طويل من العمل، وهو يخبرها بالتطورات في حياة أميرة ودخولها كلية الطب مع أمير، حتى في مرضه لم يتوقف عن إرسال الرسائل لها في منتصف الليل وهو يرسل إليها صوره، مرة وهو مريض وأخري وهو في العمل وأخرى وهو حزين مشتاق وأخرى وهو مجنون، آسر هو من لوّن حياتها الباهتة لا العكس.

ما زالت على خطتها مع اللواء حسين وفي آخر الأسبوع ستبدأ بمشاركة زمرد ورحاب معها في الخطة فهي في حاجة لمساعدة رحاب وأصدقائها في الجامعة.

«هل الجو بارد عندكِ؟! ارتدي ملابس ثقيلة فالجو هنا بارد للغاية، اشتقت لكِ غُفران، ألن تسمعيني صوتكِ حتى؟!»قرأت الرسالة مرارًا وهي تتنهد للمرة التي لا تعلم عددها لتتساقط دموعها وهي تمسك هاتفها وقد أرسلت له رسالة صوتيه بان فيها بحة صوتها: «آسر أنا بخير، الجو هنا بارد قليلا لكنه لطيف، لقد وصلتني رسائلك، أنا أيضًا اشتقت» أنهت الرسالة الصوتية قبل أن تكمل جملتها الأخيرة لتُغلق الهاتف بعدها وهي تكتم شهقاتها في وسادتها هي بالفعل اشتاقت إليه ولكن لم تواتِها الشجاعة للبوح بها.

وعلى الطرف الآخر وصلته رسالة برنين مميز وضعه منذ أشهر ولم يسمعه على هاتفه سوى مرة واحدة فنهض من على كرسيه بسرعة ليلتقط هاتفه ثم أسرع بتشغيل الرسالة الصوتية بعد أن رفع مستوى الصوت ليسمع بحة صوتها التي اشتاق إليها، تأوه بألم وهو يجلس على سريره يجذب الهاتف لأذنه وهو يعيد في رسالتها ليضحك وهو يقول بحب أيتها الجبانة، أنا أيضًا اشتقت لكِ وأعلم الآن أنكِ تشتاقين إليّ.



كلما عمق الحزن حفرة في كينونتك، ازدادت قدرتك على احتواء فرح أكثر

جبران خليل جبران

الفصل العشرون
العودة

في نهاية الأسبوع

شقة زمرد ورحاب

ساد الصمت في الشقة للحظات لتقول رحاب بعد فترة: «حسنًا أنا معكِ، أستطيع توفير كل ما تريدينه، البث المباشر، التسجيل، أي شيء، ولدي من الأصدقاء من يساعدني بذلك»، تنهّدت غُفران بخفوت وهي تقول: «حسنًا والآن النصف الآخر من المهمة سيكون ليامن».

تحدّث يامن على الجهة الأخرى من الاتصال بينما ينصت الجميع إليه: «خطتكِ تنقصها الكثير، اليوم تحدّث معي اللواء حسين وأخبرني بخطتكما فاقترحت عليه بعض الأفكار» أجابته غُفران: «حسنًا ما هي؟!»

أجابها يامن: «نحتاج لحجة قوية تبعدكما عن ذلك الأمر، إن عرف الطرف الآخر بصلتكما بالوضع لن يتوانى عن إرسال رجاله لتصفيتكما: «شهقت رحاب لتنظر لزمرد بصدمة ليكمل يامن محاولاً طمأنتهما: «لكن إن وصل له أن لا علاقة لكما بما يحدث سيبدأ بالانشغال لمعرفة من وراء كل تلك الأسرار وكم من الأسرار يعرف» سألته غُفران: «اذا ما هو اقتراحك؟!»

أجابها يامن وهو يبتسم: «حفل زفاف» رمشت غُفران بعينيها وهي ترى ابتسامته وهيئته الغريبة عليها لتقول: «حفل زفاف من؟!» ليجيبها ببراءة: «حفل زفاف على زمرد مع عقد قران رحاب وسليم»

ساد الصمت على الطرفين ليهتف سليم بعدها وهو يضرب بكفه كتف يامن: «هذه هي الاقتراحات، سلم فاهك يا ابن العم».

ارتفع حاجب غُفران بدهشة وهي تنظر لزمرد الشاحبة ورحاب المصدومة لتقول كاسرة فرحة سليم ويامن: «وكيف سيتم الزفاف بدون العروس؟!» ليصمت سليم وهو يعي الموقف لتزداد ابتسامة يامن وهو يرفع حاجبه ليواجه أخيرًا الساحرة الشريرة وهو يقول: «لقد حصلنا على إذن لرحاب بالعودة بعد أسبوعين لقضاء أسبوع إجازة بعد توصية كبيرة من الوزارة حتى تعقد قرانها ثم تسافر مجددًا وبالطبع لن تعود رحاب بمفردها بل ومع زمرد»، ساد الصمت مجددًا ليهلّل سليم وهو ينهض من مكانه قائلًا: «لهذا خُلقت التوصيات، سأتزوج أخيرًا بعد أسبوعين»

ضحك يامن وهو ينظر لزمردته قائلًا: «ما رأيكِ يا فؤادي؟!» لترتبك مكانها وهي تقول لغُفران مُدعية عدم سماعها نداء يامن: «هل بإمكانكِ أخذ إجازة تلك الفترة؟!» هزت غُفران رأسها وهي تقول بابتسامة جديدة عليها: «بالطبع يا فؤاده».



بعد يومين مساءً

في منزل زمرد ورحاب

قالت غُفران: «حسنًا لنسترجع الخطة» تحدث يامن: «غُفران ستعود لمصر قبلنا بأيام ووقتها ستقابل أصدقاء رحاب»، قاطعه سليم: «زملاء زملاء»، قاطعته رحاب: «حسنًا سليم هذا ليس وقتك الآن دعنا نكمل» ليكمل يامن ضاحكًا على غضب سليم: «سوف يبدأون بتجهيز الفيديوهات التي ستعطيها غُفران لهم بعد أن يعاينوا أماكن البث كما اتفقنا، من المهم جدا أن يبدأ البث من أكثر من مكان مُختلف، إن كانوا يملكون السرعة الكافية سيكون لنا الأسبقية بربع ساعة فاصلة، سأتولى أمر إحضار الأرقام لنا، نحتاج أن نرسله لجميع من في الحفل بما فيهم نحن حتى لا يشكوا بأمرنا وسأقوم بدعوة كل من نريد وصول الفيديو إليه وفي نفس الوقت يشاهده الشعب المصري بأكمله والعالم أجمع، بعد بث الفيديو سنترك

نسخة من على حساب جديد على الإنترنت سيتم إنشاؤه في نفس لحظة البث في أبعد مكان عن الفندق الذي سيقام به الحفل، زملاااء رحاب س»

«شكرًا يامن» قاطعه سليم ليقاطعه:«اخرس سليم:« ويكمل:«زملاء رحاب سيؤخرون الشرطة قليلًا بتشويش الإشارة عن مكانهم وزرع فيرس مؤقت في الحاسوب الأساسي الخاص بهم، ما سيجعل مكان البث غير واضح لهم بما فيه الكفاية أي سيكونون في محيط مكان البث دون معرفتهم للمكان، وهذا يمنح الأفضلية لهم بالهروب قبل وصول الشرطة، بعد البث سيتم التحفّظ علينا حتى يجدوا البطل بالفيديو لحمايتنا من أي أذى ربما مُخطط لنا، وقتها ستكون هناك القوة الكافية بانتظاره قبل هروبه من البلد وفور القبض عليه سيتم الإفراج عنا اتفقنا»، ليتحدثوا جميعًا:«حسنًا اتفقنا»



القاهرة

يُقسم أنه رآها، حسنًا هو لم يصل بعد لمرحلة الجنون لكنه متأكد أنه رآها، وقف مكانه خارج المشفى وهو ينظر حوله في كل اتجاه حتى لمحها وهي تدلف لشارع بجوار المشفى، ركض بأسرع ما يمكن حتى وصل للشارع فلمحها تتوقف في مكانها وتخرج هاتفها، اقترب مُسرعًا ليجذب ذراعها جالبًا شهقة لفمها ليتجمد كلاهما أمام بعضهما.

لا تستطيع وصف مشاعرها في هذه اللحظة، هي غبية لقدومها لمكان عمله ولكنها لم تستطع، لقد جاءت مصر منذ أربعة أيام والأمور التي شغلتها منعتها من أن تفكر به وبأنها على مقربة منه لكن اليوم صباحًا استيقظت على اشتياقها له فقررت القدوم لمكان عمله لعلّها تراه من بعيد وبالفعل فعلت ثم قررت بعدها الرحيل قبل أن يكتشف وجودها، ولكن يبدو أنها فشلت، خرجت من أفكارها على همسته غير المُصدّقة:«أنتِ هنا! أنتِ بالفعل هنا أنا لا أتوهم»، وقبل أن تقول شيئًا وجدته يجذبها بقوة لأحضانه لتتجمد مكانها ويزداد شحوب وجهها لتبعد نفسها بقوة عنه حتى تركها وهو لا يستوعب حتى الآن أنها هنا ولا فعلته ليسألها:«متى

عدتِ؟! ولمَ لم تخبريني بعودتكِ؟!» ارتبكت مكانها وهي تستشعر مدى غبائها لتجيبه بصوت خافت: «لقد عدت منذ أربعة أيام والأمر لم يكن مُخططًا له، لقد حصل فجأة»، نظر لها غير مُصدق حديثها: «أنتِ هنا منذ أربعة أيام ولم تحاولي حتى الاتصال بي وإخباري أن سيادتكِ عدتِ من السفر»

تغضنت ملامحها وهي تلمح السخرية المُبطنة بالغضب في نبرته لتقول مبررة له: «لقد أخبرتك أن الأمر لم يكن مُخططًا له»، صمت للحظات وهو ينظر إليها بتمعّن محاولاً تجاهل ألمه ليقول: «بلى لقد كان الأمر مُخططًا له أنتِ فاشلة في الكذب، حسنًا تعالي معي لأغير ثيابي ونجلس لنتحدّث».

همست بارتباك: «أنا لا أريد، لدي أمر طارئ يجب أن أقوم به»، أجابها من بين أسنانه بغضب: «تحركي معي غُفران ولا تدعيني أقوم بفعل نندم كلانا عليه»، أطاعته بخفوت وهي تراه يقبض على كفها جاذبًا إياها خلفه وهو يتحدث بكلام غير مفهوم ويبدو كأنها شتائم خاصة لها.

ساد الصمت للحظات وهما جالسان في ذلك المطعم لينظر آسر إليها بشرود بعد أن سردت له أسباب قدومها وخطتها قبل أن يقول بسخرية: «لم يكن الأمر مُخططًا له أليس كذلك؟!»

أسبلت أهدابها وهي تحارب مشاعرها وتمنع نفسها من النظر إليه والتأمل في ملامحه الحبيبة لتلعن شوقها الذي جرفها إليه ليضعها في ذلك الموقف همت بالحديث: «آسر استمع إلي» ليقاطعها وهو يقول: «صديقة العروسة لن تكن حجة كافية لكِ، هل تعلمين ذلك؟! لكن إن كنتِ أيضًا العروس ستكون حجة قوية لكِ»

نظرت له غير مُستوعبة حديثه ليكمل بابتسامة نصر: «إذا فليكن عقد قراننا مع زمرد ويامن أيضًا فهكذا نمنحكِ حجة قوية» هتفت به بقوة: «ماذا؟! ما الذي تهذي به؟! أنا لن أوافق على هذا، لن أوافق أبدًا أبدًا»



بعد أسبوع

فندق كبير بمنتصف القاهرة

لمحا سيدة تنزل الدرج مُسرعة وهي تقول لهما: «العروس ترفض الخروج من الغرفة»

نظرا لها بصدمة ليصعدا الدرج مُسرعين لأعلى، تجمّد يامن مكانه وهو يرى زمردته تطرق على الباب وتتحدث بهمس لمن بالداخل فتنهّد بارتياح وهو يعي أن العروس التي تقصدها المرأة هي غُفران بالطبع، خاصة لأن زمرد واقفة أمامه ترتدي ثوب زفافها.

«سبحان الخلاق» همس بها وهي تلتفت له حين سمعت صوت أميرة وهي تُحدّث آسر لتتجمّد هي الأخرى مكانها وهي ترى نظراته وهمسته وصلت لها واضحة.

«أميرة ماذا يحدث؟!»

اقتربت أميرة التي ترتدي ثوب سهرة رقيقا باللون السماوي وهي تهتف بغيظ: «المجنونة لا تريد الخروج، صرخت في المساعدات وطردتهن من الغرفة لمجرد أن إحداهن قالت لها أنها تبدو خلابة وحتما عريسها لن يكتفي بعقد القران، يا إلهي إنها مجنونة آسر، لا تريد حتى الاستماع لي»

ابتسم آسر بحنان لأخته وهو يرى ضيقها الواضح على ملامحها ليقبّل جبينها وهو يقول: «لا تقلقي سأحدّثها، ساعدي زمرد لأنه يبدو أن يامن لا ينوي تركها في الحال وأنا سأتكفّل بالشعلة آه عزيزتي تبدين جميلة للغاية»

ابتسمت أميرة له بخجل فابتسم على احمرار وجنتيها الذي يجعلها تبدو أكثر جمالاً وهو يحمد الله في سره على عودتها لتمارس حياتها الطبيعية رغم تلك الليالي التي تشوبها ذكريات كريهة تجعل أمير لا يتحرك من غرفتها أبدًا حتى يعيدها مجددًا لهم.

توجه لباب الغرفة وطرقه بهدوء ليسمع صراخها بالداخل: «ابتعدوا أنا لا أريد أن أرى أحدا، لن أتزوج انتهى الأمر»: «غُفران إنه أنا آسر»، تحدث بهدوء وهو يبتسم مُحاولًا تخيّلها خلابة كما هي دومًا ولكن هذه المرة في ثوب سهرة خاص لعقد قرانها التي اشترته والدته نظرا للظروف ولخططهم حتى الآن لا يُصدّق أنه خدعها بالكلام حتى توافق مُستعينًا بمساعدة اللواء وزمرد في إقناعها، أخرجه من أفكاره صوت تحرّك طاولة ليصل لأسماعه بعدها اصطدامها بالباب ليرتفع حاجباه بدهشة وهو يكتشف أنها وضعت الطاولة خلف الباب حتى لا يدلف أحد للداخل فازدادت ابتسامته وهو ينتظر صراخها الذي لم يتأخر وهي تقول: «ابتعد آسر، سأقتلك إن حاولت الدخول، إياك أن تدخل» ناداها باسمها وهو يقترب من الباب ليضع أذنه محاولا الإنصات لما يحدث بالداخل ليسود الصمت مجددًا يتبعه صوتها وقد بدا غريبًا حزينًا خائفًا له مما جعله يشعر بالقلق عليها وهي تقول: «أرجوك آسر لا تدخل لا تجعلنا نعقد القران اليوم، لنؤجله قليلًا أنا لست مستعدة لا يمكن أن.. أنا لن أستطيع أن.. اللعنة»

صراخها بآخر كلمة الذي أتبعه ضربة على الطاولة بقبضتها ليشعر بغضبها الواضح ليجيبها بعد لحظات بهدوء: «حسنًا غُفران، لكِ ما تريدينه ولكن لتزيلي الطاولة أولا من خلف الباب فيجب أن نتحدّث قليلًا»

صرخت بلا ليتنهد آسر وهو يحاول استدعاء كامل صبره حتى يستطيع الدخول لها ولكل حادث حديثه، لمح أميرة تأتي من خلفه لتبعده قليلًا عن طريقها فنظر لها باستغراب لتتسع عيناه وهو يراها ترفع طرف ثوبها وتجلس على الأرض وفي يديها سلك رفيع تحاول فتح الباب به ليقول بعدم تصديق: «ما الذي؟!» ليتوقف سؤاله في حلقه وهو يراها تفتح الباب بسهولة لتنهض وهي تُعدّل من ثوبها لتقول له بغضب مكتوم: «هل ستستطيع أن تتكفّل بالأمر الآن أم أدخل أنا لها لأكسر لها رأسها حتى تستطيع الخروج والنزول للأسفل لاستكمال هذا الزفاف السخيف؟!»
نظر آسر لها مصدومًا من انفعالها وما فعلته مع الباب ليقول بهدوء بعد أن استعاد عقله: «سأدخل لها يكفيني شعلة واحدة في المكان، إن تواجدت شعلتان في نفس

المكان سيتم حرقه على أكمل وجه» ابتعد آسر قليلًا ليهمس بجانب أذنها وهو يقول: «إياكِ وإخبار آدم أن بإمكانكِ فتح الأبواب المُغلقة بسلك رفيع وإلا سأقتلكما معا»

ابتعد عنها وهو يحاول كتم ضحكته على تغيّر ملامحها للارتباك بعد الغضب ليزيح الباب بقوة محاولًا إبعاد الطاولة عن الباب ليدلف للغرفة ويغلق الباب خلفه ليقف مصدوما من هيئة الغرفة والفوضى التي تعم المكان والزجاج المكسور بجانب أدوات التجميل التي حتما تخص المساعدات اللاتي طردتهن الشعلة، ليبحث بعينيها عنها وهو يرى خلو الغرفة منها، شعر بالقلق للحظات قبل أن يقف مكانه وهو يُدقّق النظر لطرف فستان أخضر بجوار السرير ليقترب بهدوء ليقف مشدوها مكانه وهو يرى كومة من قماش أخضر لا يظهر منه سوى شعرها ليدرك إحاطة ذراعها بساقيها ودفن رأسها فيها وخصلات شعرها الثائرة تغطي رأسها بأكمله لتنتهي عند خصرها وهو يراه لأول مرة غير معقود، همسة خرجت منها أخرجته من أفكاره ليبتلع ريقه وهو يقترب بهدوء ليسمع نفس الهمس ولكن بصوت أوضح: «لا تقترب أرجوك».

ابتسم لها بحنان وهو يقترب بهدوء ليجلس على الأرض بجوارها وهو يترك مسافة بينهما بعد أن لمح ارتعاش جسدها بأكمله. ناداها لتشدد من احتضان ساقها ودفن وجهها وهي تقول بصوت مكتوم: «ارحل أرجوك، أنا لن أستطيع» سألها بهدوء: «لن تستطيعي ماذا؟!» صمتت لتقول بصوت مُرتجف: «لن استطيع أن أرى تلك النظرات في عينيك» سألها باستغراب: «أي نظرات؟!» طال صمتها هذه المرة لتقول بصوت هامس: «نظرات الرغبة التي قالت عنها تلك السيدة بعد أن أخبرتني بأنني أبدو فاتنة في هذا الثوب وأنك لن تكتفي بعقد قران فقط وستحوله لزفاف، وأنا لن أتحمل أن أرى في عينيك نظرات رغبة شبيهة لنظرات شبيهة لجاكلين أخبرتني أنه آخر اختبار لي لأكون بخير لكنني لست مستعدة لخوضه الآن»

ارتعش جسدها ليتأوه بألم داخله وهو يفهم مقصدها، يفهم خوفها، يفهم عدم ثقتها الكاملة بمشاعره، يفهم جيدا وغير غاضب منها لتشبيهها له بذلك الحقير، وحده يفهمها، يفهم أنها عاشت لتسعة وعشرين عاما في جحيم، عاشت وحيدة، يتيمة رغم وجود الأم، يفهم أنها لم تُجرّب يوما أيا من المشاعر الجيدة سوى مشاعر الحماية والدفاع عن أخواتها، يفهم جيدًا أنها فقط مجرد فتاة لم تجرب يومًا المشاعر النبيلة كالحب ولم تؤمن بها من قبل، مجرد طفلة تشتاق لكل ما هو جميل ولكنها خائفة من الحصول عليه لقلة خبرتها عن كيفية التعامل معه.

ابتلع ريقه بصعوبة وهو يشعر بمشاعر جياشة لها، مشاعر احتواء، مشاعر حب صاف، مشاعر بالفطرة داخله تجاهها كأنها ابنته قبل أن تكون حبيبته، تنهد طويلًا قبل أن يتحدث بهدوء: «غُفران انظري لي»، هزت رأسها بالنفي ليكرر طلبه وهو يقول لها: «كوني شجاعة وانظري لعيني لتتأكدي من النظرات التي أنظر بها إليكِ».

ارتعش جسدها وشعر بالأمل وهو يراها تجاهد لترفع رأسها ببطء لتُديرها له ثم لحظات وهو يتابعها بهدوء ويلمح ارتعاش شفتيها لتلتقي أخيرًا عيناه بعينيها، رق قلبه لمرأى دموعها، رق قلبه وهو يرى بوضوح تلك الطفلة اليتيمة التي وجدت نفسها في يوم وليلة بثوب سهرة من أجل عقد قرانها، رق قلبه لها وهو يراها تنظر له بانبهار بينما كانت هي في عالم آخر من المشاعر، بعد كل الخوف الذي ملأ قلبها، بنظرة واحدة فقط منه شعرت بالأمان مجددًا وهي تراه ينظر لها بتلك المشاعر التي تؤسر قلبها، مشاعر صادقة تخلو من الشهوة، مشاعر تدل على حب صادق نقي ولدهشتها أن هذا الحب كله لها، اتسعت عيناها وهي تراه يجلس على مقربة منها ويرتدي بدلته الرسمية، شعرت بالانبهار وهي ترى ذلك المزيج من الحنان والأمان والحب مع مزيج من القوة والوسامة والملامح البشوشة.

اتسعت ابتسامته وهو يرى تدقيقها في ملامحه ليقول بهمس: «هل أبدو جذابًا لتلك الدرجة؟!» رمشت بعينيها أكثر من مرة وهي تحاول استيعاب جملته بينما تحاول السيطرة على مشاعرها لتشيح بأنظارها عنه وهي تنهض بقوة من مكانها

لتقف بعيدًا عنه ليزداد تنفسه وتلمع عيناه بانبهار تام لمرآها أمامه بهذا الجمال الخلاب وقد أحسنت والدته اختيار الثوب المناسب لشعلته.

القمر أجمل في حضرتها، الكون كله يصغى لإيقاع أنفاسها وأنا مفتون بها جدا

أيمن العتوم

ارتعشت مكانها وهي تفرك يديها بقوة بعد أن لمحت مكوثه على الأرض بدون حراك بينما ينظر إليها بانبهار لتلمحه ينهض ببطء وهو يحاول أن يحافظ على انتظام أنفاسه ليقول: «سأكون كريما عنكِ وأخبركِ أنكِ تبدين خلابة اليوم يا شعلة، رغم لون الثوب الهادئ إلا أنه لم يطفئ الوهج الذي يحيط بشعلتي»

احتقن وجهها بالغضب وكادت أن تجيبه لتلمحه يقترب منها وهدوء غريب يرتسم على ملامحه وهو يقول: «شعلتي الخلابة الجميلة الشجاعة القوية، والأهم الحنونة التي لن تتأخر لحظة عن حماية من تحبهم والوقوف بجانب من يحتاجها منهم»، وقف أمامها وهو ينقل بنظراته على هيئتها ليبتسم بحنان وهو يكمل: «مالكة قلبي من ستكون زوجتي التي سأكتفي بعقد قراني عليها حتى ترغب هي في إتمام زواجنا التي سأحميها من نفسي التي سأدافع عنها لآخر نفس بعمري».

تساقطت دموعها مجددًا وهي تنظر للأرض بحرج ليبتسم لها بحب وهو يمد يديه ليلمس ذقنها فيرفع وجهها مجددًا ليسمعها تقول بحزن: «آسفة لم أقصد أن أشبّهك ب...» قاطع حديثها بابتسامة وهو يقول: «أعي مقصدكِ غُفران، وأعلم كل ما يجول بقلبكِ وعقلكِ وروحكِ، منذ متى كُنّا نبرر لبعض ما بداخلنا؟!»

ابتسامة صغيرة زيّنت ثغرها ليبتسم لها بحب وهو يقول: «والآن على العروس أن تستعد من أجل إتمام عقد القران فالشعب بأكمله في انتظارنا بالأسفل» ازدادت ابتسامتها ليضحك وهو يسمعها تقول: «نعم في انتظار العروس الحمقاء التي أغلقت الباب على نفسها وطردت كل من بالغرفة» ليقول لها: «بل في انتظار شعلتي التي ستكمل ما بدأناه معًا» نظرت له وقد أدركت مغزى كلامه لتعتذر مجددًا وهي

تنظر حولها للفوضى التي بالمكان لتعقد حاجبيها بضيق وهي تقول: «أنا لن أضع تلك الألوان الحمقاء»

نظر لما تشاور عليه ليعي مقصدها عن أدوات التجميل ليضحك قائلًا: «حسنًا دعينا نحل هذه المشكلة»

نقل أنظاره للأدوات التي تشغل الطاولة أو بالأدق ما تبقى منها ليقترب منها بعد أن لمح طوق من الورود ليأخذه هو فرشاة الشعر ثم عاد مجددًا لغُفران التي نظرت له باستغراب ليقول بابتسامة: «لتذهب أدوات التجميل للجحيم، دعيني أعتني بشعرك فقط» استدار خلفها ليبدأ بترتيب شعرها لتقول بخجل: «لا داعي لذلك سأفعل أنا» ليجيبها بابتسامة حنونة: «توقفي عن الحركة»

سكنت مكانها وهي تشعر بملمس يده لرأسها بحنان بينما تابعته في المرآة أمامها وهي تراه يسترعي انتباهه الكامل أثناء ترتيب شعرها فدمعت عيناها لفعلته وهي تشعر به كأب لها بالفعل، لمحته وهو يضع طوق الورد أعلى رأسها لتنبهر بهيئتها الجديدة وكم بدت مختلفة بطريقة جميلة وشعرها مجموع على كتف واحدة والورود تزينه.

«الآن العروس جاهزة» التقت عيناهما بعد أن قال جملته لينظر لها بكل حب جعلها تبتسم له باطمئنان.

اغرق بعينيها إن سنحت لك الفرصة، ماذا كسب الناجون؟!

«سبحان الخلاق»

تجمّدت مكانها بعد سماع همسه لترمش بعينيها للحظات وهي تراه أمامها مُرتديا بدلته الأنيقة وهو حليق الذقن فبدا أكثر جاذبية بينما ينظر لها بانبهار، نظرت للأسفل بحرج وهي تشيح بعينيها عن نظراته ليهمس لها: «خفت بأن تكوني العروسة الرافضة للزواج خاصة بعد رفضكِ رؤيتي منذ عودتكِ ولكن وحدها الساحرة الشريرة من تثير المشاكل»، ابتسمت وهي تسمع منه كلامه عن غُفران لتجيبه بهدوء: «إنها فقط خائفة» سألها وهو يرى ابتسامتها الصغيرة: «وأنتِ؟!»،

ساد الصمت للحظات لتجيبه: «كيف أخاف وأنت هنا؟!» تأوه باصطناع وهو يقترب منها خطوة ليحيط كفها بين يديه وهو يضحك: «تجيدين استخدام الكلمات يا أستاذة» اتسعت ابتسامتها وهي تنظر لكفها الذي اختفى بين يديه ليقشعر جسدها من لمسته الحنونة وهمسه وهو يقول: «أنتِ عروسي، يا الله كم حلمت بهذه اللحظة».

ارتعش جسدها لمشاعره التي ظهرت في كلماته لتقول بحرج: «يامن يجب أن تنزل للأسفل فلا يصح وقوفنا هنا هكذا» حانت منه ابتسامة وهو يرى تضرج وجنتيها ليجيبها: «حسنًا يا أستاذة لن أسبب المزيد من الإحراج كما أن صغيرتك قادمة باتجاهنا الآن»

رفعت عينيها لترى أميرة تقترب منهما بابتسامة لتعيد أنظارها له وهي تحاول جذب كفها من بين يديه ولكن بلا جدوى لتقول: «حسنًا والآن هل بإمكاني استعادة يدي؟!» ابتسم لها وهو تائه في زمرد عينيها ليقول: «ذات يوم وعدت حبيبة لي بأنني لن أترك يديها أبدا ففي كل مرة أترك يديها أخسرها للأبد، وأنا لست مستعدًا أبدًا لخسارتك».

ابتسمت له بحنان وهي تقول: «لم أكن لأهرب أبدا اليوم يامن، لا من أجل ما خططنا له فقط بل لم أكن لأهرب منك لأنني لا أريد، وأنت لن تسمح لي أيضا، أنت ستترك يدي الآن لدقائق فقط ثم ستحصل عليها لتبقي معك للأبد» سألها باهتمام: «للأبد؟» أجابته بابتسامة صافية: «للأبد يامن»

مر عقد القران على ما يرام بداية برحاب وسليم الذي لم يتوقف عن الاعتراف لها بحبه بينما هي خجلة غير مُصدّقة أنها الآن زوجته ثم زمرد ويامن الذي قبّل جبينها بحب وهو يقول: «أحبكِ فؤادي» ثم في النهاية آسر وغُفران الشاحبة الوجه التي التزمت مكانها ولم تقم منه بعد أن لمح آسر جمود ملامحها، تلقّى التهنئة من اللواء حسين الذي كان وكيلها ثم اقترب منها وهو يمسك كفيها الباردة ليرفعهما لفمه وهو يكتف بتقبيلهما قائلا بهمس وصلها: «مُبارك لي يا عروسي»

مر بعض الوقت وهم يتقبَّلون التهنئة من عائلتهم حتى جذب آسر غُفران للشرفة خارج الصالة، خرجت معه بصمت ليقف أمامها ويسألها بقلق: «حسنًا أخبريني ما الأمر؟» رفعت رأسها لتسأله بشرود: «ماذا؟!»

تحدث بهدوء وهو يمسك كفها بحنان: «منذ أن سجلتِ توقيعك على الورقة وأنت صامتة، شاحبة» هزت رأسها وهي تحاول جذب كفها من بين كفيه لكن دون جدوى لتجيبه بهدوء: «ليس هناك شيء» صمت آسر ليقرّبها منه وهو يحيط ظهرها بذراعه ليقول بهمس: «غفران أنا أعي جيدًا حالتكِ حين يكون هناك شيء أو لا شيء، وأنا على يقين إن حدث شيء أعادك لأحزانك ما هو؟»

ارتعشت مكانها وهي تجيبه بعد صمت دام للحظات: «حينما وقعت اسمي غفران ممدوح أدركت أن وجوده سيظل مرتبطا بي طوال العمر، لكن ما آلم قلبي ليس هذا الأمر بقدر معرفتي أن في هذه اللحظة هناك أب يحيا حياته بطبيعية لا يعلم أنه ترك بذرة في رحم إحداهن ولا يعلم أن تلك البذرة ستموت في سبيل نظرة حب منه، تضحي بحياتها من أجل نظرة حنان يرسلها الآباء لأطفالهم، ترى إن كان يعرفني هل كان ليتقبّلني عكس السيدة سميرة، هل كان ليحبني آسر؟!» انتفض قلبه وهو يرى الدموع بعينيها ليقرّبها أكثر منه حتى أسند جبينه بجبينها ليقول بحب: «لا أعلم غُفران، لكن ما أنا مُتيقّن منه أنني إن كان لدي ابنة تُشبهك وتحمل حنانكِ ومشاعركِ لكان شرف وفخر لي بأن أكون أباك فأكرمني الله بشرف أن أكون زوجك يا زوجتي المصون: «دمعت عينيها وهي ترفع رأسها لتنظر إليه لتسأله كطفلة صغيرة تتأكد من حب من حولها: «حقًا!»

ابتسم لها بحب وهو يقول حقًا حقًا»

ابتلعت ريقها وهي تتنهد لتكمل بشرود: «هل تعلم شيئًا ربما لا يعرفه أحد ولا أعلم لمَ أخبرك ولكني أشعر بالحاجة للبوح به، ذلك اليوم عندما سألتني السيدة سميرة هل سأموت يا غُفران، تألم قلبي للحظات وأقسمت بداخلي إن طلبت مني المساعدة فسأتبرع بنخاعي وجسدي كله لها ولكن شعرت بالغضب عندما ذكرت أمر الأشخاص الذين يختطفونهم من أجل بيع وشراء الأعضاء وهي تفكر بهم

كعلاج لمرضها، آلمني أنها ذكرت هذا الأمر ليضيع كل ذرة ألم تخصها بداخلي، وعندما أردت إعطاءها فرصة لتتذكر أنني ابنتها فربما تطلب مني أن أتبرّع أنا دون الحاجة لأحد أخبرتني بقسوة عن ندمها لحملي في رحمها لتسعة أشهر وأنها كانت على خطوة لتجهضني لولا ممدوح تخيل! أنا مدينة له بأنني حية الآن مما يزيد من كرهي له فلولا مخططه ما كان لي وجود»

قالت جملتها الأخيرة بتهكم فأجابها بصدق: «لم أظن يومًا أنني سأقولها ولكنني مُمتن بشدة له لأنه منعها من الإجهاض فلا أتخيل حياة أميرة بدونكِ وكما أنني ممتن بشدة لكل تلك الأحداث السيئة التي تمر بنا»

رفعت رأسها ونظرت له باستغراب ليجاوب تساؤلها: «فلولاها لما رغبتِ بالذهاب لتلك الطبيبة وما تحدثتِ معي بأريحية عما تكتمينه بداخلك» أجابته: «أنت تعرف أنني أبوح لك بما بداخلي قبل حتى أن تطلبه مني، حتى جاكلين لا تعرف ذلك».

بعد نصف ساعة

تبادلوا التهنئة من الضيوف بينما حركة مُضطربة عند طرف القاعة جذبت انتباههم لتلمح غفران إقبال مدير الأمن ورئيس الأمن الوطني ومعاونه باتجاهها، التفت آسر لما تنظر إليه ليصل لأسماعه همستها: «ها نحن نبدأ»

«سيدة غفران يجب أن تأتي معنا الآن، فهناك أمر مهم نحتاج للحديث به معك»

كادت أن تجيبه حين وصل لأسماعهم همسات الحضور وهم مُمسكون بهواتفهم الشخصية يتابعون أمرًا ما عليه، التفتت باستغراب وهي تسأله: «ماذا هناك؟!» تحدث مُعاون مدير الأمن الوطني وهو يقول: «ستعرفين كل شيء حال قدومكِ معنا أنت والسيدة زمرد والآنسة أميرة»

نظرت له بدهشة حين لمحت قدوم زمرد شاحبة الوجه وبجانبها يامن القلق بينما كانت أميرة بجوار آسر تتابع الأمر بصدمة، تحدث يامن بقلق وهو ينقل أنظاره بينهم: «سيدي ما الأمر لمَ طلبتم حضورنا الآن؟!»

أجابه بهدوء: «من فضلكم لا المكان ولا الوقت يساعدنا فمن الأفضل قدومكم معنا بهدوء وكلامي بالطبع لغفران وزمرد وأميرة» تحدّث آسر وهو يقبض على كف أميرة في يد بينما يده الآخر في يد غفران: «كما قلت سيدي لا المكان ولا الزمان يسمح بما تريدونه فكما ترون هذا حفل زفاف وأنتم تطالبون برحيل كلا العروستين معكما فعلى الأقل نريد توضيحا للأمر» تنهّد مدير الأمن وصمت قليلًا قبل أن يقول: «سيد يامن ربما من الأفضل أن تنهوا الحفل بهدوء ونحن في انتظاركم، وهذا لمصلحتكم الشخصية أولا وسلامتكم».

هز يامن رأسه بالموافقة وهو يعي أن هناك أمرا طارئا بل هو خطر.

بعد ساعة

نظرت أميرة للزجاج الذي يخفي ما خلفه في غرفة الاستجواب التي تركوهن فيها وهي تتنهد بملل: «هل سنبقى هنا كثيرًا؟» نظرت زمرد لغفران الشاردة وهي تشعر بقلق غريب عليها منذ عقد قرانها سألتها بهدوء: «غفران هل أنت بخير؟!» أجفلها سؤال زمرد فنظرت لها للحظات كأنها لا تعي أين هي أو ماذا تقوله زمرد لها، فرمشت بعينيها وهي تنظر لها ثم لأميرة التي استدارت توليها اهتمامها وكادت أن تبوح بمخاوفها حين فتح الباب ودلف رجلان أحدهما كان ينظر لهن ببهجة لم يستطع إخفاءها بينما الآخر كان ينظر لهن بارتياح وفخر لتلك التي وقفت أمامه، تحدث النقيب سامي: «أنتن أحرار الآن» بينما اقترب اللواء حسين منها وهو يقول: «لقد فعلناها يا غُفران، الآن العالم كله يعرف، لقد تم القبض على الوغد، كان في طريقه لطائرته الخاصة، لكن قواتنا كانت بانتظاره، هو حتى لم يبق ليفكر في من كشف أسراره، أنتن بخير الآن».

شعرت كأن هناك غمة قد انزاحت من على صدرها لتتنهد بارتياح وهي تقول: «هل يمكنني رؤية الفيديو كاملًا؟!» فتح النقيب سامي هاتفه ليعطيها لها لتشغل الفيديو.

رسالة مصورة ابتدت بكلمات تم كتابتها بوضوح لتفصح عن حقائق لم يعرفها أحد، ملحقة بملفات مفقودة من أمن الدولة أو ظن أصحابها أنه تم حرقها مع ما

احترقت كشفت أسرارا تضم رجلا احتل منصبا عاليا في القوات المسلحة وخدع الكثيرين بهيئته وتاريخه الذي يبدو أنه لم يكن إلا غطاء لأعماله الفاسدة، ملفات أخفاها بنفسه حوت أدلة تدينه وتدين من عمل معهم سواء داخل مصر أو خارجها مع اليهود بفلسطين ومع جماعات إرهابية بليبيا وأخرى بإثيوبيا.

منظمة كان هو عضوا مهما بها وطرفا مُقربا لزعيمها، منظمة من أعمالها تجارة الأعضاء بالسوق السوداء والمخدرات وتهريب السلاح وأخيرا وليس آخرا تجارة البشر خاصة النساء والأطفال، منظمة استمرت لأكثر من ثلاثين عاما ليمتد فرع جديد لها في مصر خاصة بمدينة العريش، قواتنا كانت هناك دومًا تقاتل أشباحا مجهولي الهوية، يقاتلون عدوًا لا يعرفون الكثير عنه، خسروا العديد من إخوتهم دفاعًا عن وطن لطالما تمنّوا أن يصير من أفضل الأوطان.

ما ترونه هي خطوط أوصلت في النهاية للقضية التي قلبت الرأي العام بمصر منذ سنة لتتوالى بعدها الصدمات فيما يحدث ببلدنا.

لكن بمساعدة رجالنا الشرفاء استطاعوا القضاء على تلك العصابة نهائيًا ليتتبعوا الطرف الذي أوصلهم لنقطة تكاد توحي بنهاية الأمر بأكمله ليصلهم الأدلة الأخيرة بهذا الفيديو المصور الذي يحتوي على العديد من الملفات المُصورة سواء وثائق أو تسجيلات صوتيه ومصورة لعمليات بيع وشراء وتجارة أعضاء وعمليات جراحية مصورة لاستخراج أعضاء من أجساد مختلفة لرجال ونساء وأطفال، وأخيرًا تسجيلات مصورة للاتفاقات التي دار بين رجل كبير بوزارة الداخلية مع آخر بوزارة الخارجية وهما يتفقان على تدمير البلد والاستفادة من وراء منصبيهما.

تسجيلات أثبتت بسهولة التهم على المُتهم الحقيقي والرئيسي بالقضية وهو اللواء سامح راغب الذي تم القبض عليه منذ سنة، ليموت قبل محاكمته في سجنه مُنتحرًا قبل معرفة الحقيقة منه ومعرفة الأطراف الأخرى بالقضية، ليتم اكتشاف الحقيقة بعد أشهر وقد وصلتنا الأدلة من مصدر مجهول أثبت تورط رجلان ذوا

منصب كبير بالوزارة وأحدهما كاد أن يترشح ليكون رئيس وزراء بعد أشهر، لقد خططا لكل شيء باعثين الفساد في جميع أنحاء وطننا العزيز، والأدلة الأخيرة أثبتت تواصله مع رجل انتشرت أخباره مؤخرًا في قضية هزت العالم بأكمله بعد أن اختطف أكثر من عشر فتيات بأقدار مُختلفة، فمنهم من استغل أعضاءهن ومنهن من استغل أجسادهن ومنهن من كن كنوزا كما قال لعمليات تجارة البشر، اليوم نكشف لكم الجانب المظلم من رجال باعوا وطنهم وخسروا فأنصتوا جيدًا»

لقد انتهى الأمر غُفران، نظرت غُفران حولها وهي تلمح حركة سير السيارات برتابة بينما كل شخص يسير في طريقه الذي يوصله لهدفه غير عابئ بما يدور مع غيره، كم تخفي الأجساد ما في الأرواح وما في القلوب، كل شخص يعيش حياته الخاصة جاهلا بما يصير في حياة غيره ولم يره.

أجابتها بشرود: «هل انتهى حقا؟! ربما انتهى معنا زمرد ولكن هل انتهى فعلا! هل هناك أخريات مثلنا؟! هل هناك من لم يقع تحت سيطرة الاستسلام؟! هل هناك من واجه خوفه ولم يخضع له فتمرد فنهض بقوة ليقاتل فرفض الواقع؟! هل هناك من اكتفى بالأذية التي نالها في حياته فقرر أن يحيا أخيرا؟!

الأمر مخيف أن تعي بأن هناك من يعاني، هناك من لم يكتشف نقطة قوته بعد، هناك من يتمنى الموت! هل سيحصلون على حريتهم كما حصلنا عليها؟! هل سينقذون أنفسهم قبل فوات الأوان قبل أن يتشعّب الألم في أرواحهم! هل انتهى الأمر حقا؟! لا أظن ذلك زمرد طالما هناك أشباه ممدوح وسامح وغيرهم فالأمر لن ينتهي أبدًا.

ربتت زمرد على كتفها بحنان وهي تقول بابتسامة: «أنتِ مخطئة عزيزتي طالما هناك أشباه غُفران ويامن واللواء حسين وعمران وآسر وغيرهم ممن يقدمون المساعدة دون مقابل ويسعون دائما لطرد الشر فالأمر سينتهي حبيبتي لندعو فقط ألا يطيل الوقت قبل انتهائه» التفتا على صوت خلفهما لتجد غفران اللواء حسين ينظر لآسر بنظرة وهو يقول: «أخبرها أنت»

تحدّث آسر بارتياح: «لقد أصدر رئيس الجمهورية قرارًا بأن يتم التحقيق في ما حدث وقرر أن تبدأ حملة في العريش وما يحيطها من بلاد بالتيّقن من نسب العائلات هناك بالوثائق القانونية، وانتشرت القوات هناك من أجل التأمين على ذلك، لن يبقى هناك منزل مجهول نسب من فيه يا غُفران، لقد فعلت شيئًا عظيمًا، لقد ساعدتِ الكثير من الأشخاص ولربما فعلتكِ هذه أنقذت الكثيرين غيركِ»

نظرت غًفران لزمرد غير مُصدقة لتبتسم لها بحنان وهي تقول: «هل ترين؟! لقد أخبرتكِ هناك أمل دومًا طالما هناك خير، رحمة الله بنا كبيرة يا حبيبتي»

دمعت عين غًفران غير مُصدقة ما يحدث لتبتسم بين دموعها وهي تلتفت لتشكر اللواء حسين بشدة قبل أن يسلّم عليها ويتركها ثم التفتت لآسر لتقول له دون مُقدمات: «أظن أنني مستعدة الآن لأبدأ معك حياة جديدة دون أي مخاوف»

كما للآخرين سماء وبيت، لي امرأة

أنسي الحاج

انتهت